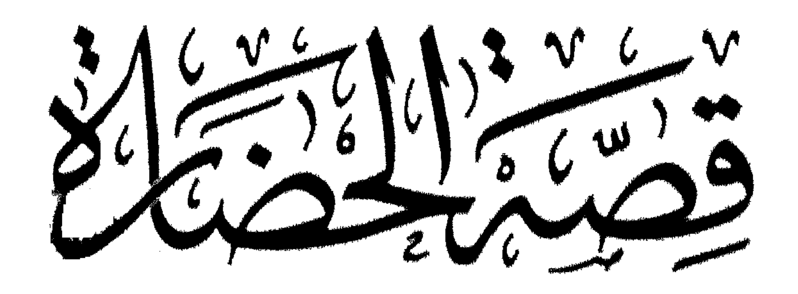


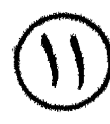
ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الثالث


بيروت




تونس

الكتاب الرابع

الامبراطورية

١٤٦ ق. م — ١٩٢ م

جدول بالحوادث التاريخية

مرتبة حسب تواريخها

ق . م

١٢٠٠	الكلت الجيد ليون يغزون إنجلترا .
٩٠٠	الكلت البريثونيون والبلچيون يغزون إنجلترا .
٣٥٠	بيثياس المرسيلي يرتاد بحر الشمال .
٢٤٨	بداية الأسرة الأرساسية في بارثيا .
٢٤١ — ١٠	صقلية تصبح ولاية رومانية .
٢٣٨	الاستيلاء على سردينية وكورسكا .
٢١١ — ١٩٠	أرسيس الثاني ملك بارثيا .
١٧٠ — ٣٨	مثرداتش الأول ملك بارثيا .
١٦٨	الاستيلاء على مقدونية .
١٦٨	إليريكم .
١٤٦	آخية ، « أفريقية » ، إبيروس .
١٤٥ — ١٣٠	بطليموس السابع .
١٣٥ — ١٠٥	يوحنا هركانس ، ملك اليهود .
١٣٥ — ٥١	بوسيدونيوس .
١٣٣	أتلس الثالث يوصي لرومة ببرجم .
١٢٤ — ٨٨	مثرداتس الثاني ملك بارثيا .
١٢١	چاليانا ربننس .
١١٢ — ٥	الحرب الجوجرثية .
١١٠	فيلو البيزنطي ، العالم الطبيعي .
١٠٤ — ٧٨	الكسندر جانيوس ملك اليهود .
١٠٢	قليقية ؛ بمفيليا .
٨٨ — ٤	الحرب المثرداتية الأولى .
٨٨	مذبحة الرومان في الشرق الأدنى .
٨٣ — ١	الحرب المثرداتية الثانية .
٧٨ — ٦٩	الكسندره ، ملكة اليهود .
٨٦	تموماكس البيرنطي ، المصور
٧٥ — ٦٣	الحرب المثرداتية الثالثة .
٧٤	بثينيا .
٧٤ — ٦٧	قوريني وكريت .

ق . م

٦٩ — ٦٣ أرستو بولس الثانى ملك اليهود .
٦٤ سوريا .
٦٣ بنتس وبلاد اليهود تصبحان ولايتين رومانيتين .
٦٣ — ٤٠ هركانس الثانى ، ملك اليهود .
٥٨ قبرص .
٥٨ — ٥٠ قيصر يفتح غاله .
٥٥ — ٥٤ قيصر فى بريطانيا .
٥٠ هيرو الإسكندرى ؛ مليجر الجدرانى .
٤٦ نوميديا .
٤٠ البارثيون يغزون سوريا .
٣٧ — ٤ هيرود الأكبر .
٣٠ مصر .
٢٥ جلاتيا .
٢٥ — ٤ حملة إيليوس جالس على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .
١٧ الأستيلاء على ألمانيا العليا والسفلى
١٥ نوركم ، ريتيا .
١٤ جبال الألب البحرية .
١١ موسيا .
٧ وما بعدها : استرابون الجغرافى .
٤ ؟ مولد المسيح .
٤ق . م — ٦ م : أكلوس ملك اليهود ، هيرود انتيپاس ، تترارك الجليل .
١٧ م كپدوكيا .
٤٠ موريتانيا .
٤٣ بريطانيا .
٤٧ ثورة كركتاكس .
٥٠ ديوسكريدس ، الصيدلى .
٥١ ٦٣ حرب پارثيا وروما .
٥٥ — ٦٠ كربولو يخضع أرمينية .
٦١ ثورة بودكا .
٦٤ جبال الألب الكتية .
٧٠ — ٨٠ فتح الرومان البلاد ويلز .
٧٧ — ٨٤ أجركولا حاكم بريطانيا .
٧٢ انقراض الأسرة السلوقية .
٨٩ أفلوطرخس فى رومة ;
٩٠ إبكتتس .

٩٥ ديوكريسسم .
١٠٠ أبلودورس الدمشق ، المهندس المعارى .
١٠٥ بلاد العرب الشمالية .
١٠٧ داشيا .
١١٤ أرمينية ، أشور ، أرض الجزيرة .
١١٥ سورانس الإفسوسى ، الطبيب .
١١٧ هدريان يتخلى عن أرمينية وسورية .
١٢٠ مارنيس الصورى الجغراف .
١٢٢ سور هدريان فى إنجلترا .
١٣٠ إيليا كپتو لينا تشاد فى موضع أورشليم ، بثون الأزميرى العالم الرياضى ، أريان النقوميدى المؤرخ ، كلوديوس بطليموس الفلكى .
١٤٢ سور انطونينس پيوس فى إنجلترا .
١٤٧ – ٩١ فلوجيسس الثالث ملك بارثيا .
١٥٠ لوشيان ، إيليوس أرستيديز .
١٦٠ جالينوس الطبيب ، پوسنياس الجغراف .
١٩٠ سكستس إمبركس الفيلسوف .
٢٢٧ نهاية الأسرة الأرساسية .

الباب الحادى والعشرون

إيطاليا

الفصل الأول

المدن

فلنقف قليلا عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأناً من مدينة رومة ؛ ذلك أننا قد أطلنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذى استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات ؛ لكن الواقع الذى لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها فى عاصمتها الفاسدة المحتضرة ؛ بل إن ما بقى لهذه الدولة من قوة وحيوية ، وكثيراً مما كان فيها من جمال ، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلى ، إن هذا كله كان فى الولايات وفى إيطاليا ؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن رومة ، وعما قامت به من جلائل الأعمال فى الإدارة والسلم ، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التى كان يتكون منها العالم الرومانى(*) .

قال بلنى الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا : ترى كيف أبدأ هذا العمل ؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان ! — ومن ذا الذى يستطيع أن يحصيها كلها ؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده ! » لقد كان حول رومة وجنوبها إقليم

(*) فى وسع القارئ أن يتتبع هذا الطواف على الخرائط التى فى هذا الكتاب .

لاتيوم ، الذى كان فى بادئ الأمر أمها ، ثم صار عدوها ، ثم هرمها ، ثم جنة من الضواحى والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم .
وكان إلى جنوبى العاصمة وغربيها نهر التيبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرفأين المنافسين لها وهما پورتس Portus وأستيا على البحر الترهينى . وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى ، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدى السمك ، ودور تمثيلها مزدحمة بهم . وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها فى رومة الحاضرة ؛ وقد تحدث عنها سائح من فلورنس فى القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة . وتدل بعض الأعمدة الباقية منها إلى اليوم ، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذى نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة ، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق .

وكان إلى جنوبى أستيا على شاطئ البحر مدينـــة أنتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ، ولكثير من الأباطرة ، وللمحبوبين من الآلهة قصور أو هياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبيض لتستقبل ما يسرى فيه من نسيم عليل . وقد وجدت فى خرائبها التى تمتد نحو ثلاثة أميال ، تماثيل ذات روعة وجمال ، منها تمثال المجالد البرغيزى وتمثال أپلو بلفدير . وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكر « المواطنين العظام » الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحـــد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دببة ضارية[٢] . وكان إلى شمالها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس چوڤنال وأرپينم Arpinum التى كانت تفخر بابنيها ماريوس وشيشرون . وعلى بعد عشرين ميـــلا من رومة كانت تقوم مدينة پرانستى Praeneste القديمة (پلسترينا الحديثـــة Palestrina) ، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفح الجبل ، وحدائقها

تشتهر بوردها ، وقلة جبلها يتوّجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض ، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات . وكانت تسكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن رومة غنية مثلها بالحدائق والقصور ، وفيها وُلد كاتو الكبير ، واحتفظ شيشرون بكتابة « المجادلات التسكيولانية » (*) . وكانت أعظم ضواحي رومة شهرة ضاحية تيبور (ترفولى) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سني أسرها .

وإلى شمال رومة تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعاً : وفيها بلدة بروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها ، وجمل فنانوه فيها قوسا تسكانيا قديما : وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى رومة ، وأخرجت خزفاً للعالم القديم ، وكانت مدينة بيسى Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلا ، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من بيزا Pisa في البلوبونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus . وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلها حق قدره : وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من إتروريا محاجر كرراز Carrara التي كان ينقل منها أجمل رخام رومة إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة : وكانت جنوى من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي . ونسمع من زمن بعيد ، أي من عام ٢٠٩ ق . م ، أن القرطاجنيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس ، وأنها دمرت بعد

(*) ولا تزال فرسكاتى Frascati وارثة تسكيولم ملجأ أثرياء الإيطاليين . وفيها قصور الدبرتديني ، وترلونيا ، ومندرجونى وغيرها .

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت فى كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاء وازدهاراً .

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنورم Augusta Taurinorum التى أنشأها الغاليون التورينيون Touurini Gauls ، والتى جعلها أغسطس مستعمرة رومانية ؛ وفى مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين ، وقد بقى فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت فى يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال . وهنا ينثنى نهر پدوا (الپو) الكسول الذى ينبع من جبال الألب الكتية Cottian ويجرى نحو الشرق مائتى ميل وخمسين ميلا ، ويقسم الجزء الشمالى من إيطاليا قسمين كانا يعرفان فى عهد الجمهورية بغالة ما قبل الپو وغالة ما وراء الپو . وكان وادى الپو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها ، وأكثرها سكانا ، وأعظمها رخاء .

وكان — عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة — ڤربانس Verbanus (مجيورى Maggiori) ، ولاريوس Larius (كومو Como) ، وبناكس Benacus (جاردا Garda) ، التى كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن فى هذه الأيام . وكان يبدأ من كوم ، مدينة پلنى الأصغر طريق تجارى رئيسى يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان) . وقد استقر الغاليون فى هذه المدينة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أضحت فى أيام ڤرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٨٦ صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة . وكانت ڤيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التى تعبر ممر برنر Brenner ، وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظارة . وقامت على نهر البو الملتوى مدينة بلاسنتيا Placentia (بياسنزه

الحديثة Piacenza ، وكرمونا Cremona ، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara — وكانت فى أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغالين .

وكان إقليم فنيشيا يقع شمال نهر البو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق اسمه من الفنيتى Veneti ، المهاجرين الأولين من ألبريا Illyria . ويصف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللائى فى سن الزواج . ويقدّرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها ، ويزوّجونها ممن يؤدى ذلك الثمن ، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالا وفتنة(٤) . ولم تكن مدينة البندقية (Venice) قد نشأت بعد ، ولكن مدناً كبيرة قامت عند پولا Pola على شبه جزيرة إستريا Istria ، وترجستى Tergeste (تريستة Trieste) وأكويليا Aquileia ، وپتفيوم Patavium (پدوا Padua) تتوج رأس البحر الأدرياوى . وقد بقى فى پولا من أيام الرومان قوس نصر فخم ، وهيكل ظريف ، ومدرج لا يفوقه فى الروعة إلا الأصل الذى بنى على نمطه وهو الكلوسيوم . وكان يمتد إلى جنوب نهر البو سلسلة من المدن تبدأ من بلاسنتيا مخترقة پارما ، وموتينا (مودينا) ، وبونونيا Bononia (بولونيا) ، وفافنتيا Faventia (فينزى Faenze) وتنتهى عند أرمنيم .

وهنا عند رمينى Rimini يقوم جسر من الجسور التى لا حصر لها والتى أقامها المهندسون الرومان ، وهو أكثر الجسور احتفاظا بشكله الكامل القديم . وكان الطريق الفلامينى يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الرومانى فى صلابته وسيطرته . ويتفرع منه طريق فرعى يصل بتونيا براڤنا بندقية الأيام الرومانية . وقد شيد هذا الطريق على قوائم فى المستنقعات التى لوثتها عدة أنهار تصب فى البحر الأدرياوى . ويصف استرابون مدينة راڤنا بأن « فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعديات »(٥) . وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدرياوى ، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم فى القرن

الخامس . وقد كان تفوق شمالى إيطاليا على سائر أجزائها فى خصب التربة ، وفى جوه الصحى المنشط الباعث على العمل ، وفى موارده المعدنية ، وفى صناعاته المختلفة المتنوعة ، وتجارته النهرية القليلة النفقة ، كان تفوقه فى هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا فى القرن الأول الميلادى ومن ناحية الزعامة السياسية فى القرن الثالث .

ولم ينشأ على الساحل الشرقى فى جزئه الممتـــد جنوبى أرمنينم وشمالى برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة ، وذلك لأن هذا الساحل صخرى كثير العواصف قليل المرافئ . بيد أنه كان فى أمبريا Umbria ، وبسينم ، وسمنيوم ، وأبوليا ، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدراسة أنقاض بمپى . ومن هـــذه البلدان أسيسوم Assisium مسقط رأس پروپرتيوس والقديس فرانسيس ، ومنها سرسينا Sarsina التى ولد فيها بلوتس Plautus ، وامتيرنم Amiternum مسقط رأس سلست Sallust وسلمو Sulmo التى شهدت مولد أوفد ، وفنوزيا التى شهدت مولد هوراس . ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة پرس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذى أقامه فيها تراچان وهدريان . وقد قص هدريان فى نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المجيدة فى الحرب والسلم . وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبى الشرقى تشرف على طرق الاتصال فى دلماشيا وبلاد اليونان والشرق . وعند « عقب » إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم ، وكانت من قبل دولة — مدينة عزيزة الجانب ، ولكنها لم تكن فى الوقت الذى نتحدث عنه إلا مشتى آخذاً فى الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان . وفى جنوبى إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضى وحولوها إلى مراع للماشية ؛ ففقدت المدن من تعتمد عليهم من المزارعين ، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال ، وأفل نجم العشائر اليونانية التى كانت تنفق أموالها بسخاء فى الأيام السابقة ، وذلك بسبب تسرب

القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية ، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطء محل اللغة اليونانية . وفى « إصبع » إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيو Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح . وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية . وعلى الشاطئ الغربى كانت تقوم ڤيليا Velia ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا ، وحين كان يتردد فى جنباتها أصداء أشعار پرمنيدز وزينون وأقوالها المتناقضة الخبيثة . وقد بدلت الجالية الرومانية التى استعمرت پوسيدونيا اسم هـذه البلدة فجعلته بيستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة . وكان أهلها اليونان فى الوقت الذى نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون فى الدم « البربرى » — الإيطالى فى هذه المرة — الذى كان ينصب فيها من الريف القريب منها : ولم تبق الحضارة اليونانية حيـة فى إيطاليا إلا فى كمپانيا .

وكانت كمپانيا — المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بناپلى — من الناحية الجغرافية جزءا من سمنيوم . أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالما مستقلا بنفسه ، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من رومة ، وكانت قوية من الناحية المالية ، جمعت فى رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والمنافسات الأدبية ، والازدهار الفنى ، والألعاب العامة المثيرة . وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم فى إيطاليا ، وكان يصدر منها النبيذ السرنتى Surrentine والفالرنى Falernian الذائعا الصيت ، ولعل ڤارو Varro كان يفكر فى كمپانيا وهو يتحدى العالم بقوله : « يامن ضربتم فى أرضين كثيرة ، هل رأيتم فيها أرضاً زرعت أحسن من أرض إيطاليا ؟ ... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم ؟ »(٦) . وفى طرف كمپانيا الجنوبى شبه

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة فى البحر من سالرنم Salernum إلى سرنتم Surrentum . وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال ، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطىء البحر . وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento فى هـذه الأيام ، وقد لقبها پلنى الأكبر بأنها « بهجة الطبيعة » التى حبتها بكل ما لديها من هبات(٧) ؛ ويبدو أنه لم يكد يتغير فيها شىء فى خلال ألفى عام ، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة ، وأن آلهتهم فى هذه الأيام هى آلهتهم فى الأيام الخالية ؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له :

وكان فى مواجهة هذا اللسان البارز فى البحر جزيرة كپريا Capraea (كاپرى Capri) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات . وكان بركان ڤيزوف المطل على الشاطىء الجنوبى للخليج يرسل دخانه فى السماء ، بينما كانت پمپى وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات الحمم . ثم تلى هاتين المدينتين نيوپوليس Neopolis « المدينة الجديدة » أكثر بلاد إيطاليا اصطباغاً بالصبغة اليونانية فى عهد تراجان . وفى وسعنا أن نتبين من كسل نابلى فى هذه الأيام مدى انهماكها القديم فى الحب واللهو والفن . لقد كان أهلها إيطاليين ، ولكن ثقافتهم ، وعاداتهم ، وألعابهم كانت كلها يونانية . وكان فيها هياكل ، وقصور ، وملاه جميلة ؛ وكانت تقام فيها مرة فى كل خمس سنين مباريات فى الموسيقى والشعر نال استاتيوس فى واحدة منها جائزة . وفى الطرف الغربى من الخليج كان ثغر بتيولى Puteoli (پزيولى Puzzuoli الحديثة) التى اشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية(٨) . وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة رومة وبفضل مصنوعاتها الحديدية ، وخزفها ، وزجاجها . وكان فيها مدرج تدل ممراته التى تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التى كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجتلد . وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولى كانت تتلألأ قصور بايا Baiac التى

يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر . هنا كان يلهو قيصر وكلجيولا ونيرون ، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرثية يأتون ليستحموا فى مياه عيونها المعدنية . وكانت المدينة تجنى فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقى ؛ وهاهو ذا ڤارو Varro يقول إن فتياتها كنّ ملكاً مشاعاً ، وإن كثيرين من فتيانها كانوا بنات[٩] ، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلله عار لا يمحى أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة[١٠] . ويقول سنكا متسائلا : « أتظن أن كاتو كانت تحدثه نفسه بأن يقيم فى قصر ملىء بأسباب اللهو والسرور ، يستطيع وهو فيه أن يحصى عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللائى يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان ، والورود التى تتمايل حول البحيرة ؟ »[١١] .

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا ، فى فوهة بركان خامد ، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تبعث فى الجو دخاناً كبريتياً بلغ من قوّته أن وصفته الأساطير بقولها إنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً ؛ وكان بالقرب من الكهف الذى شقّ فيـــه إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء فى ملحمة فرجيل .

وفى شمال البحيرة كانت مدينة كومى Cumae القديمه ، وكانت قد أخذت تحتضر فى ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها ابنتها مدينة نيوپوليس التى كانت أكثر منها جاذبية ، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولى واستيا ، ولتقدم الصناعة فى كپوا Capua . وكانت كپوا تبعد عن شاطىء البحر فى الداخل نحو خمسين ميلا وتقوم فى إقليم خصيب كان ينتج فى بعض الأحيان أربع غلات فى العام[١٢] ، ولم يكن فى إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد . وقد جازتها رومة على مساعدتها هنيبال جزاء أضرّ بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها ، ووصفها شيشرون

فى خلالها بأنها « مسكن من ماتوا سياسيا »[١٣]. وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بآلاف من المستعمرين الجدد ، وأضحت فى أيام تراچان مدينة مزدهرة مرة أخرى .

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التى كانت قائمة فى إيطاليا القديمة والتى سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء . ولشد ما نخطئ إذ نظن أنها مجرد ألفاظ على خريطة ، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفى الحس يجدّون فى طلب الطعام والشراب ، والنساء والذهب .

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقتنص من آثارها التى احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة فى تلك الشوارع القديمة .

الفصل الثانى

بمپى

كانت بمپى إحدى البلدان الصغرى فى إيطاليا ، وقلما يرد لها ذكر فى الآداب اللاتينية إلا إذا ذكر حساء سمكها المتبل ، وكرنبها ، ودفنها تحت الرماد البركانى . وقد أنشأها الأسكانيون Oscans ، ولعلها تضارع رومة فى قدم عهدها ، وسكنها مهاجرون من اليونان ، واستولى عليها سلا ، وجعلها مستعمرة رومانية ، ودمر بعضها زلزال فى عام ٦٣ م . وكان بناؤها لا يزال يجدد فى الوقت الذى دمرها بركان ڤيزوف مرة أخرى . فقد ثار هذا البركان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م . وقذف من فوهته رماداً وصخوراً فى الهواء وعلته ألسنة من اللهب . وانهمر فوقها مطر غزير فاستحالت المواد التى قذفها البركان سيلا جارفاً من الطين والحجارة حط على بمپى وهركيولانيم ، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاهما بطبقة يبلغ سمكها ثمانى أقدام أو عشر . وظلت الأرض تزلزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار والليلة التى أعقبته . فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل[١٤] ، واختنق مئات من الأهلين بالتراب والدخان ، وثارت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر . وكان پلنى الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربى عند ميسينم Misenum القريبة من پتيولى . وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلدة وطلبهم النجدة ، كما تأثر برغبته فى مشاهدة هذه الظاهرة عن كثب ، فركب سفينة صغيرة ، ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبى للخليج ، وأنجى عدداً من الأشخاص ؛ وبينما كانت تلك الجماعة تعدو خوفاً من البَرَد والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها ، خارت قوى العالم الشيخ ، فسقط فى

الطريق وقضى نحبه(*)(١٥) . وفى صباح اليوم التالى انضمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة اليائسة التى كانت سائرة بإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت ، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة ، وقد غطت السماء من نابلى إلى سرنتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلا حالك السواد : واستولى الهلع على الفارين الذين افترقوا فى هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم ، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعا ورعبا . وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة ، وبعضهم ينادى بأن الآلهة كلها قد هلكت ، وأن نهاية العالم التى طالما تنبأ بها الناس قد حلت(١٦) . ولما صفت السماء آخر الأمر فى اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شىء فى بمبى إلا أعالى السقف ، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود .

وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان بمبى البالغ عددهم عشرين ألفا قد قضوا نحبهم فى هذه الكارثة ؛ وقد حفظ الرماد البركانى أشكال عدد من الموتى ؛ ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التى سقطت عليها غطتها بطبقة سميكة صلبت حين جفت ، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة . وعاد قليلون ممن نجوا إلى أنقاض المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس ، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام . وفى عام ١٧٠٩ احتفر قائد نمساوى حفرة فى موضع هركيولانيم ، ولكن الرواسب التى فوق المدينة والتى كان سمكها فى بعض المواضع يبلغ ستين قدما بلغت من السمك درجة جعلت أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة . أما بمبى فقد بدأ الكشف عنها فى عام ١٧٤٩ ، وظل حتى الآن يجرى فى فترات متباعدة . وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة ، فظهر عدد كبير من

(*) انظر وصف بلنى الأصغر لموت عمه فى هذه الثورة البركانية فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

البيوت ، والأدوات ، والنقوش ، فاستطعنا أن نعرف عن بمبي القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن رومه القديمة .

وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة ، شأنها فى هذا شأن سائر المدن الإيطالية . وما من شك فى أن هذه السوق كانت فى الزمن القديم ملتقى الزراع ، وحاصلاتهم فى « يوم السوق » ، وكانت تقام فيها الألعاب ، وتمثل فيها المسرحيات ، وقد أقام فيها الأهلون أضرحة لآلهتهم ، فشادوا ضريحاً لجوبتر فى أحد طرفيها وضريحاً لأپلو فى الطرف الآخر ، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشئوا ضريحاً لڤينوس (زُهَرَة) بمبيانا Pompeiana راعية المدينة وحاميتها . ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوماً متدينين ، فقد شغلتهم الصناعة ، والسياسة ، والألعاب ، والصيد فلم تترك لهم وقتاً للعبادة ، وكانوا إذا عبدوا عظموا عضو التذكير واتخذوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية(١٧) . ولما أن زادت الشئون الاقتصادية والحكومية فى مقدارها وخطرها ، وعلت قيمتها ، قامت أبنية عظيمة حول السوق اتخذت مراكز للأعمال الإدارية ، وللمساومات ، والمفاوضات ، وتبادل السلع .

وفى وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تعج بالبائعين الجائلين ، ويعلو فيها ضجيج البائعين والمشترين ، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل . وقد عثر المنقبون فى خرائب الحوانيت على بعض النُّقل ، والعيش ، والفاكهة ، المتفحمة أو المتحجرة التى لم تجد من يشتريها . وفى الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات ، ومحال الميسر ، وبيوت الدعارة ، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه .

ولو لم يحرص أهل بمبي على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المبانى العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء . وقد نقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش ، وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء ، وقد اكتفى ناقشوها فى بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجرىء ، الذى لا يزال

الناس يحبون أن يفعلوه ؛ ودون بعضهم الأوامر التي كانوا يصدرونها إلى أعدائهم مؤملين أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد منهم « من ساميوس Samius إلى كورنليوس Cornelius : اشنق نفسك » . ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً : فقد كتبت رميولا Romula تقول إنها « وقفت هنا مع استفيلس Stephylus » ؛ وكتب شاب متيم : «وداعاً يا ڤكتوريا، وفي وسعك أياً كان مكانك أن تعطسي أحسن عطسة »[١٨]،

وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل ، فترى الملاك يعانون أيام عطلتهم ، والذين فقد لهم متاع يعلنون عن فقده ، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييـــد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم في حملات الانتخابات للبلدية ؛ فهاهم أولاء « صائدو السمك يرشحون پوپديوس روفس Popfdius Rofus ليكون إيديلا Aadile » و « وقاطعو الأخشاب وبائعو الفحم النباتي يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسلينس »[١٩] ؛ وها هي ذي بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة ، وبعضها الآخر يمتدح شجاعة بعض مشهوري المجالدين مثل سلادس Celadus ؛ وها هي ذي « العذارى تتحسر » أو تهيم بأحد الممثلين المحبوبين — « أي أكتيوس Actius يا حبيب الشعب عجل بالعودة ! »[٢٠] . لقد كانت پمپي تعيش لكي تتلذذ ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة ، وساحة للتدريب الرياضي ؛ ودار تمثيل صغيرة تتسع لألفين وخمسمائة من النظارة ، وأخرى كبيرة تتسع لخمسة آلاف ، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمتعوا فيه بآلام الموت يقاسيها غيرهم من الناس بدلا منهم . وهاهو ذا نقش يقول : « سيقتتل في پمپي في الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين ، والسادس والعشرين ، من نوفبر ثلاثون زوجاً من المجالدين . . . قدمهم حاكما المدينة . وسيكون هناك صيد ؛ مرحباً

بك يا ميوس Maius ، مرحى يا باريس ! » وكان ميوس هذا أحد حاكمى المدينة ، أما باريس فكان كبير المجالدين .

وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يحيون حياة مفعمة بالنعيم تجملها الفنون المختلفة . فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ والتدفئة فيها نادرة ، ولا تظهر الحمامات إلا فى منازل الأغنياء ، وكان لبعض الدور بركة فى حديقة محاطة بالعمد . وكانت أرض الحجرات تصنع من الأسمنت أو الحجر ، أو من الفسيفساء أحياناً ، وقد نقش رجل صريح من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة : « مرحباً بالكسب » ، ونقش آخر « الكسب لذة »[٢١] . ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث ، فقد كان كله تقريباً من الخشب ، ولهذا لم يبق منه شىء يذكر ، غير أن عدداً قليلا من النضد ، والأسرة ، والكراسى ، ومصابيح الرخام أو البرنز قد نجت من التلف ، وفى وسع الإنسان أن يرى فى متحفى بمبى ونابلى مجموعة متنوعة من الأدوات المنزلية ، من أقلام ، ومحابر ، وموازين ، وأدوات المطبخ ، والزينة ، والآلات الموسيقية .

وتوحى البقايا الفنية التى كشفت فى بمبى أو بالقرب منها بأن الأشراف الذين يسكنون فى القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم الذين يستمتعون بالمميزات الثقافية للحياة ، بل كان يشاركهم فيها تجار المدينة . فقد كشفت فى هركيولانيم مكتبة خاصة كانت تحتوى على ١٧٥٦ مجلداً أو ملفاً ، ولا داعى هنا لأن نعيد ما قلناه من قبل عن كؤوس البسكوزيالى Boscoreale أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة على جدران منازل بمبى . ولقد كان فى كثير من المساكن تماثيل ذات روعة ، وكان فى السوق العامة وحدها مائة وخمسون تمثالا . وقد عثر فى هيكل جوبتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذى سواه ؛ فأنت ترى فيه القوة والعدالة ماثلتين فى ثنايا الشعر الغزير واللحية الكثة . وكان فى هيكل أپلو تمثال لديانا ثقب مؤخر رأسه حتى يستطيع كاهن

مختبيء أن يتحدث بالنبوءات . وقد عثر فى أحد قصور هركيولانيم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت فى متحف نابلى ؛ وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة — عطارد المستريح ، ونارسس أو ديونيشس ، والساتير السكران وإله الحقول الراقص — كانت يونانية بأصلها أو بصنعها ؛ وهى تكشف عن حذق فى الصنع ، وعن السرور غير المحتشم البادى فى الجسم الصحيح السليم ، وهما الخاصتان الماثلتان فى الفن البركستيلى . ومن هذه التماثيل تمثال نصفى من البرنز لأحد الدلالين فى مدينة بمبى ويدعى ل . كاسليوس أيوكندس L. Caacilius Iuocundus الذى وجدت حساباته منقوشة على ١٥٤ لوحاً من الشمع عثر عليها فى داره بمدينة بمبى . ويظهر فى هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو . فى هذا التمثال تمتزج الخشونة بالذكاء ، والحكمة بالتآليل الجلدية ، وهو من صنع مثال معاصر لصاحبه — ولعله مثال إيطالى — أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات . والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها فى متحف نابلى من تماثيل الآلهة والإلهات الخالية وجوهها من الغضون ، والتى تكاد تنطق معارفها الملساء الوديعة المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض .

الفصل الثالث

نظام البلديات وحياتها

لم تكن الحياة الخاصة والعامة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ، أحد وأقوى مما كانت فى إيطاليا القديمة ؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولى تفاصيل نظام البلديات فى عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا ، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التى كان الأهلون يعضون عليها بالنواجذ ، لم تعد هـذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضى الحى الذى هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا .

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية أنها تتألف من مجموعة من دول — المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حد ما ، وتضم كل منها فى مؤخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها ، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات . وكان معنى الوطنية فى هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعنى حبه للإمبراطورية . وكان الأحرار فى كل مدينة يقنعون فى الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة ؛ وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنية الرومانية من غير أهل رومة يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم فى الانتخابات ؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة فى العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له فى مدن الإمبراطورية كما تدل على هذا بمبى نفسها . وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia — ولمعظم المدن الشرقية مجالس boulé تشريعية — تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها ؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Summa honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

عليه بأن يكون حاكماً لها ، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة . وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجرا فإن دمقراطية الأحرار — أو أرستقراطية الأحرار — قد استحالت فى كل مكان تقريباً ألجركية يتولاها ذوو المال والجاه .

وظلت البلديات مائتى عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس فى رخاء وازدهار . ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال ، فقد تكفلت الطبيعة والميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ؛ ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود ، قبل هذا العهد أو بعده ، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها : ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريبا ، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات ، وغير ذلك من ضروب التسلية ، والألعاب ، وتشييد الهياكل ، ودور التمثيل ، والملاعب ، ومدارس التدريب الرياضى ، والمكتبات العامة ، والباسلقات ، والقنوات التى تنقل ماء الشرب للمدن ، والقناطر والحمامات ، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد ، والصور ، والتماثيل ، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار . وقد ظل الوطن طوال المائتى عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى فى بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التى كانت تمولها ، أو المدن التى تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء . وقد جرت العادة فى أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء ، وكانوا فى بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين ، ولجميع السكان أحياناً ، زيتاً أو خمراً بالمجان ، أو يقيمون لهم وليمة عامة ، أو يهبونهم قدراً من المال . وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء . فهاهو ذا مثرٍ من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم فى فنيشيا ١٫٦٠٠٫٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة ، وها هى ذى سيدة تشيد هيكلا ومدرجا فى كسينم Casinum ؛

وهاهو دا ديسميوس تلس Decimius Tullus يهب تركوينياى Tarquinii حمامات تكلفت ٣٠٠٠٠٠٠ سسترس ؛ وهاهى ذى كرمونا Cremona التى دمرها جنود ڤسپازيان لا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين . وتذكر النقوش اسمىْ طبيبين قدّما كل ما يملكان هبات لناپلى . وفى استيا التى كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا Lucilius Gemala جميع أهلها إلى الطعام ورصف فيها طريقاً طويلا واسعا ، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها ، وأعاد بناء حمامات البلدية ، ووهب خزانتها ثلاثة ملايين سسترس[٢٢] .

وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسما كبيراً من المواطنين فى عيد ميلاده أو لمناسبة انتخابه إلى منصب عام ، أو زواج ابنته ، أو ارتداء ابنه الطوغة ، دليلا على بلوغه سن الرشد ، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة . وكانت المدينة تجزى هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه فى منصب عام ، أو تقيم له تمثالا ، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش . ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلة حين ينالون هذه العطايا كلها ، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذى يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال ، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد فى المبانى الجميلة والتماثيل ، ويلحون فى تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب[٢٣] .

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد ، ما كان يهبه الأباطرة للمدن ، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث ، فضلا عن الأعمال العامة والمناصب التى كانت تمول من خزائن البلديات ، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطالية وعزها فى عهد حكومة الزعامة . لقد كانت شوارعها مرصوفة ، وكان فيها مجار لنقل المياه القذرة ، وشرطة لحماية الأمن ، وكثير من وسائل الزينة ، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها ، وماء نقى نظيف يصل إلى الدور فى أنابيب نظير أجر قليل ، وطعام يقدم

للفقراء بثمن بخس . وكانت الحمامات فى معظم الأحوال مباحة من غير أجر ينفق عليها من هبات المحسنين ، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم ؛ وكانت المدارس ودور الكتب تنشأ للتعليم والمطالعة ، والمسرحيات تمثل ، والحفلات الموسيقية تقام ، والألعاب تنظم لتنافس بها تلك المدن رومة غير عابئة بما تنفقه فيها من مال . ولم تكن حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذى كانت عليه فى العاصمة ؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس فى إقامة المدرجات ، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة ، يضارع بعضها أحسن ما كان منها فى رومة[٢٤] ، وجعلت شهورها مرحة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة . وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية ، وتنشئ القاعات الرحبـــة للمحاضرات ، وللشعراء ، والسوفسطائيين ، والخطباء ، والفلاسفة ، والموسيقيين . وكانت تيسر لمواطنيها أسباب الصحة ، والنظافة ، والتنزه ، والحياة الثقافية القوية . ومنها ، لا من رومة ، خرج عظماء المؤلفين اللاتين ، وعدد كبير من أحسن ما فى متاحفنا من روائع النحت كتمثال نيكى (العدالة) فى متحف نابلى ، وتمثال پروس (الحب) فى سنتومسلا Centumecella ، وتمثال زيوس فى أتركولى Atricolic . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان ، لا يقلون عن عددهم قبل هذا القرن ، فى المدن التى قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير .

وقصارى القول أن القرنين الأول والثانى من التاريخ الميلادى قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة .

الباب الثاني والعشرون

تمدين الغرب

الفصل الأول

رومة والولايات

كانت الوصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا – إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذي كان نظاماً عاماً في الدول القديمة – هي اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات . لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدى لها الشيء الكثير نهباً أو خراجاً ، ومن ذينكما النهب والخراج كان أصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المدن الإيطالية . وكانت رومة قبل عهد قيصر تعدّ الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح ، وتعد سكانها جميعاً رعايا رومانيين ، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان ؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية ، يمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قِبل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم . وأرادت رومة أن تقلل من احتمال قيام الثورات في الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة وحرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة ، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات . وكان سر الحكم الروماني وشعاره هو فرّق تسد Divide et impera .

ولعل شيشرون كان يبالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط ، في

سياق تشهيره بفريس Verres ، إن بلادها كانت مقفرة فى عهد الجمهورية :
« إن كل الولايات تندب حظها ، وجميع الأحرار يصرخون ويعولون ،
وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرهنا ، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين ،
مهما يكن قاصياً أو خافياً ، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا »[1] . أما الزعامة
فكانت أكثر سخاء من الجمهورية فى معاملتها للولايات ، ولم يكن هذا
كرماً منها بل كان حسن التدبير . فقد كانت الضرائب فى أيامها غير
باهظة ، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية ، وكانت حرية
الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً فى السلطة العليا ، وسمحت لها أن تحتفظ
بقوانينها المحلية ما دامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان
وسيادتهم . وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة
لسلطانها أقساماً متفاوتة فى المرتبة ، وتقسيم الأهلين فى داخل كل ولاية
طبقات متفاوتة القدر كذلك . فقد كانت بعض البلديات كأثينة وردس
« مدنا حرة » ، تعطى جزية ، ولا تخضع لحاكم الولاية ، وتدير شئونها
الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها رومة ما دامت تحتفظ بالنظام
الاجتماعى والسلم . وقد سمحت رومة لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا
وكپدوكيا أن تحتفظ بملوكها ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا « أقيالا » لرومة
يعتمدون على حمايتها وسياستها ، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد
إذا أرادت ذلك . وكان حاكم الولاية يجمع فى شخصه السلطة التشريعية
والتنفيذية ، والقضائية ، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة ، وحق
المواطن الرومانى فى أن يلجأ إلى الإمبراطور ، وللرقابة المالية التى كان يقوم
بها الكوستر أو الرقيب .

غير أن هذا السلطان المطلق كان يغرى الحكام بأن يسيئوا استخدام
سلطتهم ، ومع أن المدة التى كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت فى عهد
الزعامة ، ومع أن مرتبه ومخصصاته الأخرى قد زيدت زيادة كبيرة ، ومع أن
مسئوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطورية قد قللت من فساد الحكم وسوء

استعمال السلطة ، فإن فى وسعنا أن نستدل من رسائل پلنى ومن فقرات كتاب تاستس ، على أن ابتزاز المال والفساد لم يصبحا من الأمور النادرة فى آخر القرن الأول .

وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه . وكانت الدولة فى عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام فى كل الولايات ، ويقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك — ومنها الحيوانات والعبيد . وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة ؛ ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب ، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية فى الثغور ، ويشرفون على الأعمال الجارية فى غابات الدولة ومناجمها وعلى الأشغال العامة فيها . وكان ينتظر من الولايات أن تسهم عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد ، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية ، وأن ترسل فى بعض الحالات سفناً محملة بالغلال إلى رومة . واحتفظ فى الشرق بالعادة القديمة ، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة ، ثم انتشرت فيا بعد من الشرق إلى الغرب . وكان للحكومة المحلية أو للوالى بمقتضى هذه العادة أن « يطلب » إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب ، وسفناً للأسطول ، ومبانى للأغراض العامة ، وطعاما لضحايا القحط ، ومغنين فى الأعياد والمسرحيات .

ويقول شيشرون ، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة فى الدولة ، إن الضرائب التى كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفى نفقات الإدارة والدفاع [٣] . وكان « الدفاع » عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات ، وأكبر الظن أن نفقات « الإدارة » كانت تشمل المطالب التى خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين . ومن واجبنا ألا نرى حرجاً فى أن ترسل أية سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام فى ذلك الوقت جباة يجمعون أكثر مما يكفى لهذين الغرضين . على أن الولايات قد عمها الرخاء فى عهد حكومة الزعامة على الرغم من

هذه الأعباء كلها . ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين فى الولايات ، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته . وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرضان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها . وبفضل هذا العون الذى كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات، أقوى من إيطاليا الطفيلية المزعزعة الكيان . وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس ، وهى أن نعمتين يجب أن تضمنهما الدولة للشعب قبل كل شىء : وهما الحرية والسلام ؛ « فأما السلام فلسنا فى حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها . وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة (رومة) ؛ ولعلها لو أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا »[٤] .

الفصل الثاني

آفريقيــــة

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة ، ليست جزءاً من إيطاليا ؛ وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة ، يصيد فيها الرومان الأهلين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً(٥) . أما سردينيا فكانت تمدهم بالعبيد ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والحبوب ؛ وكان فيها ألف ميل من الطرق الصالحة ومرفأ جيد ممتاز هو مرفأ كرالس Carales (كجلياري الحالية) . وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضة من الولايات التي تمد رومة الجائعة بالطعام . وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جعل ضياعا كبرى لتربية الماشية ، يرعاها عبيد لا ينالون إلا أقل الغذاء والكساء ، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للسلب والنهب . وكان سكانها في عهد أغسطس يبلغون ٧٥٠،٠٠٠ ، (وقد بلغوا في عام ١٩٣٠ حوالى ٣،٩٧٢،٠٠٠) . وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هي قطانيا Catania ، وسرقوسة ، وتورومينيوم Touromenium (تورمينا Taormina الحالية) ، ومسانا ، وأجرجنتم ، وبنورمس Panormus (بلرمو الحالية) . وكان في سرقوسة وتورمينيوم ملهيان يونانيان فخمان ، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن . وكانت سرقوسة ، على الرغم مما أصابها من النهب على يدى ڤريس Verres مملوءة بالمباني الرائعة ، والتماثيل الشهيرة ، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للأدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة(٦) ، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة في العالم كله . وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين في

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره فى هذه الأيام .

وعاد على أفريقية كل ما فقدته صقلية بسيطرة الرومان عليها ، فقد أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة فى توريد الحبوب مكرهة إلى رومة ، ولكن الجنود ، والمستعمرين ، ورجال الأعمال ، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الظلال إلى حد لا يكاد يصدقه العقل . وما من شك فى أن الفاتحين الجدد قد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية ؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التى تصد عنها رمال الصحراء واد شبه مدارى يمده نهر بجرداس Bagradas (مجردا) بكفايته من الماء ؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهلين عن عملهم الزراعى الشاق الطويل الذى علمهم إياه ماجو Mago وأرغمهم عليه ماسينسا Masinissa . ولكن رومة أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه . فقد شاد مهندسوها السدود على مجارى الأنهار التى تنحدر من التلال الجنوبية ، واختزنوا الزائد من المياه فى خزانات إبان موسم الأمطار ، وصبوه فى قنوات للرى فى الأشهر الحارة التى تجف فيها مياه الأنهار[٧] . ولم تكن رومة تفرض على هذه الولايات أكثر مما كان يجبيه منها رؤساؤها الوطنيون ، ولكن فيالق رومة وتحصيناتها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التى تهبط عليها من الجبال ؛ وكان يضم إليها ميل بعد ميل من الصحراء أو الأراضى البور فتزرع أو تسكن . وكان الوادى ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد فى القرن السابع ، إذ وجدوا أن فى وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون[٨] . وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمارية ،

ووجدت الآداب فيها صوتاً جديدا يعبر عنها . وحسبنا دليلا على ما بلغته أفريقية الرومانية من الرقى والثراء أن نشاهد آثار ما خلفه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات بجر مياه الشرب للمدن ، ودور للتمثيل فى أرض أصبحت الآن قفراً يباباً . ذلك أن هذه الحقول النادرة قد استحالت الآن صحارى رملية ، ولم يكن سبب هذا تغير الجو بل كان سببه تبدل الحكم — من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادى والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال بخربان الطرق والخزانات وقنوات الرى .

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التى بعثت وقتئذ بعثاً جديداً . ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد موقعة أكتيوم مشروع كيوس قيصر الذى أخفق من قبل ، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعوضهم عن إخلاصهم وانتصاراتهم أرضاً يهبها لهم ليستعمروها . وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يتكا تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه ، وذلك بفضل موقعها الجغرافى الممتاز ، ومرفئها الجيد ، ودال نهر بجرداس الخصبة ، والطرق الصالحة التى أنشأها المهندسون الرومان أو أعادوا فتحها ؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أضحت أكبر مدائن الولايات الغربية ، وأقام أغنياء التجار والملاك قصوراً فخمة على تل برسا Byrsa التاريخى ، أو بيوتاً صغيرة ذات حدائق فى الضواحى الشجراء ؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أصحاب الضياع الكبرى فقد انضموا إلى صعاليك المدن وإلى الأرقاء، وعاشوا فى أحياء وبيوت قذرة حياة العدم والفاقة التى جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة . وقامت البيوت فى المدينة من ست طبقات أو سبع ، وتلألأ الرخام فى المبانى العامة ، وغصت الشوارع والميادين بالتماثيل المنحوتة على الطراز اليونانى . وشيدت الهياكل من جديد لآلهة القرطاجنيين القديمة ، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثانى بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

من أطفال الأحياء[٩] . وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان فى حب الترف ، وأدهان التجميل ، والحلى ، والشعر المصبوغ ، وسباق العربات ، وألعاب المجالدين . وكان من بين المناظر البارزة فى المدينة حماماتها العامة العظيمة التى وهبها لها ماركس أورليوس . وكانت فيها قاعات للمحاضرات ، ومدارس لتعليم البيان ، والفلسفة ، والطب ، والقانون ، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والإسكندرية ؛ وفد إليها أپوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم ، وقد دهش القديس أوغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم ، فقد كان يحاو لهم أن يقتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه[١٠] .

وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شرق بلاد تونس . ونشأ من رواج التجارة فى جنوبى هذه المدينة على الشاطئ الشرقى طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثنى عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب فى هذه الأيام ، ومن هذه المدن القديمة حضرمنتم Hadrumentum (ومحلها الآن سوسة) ولپتس Leptes الصغرى ، وثپسوس Thapsus وتكاپى Tacapae (قابس الحالية) . وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض إقليم يدعى تريپوليس Tripolis (طرابلس) وسمى كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن : أويا Oea (طرابلس الحالية) التى أسسها الفينيقيون قبيل عام ٩٠٠ ق . م ، وسبراتا Sabrata ولپتس مجنا (الكبرى) (لبدة الحالية) : وهذه البلدة الأخيرة هى مسقط رأس الإمبراطور سپتميوس سفيرس Septimius Severus فقد ولد فيها عام ١٤٦م ؛ ووهبها فى حياته باسلقا وحماما عاما تدهش آثاره السائح أو المحارب فى هذه الأيام . وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل تصل هذه الثغور بالمدن الداخلية : سفتولا Safetula وهى الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل رومانى عظيم ، وثسدروس Thysdrus (الجم) ، وكان فيها مدرج

يتسع لستين ألفاً ، وتُجا Thugga (دجا) التى تشهد خرائب ملهاها ذى العمد الكورنثية الرشيقة بثراء أهلها وحسن ذوقهم .

وكانت فى شمال قرطاجنة أمها ومنافستها القوية يتكا Utica ، وفى وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء فى عهد الرومان ، إذا عرفنا أن ثلثمائة من رجال المصارف وبائعى الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها عام ٤٦ ق . م . وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالا إلى هپو ديرهيتس Hippo Diarhytus بنزرت الحيالية) ، وكان يمتد فيها طريق محاذ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هبو رجيوس Hippo Regius (بونه) ، التى أضحت بعد زمن قليل كرسى أبرشية القديس أوغسطين . وكان إلى جنوبها فى الداخل مدينة سرتة Cirta (قسطنطينية) عاصمة ولاية نوميديا ، وفى غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة تمجادى Thomugadi (تمجاد) ، التى تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظ پمپى ؛ ففيها الشوارع المرصوفة المعمدة ، والمجارى المسقفة ، وفيها قوس نصر ظريف ، وسوق عامة ، وبناء مجلس الشيوخ ، وباسلقا ، وهياكل ، وحمامات ، وملهى ، ومكتبة ، وبيوت خاصة كثيرة . وقد عثر فى أرض السوق على لوحة للعب الداما نقشت عليها هذه العبارة : Venari, lavari. ludere, rider, hoc est vivere — ومعناها : « الصيد ، والاستحمام ، واللعب ، والضحك ، هذه هى الحياة »[١٢] ؛ والفيلق الثالث الذى كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو الذى أنشأ تمجادى حوالى عام ١١٧ م . ثم اتخذ فى عام ١٢٣ مركزاً بقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم فى تمجادى ويبعد عنها بضعة أميال نحو الغرب ، وأنشأ فيه مدينة لمبسيس Lambaesis (لمبز) . وهنا تزوج الجنود واستقروا ، وعاشوا فى بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون فى المعسكر . ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً — فخماً ، جميل الزينة ، به حمامات لا تقل فى جمالها عن أية حمامات أخرى فى أفريقية . أما فى خارج المعسكر فقد أعانوا الأهلين فى بناء هيكل لجوپتر ، وعدد من الهياكل ، وأقواس النصر ، ومدرج

يقام فيه الصراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السلمية الرتيبة .

وكان الذى مكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة الضارية فى الداخل هو إنشاء شبكة من الطرق ، كان الغرض الأول منها عسكريا ولكنها كانت عظيمة النفع من الناحية التجارية ، وكانت تربط قرطاجنة بالمحيط الأطلنطى ، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط . وكان الطريق الرئيسى يتجه نحو الغرب من سرتة إلى قيصرية عاصمة موريتانيا (مراكش) ؛ وهنا نشر الملك جوبا الثانى Juba II أساليب الحضارة بين المورى Mauri أى السود (المغاربة) الذين اشتق من اسمهم اسم الإقليم فى الزمن القديم واسمه فى هذه الأيام . وكان جوبا الثانى هذا ابن جوبا الذى مات فى ثبسوس ، وأخذ وهو طفل إلى رومة ليزدان به موكب قيصر ؛ ثم عنى عنه ، وأخذ يدرس فى رومة حتى أصبح من جهابذة العلماء فى أيامه . وعيّنه أغسطس قيلا على موريتانيا وأمره أن ينشر بين بنى وطنه الثقافة الرومانية التى جد فى تحصيلها . ونجح فى هذه المهمة ، وكان من أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاما ؛ ولشد ماكانت دهشة رعاياه حين رأوا رجلا يكتب الكتب ويحكم . وجاء كلجيولا بابنْ جوبا هذا إلى رومة وأماته جوعاً ، وضم كلوديوس مملكته إلى رومة وقسمها ولايتين : موريتانيا سيزرينسس Caesariensis (موريتانيا القيصرية) وموريتانيا تنجتانا Tingitana (موريتانيا التنجتانية) نسبة إلى عاصمتها تنجيس Tingis وهى طنجة الحالية .

وكان فى هذه المدن الأفريقية مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء على السواء . نسمع أنه كان يدرس فيها الاختزال(١٣) ، ويسمى جوڤنال أفريقية مربية المحامين(١٤) . وقد أنجبت فى هذا العهد مؤلفين أحدهما صغير والآخر كبير — هما فرنتو وأپوليوس . ولكن الأدب الأفريقى لم تكن له الزعامة على آداب العالم إلا أيام مجده فى عهد المسيحية . وكان اوسيوس أپوليوس شخصية غريبة جديرة بالتصوير ، أكثر من شخصية منتانى المتعدد الكفايات وكان مولده فى

مدورا Madaura من أسرة عريقة النسب (١٢٤ م) ، وقد درس فيها وفى قرطاجنة وأثينة ، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين ، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة فى موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان ، وألقى محاضرات فى الفلسفة والدين فى رومة وغيرها من المدن ، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج فى طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه فى الثراء . فلما فعل هذا رفع أصدقاؤها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج ، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر ؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثير من الصقل والتنميق ، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة ، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر ؛ ولما ظهر المسيح أخذ خلفاء هؤلاء القوم يحطون من قدره بتعداد معجزات أبوليوس . وقضى الرجل بقية حياته فى مدورا وقرطاجنة يمارس صناعتى المحاماة والطب ، وكتابة الرسائل والخطب ، ولكن معظم ما كتب كان فى الموضوعات العلمية والطبيعية ، وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريا نقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية : **الفيلسوف الأفلاطونى** ، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه **الحمار الذهبى** .

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب **ساتريكون** Satyricon لمؤلفه بترونيوس ، بل هو أكثر منه غرابة وشذوذاً . وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو **أحد عشر كتابا فى التحول** Metamorphoseon Lebri XI ، وهو توسع غريب فى قصة رواها لوسيوس البتراسى عن رجل انقلب حماراً . ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات ، والوصف ، والحوادث المحشورة فيها حشراً ، يتخللها السحر ، والرعب ، والفحش فى القول ، والحديث عن التقوى المرجأة .

ويروى لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألفى نفسه أينما حل فى جو من السحر . ومما جاء فى هذا الكتاب :

« وما كاد الليل ينقضى ويبزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظى أن أستيقظ ، وأن أقوم من فراشى وأنا نصف مذهول ، راغب حقاً فى أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة . . . والحق أنى لم أكن أرى شيئاً أعتقد أنه كما أراه فى الواقع ؛ بل إن كل شيء بدا لى أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة . وبلغ من قوة اعتقادى هذا أن ظننت أن الحجارة التى قد تعثر بها قدماى تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التى هى عليها ، وأن الطيور التى سمعتها تغرد ، والأشجار والمياه الجارية ، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنابع الماء ، من صور أخرى غير هذه الصور . وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك فى مستقبل الأيام ، وأن الجدران ستتكلم وتروى أخباراً عجيبة ، وإنى سأسمع من فورى وحياً من السماء ومن شعاع الشمس[١٥] .

والآن وقد أصبح لوسيوس مستعداً لأية مغامرة يريدها ، يقول إنه يدلك جسمه بمرهم سحرى ، وهو شديد الرغبة فى أن يستحيل طائراً ؛ ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً . وتروى القصة بعدئذ ما يلقاه من المحن ذلك الحمار « الذى له إحساس الإنسان وإدراكه » . وكانت سلواه الوحيدة هى « أذنى الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو كان شديد البعد عنى » . وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها ، وهى أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيء . ثم كره الحياة ، فلجأ أولا إلى الفلسفة ، ثم إلى الدين ، وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب[١٦] . ثم يحلق رأسه ويقبل فى الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين . ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه أوزريس « أعظم الآلهة » بأن يعود إلى وطنه ويشتغل بالقانون .

وما أقل الكتب التي تحوى كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف ، ولكن أقل منها ما يعبر عن سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب في طلاوتها ؛ ذلك أن أبوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب ، ويلبس كل أسلوب حاوله أجمل لباس ؛ وأكثر ما يحبه من الأساليب هو الأسلوب المطنب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف في بداية الألفاظ ، المليء بالعبارات العامية الطريفة . والألفاظ القديمة المهجورة ، والكلمات المصغرة العاطفية ، والنثر الموزون والشعرى في بعض المواضع . وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرقي القوى ما في الشرق من غموض وشهوانية(*) . ولعل أبوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفى ، مستنداً إلى تجاربه الخاصة ، إلى أن الانهماك في الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الآدميين بهائم ، وإلى أن السبيل الوحيدة التي يعودون بها إلى آدميتهم هي اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح . وهو يبدو أحسن ما يكون في القصص العارضة التي يلتقطها بأذنيه القويتين الدوارتين ، كما نرى في قصة العجوز التي تسلى فتاة بأن تروى لها قصة كيوپد وسيكى[١٧] — فتخبرها كيف وقع ابن الزهرة (ڤينوس) في حب فتاة حسناء ، وهيأ لها كل أنواع السرور إلا سرورها برؤيته ، وأثار غيرة أمه الشديدة ، ثم نالت آخر الأمر سعادتها في السموات العلى . ولسنا نعرف مصوراً ، بز بقلمه لسان هذا الأشيب السليط ، في رواية هذه القصة القديمة .

(*) لسنا ندرى لم يصف المؤلف الشرق بالشهوانية وأية شهوانيــة في الشرق تفوق ما وصف به هو نفسه عصر نيرون وغيره من الأباطرة في هذا الكتاب . (المترجم)

الفصل الثالث

أسپانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات رومة إلى ولاية من أحدثها . وتقع أسپانيا فى موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية ، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط ؛ وفى جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة روت أرضها بدماء الشره ، وتخترقها سلاسل الجبال التى تعوق سبل الاتصال ، وامتزاج السكان ووحدتهم . وقد أحست أسپانيا بحمى الحياة الشديدة من اليوم الذى كان فيه الفنانون فى العصر الحجرى القديم يصورون الثور الوحشى (البيزون) على جدران الكهوف فى ألتميرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة . ولقد ظل الأسپان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة ، وأجسام نحيلة قوية ، وشجاعة وجلد ؛ وكانوا ولا يزالون صلاب الرأى ، أقوياء العاطفة ، يمتازون بالزراعة والاكتئاب ، والاقتصاد وكرم الضيافة ، والمجاملة والمروءة ، يسهل استثارة بغضهم ، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم ، ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكانا يتألفون حتى فى ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض : منهم الإمبيريون من أفريقية ، واللجوريون من إيطاليا ، والكلت من غالة ، وعلى رأسهم طبقة من القرطاچنيين . وإذا جاز لنا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا إن الأسپان كانوا قبل الفتح الرومانى شعباً قريبا من الهمجية ، يعيش بعضه فى مدن وبيوت ، وبعضه فى قرى وأكواخ وكهوف ، ينام على أرض الحجرات أو على الطين ، ويغسل أسنانه بالبول المعتق[١٨] . وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين « مآزر طوالا

وجلابيب زاهية الألوان » ، ويضيف استرابون إلى هذا قوله فى سياق اللوم والتأنيب « إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدى[١٩] » .

وقد أنشأ سكان جنوبى أسپانيا الشرقى — فى ترتسوس وهى ترشيش الفينيقية Tarshish — حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م صناعة البرنز ، وكانوا يبيعون منتجاتها فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأنشأت ترتسوس على أساس هذه الصناعة ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، أدبا وفنا قال أهلها إن عمرها كان فى ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام . على أنه لم يبق من آثار هذا الفن سوى بضعة تماثيل فجة وتمثال نصفى متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان ، وتمثال إلكى Elche المشابه للتماثيل اليونانية والمنحوت على نمط كلتى قوى فياض . وشرع الفينيقيون حوالى عام ١٠٠٠ ق . م يبحثون عن ثروة أسپانيا المعدنية ، ولم يحل عام ٨٠٠ حتى استولوا على قادس ومالقه Malaga وشادوا فيهما هيكلين عظيمين . ثم استقر المستعمرون اليونان حوالى عام ٥٠٠ ق . م على الساحل الجنوبى الشرقى ، وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببنى عمومتهم القرطاجنيين لإخماد ثورة فى البلاد ففتحوا ترتسوس وجميع أسپانيا الجنوبية والشرقية ، وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالا سريعا بين الحرب البونية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما فى البلاد التى يسمونها « أيبيريا » من موارد ثروة غنية ، فكان تحرك سپيو إلى أسبانيا هو الذى قضى آخر الأمر على انقضاض هنيبال على إيطاليا . ودافعت القبائل الأسبانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال ، فكان النساء يفضلن قتل أبنائهن على وقوعهم أسرى فى أيدى الرومان ، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحربية وهم يموتون مصلوبين[٢٠] . وتطلب فتح أسپانيا مائتى عام ، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات : وأحل ولدا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التى كانت تجرى عليها الجمهورية

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطباغاً سريعاً بالصبغة الرومانية ، واتخذ الأهلون اللاتينية لغة لهم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم ، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد رومة بالشعراء ، والفلاسفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة .

وظلت أسپانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس ، فأغنت المعادن الإسپانية رومة كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة ؛ وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وپيرو لها هي فيما بعد . فاستخرج من أرضها الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والقصدير ، والحديد ، والرصاص . وبذل فيها من العناية والدقة ما يبذل في استخراجها في هذه الأيام . ولا يزال في وسع المرء أن يرى في هذه الأيام مناجم عند ريو تنتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة في صخور الكوارتز الصماء ، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدهش الإنسان من ضآلتها . وكان الأرقاء والأسرى يعملون في هذه المناجم يوما بعد يوم ، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس(٢٢) . ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة . وكانت أرض أسپانيا في هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جدباء تخرج الحلفاء التي تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة ، والسلال ، والفرش ، والأخفاف ، وتغذى الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت ، وتمد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأقدمون من أنواع الخمور وزيت الزيتون . وكانت أنهار الوادي الكبير والتاجه والإبرة وغيرها من المجاري التي هي أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسپانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التي يخطئها الحصر .

والحق أن أعظم النتائج التي تمخض عنها الحكم الروماني في هذه البلاد نتيجة تمتاز بها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهي تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها : فقد كان في ولاية بيتكا Baetica (الأندلس Andalusia

الحديثة) مدائن كارتيا Carteia (الجسر) ومندا (Munda) ومالقة ، وإيطاليكا (مسقط رأس تراچان وهدريان) ، وقرطبة ، وهسپالس (أشبيلية) ، وقادس . ونشأت قرطبة فى عام ١٥٢ ق . م ، وكانت مركزاً أدبياً عظيما واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة ، وفيها ولد لوكان ، وسنكا الأكبر والأصغر ، وجليو Gallio محرر القديس بولس . وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى ، وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوربا علما . وكانت قادس أكثر مدائن أسبانيا سكانا ، وكانت غنية غنى فاحشاً . ذلك أنها لوقوعها عند مصب نهر الوادى الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلنطى مع غرب أفريقية ، وأسبانيا ، وغاله ، وبريطانيا ؛ وقد أضافت فتياتها الراقصات الرشيقات قدراً لا بأس به إلى شهرتها .

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان باسم لوزتانيا Lusitania . كما كانت لشبونة تعرف عندهم باسم أولزيپو Olisipo . وأقام مهندسو تراچان جسراً على نهر التاجة عند نوربا قيصرينة Norba Caesarena (التى أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة) هو أكمل جسر رومانى بقى على حالته حتى اليوم . ولا تزال عقوده الفخمة التى يبلغ اتساعها مائة قدم والتى تعلو مائة وثمانين قدما فوق قاع النهر ، تحمل طريقا من أربعة دروب كثير الحركة . وكانت عاصمة لوزتانيا هى مدينة إمرينا (مريده Mérida) وكانت تزهو بما فيها من تماثيل كثيرة ، وبثلاث قنوات لجر مياه الشرب ، وبحلبة للألعاب ، ودار للتمثيل ، وبحيرة لتمثيل المعارك البحرية ، وقنطرة طولها ٢٥٠٠ قدم . وكان إلى شرقيها فى ولاية تراكننسس Tarraconensis مدينة سجوڤيا Segovia التى لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها قناة أنشئت فى عهد تراچان . وكان إلى جنوبها مدينة طليطم (طليطلة الحديثة) Toledo التى اشتهرت فى عهد الرومان بما فيها من مصانع الحديد ، وقامت على الساحل الشرقى مدينة نوڤا كرثاجو Nova Carthago

(قرطاجنة الحديثة) التى أثرت من مناجمها ، ومصائد سمكها ، وتجارتها
وكان فى البحر الأبيض بالقرب من أسپانيا جزائر البليار ، وكانت فيها مدينتا
بلما Palma ، وپولنتا Pollentia . وكانتا فى ذلك العهد مدينتين قديمتين
مزدهرتين . وكان على الساحل الشرقى نحو الشمال مدائن بلنسية ، وتراكو
Tarraés (Tarragona) (طرقونة) وبرسينو (برشلونة) ، وكان إلى
جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمپوريا Emporiae القديمة : فإذا ما سار
المسافر سفينته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألفى نفسه فى
بلاد غالة .

الفصل الرابع

غالــة

لقد كان فى مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة ، بما فيها سفن المحيطات ، أن تسير فى تلك الأيام فى نهر الرون من مرسيليا إلى ليون . أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلا من نهر الرون الأعلى . فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بماثة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال . وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدى من الرون والساؤون إلى اللوار وإلى المحيط الأطلنطى ، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو ، ومن الساؤون إلى السين وبحر المانش : وكانت التجارة تسير فى هذه الطرق المائية ، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها ، وكانت فرنسا ، كما كانت مصر ، هبة مجاريها المائية .

ويمكن القول إن الحضارة الفرنسية ــ بأحد المعانى التى يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة ــ بدأت منذ أيام « الرجل الأورينياسى Ourignacian man » أى قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام ، فقد كان فى هذا الوقت البعيد ، كما تدل كهوف منتنياك Montignac ، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة . ثم انتقلت فرنسا حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م من ذلك العصر الحجرى القديم ، عصر الصيد والرعى ، إلى حياة الاستقرار وفلح الأرض فى العصر الحجرى الحديث ، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز . وحوالى عام ٩٠٠ ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس « الألپى » المستدير الرؤوس يتسرب إلى البلاد من ألمانيا ، وينتشر فى فرنسا ، ومنها إلى بريطانيا وأيرلندة .

ثم ينزل إلى أسبانيا . وجاء هؤلاء « الكلت » معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا . ثم استوردوا من سويسرا حوالى عام ٥٥٠ ق . م فن لاتين La Téne فى صناعة الحديد ، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً فى سويسرا . وسمت رومة فرنسا أول ما عرفتها باسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا فى عهد قيصر .

وغلب المهاجرون أهل البلاد أو فاقوهم فى عددهم ، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تنم عليها المدن التى شادوها(*) . ويقول قيصر إن الغاليين كانوا قوما طوال القامة ، أقوياء الأجسام ظاهرى العضلات[٢٣] ؛ يمشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أقفيتهم ، وكان بعضهم يطيلون لحاهم ، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تتثنى حول أفواههم . وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق ، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين ، عادة لبس السراويل القصيرة ، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغا بألوان كثيرة ومطرزا بالأزهار ، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين . وكانوا مولعين بالجواهر ، ويتزينون فى الحروب بالحلى الذهبية — إن لم يكن عندهم ما هو أثمن منها[٢٤] . وكانوا يكثرون من أكل اللحم ، وشرب الجعة ، والخمر غير المخفف بالماء ، لأنهم كانوا « سكيرين بفطرتهم » إذا جاز لنا أن نصدق أبيان[٢٥] . ويصفهم استرابون بأنهم قوم « سذج ، ذوو شمم وكبرياء . . . لا يطيقهم أحد إذا انتصروا ، وتطير نفوسهم شعاعا إذا غُلبوا »[٢٦]. ولكن علينا ألا نثق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

(*) منهم الأمبيانى Ampiani فى أمين Amiens ، والبلوفاكى Bellovaci فى بوفيه Beauvais والبتيوريج Bituriges فى بورج Bourge والكرنوت Carnutes فى شارتر Charteres والباريسى فى باريس ، والبكتون Pictones فى بواتييه ، والريمى Remi فى ريمس Rheims والسنون Senones فى سن Sens والسوسيون Suessiones فى سواسون Soissons الخ .

فى كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعداؤهم . وقد اشمأزت نفس پوسيدونيوس حين رآهم يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم فى رقاب جيادهم[٢٧] . وكان يسهل استثارتهم للجدل والقتال ، وكانوا فى بعض الأحيان يسلون أنفسهم فى المآدب بأن يتبارزوا حتى يقتل بعضهم بعضا . ويقول عنهم قيصر : « إنهم كانوا أكفاء لنا فى الشجاعة وفى التحمس للحرب[٢٨] » ، ويصفهم أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus بأنهم :

« مهما تكن سنهم يليقون للخدمة العسكرية ، فالشيخ منهم يخرج للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب فى مقتبل العمر . . . والحق أن سرية كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف فى وجه غالى واحد إذا دعا زوجته إلى تأييده ، وهى فى العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة ، وخاصة إذا نفخت عنقها ، وعضت على أسنانها ، ولوحت بذراعيها الضخمتين ، وشرعت تكيل الضربات بيديها وقدميها كأنها حجارة تقذف من منجنيق » .

وكان الغاليون يؤمنون بآلهة كثيرة ، نسى الناس كل أمرها فلا ضير علينا إذا لم نذكر أسماءها . وكان إعتقادهم بحياة سعيدة فى الدار الآخرة قويا إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر فى شجاعة الغاليين . ويقول ڤاليريوس مكسمس : إن قوة هذه العقيدة كانت تدفع رجالهم إلى أن يقرضوا المال على أن يرد إليهم فى الدار الآخرة ، ويقول لسيدونيوس إنه رأى الغاليين فى إحدى الجنازات يكتبون الرسائل إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت إلى المرسلة إليهم[٣٠] ؛ وليتنا نستطيع أن نستمتع برأى رجل غالى فى هذه القصص الرومانية . وكان كهنتهم يشرفون على جميع شئون التعليم ، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية فى نفوس المتعلمين ؛ وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة ، يؤدونها فى الأيك أكثر مما يؤدونها فى الهياكل ، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها ؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم فى هـذه الأيام طريقة الإعدام بالكهرباء ؛ وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة – ولعلها كانت الطائفة الوحيدة غير الأمية – فى هذا المجتمع الغالى ؛ وكانوا يؤلفون الترانيم الدينية والقصائد ، ويكتبون السجلات التاريخية ، ويدرسون « النجوم وحركاتها ، وحجم الكون والأرض ، ونظام الطبيعة »[٣١] ، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً ؛ وكانوا قضاة لهم نفوذ كبير فى بلاط ملوك القبائل . وكانت غالة قبل عهد الرومان ، كما كانت فى العصور الوسطى ، تسير على النظام الإقطاعى المكتسى بثياب الحكم الدينى . وبلغت غالة الكلتية ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشئ عن أساليب لاتين La Téne الفنية ، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض ، ولم يحل عام ٤٠٠ ق . م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوربا الوسطى وغالة ، قد استولوا على بريطانيا ، وأسپانيا ، وشمالى إيطاليا . وفى عام ٣٩٠ اندفعوا جنوباً نحو رومة ، وفى عام ٢٧٨ نهبوا دلفى واستولوا على فريجيا ؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم فى الاضمحلال ؛ وكان بعض السبب فى هذا لين طباعهم الناشئ من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية ، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية . فكما أن الملوك قد قضوا فى العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشئوا بعد القضاء عليها دولة موحدة ، كذلك قضى أمراء الإقطاع فى القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك ، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذى قبل . وأخذ الكلت يرتدون إلى الوراء فى كل مكان عدا أيرلندة ، فأخضعهم القرطاجنيون فى أسبانيا ، وأخرجهم الرومان من إيطاليا ، وفتح الرومان فى عام ١٢٥ ق . م جنوبى غالة لحرصهم على تأمين طريقهم إلى أسپانيا ، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية . وفى عام ٥٨ ق . م استغاث زعماء الكلت بقيصر

ليساعدهم على صد غارة ألمانية ، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثمن هذه المعونة .

وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسماها أربع ولايات : غالة النربونية الجنوب ، وهى المعروفة للرومان باسم پروفنسيا Provincia ولنا باسم پروقانس Provence ؛ وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط ؛ وأكوتانيا فى الجنوب الغربى ، ومعظم سكانها من الأيبيريين ، وغالة اللدچونية Ludgonensis فى الوسط ، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلت ، وبلجيكا فى الجنوب الشرقى وكثرة أهلها ألمان . وقد أقرت رومة هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتقى بذلك ثورتها الجامعة ، فأبقت المقاطعات التى تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية . وكان الملاك هم الذين يختارون الحكام ، وقد ضمنت رومة ولاء هؤلاء الملاك بما كانت تقدمه لهم من عون ضد الطبقات الدنيا ، ومنحت حق المواطنية الرومانية مكافأة منها للغاليين الموالين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة . وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام فى مدينة ليون ؛ وقد قصرت وظيفتها فى أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس ، ولكنها لم تلبث أن انتقلت من هذا إلى التقدم بملتمسات إلى الحكام الرومان ، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب . وانتزعت شئون القضاء من أيدى الكهنة ، وبُدِّد شملهم ، واتبع القانون الرومانى فى فرنسا ، وظلت غالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنير الجديد .

وحدث فى عام ٦٨ م وفى عام ٧١ م أن اندلع لهيب الثورة زمناً قصيراً بقيادة ڤندكس Vindex وسڤيلس Civilis ، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلا لهاتين الحركتين ، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء ، والأمن والسلام على حب الحرية ؛

وأصبحت غالة فى ظل السلم الرومانية من أغنى أقسام الإمبراطورية ، وكانت رومة نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغاليين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ فى عهد كلوديوس ، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت بذكر الفرق بين ثراء غالة المزدهرة وضعف إيطاليا المضمحلة[٣٣]. فقد قطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة ، وجففت المستنقعات ، وارتقت أساليب الزراعة حتى لقد استخدمت حصادة آلية[٣٤] ، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون فى كل مقاطعة ، وكان پلنى وكولملا Columella فى القرن الأول الميلادى يمتدحان خمور برغندية وبردو . وكانت فى البلاد ضياع واسعة يفلحها العبيد وأقنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع فى العصور الوسطى ؛ ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك ، وكانت الثروة فى غالة القديمة ، كما هى فى فرنسا الحديثة ، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه فى أية دولة متمدينة أخرى . وتقدمت الصناعة بوجه خاص تقدما سريعاً ، فلم يحل عام ٢٠٠ م حتى أخذ صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا ، والنساجون الغاليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج فى الإمبراطورية ، وحتى كانت مصانع ليون تخرج الزجاج التجارى وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة[٣٥]. وكانت البراعة الفنية فى الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الرومانى ، وكانت الطرق التى أصلحها الرومان أو أنشئوها والتى يبلغ طولها ١٣٫٠٠٠ ميل غاصة بأدوات النقل وبالتجارة .

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة ، فأصبحت مدائن كبرى فى غالة الرومانية ، فكانت بردجالا Burdegala (هى بردو الحالية) عاصمة أكوتانيا من أكثر ثغور المحيط الأطلنطى حركة وتجارة ، وكانت ليمونم Limonum (ليموچ) وأڤريكم Avaricum (يورج) وأغسطنمتم Augustonemetum (كليرمون — ڤران Clermont-Ferraand) مدائن غنية

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزنودوتس Zenodotus أربعمائة ألف سسترس ليقيم بها تمثالا ضخما لعطارد(٣٦) . وفى غاليا النربونية بلغت المدن من الكثرة درجة جعلت پلنى يصفها بأنها « أشبه بإيطاليا منها بولاية من ولاياتها » . وكان فى الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa (طولوز الحالية) التى اشتهرت بمدارسها ، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية فى القرن الأول الميلادى أعظم مدائن غالة ، وأهم الثغور التى تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسپانيا ، وقد وصفها سيدونيوس أپليناريس Sidonius Apollinaris بقوله إن «فيها أسوارا ، وطرقاً للتنزة ، وحانات ، وعقودا وأروقة ذات عمد ، وسوقا عامة ، وملهى ، وهياكل وحمامات ، وأسواقا للبيع والشراء ، ومراعى ، وبحيرات ، وقنطرة ، وبحراً »(٣٨) . وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذى يصل أسپانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus (نيمز Nimes) ؛ وقد شاد أغسطس و المدينة بيتها المربع Maison Carrée الجميل تخليدا لذكرى حفيديه لوسيوس وكيوس قيصر ؛ ومما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلة فى جدران المحراب ، ولكن أعمدته الكورنثية المنفصلة لا تقل جمالا عن أية عمد فى رومة . ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن فى مدرجها الذى كان يتسع لعشرين ألفا من النظارة . وتحولت القناة الرومانية التى كانت تنقل الماء العذب إلى رومة على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولا تزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم فى صورة آثار ضخمة محطمة فى الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التى فوقها من اختلاف ، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون رومة الهندسية .

وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أرلات Arelate (آرل الحديثة Arles) ظنا منه أنها ستحل محل مساليا Massalia المشاكسة ، فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجاريا هاما . وكانت

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر ، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه . وكانت فنون الزراعة ، وغرس الأشجار ، وزراعة الكروم ، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه الفُرضة البحرية . وفيها بنوع خاص كانت أوربا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان ، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات فى الإمبراطورية ، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق : وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت كما كانت مدينة حرة مستقلة فى شئونها عن حاكم الولاية . وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياى Forum Lulii (فريجو Frejus) ، وأنتيبوليس Antipolis (أنتيب Antibes) ونيسيا Nicaea (نيس) ، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة . وإذا انتقل المسافر فى نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio (أفنيون الحديثة Avignon) وأروسيو Arausio (أورانج Orange) وقد بقى فى هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس ؛ وفيها أيضاً ملهى رومانى ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة .

وكانت أكبر ولايات غالة هى غالة اللجدونية ، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum (ليون الحالية) . وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساؤون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجرپا ، ولذلك أضحت المركز التجارى لإقليم غنى وعاصمة لغالة كلها . وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل فى القرن الأول الميلادى عدداً من السكان يبلغ حوالى مائتى ألف[٤٠] . وكان إلى شمالها بلدة كبيلونم Cabillonum (شالون — على — الساؤون Chalon-sur-Saône) وقيصردونم Caesarodunum (تور Tours الحالية) وأغسطدونم Augustodunum (أوتون Outun الحالية) وسنابوم Cenabum (أورليان الحالية Orleans) لوتيريا Luteria (پاريس الحالية) . وكتب الإمبراطور يوليان يصف هذه

المدينة الأخيرة فقال : « لقد قضيت الشتاء (٣٥٧ — ٣٥٨) فى لوتيريا مدينتنا المحبوبة ، لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين الصغيرة ، وهى جزيرة فى النهر . . . يعصر فيها الخمر الطيب »[٤١] .

وكانت ولاية بلجيكا التى تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليتين بلاداً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة ؛ وكان معظم ما فيها من صناعات قليلة متصلا بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التى تدل بقاياها الكثيرة على أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة والترف . وفى هذه الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons ، وسان كنتن St Quentin ، وسنلى Senlis ، وبوڤيه ، وتريف Treves . وازدهرت آخر هذه المدن ، وكانت تسمى أغسطا ترڤروروم Augusta Trevirorum لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين ؛ وأصبحت فى أيام دقلديانوس عاصمة غالة بدل مدينة ليون ، وصارت فى القرن الخامس أكبر مدينة فى شمال جبال الألب ، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية القديمة — فلا تزال البورتا نجرا PortaNigra محتفظة بأسوارها الرومانية ، ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا ، وفى إيجل Igel القريبة منها مقبرة أسرة سكنديني ، وفى نوماچين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التى كانت على كتل الحصن الحجرية .

وبدلت الحياة حول هذه المدن ظاهرها تبدلا بطيئاً وجددت عناصرها فى عناد شديد فاحتفظ الغاليون بخلقهم ، وسراويلهم القصيرة ، وظلوا ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبتهم على أمرهم فى القرن السادس . وكان أكبر السبب فى هذه الغلبة استخدامها فى الكنيسة الرومانية ، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخمت حتى صارت فرنسية . ونالت رومة أعظم فوز لها في غالة بنقل الحضارة الرومانية إليها . ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال چوليان وفنلك برنتانو

Funck-Brentano[٤٣] أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هى لو لم تفتحها رومة ، ولكن مؤرخا آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح رومة غالة لفتحتها ألمانيا حتما ، وأنه لو لم ينتصر قيصر فى تلك البلاد. كما يقول ممسن Mommsen :

« لحدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمائة عام ، وفى وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت فى غالة أو على ضفاف الدانوب ، أو فى أفريقية وأسپانيا . وبفضل ما كان للقائد والسياسى الرومانى العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هى العدو المنافس للعالم الرومانى — اليونانى ، وبفضل قوته وشدة بأسه التى استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومى بجميع تفاصيله ودقائقه ، ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنهار والأسوار الاصطناعية . . . بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية — الرومانية الفترة التى لم يكن منها بد لتمدين الغرب »[٤٤] .

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية — اليونانية وبين الحضارة البدائية ؛ فأما غالة فلم يكن فى وسعها أن تدافع عن هذا الحد ، وأما رومة فقد دافعت عنه ، وكان دفاعها هذا هو الذى حدد مجرى تاريخ أوربا إلى يومنا هذا .

الفصل الخامس

بريطانيا

عبر البحر من غالة حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . فرع من قبائل الكلت واستقر فى إنجلترا . وقد وجدوا فى تلك البلاد خليطا من شعب أسود الشعر لعله أيبيرى ، وشعب أشقر الشعر اسكندناوى . وغلب الكلت هؤلاء الأهلين على أمرهم ، وتزوجوا منهم ، وانتشروا فى إنجلترا وويلز . وحوالى عام ١٠٠ ق . م (ونغفل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجليلة الشأن من الذاكرة المزدحمة لكى تقربنا من عصرنا الحديث) أقبل فرع آخر من الكلت من داخل القارة وطرد بنى عمومته من جنوبى بريطانيا وشرقيها . ولما جاءها قيصر وجد سكان الجزيرة يتألفون من عدة قبائل مستقلة لكل منها ملك يريد أن يوسع مملكته الصغيرة ، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطانى Britanni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبى القناة الإنجليزية مباشرة ، ظنا منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين .

وكانت بريطانيا الكلتية شبيهة كل الشبه بغالة الكلتية فى عاداتها ولغتها ودينها ، ولكنها كانت متأخرة عنها فى حضارتها . وقد انتقلت من العصر البرنزى إلى العصر الحديدى قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أن بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون . ولما عبر بيثياس Pytheas ، المرتاد الماسليوتى Massiliot المحيط الأطلنطى إلى إنجلترا حوالى عام ٣٥٠ ق . م وجد بلدة كنتياى Cantii فى مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارتها ، فقد كانت تربتها خصبة بفضل الأمطار

الغزيرة ، وكانت أرضها تحتوى على خامات غنية بالنحاس ، والحديد ، القصدير ، والرصاص . وكانت صناعاتها المنزلية قبيل عهد قيصر تكفى لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التى تسكنها ومع القبائل الأوربية ، وضربت فيها نقود من البرنز والذهب[٤٥] . وكانت غارات قيصر فى واقع الأمر غارات استكشافية ، عاد منها ليؤكد إلى رومة أن القبائل التى تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة ، وأن غلاتها تكفى جيشاً غازياً يأتيها فى الوقت المناسب . وبعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٣ م) عبر كلوديوس القناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم ، ومهارتهم فوق طاقة السكان الأصليين ، فأخضعوا بريطانيا لرومة وأصبحت من ذلك الوقت ولاية تابعة لها . وفى عام ٦١ قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة ، وادعت أن ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتيها ، ونهبوا مملكتها ، وباعوا كثيراً من رجالها الأحرار فى سوق الرقيق . وبينا كان الحاكم الرومانى پولينس مشغولا فى الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بودكا الفيلق الوحيد الذى وقف فى وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium ، وكانت فى ذلك الوقت — على حد قول تاستس — « أهم مسكن للتجار ، كما كانت سوقاً كبرى للتجارة »[٤٦] . وقتل كل رومانى فى هذه المدينة أو فى ڤريولامنيوم Verulaminium (سانت أولبنز St. Aibans) ، وذُبح سبعون ألف رومانى هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقى پولينس وفيالقه بالثوار ، وحاربت بودكا وابنتاها فى عربة حربية بشجاعة نادرة فى أثناء هزيمتها ، ثم تجرعت السم ؛ وضربت بحد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين .

ويحدثنا تاستس عن أجركولا زوج ابنته وحاكم بريطانيا (٧٨ — ٥٤ م) فيروى كيف نشر الحضارة بين « شعب فظ مشتت ذى نزعة حربية » بإنشاء المدارس ، وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية ، وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد

المعابد ، والباسلقات ، والحمامات العامة ، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط : « واستحوذت مباهج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين ؛ فصارت الحمامات ، والحجرات الجميلة ، والمآدب الفخمة ، محببة إليهم ، وأخذ البريطانيون الغافلون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهذبة ؛ وإن لم تكن فى حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلا للاسترقاق » . واستطاع أجركولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الرومانى ، إلى ضفاف نهرى الكليد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من الأسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً ، ولو لم يدعه دومتيان ليواصل الزحف . وشاد هدريان سوراً (١٢٢ — ١٢٧) طوله سبعون ميلا فى عرض الجزيرة يمتد من خليج سلواى Solway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد الاسكتلنديين الذين كانوا يرتابون فى نواياه ؛ وبعد عشرين عاماً من ذلك الوقت أقام لوليوس Lollius فى شمال هذا السور سوراً آخر طوله ثلاثة وثلاثون ميلا يعرف بسور أنطونينس ويمتد بين مصبى الكليد والفورث . وبفضل هذين الحصنين استطاعت رومة أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين من الزمان .

وكان حكم رومة يزداد ليناً ورحمة كلما زاد استقراراً ، فأصبحت المدن تشرف عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف كما ترك فى غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . ولم تكن الحضارة فى بريطانيا حضارة مدن كما كانت فى إيطاليا ، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة ، ولكن المدن البريطانية أخذت وقتئذ أشكالا جديدة بفضل استنهاض رومة وحمايتها لها . وكانت أربع من هذه المدن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنية الرومانية وهى : كمولودونم Camulodunum (كلشستر Colchester) التى كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية ؛ ولندم Lindum التى يدل اسمها لنكولن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم ؛ وإبراكم Eboracum (يورك) وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً ؛ وجليفم Glevum ، التى

امتزج فى اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظا جليفم وشستر وثانى اللفظين هو اللفظ الإنجليزى السكسونى المقابل لكلمة مدينة(*) ؛ ويلوح أن تشستر ، وونشستر ، ودورشستر ، وشيشستر ، وليسستر (لستر) وسلشستر ، ومنشستر قد بدأت كلها فى القرنين الأول والثانى من حكم الرومان . وكانت فى أول الأمر بلدانا صغيرة يسكن كل منها حوالى ستة آلاف نفس ، ولكنها كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار ، وبأسواق عامة ، وباسلقات ، وهياكل ، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقراميد ، وكان فى فركونيوم Virconium (ركستر الحالية Wroxeter) باسلقا تتسع لستة آلاف شخص ، وحمامات تتسع لاستحمام مئات من الأشخاص فى وقت واحد . وكان فى أكوا سالس Aquae Salis (المياه الملحة) ، التى تعرف باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طيبا فى الزمن القديم كما يدل على ذلك ما بقى من آثار حماماتها الحارة إلى اليوم . وعلا شأن لندنيوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان ما أضحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم(٤٩) .

وكانت البيوت فى لندن الرومانية من الآجر والمصيص أما فى البلدان الصغيرة فكانت من الخشب ، وكان الجو هو الذى يحدد شكلها ، فكان لها سقف هرمى يقيها المطر والثلج ، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس ، « لأن الشمس » كما يقول استرابون « لم تكن ترى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتى فى اليوم الصحو »(٥٠) . أما داخلها فكان على الطراز الرومانى :— أرضه من الفسيفساء ، وبه حمامات كبيرة ، وجدران قائمة عمودية وتدفئة مركزية

(*) هفرفيلد Haverfield (٤٨) ؛ لكن أكثر من هذا قبولا أن اللفظ مشتق من كسترم Castrum اللاتينية ومعناها حصن ؛ أوكسترا Castra بمعنى معسكر . وقد خططت معظم المدن الرومانية — البريطانية على طراز رقعة الشطرنج كما كانت تخطط المعسكرات الرومانية .

« تزيد على ما كان منها فى البيوت الإيطالية) بأنابيب تحمل الهواء الساخن فى أرض البيت وجدرانه . وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض ، ويستخدم فى تدفئة البيوت ، وفى الأغراض الصناعيه كصهر الرصاص . ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت ملكا للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها[٥١] . وكان فى باث مصنع (فبريكا Fabrica لصنع الأسلحة الحديدية[٥٢] ، وأكبر الظن أن صناعات الخزف ، والآجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع فى المصانع ، ولكن معظم الصناعات كانت فى البيوت ، والحوانيت الصغيرة ، والدور ذات الحدائق . وكان فى الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية ، وعدد لا يحصى من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشيطة ، هذا فضلا عن تجارتها الخارجية المتواضعة التى كانت عكس تجارة بريطانيا فى هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة .

ترى إلى أى عمق نفذت الحضارة الرومانية فى حياة بريطانيا وروحها فى الأربعة القرون التى سيطرت فيها رومة على الجزيرة ؟ لقد صارت اللغة اللاتينية لغه السياسة ، والقانون ، والأدب ، والأقلية المتعلمة فى البلاد ، لكن اللسان الكلتى بقى سائداً فى الريف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن فى ويلز وفى جزيرة مان . ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة فى بريطانيا ، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية ، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية وبنيت هياكل للآلهة الرومانية ، ولكن الرجل العادى ظل يمجد الأرباب والأعياد الكلتية ، وحتى المدن الكبرى نفسها لم تمد رومة فيها جذورا باقية ، وكل ما فى الأمر أن الأهلين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا فى ظله بسلم مثمرة ورخاء لم تستمتع الجزيرة بمثله إلا أيام الانقلاب الصناعى .

الفصل السادس

البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتيبيريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بين الحادثات الهامة فى تاريخ أوربا . فلو أن رومة فتحت ألمانيا وصبغتها كما صبغت غالة بالصبغة الرومانية ، لكان لأوربا الواقعة فى غرب الروسيا كلها تقريباً نظام واحد ، ولربما قامت أوربا الوسطى فى هذه الحالة حاجزاً فى وجه تلك الجماعات الكبرى التى كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم إيطاليا .

ونحن نسميهم الألمان ، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الإسم ، وليس ثمة من يعرف مصدره(*) ، ولقد كانوا فى الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة فى ذلك الجزء من أوربا المحصور بين نهرى الرين والفستيولا Vistula ، وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطى . وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً فى القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانتقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعى إلى حياة الزراعة والقرى ، ولكنهم كانوا لايزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التى يفلحونها ، ثم يرحلون ليفتحوا بحد السيف أرضاً جديدة . ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألمانى وشرابه إذا جاز لنا أن نصدق قول تاستس :

« ليس شعار الألمانى هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يجنى المحصول فى موسمه ، بل إنك ليسهل عليك أن تقنعه بأن يهاجم عدوه ، ويتلقى فى جسمه الجراح الشريفة فى ميدان القتال . ويرى الألمانى أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

(*) كان الرومان يستخدمون كلمة جرمانس Germanus الوصفية (المشتقة من Germen بمعنى النسل) ويعنون بها « أبناء نفس الأبوين » . ولعلهم حين أطلقوها على الألمان كانوا يفكرون فى نظام القبائل التيوتونية القائم على صلة القبائل .

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الخاملين وأنه لا يليق قط بالجندى »(٥٣)

ولقد تحدث المؤرخ الرومانى عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة النساء وهن يحرضن الرجال على القتال ، ويحاربن إلى جنبهم فى كثير من الأحيان . وكان وهو يصفهم يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم ، ويغالى فى هذا الوصف مغالاة الواعظ والمعلم الأخلاق . ولقد كان الفرار من العدو يسربل من يرتكبه بعار لا يمحى مدى الحياة ، ويؤدى فى كثير من الأحيان إلى الانتحار . وقد وصف استرابون الألمان بأنهم « أشد بأساً وأطول قامة من الغاليين »(٦٤) . وكأن سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا نتائج منذرة بأسوأ النذر فقال : « إن الترف والثراء لا يزيدان هذه الأجسام القوية العنيفة ، وهذه التقوى التى لا تعنى قط باللذة ، إلا قليلا من التنظيم والحذق فى الحركات العسكرية — وحسبى هذا . ولن تستطيعوا (أيها الرومان) أن تقفوا فى وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آبائكم »(٥٥) .

ويروى تاستس أن أولئك الأقوام كانوا فى أيام السلم كسالى بلداء ، يقضى الرجال أوقاتهم (ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد) فى ملء بطونهم باللحم وشرب أنهار من الجعة ، بينا تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية(٥٦) . وكان الألمانى يشترى زوجته من أبيها بهدية من الماشية أو السلاح ، وكان له عليها وعلى أبنائهما حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة . لكن النساء رغم هذا كانت لهن عندهم مكانة عالية ؛ وكثيراً ما كان يطلب إليهن أن يفصلن فيما يشجر بين رجال القبيلة من منازعات ، وكان من حقهن أن يطلقن أزواجهن ، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن . وكان لبعض زعماء القبائل عدة أزواج ، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة ، ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعى مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية ، « فالزنى قلما كان يسمع به » عندهم ؛ وإذا ارتكبته المرأة عوقبت بقص شعرها والحكم عليها بأن تسير عارية فى الشوارع ، وأن تضرب بالسياط ، وهى تحاول

الفرار . وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شاءت[٥٨] ، ولكنها كانت فى العادة امرأة ولودا . وكان يندر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا ، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلا بعد جيل[٥٩] .

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات : (١) طبقة المقيدين وبعضهم عبيد وكثرتهم من أقنان الأرض المرتبطين بها ، والمفروض عليهم أن يؤدوا التزاماتهم للمالك من غلتها ؛ (٢) والمحررين — وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسة (٣) والأحرار — وهم الملاك والمحاربون ؛ (٤) والأشراف — وهم ملاك الأراضى الذين تتصل أنسابهم بالآلهة ، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرسهم الخاص (Comites أى الرفاق ، ومنها اشتقت كلمة كونت) . وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف ، ورجال الحرس ، والأحرار ، يأتون إليها مسلحين ، ويختارون الزعيم أو الملك ، ويوافقون على ما يعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض ، أو يرفضونها بزمجرة كثرة الحاضرين . وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التى برع فيها الألمان ؛ أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان ، وهى التى أنشأت نظام الفروسية فى ألمانيا الإقطاعية .

ولم يضف إلا قليل من البناء الثقافى فوق هذا النظام الاجتماعى الساذج . ولم يكد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المجسدة فى صورة الآدميين . ويسمى تاستس آلهتهم : المريخ Mars ، وعطارد Mercury ، وهرقل Herculies — والراجح أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هى تيو Tiu (تير Tyr) وودن Woden (أو ودن Odin) ، ودونار Donar (تور) ؛ ولا تزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكراها هى وفريا Freya إلاهة الحب ، على غير علم منا ، وكانت لهم إلاهة عذراء (هرثا Hertha) (الأم الأرض) ، التى حملت من أحد أرباب السماء ؛ كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

مختلفة من الجنيات ، والعفاريت الصغار والكبار ، وجن البحار ، والمردة ، والأقزام . وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن ، وربما كانت الحيوانات الألذ طعما من الآدميين تقرب إلى غيره من الأرباب ، وكانت الصلوات تقام فى الخلاء فى الغابات والغياض ، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة فى مسكن تشيده الأيدى البشرية . ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد Driuds عند الغاليين أو البريطانيين ، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات ، يرأسون الاحتفالات الدينية ، ويجلسون للفصل فى القضايا الجنائية ، ويتنبئون بالمستقبل بدراسة مهبل الجياد البيض وحركاتها . وكان عندهم كما كان فى غالة شعراء يتغنون فى شعر فج بأقاصيص قبائلهم وتاريخها . وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة ، وكيفت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التى تطورت منها الحروف القوطية وهى الحروف الألمانية الحديثة . وكان الفن عندهم بدائيا ، ولكنهم أخرجوا تحفا جميلة من الذهب .

ولما أن سحبت رومة فيالقها من ألمانيا احتفظت بسيطرتها على نهر الرين من منبعه إلى مصبه ، وقسمت هذا الوادى الفخم ولايتين — ألمانيا العليا وألمانيا السفلى ، وكانت ثانيتهما تشمل هولندة وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولونى . وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان باسم كولونيا أجربننس Colonia Agrippinansis قد جعلت ولاية (٥٠ م) تكريما لأم نيرون التى ولدت فيها ؛ ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاما حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين . أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب مخترقة مجنتياكم Maguntiacum (ماينس Mayence) ، وأكوا أوريليا Aquae Aureliae (بادن — بادن Baden-Baden) وأرجنتراتم Argentoratum (استراسبورج Strasbourg) وأغسطا رورکورم Ausgusta Rauricorum (أوغسط Augst) وتنتهى عند فندونسا VIndonissa (فندش Windisch) . وكان فى هذه المدن

جميعها تقريبا ما فى غيرها من الهياكل والباسلقات ، والملاهى ، والحمامات ، والتماثيل العامة . وكانت كثير من الفيالق التى ترسلها رومة لحراسة الرين تعيش خارج معسكراتها ، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات ، ويعيشون مواطنين فى تلك البلاد بعد أن تنتهى مدة خدمتهم العسكرية . والراجح أن بلاد الرين لم تكن فى أيام الرومان أقل سكانا أو غنى منها فى أى وقت قبل القرن التاسع عشر .

ولقد سبق القول إن مهندسى رومة العسكريين قد أنشئوا بين نهرى الرين والدانوب طريقاً محصنا ، وأقاموا على جانبيه قلاعا تبعد كل منها عن الأخرى تسعة أميال ، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلثمائة ميل . وأفاد هذا الطريق المحصن رومة مائة عام ، ولكنه لم يفدها شيئاً حين نقصت نسبة المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان . وكان نهر الدانوب الذى يعده الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حداً فاصلا بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية . وكان إلى جنوبه الولايات النصف الهمجية ريتيا ، ونوركم ، وپنونيا ، وهى الولايات التى تتكون منها البلاد التى كنا نعرفها فى شبابنا باسم دولتى النمسا والمجر والصرب . وقد أنشأ الرومان فى موضع أجزبرج Augsburg (أى بلدة أغسطس) الحديثة مستعمرة رومانية هى مستعمرة أغسطا فندلكورم Augusta Vindelicorum كانت هى المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق ممر برنر Brenner إلى نهر الدانوب . وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين عند ڤندوبونا Vindobona وهى مدينة ڤينا الحالية ، وعند أكونكم Aquincum على المرتفعات التى تشرف منها بودا Buda على بست Pest . وقامت مدينة سرميوم Sirmium (مترو ڤيكا Mitrovica) فى پنونيا الجنوبية الشرقية على نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة ، وصارت هذه المدينة فى أيام دقلديانوس إحدى عواصم الإمبراطورية الأربع . وقامت بفضل النشاط التجارى

لليونان ، والرومان ، والأهالى الوطنيين فى مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبى پنونيا ثغور البحر الأدرياوى وهى سالونا Salona (اسپلاتو Spalato الحديثة) وأپولونيا Appolonia (بالقرب من ڤالونا) ، وديرهكيوم Dyrrhachium (دورزو Durazzo الحديثة) . وكانت رومة الإمبراطورية تجند من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساما وأصلبهم عودا ، كما كانت تستمد منها فى القرن الثالث الأباطرة الحربيين الذين صدوا سيل البرابرة حوالى مائتى عام . وكان فى شرق پنونيا ولاية داشيا (رومانيا الحالية) ، وكانت عاصمتها سرمزجتوسا التى لم يعد لها الآن وجود . وكان فى جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية مئيزيا (وتشمل أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة) ، وكان فيها على الدانواب مدينتان كبيرتان هما سنجدنوم (بلغراد الحديثة) وترتزمس Troesmis (إجلتزا Iglitza) وثالثة بالقرب من نهر إسكر Isker وهى سرديكا Sardica (صوفيا الحالية) ، وثلاثة بلاد كبرى على البحر الأسود وهى إستروس Istrus ، وتومى Tomi (قسطنجة الحديثة) وأديسس Oddessus (وارنه Varna) . ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيوش الرومانية فى هذه المستقرات النكدة لكى تحافظ على كيانها ضد القوط ، والرومانيين ، والهون ، وغيرهم من القبائل المتبربرة التى أخذت تتكاثر وتتجول فى شمال النهر العظيم ، ولكن هذا الكفاح لم يجدها نفعا .

وكان عجز رومة عن تمدين هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذى أدى إلى سقوطها . فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعانى آلام الشيخوخة ، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف فى مهاد الراحة والعقم بينا كانت القبائل الضاربة فى الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهورا . فلما أن قدم تراجان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية النهاية ، ولما أن جاء ماركس أورليوس بآلاف من الألمان وأسكنهم داخل

الإمبراطورية ، انهارت الحواجز التى كانت تفصل بينهم وبين الرومان ، واستقبل الجنود الألمان فى الجيش الرومانى بالترحاب ، وارتقوا إلى مناصب القيادة . وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها فى إيطاليا بينا كانت الأسر الإيطالية آخذة فى الانقراض . وهكذا انعكست الآية فى هذه الحركة ، فأخذ البرابرة « يبربرون » رومة بعد أن كانت رومة تصبغهم بصبغتها . لكن عجز رومة عن ضم الشمال لحظيرة التراث الرومانى واليونانى القديم لم يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه . ففى هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب ، وكان فى وسع الناس أن يستبدلوا بسيوفهم محاريث من غير أن تنحل قواهم فى نعيم المدن وأحيائها القذرة . ونبتت فيما بعد حضارة جديدة فى أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة ، وأثمرت بذور قبور الطغيان ثمارها ، وعفا الدهر عن آثامها فى البلاد التى جاءت إليها الجحافل الغاشمة بقوانين رومة ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان الرومانية

الفصل الأول

أفلوطرخس

بذلت رومة جهدها لكى تكون كريمة فى معاملتها لبلاد اليونان ، ولم تخفق فى هذا الإخفاق كله ؛ فهى لم تضع حاميات من الجند فى ولاية آخية الجديدة ، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينتزعه جباتها من أهلها قبل مجىء الرومان إليها ؛ وتركت رومة دول المدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة ، وجعلت الكثير منها : كأثينة ، واسپارطة ، وپلاتية ، ودلفى وغيرها « مدناً حرة » ، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها فى أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات .

لكن بلاد اليونان كانت تتحرق شوقاً إلى حريتها ، كما أن القواد الرومان ، والمرابين ، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد ؛ ومن أجل هذا انضمت إلى ثورة مثرداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب ، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل ، ونهبت كنوز هيا كل دلفى ، وإليس ، وإپدورس .

وبعد جيل من ذلك الوقت تقاتل قيصر وپمپى ، ثم انطونيوس وبروتس ،

على أرض اليونان ، وجندوا أهلها فى جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها ، وجبوا فى عامين ضرائب عشرين عاماً ، وتركوا المدائن خاوية على عروشها . وانتعشت آسية اليونانية تحت حكم أغسطس ، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة ، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الرومانى بل كان هو الاستبداد الذى خنق أرواح الأهلين فى اسپارطة ، والحرية التى انحطت حتى أصبحت فوضى فى أثينة ، وما جره على البلاد عقم الرجال وجدب التربة من وبال . ذلك أن أكثر أبنائها جرأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضى التى كانت أغنى منها وأحدث استقلالا . وأدى قيام دول جديدة فى مصر ، وقرطاجنة ، وروما ، وقيام الصناعة فى بلاد الشرق الهلنستى إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة خاوية مهجورة . وكانت رومة تثقل اليونان بمديحها وتنهب روائع فنها : فقد أخذ منها اسكورس Scaurus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه ، وأرسل كلجيولا زوج عشيقته لينقب فى بلاد اليونان عن التماثيل ، ونهب نيرون وحده نصف ما فى دلفى من روائع النحت ؛ ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولى هدريان الملك .

وكانت إپيروس هى التى انصب عليها غضب رومة أول الأمر فى الحروب المقدونية ، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند ينهبونها ويعيثون فيها فساداً ، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً فى سوق الرقيق ؛ وبنى أغسطس عاصمة جديدة لإپيروس فى نيقوپوليس ليخلد ببنائها انتصاره فى أكتيوم القريبة منها . وما من شك فى أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأ ومعتصما لأن « مدينة النصر » آوت إپكتتس ، واستمعت إلى تعاليمه . وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوفية ؛ فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب ، وزادت حياتها التجارية نشاطا بفضل طريق إجناشيا Egnatia الذى كان يصلها هى وتراقية من أبلونيا ودير هكيوم إلى بيزنطية . وعلى هذا الطريق الرئيسى الذى لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

كانت تقوم أهم مدن الولاية : إدسا ، وپلا ، وثسالونيكا . وكانت هذه المدينة الأخيرة التي نعرفها نحن باسم سلانيك والتي كان اليونان يعرفونها باسمها القديم « نصر تساليا » عاصمة الولاية ، ومركز مجالسها ، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية . أما تراقية الواقعة في شرقها فقد اختصت نفسها بالزراعة ، والرعي ، والتعدين ؛ ولكنها كانت تشتمل على مدن كبيرة أهمها سرديكا Serdica (صوفيا Sofia) ، وفلپوپوليس Philippopolis عاصمتها ، وأدريانوپل (أدرنه) ، وپرنثس Perinthus ، وبيزنطية (اسطنبول الحاليـــة) . وهنا على القرن الذهبي ، كان التجار وصائدو السمك يجمعون ثروة طائلة بينا كان اليونان الذين يقطنون من ورائها في الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين . وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجيء إلى أرصفتها ، كما كانت جميع تجارة سكوذيا والبحر الأسود تؤدي المكوس وهي مارة بها ، ويكاد السمك لكثرته أن يقفز في الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور . ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قنسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليوناني — الروماني القديم .

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية في إنتاج القمح وتربية الجياد الجميلة . وقد وصف ديوكريسستم[1] جزيرة عوبية العظيمة التي أطلق عليها هذا الاسم (كما أطلق اسم بؤوشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل ، وصفها بأنها تعود إلى البربرية في القرن الثاني الميلادي . وقد تجمعت في هذا الإقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود سكانها الذين كانوا في يوم من الأيام شعباً زراعيا مطرد النماء والرخاء . وأهم هذه العوامل هي ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة في أيدي عدد قليل من الأسر ، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة ، وقلة النسل لأنانية الرجال وحبهم الثراء أو لفقرهم المدقع . وكانت نتيجة

هذا كله أن تركت الأرض مراعى للماشية فى داخل أسوار خلقيس وإرتريا نفسهما . ولم تكن بؤوشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها من الضرائب الباهظة أيام حروب سلا . ويقول استرابون « إن طيبة ليست إلا قرية صغيرة » ، قد انكمشت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذى لم يكن قبل إلا قلعتها . على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء إلى بلاتية ، واحتفظت قيرونية التى كسب فليپ سلا على سهولها إمبراطوريتين عظيمتين ما يكفى من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها . ويقول عنها هذا الإبن — أفلوطرخس — إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تضغر عنه بتركه إياها . وإنا لنجد فى حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرقة مبهجة من منظر نكد كئيب ، كما نجد فيه هو نفسه رجلا مهذباً من رجال الطبقة الوسطى مستمسكا بفضائل العهد القديم ، ينطوى قلبه على الإخلاص لبلده ، والوفاء لأصدقائه ، والحب لأبنائه .

وقصارى القول أنه ليس فى قصتنا كلها شخصية أظرف من شخصية أفلوطرخس القيرونيائى .

وكان مولده فى تلك البلدة حوالى عام ٤٦ م ووفاته فيها حوالى عام ١٢٦ . وكان يطلب العلم فى أثينة حين كان نيرون يوالى انتصاراته فى بلاد اليونان . وما من شك فى أنه كان واسع الثراء لأنه رحل إلى مصر وآسية الصغرى ، وطاف مرتين بإيطاليا . وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية فى رومة ، ويبدو أنه خدم بلده فى بعض الشئون الدبلوماسية . وكان يحب العاصمة العظيمة ، وآداب أشرافها الجدد ، وحياتهم الرقيقة ، ويعجب بقانونها الصارم ، ويقول مع إنيوس إن رومة قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية . وبينا هو يفكر فى أمر هؤلاء النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال رومة وأبطال اليونان . ولم يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سيراً فحسب ، بل كان يعتزم فوق هذا أن يعلم

الناس الفضيلة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ ؛ وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت فى ذهنه دروساً فى الأخلاق ، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقيا من كل قصة ؛ وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو . وهو يحدثنا فى سيرة الإسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ ، ويأمل أنه حين يجمع بين عظماء الرومان وعظماء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث فى نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب وللبطولة . وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا معه إلا أن نعفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين[٣] .

وليس من حقنا أن نتوقع فى كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته ؛ فكتابه ملىء بالأغلاط فى أسماء الناس ، والأمكنة ، والتواريخ ؛ وتراه أحياناً (إذا جاز لنا أن نصدر حكما عليه) يخطئ فى فهم الحوادث . بل إنه ليقصر فى واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سيَر — وهما أن يبين أن أى شيء فى أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الوراثة أو البيئة أو الظروف ، وأن يتتبع تطور أخلاقه خلال نموه ، وما يلقى عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات : بل إنا لنخرج من كتاب أفلوطرخس كما نخرج من كتاب هرقليطس بأن خلق الإنسان مقدر له . ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب « السير » ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب ، ذلك بأن هذه العيوب تختفى كلها فى روايته الواضحة ، وحوادثه المثيرة ، وقصصه الفاتنة الساحرة ، وتعليقاته الحكيمة ، وأسلوبه الجزل . وليس فى صفحاته البالغ عددها ألفاً وخمسمائة سطر واحد يحس القارئ أنه حشو لا ضرورة له ، بل إن كل جملة من جمله لها شأنها ومعناها . وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عظماء الرجال — منهم قواد عسكريون ، ومنهم شعراء وفلاسفة ، فقالت عنه السيدة رولان Roland « إنه مَرْبَع النفوس العظيمة »[٤] . وكتب عنه منتانى يقول :

« إنى لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتى »[٥] . وقد استمد منه شيكسپير كثيراً من قصصه ، وإن رأيه فى بروتس لمستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين . وكان نابليون يحمل كتاب « السير » أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً . ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد ويعدو به إلى فتح فرنسا . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أثمن من هذا الكتاب .

وبعد أن شاهد أفلوطرخس عالم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى قيرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنت واحدة ، وألقى محاضرات ، وألف كتباً ، وسافر إلى أثينة من حين إلى حين ، ولكنه قضى معظم وقته فى مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة . وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه لبلده أن يجمع بين المنصب الرسمى والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل ، واختاره مواطنوه مفتشاً للمبانى ، ثم كبير حكامها ثم بؤوتاركا Boeotarch أى عضواً فى المجلس الوطنى . وكان يرأس المواكب والاحتفالات البلدية ، وأصبح فى أوقات فراغه كاهناً فى مهبط الوحى فى دلفى ، وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود . وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل ، لأن أهم الأشياء فى رأيه ليست هى العقيدة ، بل هو التأييـــد الذى تستمده منها أخلاق الإنسان الضعيفة ، وما توجده أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة والدولة من روابط تبعث فيهما المزيد من القوة ، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هى أعمق تجارب الحياة . ولقد كان بفضل تسامحه الدينى وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن فى رسالته التى كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية[٦] . ومما قاله فى هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحده زمان ، يجل عن كل وصف ، بعيد عن الشئون الدنيوية والزمنية بُعداً يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

وتنظم شئونه . وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها . برأسها شيطان هو مصدر الفوضى جميعها وروحها ، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل فى الطبيعة وفى بنى الإنسان .

ويرى أفلوطرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص — بجنة ينعم فيها الأخيار ، ومطهر ، وجحيم يعذب فيه الأشرار . وكان من أسباب سلواه أن الإقامة فى المطهر قد تطهر أى إنسان مهما خبث حتى نيرون نفسه ، وأنه قلما يوجد فى الناس من يعذبون عذاباً سرمدياً[٧] . وكان يندد بالخرافات ويرى أن أهوالها شر من الكفر نفسه ، ولكنه كان يقبل العرافة والنبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبىء عن المستقبل : ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع ، بل كان يقول عن نفسه ، كما يقول أپوليوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم ، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون ويوفق بينها وبين زمانه . وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم ، وينتقد عيوب الرواقية ، ولكنه يرى ما يراه الرواقى من أن العمل بأوامر الله وإطاعة العقل شىء واحد[٨] .

وقد عنى المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسموها الآداب (Moralia) لأن معظمها مواعظ بسيطة لطيفة تبين ما تنطوى عليه الحياة من حكمة : وهى تبحث فى كل شىء ، من الحث على استبقاء كبار السن فى المناصب العامة إلى البحث فى أيهما أسبق الكتكوت أو البيضة . وأفلوطرخس مغرم بمكتبته ، ولكنه يقر بأن الصحة الجيدة خير من الكتب القيمة :

« من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الحانات يلتهمون ما فيها كأنهم يستعدون لحصار . . . إن أقل الأطعمة ثمناً هى على الدوام أكثرها نفعاً ... ولما عجز أردشير ممنون فى أثناء تقهقره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير

والتين صاح قائلا : « ما ألذ هذا الذى لم يكن لى من قبل ! » . . . والنبيذ أفيد المشروبات على شريطة أن يكون فى مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء . . . وأكثر ما يجب أن يخشاه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم لأنها تخمد العزيمة فى أول الأمر ، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم ، وخير ما يفعل الإنسان أن يعوّد جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى غيره من الطعام ؛ ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفورة من أشياء كثيرة لا تفيد فى التغذية فحسب ، بل تفيد كذلك راحة ومتعة أما وقد أصبحت العادة طبيعة ثانية غير طبيعية ، فإن تعاطى اللحوم يجب أن يكون . . . دعامة وسنداً لغذائنا ؛ وينبغى لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة . . . التى هى أكثر منها موافقة للطبيعة ، وأقل منها كلالة على شعلة التفكير التى توقد من مواد سهلة خفيفة إذا صح هذه التعبير(٩) .

وهو يحذو حذو أفلاطون فى الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء على السواء ، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات فى الأزمنة القديمة (ولقد كان هناك نساء مثقفات فى المحيط الذى يعيش فيه) ، ولكنه ينظر إلى زنى الرجل بنفس السهولة التى ينظر بها إليه الرجل الوثنى فيقول :

« إذا كان الرجل داعراً منهمكا فى ملذاته وزل مع عشيقة أو خادمة ، فلا يصح لزوجته أن تغتاظ لذلك أو تغضب ، بل يجب أن تعتقد أن احترامه لها هو الذى دفعه إلى أن يشرك فى فجوره امرأة غيرها »(١٠) .

لكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقاولات الممتعة الساحرة أحسسنا بعد قراءتها ، بأنا كنا فى صحبة رجل رقيق القلب ، طيب فى جوهره ، كامل فى رجولته ، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية . وإن اعتداله لهو الترياق الشافى من الهوى الفكرى الذى يغلب على عصرنا الحاضر ، وإن عقله المتزن ، وفكاهته اللطيفة ، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعاً لا نقوى على مقاومته حتى فى المواضع المبتذلة منها . وإن الإنسان لترتاح نفسه حين يجد فيلسوفاً أوتى من

الحكمة ما يكفى لإسعاده ، وينصحنا بأن علينا أن نحمد الله على ما فى الحياة من بركات ونعم عادية ، وألا نجعل دوامها سبباً فى قلة ابتهاجنا بها :

« يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التى نشترك فيها مع الكثيرين من الناس ، بل يجب . . . أن نبتهج لأننا نعيش ، وأننا أصحاء الأجسام ، وأننا نبصر ضوء الشمس . . . أليس من واجب الرجل الصالح أن يعدّ كل يوم عيداً ؟ . . . ذلك بأن العالم هو أجل المعابد وأجدرها بسيدها . فى هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده ، ولا تستقبله فيه تماثيل ساكنة من صنع الأيدى ، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهى لحواسنا . . . من بينها الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأنهار التى لا تنفك تصب الماء العذب صباً ، والأرض التى تخرج الطعام . . . وإذ كانت هذه الحياة هى أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية ، فإن علينا أن نكون على الدوام ممتلئين غبطة وبهجة » .

الفصل الثاني

صيف هندي

تتمثل فى أفلوطرخس حركتان قامتا فى عصره أولاهما العودة إلى الدين ، وثانيتهما انتهاء النهضة اليونانية فى الآداب والفلسفة . وعمت الحركة الأولى جميع بلاد اليونان ، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليونانى . وازدهرت فى هذه الأثناء ست مدن من مدائن البلوبونيز ، ولكنها لم تمد التفكير اليونانى إلا بالقليل . وهذه المدن هى مدينة باترى Patrae التى ظلت حية منتعشة خلال العصر الرومانى والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة الغربية وصناعة النسيج النشيطة : ومنها أولمبيا التى اثرت من أموال السياح الوافدين إليها لزيارة تمثال زيوس الذى صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب الأولمبية . ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التى كانت تقام مرة كل أربع سنين ، قد ظلت تقام من عام ٧٧٦ ق . م حتى عام ٣٩٤ م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius . كذلك ظل الفلاسفة والمؤرخون يفدون إليها كما كانوا يفدون فى أيام پروذكس وهيرودوت ليخطبوا فى الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب . ويصف ديوكريسستم المؤلفين وهم يقرءون « مؤلفاتهم السخيفة » للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون أشعارهم ، والخطباء يملئون الهواء بصخبهم و« السوفسطائيين الكثيرى العدد كأنهم طواويس تزهو بنفسها » ، وقد جاءوا لينفخوا ريحهم على الجماهير (١٢) . وقد برهن ديو كريسستم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صمتاً من سائر القادمين . ويصور إپكتتس النظارة وقد غصت بهم المواقف غير المظللة وهم يتصببون عرقا وتلفحهم الشمس أو يغرقهم المطر ، ولكنهم لا يعبئون بهذا ولا ذاك فى غمرة من الضجيج والعجيج التى كان ينتهى بها كل دور فى اللعب

أو شوط فى السباق[١٣]. وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean ، والبرزخية ، والبيثية Pythian ، والأثينية الجامعة تقام باستمرار ، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التى أقامها هدريان ، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات فى الشعر أو الخطابة أو الموسيقى . فها هى ذى شخصية من شخصيات لوشيان تسأل : « ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة فى الاحتفالات العظيمة ؟ »[١٤] وأدخلت الجالية الرومانية التى استوطنت كورنثة قتال المجالدين فى هذه الألعاب ، وما لبث هذا القتال أن انتشر من كورنثة إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيشس نفسه بهذه المذابح . واحتج كثيرون من اليونان — ديوكريسستم ، ولوشيان ، وأفلوطرخس — على هذا التدنيس ، وتقدم ، دمناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى إلى الأثينيين يرجوهم ألا يسمحوا بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذابح إلهة الرحمة فى أثينة[١٥] ، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام فى بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحى وكانت له السيادة فى تلك البلاد .

وكانت اسپارطة وأرجوس لا تزالان يسرى فيهما دم الحياة إلى حد ما ، وأثرت إپدورس من مال زوارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح اسكلبيوس . ولم يكد يمضى على كورنثة ، بعد أن أعاد قيصر بناءها ، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى باسمها أغنى المدن فى بلاد اليونان . وكان يسكنها خليط من الرومان ، واليونان ، والسوريين ، واليهود ، والمصريين انتزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى ، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيقورية ، وبفسادهم الخلقى . وكان هيكل أفرديتى بنديوس القديم سوقاً ذات تجارة رائجة ومركزاً للدعارة الكورنثية . ويصف أپوليوس Apuleius حفلة راقصة فخمة شهدها فى كورنثة مثلث فيها محاكمة پاريس و « ظهرت فيها ڤينوس عارية الجسم إلا من شعار رقيق يغطى خصرها النحيل الجميل ، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبث به فتدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى

الشمال »[١٦] . وهكذا لم تغير كورنثة أساليبها منــذ أيام أسپازيا .

فإذا انتقل الإنسان إلى أنكا عن طريق مجارا بدا الريف فى فقر مدقع اجتمعت فيه عوامل التعرية ، وتقطيع الغابات ، واستنزاف الثروة المعدنية ، إلى الحروب ، والهجرة ، والضرائب الفادحة وقلة النسل ، فأحالته فى عصر السلم الرومانية صحراء مجدبة . ولم يكن فى أتكا كلها إلا اثنتان من المدن ذوات الرخاء : إليسيز التى كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجماهير الغفيرة فى كل عام ، وأثينة المركز التعليمى والثقافى للعالم القديم . وكانت معاهدها ونظمها القديمة ــ المجلس ، والجمعية ، والأركونية ــ لا تزال تقوم بعملها ، كما أن رومة قد أعادت إلى مجلس الأريوبجس سلطته الأولى فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحصن حقوق الملكية الحصين . وكان الحكام أمثال أنتيخوس الرابع ، وهيرود الأكبر ، وأغسطس ، وهدريان ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أتكس Herodes Atticus فى هباتهم للمدينة ، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكد يُبقى منه شيئاً فى بنتلكس ، وأقام قاعة للموسيقى فى أسفل الأكروپوليس . وتبرع هدريان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمپيوم Olympieum ، وشاد لزيوس ، وكان وقتئذ على حافة القبر(*) ــ بيتاً خليقاً به فى عنفوان شبابه .

وفى هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة فى الآداب ، والفلسفة ، والتعليم ، وعدم وجود مدن أخرى تنافسها فى هذه الميادين ، قد جذبت إلى مدارسها عدداً جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين ، وكانت جامعتها تضم عشرة كراسى للأساتذة ينفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور ، فضلاً عن جيش جرار من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين . وكانت تلقى فيها دروس ومحاضرات فى الأدب ، وفقه اللغة ، والبيان ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والطب ، والقانون . وكانت تلقى عادة فى مدارس التدريب الرياضى أو دور التمثيل ، وأحياناً

(*) يقصد أن عبادته توشك أن تزول وأن تحل محلها المسيحية . (المترجم)

فى المعابد أو البيوت. ولم يكن يراعى فى منهاج هذه المواد بأجمعها ، عدا الخطابة والقانون ، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه ، بل كان يهدف بدلا من هذا إلى شحذ ذهنه ، وتقوية إدراكه ، وإمداده بقانون أخلاقى. وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عدداً كبيراً من ذوى العقول النابهة ، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدليين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ ، والذين حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يعرف لها أول ولا آخر .

وإذ كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها ، فقد كانت صابرة على نزقهم وطيشهم . كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاح عملى يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين فى بعض الأحيان ؛ وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم ، ويهاجم بعضهم بعضاً ، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذى يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصى . وكان بعض الطلبة يحسبون أن فى مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرين أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة ، ويشير ألسفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كن ينظرن إلى الأساتذة نظرتهن إلى منافسين لهن بلداء عاجزين[١٧] . غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية ، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام ، ويرشدونهم إلى ما يقرءون ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويحرصون على أن يبقى آباؤهم مخدوعين فى مبلغ تقدمهم . وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التى يؤديها لهم طلبتهم ، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة ؛ فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) فى السنة من الخزانة الإمبراطورية .

ومن هذه الدوافع نشأ عصر « السوفسطائية الثانية » — الذى عاد فيه إلى الظهور الخطيب — الفيلسوف الذى يتنقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعى

الكسب ، يلقى الخطب ، ويعلم التلاميذ ، ويترافع فى المحاكم عن المتقاضين ، ويعيش فى بيوت الأغنياء مستشاراً روحيا ، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرما لدولة — مدينته . وازدهرت هذه الحركة فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة فى العالم اليونانى ، فى خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادى ، وقد وصفهم ديو بقوله إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يقلون عدداً عن الأساكفة(١٧) . ولم يكن لهؤلاء السوفسطائيين الجدد ، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين ، مبادئ مشتركة بينهم ، وكانوا يصوغون تعاليمهم فى عبارات بليغة ، ويجتذبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين ، ويصلون فى كثير من الأحيان إلى مراكز عالية فى المجتمع . وينالون رضاء الأباطرة ، ويجمعون ثروات طائلة . وكانوا يختلفون عن السوفسطائيين الأقدمين فى أنهم قلما كانوا يتعرضون لشئون الدين أو الأخلاق ؛ بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب ، والفن الخطابى والحذق فيه ، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التى زعزعت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية . والحق أن السوفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم ، ولقد احتفظ لنا فيلوستراتس Philostratus بتراجم زعماء السوفسطائيين فى ذلك العصر ، وحسبنا أن نضرب مثلا واحداً منهم . كان أدريان Adrian الصورى يدرس البيان فى أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة . وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقة » . وكان يأتى إلى محاضراته راكباً عربة تجرها جياد ذات عدة من الفضة ، وعليه ثياب غالية تتلألأ فيها الجواهر . ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة فى موضوع صعب . واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هدريان يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم ، من ذهب ، وفضة ، وبيوت وعبيد . ولما ارتقى أستاذا للبيان فى رومة ، كانت محاضراته جذابة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يؤجلون جلساته وجمهور السكان

يتركون دور التمثيل ، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية[١٩] . وتلك خطة تكاد تؤذن بموت الفلسفة ، فقد طغى عليها سيل البيان ، وغادرها التفكير حين تعلمت الكلام .

وكان الطرف الآخر جماعة الكلبيين . ولقد وصفناهم فى غير هذا المكان — وصفنا ثيابهم الممزقة ، وشعرهم الأشعث ، ولحيتهم الكثة ، وجعبتهم وعكازهم ، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور ، وإلى الفحش فى بعض الأحيان . وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين ، فى ظل نظام كهنوتى فيه مبتدئون ورؤساء أعلون[٢٠] ، ولا يتزوجون ولا يعملون ، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة ، ويشهرون بالحكومات كلها على اختلاف أنواعها ، ويرون أنها بأجمعها عديمة النفع ، لا تعدو أن تكون تلصصاً سافراً ، ويستهزئون بالنبوءات ، و « الطقوس الخفية » والأرباب . وكان الناس كلهم يهجونهم ، وخاصة لوشيان ، فقد صب عليهم أقذع هجاء ، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بدموناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى المثقف الذى خرج عن كل ثروته ليعيش فى فقر فلسفى ، والذى وهب حياته الطويلة التى دامت قرناً كاملا (٥٠ — ١٥٠ م) لمساعدة غيره من الناس ، وإزالة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية ، حتى لقد عظمته أثينة رغم أنها كانت تسخر من كل شىء . ولما اتهم أمام محكمة أثينة بأنه يرفض تقريب القرابين للآلهة ، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرابين ، وإن الدين لينحصر فى الحنو على جميع الخلق ، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه .

ولما أن تورطت الجمعية الأثينية فى نزاع حزبى كان ظهوره فيها كافيا لفض النزاع ، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان من عادته فى شيخوخته أن يدخل أى بيت من غير دعوة ، ويطعم فيه وينام . وكان كل بيت فى أثينة يسعى لأن ينال هذا الشرف[٢١] . ويتحدث لوشيان بعطف

أقل من هذا العطف على پرجرينس Peregrinns الذى جرب المسيحية ثم خرج عليها وانضم إلى جماعة الكلبيين ، وندد برومة ، وحرض بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين فى أولمبيا بأن جمع محرقته بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق فى لهيبها (١٦٥م[٢٢]) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون يمهـــدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية .

ولما أنشأ ڤسبازيان ، وهدريان ، وماركس أورليوس كراسىَ للفلسفة فى أثينة ، أغفلوا الكلبيين والمتشككة ، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع : الأكاديمية الأفلاطونية ، واللوقيون الأرسطوطبلية ، والرواقية ، والأبيقورية . وكانت الأكاديمية قد وسعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنسانى حتى استحال إلى الشك العام الذى قال به كرنيديز Carneades ، فلما أن مات هذا الفيلسوف المتشكك عادت هذه المدرسة فالت إلى النزعة الأصلية ، ورجع أنتيخوس العسقلانى الذى كان يعلم شيشرون فى المجمع العلمى (٧٩ ق . م) إلى آراء أفلاطون فى العقل ، والخلود ، والله . وكانت اللوقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جرياً على سنة ثيوفراسطس ، أو على كتابة الشروح والتعليقات فى ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو . أما مدرسة أبيقور فكانت فى هذا العصر الدينى سائرة فى طريق الاضمحلال ، وقلما كان أحد من الناس يجرؤ على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهر بتحفظات دبلوماسية . وكانت ألفاظ أبيقورى ، وكافر ، ومسيحى فى معظم بلاد آسية كلها ألفاظاً مترادفة ، تعبر عن الهلع والدنس[٢٣] .

وقد كانت للفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خففت حدته على يدى پانيتيوس وپوسيدونيوس ، وكلاهما من مواطنى رودس . فأما پانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سپيو (١٢٩ق . م) وأصبح

وقتئذ رئيس الاستوا Stoa ، وعرّف الله بأنه روح مادية أو نَفَس مادى (pneuma) ، يسرى فى الأشياء جميعها ، ويظهر فى النبات فى صورة قوة النماء ، وفى الحيوان على هيئة النفس psyche ، وفى الإنسان على هيئة العقل logos . وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفلسفة الدينية على أيدى خلفائه ، واقتربت نظرية التأديب الأخلاقى الرواقية من الزهد الكلبي حتى أضحت الكلبية فى القرن الثانى الميلادى وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا فى ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب . ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدى إپكتتس وماركس أورليوس .

الفصل الثالث

إبكتتس

وُلد إبكتتس فى هيرابوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام ٥٠م ، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً . ولم تتح له فرصة للتعلم لأنه صار يتنقل من سيد إلى سيد ، ومن مدينة إلى مدينة ، حتى وجد نفسه مملوكا لإيفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة فى بلاط نيرون . وكان ضعيف الجسم أعرج ؛ ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أسياده ، ولكنه عاش السبعين عاما التى يعيشها الرجل العادى . وقد سمح له إيفرديتس أن يستمع إلى محاضرات موسنيوس روفس ، ثم حرره فيما بعد . وما من شك فى إن إبكتتس قد اشتغل معلماً فى رومة ، لأنه كان بين من فروا منها حين نفى دومتيان الفلاسفة . ثم استقر فى نقوپوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدى الذى أصبح فيما بعد حاكم كپدوكيا . وقد دوّن أريان عبارات إبكتتس ، وأكبر الظن أنه دوّنها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أى عبارات « ممسوحة » أو نسخ — وهى التى تذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب فى العالم بعنوان أحاديث Discourses(*) وليس هذا الكتاب رسالة ثقيلة مملة بل هى حديث بسيط جيد ، وفكاهة حلوة ، تكشف فى وضوح عن خُلق متواضع حنون ، ولكنه خلق قوى صارم . وكان إبكتتس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء ، ويسخر فى مرح من أسلوبه الجاف الخالى من التنميق . ولم يشك قط حين سمع دمناكس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج ، وأراد أن يسخر منه فتقدم

(*) وأصدر أريان فيما بعد كتابا آخر باسم Encheiridion أو « الموجز » لإبكتتس .

إليه يخطب ابنته . وقد برّر عدم زواجه بحجة أن فى تعليم الفلسفة خدمة لا تقل عظمة عن ولادة « طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف » . واتخذ لنفسه فى آخر أيامه زوجة تساعده على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلباب الجو . وذاع صيته فى جمع أنحاء الإمبراطورية فى تلك الأيام ، وكان هدريان يعدّه من بين أصدقائه .

وكان إپكتتس شبيها بسقراط فى هذا وفى نواح أخرى كثيرة ، ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكرى ، بل كان موضوعه الأوحد الذى يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة الصالحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « ماذا يهمنى من أن تكون الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات . . . أو من النار والتراب ؟ أليس يكفينى أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ »[٢٥] . وليست الفلسفة فى رأيه هى قراءة ما فى الكتب من الحكمة ، بل هى تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة . وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر . وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف النساك ، بل إن « الأبيقوريين ، وأسافل الناس » ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة ؛ والرجل الصالح يقوم بنصيبه فى الشئون المدنية ، ولكنه يرضى ، وهو هادئ مطمئن ، بجميع صروف الزمان : من فقر ، وحرمان ، وإذلال ، وألم ، ورق ، وسجن ، وموت . ويعرف كيف « يصبر وينبذ » .

« لا تقل عن شىء ما » « إننى فقدته » بل قل فقط « إننى رددته » : هل مات لك طفل ؟ لقد رُدّ . هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « لقد اغتصبت منى مزرعتى » . حسن جداً ، هذه أيضاً قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . . . « أسفى على أننى أعرج ! » أيها العبد !

أتؤنّب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة ؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ . . . وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسما هادئا ؟ . . . « سألقيك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ؛ وسأموت حتما ، فهل يجب إذن أن أموت شاكيا ؟ . . . تلك هى الدروس التى يجب أن تبدئها الفلسفة وتعيدها ، وتدونها كل يوم ، وتمارسها . . . ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين ، أحدهما عال والآخر منخفض ، ولكن هدفك الأخلاقى يجب أن يكون واحداً فى كلتا الحالين[٢٧] .

« وفى مقدور العبد أن يكون حر الروح كديچين ، وفى وسع السجين أن يكون حراً كسقراط ، وقد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون[٢٨] ؛ وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً فى حياة الرجل الصالح ، فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرجح كثيراً على الخير[٢٩] . وخليق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء ، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكنونة .

« لو أن سنابل الحب كان لها إحساس ، فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ ... إنى أحب أن تعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة . . . إن السفينة تغرق ، فماذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . . . فسأغرق دون أن أخشى شيئا أو أن أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يهلك . ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . علىّ أن أجىء كما تجىء الساعة ، وأن أنقضى كما تنقضى[٣٠] . . . يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى تتكون منها الثوب[٣١] ... لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة »[٣٢]

وكثيراً ما يتحدث إپكتتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية ،

ولكنه فى كثير من الأحيان أيضاً يجعـــل لفكرته عن الطبيعة شخصية ، وذكاء ، وعاطفة حب . وترى الجو الدينى الذى كان يسود عصره يغمر فلسفته ويحيلها تقوى مستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذى قرأ فلسفته وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل . فهو يتحدث حديثاً بليغاً رقيقاً عن النظام الفخم الذى يسود الزمان والمكان ، وعما فى الطبيعة من خطط موضوعة ، ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن « الله قد خلق بعض الحيوانات لكى يُؤكل ، وبعضها الآخر لكى يعمل فى المزارع ، وبعضها لكى يخرج الجبن »[٣٣] ، وهو يعتقد أن العقل البشرى نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجدها إلا إله خالق ؛ وإننا وقد وجدت لنا عقول لا بد أن نكون فى الواقع أجزاء من العقل العالمى . ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا أنه من أبناء الله ؛ فالله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفى للفظ الأبوة ، والناس كلهم إخوة[٣٤] .

« لم يحجم من راقب تصريف شئون العالم وفهمها وعرف أن أعظم المجتمعات وأوسعها هو نظام (سستيما Systema أى الوقوف الإجماعى) الخلق والله ، وأن الله هو الذى انبعثت منه الأصول التى نشأت منها جميع الأشياء وخاصة الكائنات العاقلة ، لم يحجم عن أن يسمى نفسه مواطناً عالمياً . . . أو بعبارة أصح . ابن الله ؟ وإذا استطاع إنسان أن يؤمن بهذا المبدإ بقلبه وروحه . . . فأكبر ظنى أنه لن تخالجه قط فكرة دنيئة أو غير شريفة . . . فلا تنس إذن وأنت تأكل ، من أنت الذى يأكل ، ومن هو الذى تغذية ؛ وإذا ضاجعت النساء فاذكر من أنت الذى تفعل هذا . . . إنك تحمل الله معك . . . أنت أيها التعس المسكين ، وإن كنت لا تعرف ! »[٣٥]

ويحث إپكتتس طلابه فى فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولس أن يسلموا إرادتهم لله فى ثقة واطمئنان ، وألا يقتصروا على هذا بل يكونوا فضلا عن ذلك رسلا لله بين بنى الإنسان فيقول :

يقول الله : « اذهبوا وكونوا شهداء لى على الناس »[٣٦] . . . وفكروا فى المعنى الذى ينطوى عليه قولكم : « لقد بعثنى الله إلى العالم لأكون جند من جنوده وشاهداً من شهوده ، ولأخبر الناس أن أحزانهم ومخاوفهم عبث وبطلان ، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب ، حيا كان أو ميتاً . والله يبعثنى يوما هنا ويوما هناك ، ويؤدبنى بالفقر وبالسجن لكى أكون شاهداً حقاً له بين الناس . وإذا ما قمت بهذه الرسالة ، فهل يعنينى أى مكان أكون فيه ، أو مَن يكون رفاقى ، أو ماذا يقال عنى أجل ، ألا تكون فطرتى كلها منجذبة نحو الله ، ونحو شرائعه ووصاياه[٣٧]

أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولألاؤها يملآنه رهبة وشكراً . وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تعد من أورع الفقرات فى تاريخ الأديان :

« أية لغة نرقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية ؟ . . . أفما كان خليقاً بنا ، لو كانت لنا عقول ، أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإله والتسبيح بحمده ، والتحدث بنعمه ؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلحها ، ونأكل من ثمارها ، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه ؟ — وماذا بعد هذا ؟ — أما وقد أصبحت كثرتكم الغالبة عمياء ، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب بدلا منكم ، وينوب عنكم جميعاً فى التغنى بمدح الله ؟ »[٣٨] .

إنا لنجد فى هذه الفقرات تشابها عجيباً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى ، وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود ، وإن كان فى وسعنا أن نرجع بها جميعا إلى عقائد الرواقيين والكلبيين . والحق أن إبكتتس ليتقدم أحيانا على المسيحية ؛ يتقدم عليها فى تنديده بالاسترقاق ، وفى وجوب تحريم عقوبة الإعدام ، وفى مناداته بأن يعامل المجرمون على أنهم مرضى يحتاجون إلى العلاج[٣٩] . وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم فى كل يوم من

حياتهم[٤٠] ، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية : « لا تكن سبباً في أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت »[٤١] ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث السوء ، فلا تدافع عن نفسك بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبى لما ذكر هذه وحدها »[٤٢] . وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان ، « وألا يردوا الشتم إذا شُتموا ! »[٤٤] ، وأن يصوموا من حين إلى حين ، وأن « يمتنعوا عما يشتهون »[٤٥] . وتراه أحيانا يتحدث عن الجسم باحتقار مزر كالذى يتحدث به عنه الناسك الذى لم يتطهر بعد من ذنوبه : « إن الجسم أقذر الأشياء جميعاً وأخبثها . . . ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشىء ونؤدى له هذه الخدمات العجيبة فى كل يوم . أنا أملأ هذا الكيس ، ثم أفرغه ، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة ؟ »[٤٦] .

ومن أقوال إپكتتس فقرات تنطق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman : « تصرّف فىّ يارب كما تشاء ؛ إن عقلى منك وإليك ؛ وأنا ملك لك . ولست أطلب أن أعفى من شىء ترى أنت أنه خير . اهدنى إلى حيث تريد ، واكسنى بما تشاء من الثياب »[٤٧] ، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بألا يهتموا بأمر غد :

« إذا كان الله خالقنا ، وأبانا ، وولينا — أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس : من أين أُطعم إذا لم يكن عندى ما أُطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكتفى كل منها بنفسه ، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام ، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبقته من أساليب الحياة ؟ »

وهل من عجب بعد هذا أن يثنى عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريسستوم وأوغسطين ، وأن يتخذ كتابه « الموجز » بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء فى الأديرة ومرشداً لهن ؟[٤٩] . ومن يدرى ، لعل إپكتتس قد قرأ أقوال عيسى فى صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه .

الفصل الرابع

لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك پروتجوراس ، وكان فيها لوشيان يسخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرستبس ، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أساليب أفلاطون . ولم تكن مدرسة بيرو Pyrrho قد ماتت بعد ، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسى صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى ، وذلك فى « الأساليب » Tropoi العشرة أو المتناقضات التى تجعل المعرفة مستحيلة(*) . وفى أواخر القرن الثانى صاغ سكستس إمپركس Sextus Empiricus ، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً . فلسفة المتشككة فى شكلها الأخير وضمنها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة . ويتخذ سكستس العالم كله عدوًّا له ، ويقسم الفلاسفة أجناساً مختلفة ، ويقضى عليهم واحداً

(*) منها (١) أن أعضاء الحس (كالعينين) فى الحيوانات المختلفة ، بل وفى الآدميين المختلفين ، تختلف فى شكلها وتركيبها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة . وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟ (٢) وأن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس كجزء محدد من الألون ، والأصوات والروائح ؛ وما من شك فى أن الصورة الذهنية التى تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها (٣) وأن هذه الحواس قد تتعارض إحداها مع حاسة أخرى (٤) وأن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ ، بحالتنا الجسمية والعقلية : حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكره أو الحب ، (٦) وأن مظهر الشىء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التى تحيط به — من ضوء ، وهواء ، وبرد ، وحر ، ورطوبة الخ ، فأى مظاهره هو الصحيح ؟ (٨) وأن لاشىء يمكن معرفته بنفسه أو معرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشىء آخر أى بوصفه جزءاً من كل (١٠) وأن عقائد الفرد موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم ، والقوانين التى نشأ فيها ، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً .

بعد واحد ، ويكتب بالقوة الخليقة بالجلادين ، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلسفة القديمة ، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكئيب .

ويقول سكستس إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن تجد فى آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل . والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل ؛ ولكن الاستقراء الكامل مستحيل ، لأنا لا نستطيع أن نتبين متى يظهر أمامنا « مثل سلبى »[٥١] . وليست « العلة » إلا سابقة منتظمة (كما يكرر هيوم Hume) ، والمعرفة كلها نسبية[٥٢] . كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعى ، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد[٥٣] ، وللفضيلة فى كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها في كل جيل آخر . وإنك لتجد فى أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التى أدلى بها فى القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده . كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية[٥٤] . ولكن سكتس أكمل لاأدرية من اللاأدريين ، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف . ويقول إن اللاأدرية عقيدة[٥٥] ، ولكنه يواسينا بقوله إننا لسنا فى حاجة إلى الحقيقة المؤكدة ، وإن فى الترجيح ما يفى بجميع أغراضنا العملية ، وإن تعليق الحكم فى المسائل الفلسفية بدل إزعاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia)[٥٦] ، وإذ لم يكن ثمة شىء مؤكد فلنقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما ، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين[٥٧] .

ولو أن لوشيان قد أوتى من الحمق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المتشككة . وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها ڤلتير الذى يشبهه فى كل شىء إلا فى عطف ڤلتير وحنانه ، يكتبها بأسلوب بلغ من

الإشراق والوضوح حداً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة . وكان مولده فى سموساتا Samosata من أعمال كمجينى Commagene البعيدة ، وكأنه قد ولد فى هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية . وقد قال عن نفسه : «أنا سورى من بلاد الفرات» . وكانت لغته الأصلية هى السريانية ، وأكبر الظن أن الدم الذى كان يجرى فى عروقه هو الدم السامى(٥٨) . ثم ارسل ليتمرن على النحت عند مثال ، ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة ؛ وبعد أن أقام فى أنطاكية يمارس صناعة المحاماة شرع يتجول فى الطرقات كما يفعـــل «العالم المستقل» ، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات ، وخاصة فى رومة وغالة ؛ ثم ألقى عصا التسيار فى أثينة (عام ١٦٥م) ، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر فى آخر أيامه ، وعين المتشكك غير المحترم فى منصب رسمى فى مصر ، حيث مات فى تاريخ غير معروف .

وقد أبقت الأيام على ستة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة ، وكثير منها لا يقل جدة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقرؤها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان : وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف . وقد بلغ كتابه *محاورات الحظيات* من التحرر درجة جعلت له كثيرين من القراء ، ولكنه كان فى كتبه على الأقل أكثر انهما كا الآلهة منه فى الحظيات ؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن . ويقول فى كتابه هذا على لسان منپس Menippus : «كنت وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيود عن الآلهة — الآلهة الزانين ، الآلهة الجشعين النهابين ، الآلهة العنيفين المتنازعين ، مرتكبى الفحشاء مع المحارم ؛ ولم أكن أجد فى هذا كله مأخذاً ، بل إنى فى واقع الأمر وجدت فيه متعة عظيمة ؛ ولكنى حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة ، فتحرم الزنى والسلب والنهب» :

وتحيّر منبس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمور ، ولكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يفند حجج غيره ، فلم يزيدوه إلا حيرة واضطرابا ، ولم ير بدأ من أن يصنع له جناحين ، ويطير بهما إلى السماء ، ويفحص عن الأمر بنفسه . واستقبله زيوس أحسن استقبال ، وأكرم وفادته ، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمبس . وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهي تأتي إليه من « صف من الفتحات لها أغطية كأغطية الآبار . . . وكان من بين الخلق الذين يعملون في البحار رجل يطلب ريحاً شمالية وآخر يطلب ريحاً جنوبية . وكان الزارع يدعوه ليرسل إليه المطر ، والقصار يدعوه أن يرسل إليه الشمس . . . وخيل إلى الرجل أن زيوس قد تحير في أمره ، لا يعرف أي دعاء يستجيب له ، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين ، وأظهر من التريث والاتزان ما هو خليق بپيرو نفسه »(٥٩) . ثم يرفض الإله بعض المطالب ، ويستجيب لبعضها الآخر ، ثم ينظم طقس اليوم : فيرسل المطر إلى سكوذيا ، والثلج إلى بلاد اليونان ، والعواصف إلى البحر الأدرياوي ، و « يصرخ صرخة تبعث بعشرين مكيالا من البرد إلى كپدوكيا » . ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغريبة التي تسللت إلى مجمع آلهته ؛ فيصدر أمراً يقول فيه إن جبل أولمبس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذي نشربه ، وأخرجت منه الآلهة القديمة ، التي هي دون غيرها الآلهة الحقة ؛ ولهذا فإن لجنة من سبعة ستشكل لتنظر في مطالب الآلهة .

وفي كتاب **التحقيق مع زيوس** يسأله فيلسوف أبيقوري : هل الآلهة هي الأخرى خاضعة للأقدار ؟ فيجيب جوف الظريف بقوله : نعم . فسأله الفيلسوف : « ولم إذن يقرب الآدميون لك القرابين ؟ . وإذا كان القدر هو المسيطر على الآدميين والأرباب ، فلم نكون مسئولين عن أعمالنا ؟ » ، فيرد عليه زيوس بقوله : « يتبين لي أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة

السوفسطائيين »(٦٠) ؛ وفى *زيوس تراجودس* Zeus Tragoedus ترى الإله مكتئبا ساخطا لأنه يرى جمعا محتشداً فى أثينة يستمع إلى داميس Damis الأبيقورى ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق ، بينا يؤكد ذلك تمكليز Temocles الرواقى . ثم ينهزم تمكليز ويفر من الميدان ، وييأس زيوس من مستقبله ، ولكن هرمس يواسيه بقوله : « لا يزال فى الأرض كثيرون من المؤمنين ، هم الكثرة الغالبة من اليونان ، أواسط الشعب وسفلته ، والبرابرة على بكرة أبيهم »(٦١) . ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا ، وفى ذلك دليل إما على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر وإما على قرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود .

وكان لوشيان يتشكك فى قيمة البلاغة والفلسفة تشككه فى الدين القديم . ففى إحدى *محاورات الموتى* يأمر كارون Charon أحد البلغاء ، وهو ينقله إلى الدار الآخرة ، « أن تثير ما بلغك من طول الجمل الذى لا آخر له ، ومن الطباق والمقابلة والعبارات المتوازنة » — وإلا غرق القارب حتما(٦٢) . وفى *هرموتمس* Hermotimus ترى طالبا يبدأ دراسة الفلسفة متحمسا لها راجيا أن يستعيض بها بعض الاستعاضة عن الإيمان ، ولكنه يصطدم بما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشره ، ويتركه هؤلاء المعلمون عاريا ذهنيا وخاقيا ، لأن كل فريق منهم يقضى وقته فى دحض حجج الفريق الآخر ، ولهذا « سأبتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب » على حد قوله فى ختام حديثه(٦٣) . ويعرّف لوشيان نفسه الفلسفة بأنها محاولة « للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات »(٦٤) . وتبدو له الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف ، أو جوقة مضطربة مختلة النظام ، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كل كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد واحد(٦٥) . ويصوّر

فى « كارون » منظر البشر ، كما تراهم عين فوق عين الآدميين من قمة سماوية عالية ، صورة حالكة السواد : صورة خلائق يفلحون الأرض، ويكدحون، ويتنازعون ، ويتقاضون فى المحاكم ، ويرابون ، ويَغشّون ويُغشّون ، ويجرون وراء الذهب أو اللذة . وفوق رؤوسهم سحابة من الآمال والمخاوف ، والحمق ، والكره ، ومن فوق هذه كلها تغزل الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية ؛ فإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الحضيض ، وكل إنسان يسحبه بدوره رسول من رسل الموت . ويبصر كارون جيشين يقتتلان فى أرض البلوبونيز ، فيعلق على قتالهم بقوله : « ما أشد حمق هؤلاء ! إن كلا منهم لا يعرف أنه وإن كسب البلوبونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض »[٦٦] . ولوشيان لا يحابى أحداً شأنه فى هذا شأن الطبيعة نفسها ، فهو يهجو الأغنياء لشرههم ، والفقراء لحسدهم ، والفلاسفة لشراكهم ، والآلهة لعدم وجودهم . ويختم حديثه فى آخر الأمر بما يختم به ڤلتير حديثه وهو أنه ينبغى للإنسان أن يزرع حديقته . فمنبس Menippus يجد تيرسياس Teiesias فى الدار السفلى ويسأله : ما خير أنواع الحياة ؟ فيجيبه النبى الشيخ بقوله :

إن حياة الرجل العادى خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ؛ وإياك وسخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث فى أصول الأشياء وغاياتها ؛ ولا تحسبن هذا المنطق كله إلا هراء فى هراء ، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهى كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله ؛ وسر فى طريقك دون أن تنفعل قط وعلى فمك ابتسامة على الدوام[٦٧] .

وقصارى القول أن التفكير اليونانى فى القرنين الأولين من التاريخ الميلادى تطغى عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه . لقد خسر الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراعاً إلى الإيمان . ذلك أن الفلسفة اليونانية

كانت قد أتمت دورتها مبتدئة باللاهوت البدائى ، ثم انتقلت منه إلى تشكك السوفسطائيين الأولين ، ثم إلى كفر دمقريطس ، فمداهنة أفلاطون ومحاولته التوفيق بين النزعتين ، فنزعة أرسطو الطبيعية ، فعقيدة وحدة الله والكون التى كانت تنادى بها الاستوا ، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام والتقوى . أما المجمع العلمى فقد انتقل من أساطير مؤسسة النفعية عن طريق تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلوطرخس القائم على العلم . ولا يلبث أن يبلغ الذروة فى رؤى بلوتنس السماوية . لقد نسى الناس كشوف فيثاغورس العلمية العظيمة ، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ تحيا حياة جديدة ، فكان النيثاغوريون الجدد ينقبون فيما تنطوى عليه الأعداد من أسرار خفية ، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنسانى ، ويدعون الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك مع الله بعد أن يمروا بالمطهر — إن كان لا بد لهم أن يمروا به[٦٨] . وكانت الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفتخرة المستهزئة ، وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً فى عبد من العبيد . وكان إيمانها باللهيب الذى سوف يحرق العالم آخر الدهر ، ونبذها كل ملاذ الجسد ، واستسلامها فى خضوع وذلة إلى إرادة الله الخفية ، كان هذا كله يمهد السبيل إلى اللاهوت المسيحى والمبادئ الخلقية المسيحية . وملاك القول أن المزاج الشرقى كان وقتئذ ستحوذ على القلعة الأوربية .

الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

مصر الرومانية

كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة ، لأن النيل يرويها ويغذيها ، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الاكتفاء بخيراتها — فهي غنية بالحب والفاكهة ، تنتج أرضها ثلاث غلات فى العام ، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر فى صناعاتها ، وكانت تصدر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر ، وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية . ولكن يبدو أن « المصريين » برغم هذه الأسباب — أو لعلهم لهذه الأسباب — « لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً فى تاريخهم كلهم »[1] على حد قول يوسفوس . ذلك أن ثروتهم كانت تغرى بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً فى إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين[*] .

(*) هذه إحدى الأكاذيب التى يرويها المؤرخون دون تحقيق والتى يكذبها تاريخ مصر تكذيبا قاطعاً ، فلقد نعمت مصر فى جميع أدوار تاريخها بعصور من الحرية طوال ؛ وإذا كانت قد خضعت فى بعض أيامها لغيرها من الدول فإن معظم الأمم لم تسلم من هذا الخضوع ، وقد امتصت مصر الفاتحين فمصرتهم أو أخرجتهم من أرضها واحتفظت بطابعها مع ما يقتضيه الزمن من تطور لا بد منه . وإذا كانت قد حكمها ملوك أو حكام وفد آباؤهم عليها من خارجها فإن هذا لا ينقص من استقلالها ، وقد حدث مثله فى بلاد العالم . وليس صحيحاً أيضا أنهم مستسلمون إلى الحد الذى يصفه المؤرخ فلطالما ثاروا فى جميع أدوار التاريخ على الطغاة والغاصبين . (المترجم)

ولم تكن رومة تعد مصر ولاية تابعة لها ، بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه ، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده . وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة — مصر السفلى ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا ، ومقاطعاتها الست والثلاثين ، وبقيت اللغة اليونانية فى ذلك العهد هى اللغة الرسمية — ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان ، فقد كانت وظيفة مصر فى الإمبراطورية أن تكون المورد الذى تستمد منه رومة مايلزمها من الحبوب . ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندريين ، وجعلت ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة . وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت فى عهد البطالمة ، وإن كانت فى صورة أخف من عهدها السابق ؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها : فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل ، ومقدار ما يزرع منها ، ويوزعون البذور على الزراع فى كل عام ، ويستولون على المحصولات ويودعونها فى مخازن حكومية (thesauroi) ، ويصدرون منها حصة رومة ، ويقتطعون الضرائب منها عينا ، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك فى السوق . وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع ؛ وكذلك كان شأن الطوب ، والروائح العطرية وزيت السمسم فى الفيوم إن لم يكن فى غيرها من الأقاليم ، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة ، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة . وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة ، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة .

واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت فى المدن — وكان قد مضى على قيامها فى مصر زمن طويل ، فاشتهرت بها مدائن بطليموثيس Ptolemais ، ومنفيس وطيبة ، وأكسيرهنكس Oxyrhynchus ، وصان ، وبسطة ، ونقراطيس ،

وهليوبوليس (عين شمس) ؛ وكانت هذه الصناعات فى الإسكندرية المورد الذى تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة . ويبدو أن صناعة الورق كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية ، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب مزارع البردى حددوا محصوله ليرفعوا سعره[٣] . وكان الكهنة يقيمون المصانع فى حرم الهياكل ، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من التيل ، يصنعون منه ملابسهم ، ويبيعون بعضه فى الأسواق . وقلما كان يوجد أرقاء فى مصر يعملون فى غير الخدمات المنزلية ، لأن العمال « الأحرار » لم يكونوا يؤجرون أكثر مما يكفى لستر عورتهم وسد رمقهم . وكان هؤلاء العمال يضربون عن العمل (anachoresis) فى بعض الأحيان — فكانوا يمتنعون عنه ويحتمون بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة . وكان يحدث أحياناً أن ترفع الأجور ، فترتفع الأثمان ، وتعود الأمور كما كانت من قبل . وكان يسمح بإنشاء النقابات الطائفية ، ولكنها كانت فى الأغلب الأعم خاصة بالتجار ومديرى الأعمال ، وكانت الحكومة تستخدمها فى جباية الضرائب وفى تنظيم أعمال السخرة كإقامة السدود ، وحفر الترع وتطهيرها ، وإقامة المبانى العامة .

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة . فقد كانت الطرق رديئة ؛ وكانت وسائل النقل البرى هى الحمالين ، والحمير ، والجمال — التى حلت وقتئذ محل الخيل للجر والحمل فى أفريقية . وكان جزء كبير من التجارة الداخلية ينقل فى نهر النيل أو القنوات . وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت فى عهد تراجان ، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى عن طريق النيل والبحر الأحمر . فكانت السفن تخرج فى كل يوم من الثغور الواقعة على هذا البحر مثل أرسنوئى ، وميوس هرموس Muos Hormos وبرنيس فى طريقها إلى أفريقية أو الهند . وكان النظام المصرفى الذى يمول الإنتاج والتجارة خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية ، وكان فى حاضرة كل إقليم

مصرف للدولة ، يتسلم الضرائب ، وتودع فيه الأموال العامة . وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل ، أو هيئات الإقراض غير الحكومية(٤) . وكانت الضرائب تفرض على جميع المنتجات ، والعمليات الاقتصادية ، والبيع ، والإصدار ، والاستيراد ، بل وعلى القبور ودفن الأموات ؛ وكانت فروض إضافية تقرر من حين إلى حين ، وتجبى عينا من الفقراء أو خدمات من الأغنياء . وكانت البلاد — أو كان سادتها — من عهد أغسطس إلى تراجان فى رخاء ؛ ثم أخذ هذا الرخاء ، بعد أن وصل إلى ذروته فى ذلك العهد ، يفارقها بتأثير الخراج الذى لم يكن يعرف له حد ، والضرائب الفادحة ، وما يعقبهما من كساد ونضوب فى موارد البلاد ، وما يؤدى إليه الاقتصاد المجند من تراخ وإهمال .

وبقيت مصر فى خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامتة ، وقلما اصطبغ فيها شىء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مَصابّ النيل ؛ وحتى مدينة الإسكندرية نفسها ، التى كانت أعظم المدائن اليونانية ، أخذت فى القرن الثانى بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية فى أخلاق أهلها ولغاتهم وفى جوها الشرقى . وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠٫٠٠٠ من جميع سكان البلاد البالغ عددهم ٨٫٥٠٠٫٠٠٠(٥) (وكان عدد سكانها فى عام ١٩٣٠ نحو ٥٧٣٫٠٠٠) ، ولم يكن يزيد عليها فى عدد السكان سوى رومة نفسها . أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المدن فى الإمبراطورية . وقد ورد فى خطاب يعزى إلى هدريان — وإن كنا نشك فى صحة نسبته إليه — أن كل شخص فى الإسكندرية يعمل ، وأن لكل إنسان فيها حرفة ، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملا فيها(٦) ؛ وكان من بين مئات الصناعات القائمة فى المدينة صناعة الزجاج ، والورق ، ونسج الكتان . وكانت هذه المصنوعات موفورة الإنتاج ، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستخدمة فى ذلك الوقت ، فكانت

هى التى تضع طراز الملابس وهى التى تصنعها . وكان لمرفئها العظيم تسعة أرصفة ، يخرج منها أسطولها التجارى ليمخر عباب عدة بحار . وكانت المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح ، فيها الفنادق ، والأدلاء ، والمترجمون لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهياكل الفخمة فى طيبة . وكان شارعها الرئيسى يبلغ عرضه سبعا وستين قدما ، وتقوم على جانبيه العمد ، والبواكى ، والحوانيت المغرية تعرض أجمل التحف التى تنتجها الصناعات القديمة . وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو دوائر يسمونها الطرق « الواسعة » (Plateai) — ومنها اشتقت الكلمة الإيطالية Piazza ، والكلمتان الإنجليزيتان Piaza ، Place . وكانت مبانى ذات روعة تزين الشوارع الرئيسية — دار تمثيل كبرى ، ومصفق ، وهياكل لپسيدن ، وقيصر ، وزحل ، وسرابيوم أو هيكل لسرابيس ذائع الصيت ، وطائفة من مبانى الجامعة التى اشتهرت فى العالم كله باسم المتحف (الميوزيوم Museum أو بيت ربات الفن Muses) . وكانت المدينة مقسمة خمسة أقسام ، خص قسم منها بأكمله تقريباً بقصور البطالمة ، وحدائقهم ، ومبانى الإدارات الحكومية ، وكان يقيم فيه فى العصر الرومانى حاكم المدينة . وفى هذا القسم دفنت جثة الإسكندر الأكبر مؤسس المدينة فى ضريح جميل الشكل ، وقد وضعت فى تابوت من الزجاج وحفظت من البلى فى العسل .

وكان سكان المدينة خليطا من اليونان ، والمصريين ، واليهود ، والإيطاليين والعرب ، والفينيقيين ، والفرس ، والأحباش ، والسوريين ، والليبيين ، والقليقيين والسكوذيين ، والهنود ، والنوبيين ، ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريبا . وكان يتألف منهم جميعا خليط سريع الذوبان بعضه فى بعض ، سريع الالتهاب أيضا ، متشاحن ، سيئ النظام ، عظيم المهارة والذكاء ، فكه غير محتشم ، لا يستحى من فحش القول ، متشكك ، مخرّف ، غير مستمسك بالخُلق الكريم ، مرح ، شديد الولع بالتمثيل ، والموسيقى ، والألعاب العامة . ويصف ديوكريسستوم

الحياة فى المدينة بأنها « قصف دائم . . . للراقصات ، والمصفرين ، والقتلة »[٨] . وكانت القنوات غاصة على الدوام بمحبي المرح والطرب ، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل ، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التى توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحيتها المليئة بالملاهى وأسباب التسلية . وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سباق الخيل إثارة للمشاعر والتصفيق والضجيج .

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو[٩] فيما يقوله عن سكان المدينة ، فقد كان أربعون فى المائة منهم من اليهود ، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل فى الصناعة والتجارة ، وتعيش فى فقر مدقع[١٠] ؛ وكان كثيرون منهم تجاراً ، وعدد قليل منهم مرابين ، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يحسدون عليها فى الحكومة ؛ وبعد أن كانوا فى أول الأمر لا يشغلون إلا خمس مساحة المدينة أصبحوا فى الوقت الذى نتحدث عنه يشغلون خمسيها . وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدى كبرائهم ؛ وأيدت رومة الامتيازات التى منحها إياهم البطالمة والتى يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أى قانون يتعارض مع أوامر دينهم . وكانوا يفخرون بكنيسهم المركزى الفخم وهو باسلقا ذات عمد ، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون — لبعدهم عن المحراب — أن يسمعوا أصوات الحاخام[١١] . ويستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية ليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل فى الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان « الوثنيين » الشهوانية الطليقة[١٢] . وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة ، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية فى ذلك الوقت . وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العنصرى ؛ وشاهد ذلك أننا نجد فى النبذة التى كتبها يوسفوس ضد أبيون (وهو زعيم معاد للسامية) جميع الأسباب ، والحجج ، والخرافات التى تعكر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى فى

هذه الأيام . وقد حدث فى عام ٣٨ م . أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصروا على أن يضعوا فى كل منها تمثالا لكلجيولا ليتخذوه إلهاً . كذلك حرم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الرومانى اليهود من حق المواطنية الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودى الأصلى أن يعودوا إليه فى خلال بضعة أيام من صدور الأمر ، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعمائة من بيوت اليهود ، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحى ؛ وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ) اليهودى ؛ وجُلدوا علناً فى إحدى دور التمثيل ، وطرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حُرموا ما كانوا يدخرونه من أموالهم . وعرض الحاكم الذى خلف فلاكس أمرهم على الإمبراطور ، وسافر إلى رومة (عام ٤٠ م) وفدان مستقلان — أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود — ليعرض كل منهما قضيته على كلجيولا ، ولكن الإمبراطور قضى نحبه قبل أن يصدر حكمه ، فلما جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق ، وأكد لهم مواطنيتهم فى المدينة ، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطائفتين المتنازعتين ألا تعكرا صفو السلام .

الفصل الثانى

فيــلو

كان رئيس الوفد اليهودى إلى كليجيولا هو الفيلسوف فيلو ، وكان أخوه مدير تجارة الصادر اليهودية فى الإسكندرية . ويصـفه يوسيبيوس Eusebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين(١٣) . ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين فى فى المؤلفات الكثيرة التى وضعها فى شرح الدين اليهودى للعالم اليونانى . وقد نشأ الرجل فى جو دينى ، فكان شـديد الوفاء لشعبه ، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية ، فجعل هدفه فى الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة ، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون « أقدس القديسين » من جهة أخرى . ولكى يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدإ القائل إن جميع الحادثات ، والأخلاق ، والعقائد ، والشرائع المنصوص عليها فى العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازى والآخر حرفى ، وإنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية ؛ وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أى شىء يريد البرهنة على صحته .وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به . ولكن أسلوبه فى اليونانية بلغ من الجودة حداً جعل المعجبين به يقولون إن « أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو »(١٤)

وكان فيلسوفاً أكثر مما كان رجل دين ، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى پلوتينس وعقلية العصور الوسطى . وكان الله فى كتابات فيلو هو الكائن الجوهرى فى العالم ، وهو كائن غير مجسد ، أزلى سرمدى ، يجل عن الوصف ؛ فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد . الذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسى . والله موجود فى كل مكان ؛ « وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يجده وليس الله فيه ؟ »[١٥] ولكنه ليس كل شيء ، فالمادة أيضاً سرمدية وغير مخلوقة ؛ ولكنها لا تكون لها حياة ، ولا حركة ، ولا صورة حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

ولكى يخلق الله العالم بأن يشكل المادة ، ويوجد الصلات بينه وبين الإنسان ، استخدم لذلك جمعا من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة ويسميها اليونان شياطين diamones ويسميها أفلاطون أفكاراً . ويقول فيلو إن فى وسعنا أن نتصور هذه الكائنات فى صورة أشخاص ، وإن كانت فى واقع الأمر لا وجود لها إلا فى العقل الإلهى بوصفها أفكار الله وقواه[١٦]. وهى مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهى خالق العالم وهاديه . وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجسيد ، ولهذا كان يفكر فى العقل الإلهى مرة كأنه شخص وفى ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه أول ما ولد الله »[١٧] . وابن الله من الحكمة العذراء[١٨] ، ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان . وإذ كانت الروح فى رأيه جزءاً من الله ، فإن فى وسعها أن تسمو عن طريق العقل فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه ؛ وربما كان فى وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدربنا على الزهد والتفكير الطويل ، أن نصبح فى ساعة من الساعات روحا خالصة ، وأن نرى الله نفسه فى لحظة من لحظات النشوة[١٩] .

ولقد كانت « عقيدة العقل الإلهى » التى يقول بها فيلو من الآراء ذات الأثر الأكبر فى تاريخ التفكير البشرى . ولرأيه هذا سابقات واضحة فى فلسفة هرقليطس وأفلاطون ، والرواقيين ؛ وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية التى نشأت فى العصر القريب من عصره ، والتى جعلت من حكمة الله بوصفه خالق الكون شخصاً محدداً مميزاً ؛ وما من شك فى أنه قد انطبعت فى عقله

تلك العبارات الواردة فى سفر الأمثال (٨ : ٢٢) وما بعدها ، والتى تقول فيها الحكمة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت منذ البدء ، منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد » .

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه فى تكوين اللاهوت المسيحى . ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لنبذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية ؛ وكانوا يرتابون فى عقيدة الكلمة ويعدونها ارتداداً عن عقيدة التوحيد ، كما كانوا يرون فى هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياع ثقافتهم ، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية ، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشتتين فى بقاع الأرض . ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودى المنبعث عن تفكير عميق ، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردوا بها على من يتصدون لنقد التوراة العبرية ، وانضموا إلى جماعة العارفين(*) ورجال الأفلاطونية الحديثة فى القول بأن رؤيا الله الصوفية هى أسمى ما تصل إليه المحاولات البشرية . ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلينية ؛ فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق فى مسعاه ، وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هى الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

(*) هم طائفة من المسيحيين يعتقدون بأن الخلاص يكون عن طريق المعرفة لا عن طريق الإيمان . (المترجم)

الفصل الثالث

تقدم العــلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستى فى العلوم لا ينازعها فى هذه المكانة منازع ، ومن أكبر علمائها فى ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذى يعد بلا جدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين ، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشوف كوپرنيق يتكلم فى الفلك بلغة بطليموس . وكان مولد هذا العالم فى بلدة بطليموئيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه) ، ولكنه عاش معظم حياته فى الإسكندرية ، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧ م إلى عام ١٥١ . وأهم ما يذكره به العالم أنه رفض نظرية أرستاركس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وقد دونت هذه الفلســفة الخالدة فى كتاب بطليموس المعروف باسم النظام الرياضى للنجوم Mathematiké Syntaxis . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليونانى المجسطى Al-megisté « الأعظم » . وحرف الناس فى العصور الوسطى هذا اللفظ فصار الماجست Almagest وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ . وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوپرنيق العالم رأساً على عقب . ومع هذا فإن بطليموس لم يدع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم ، وأخصهم بالذكر هپاركس . وقد صور الكون فى شكل كرى يدور مرة فى كل يوم حول أرض كرية ثابتة لا تتحرك . ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوپرنيق آخر فى المستقبل ببطالستنا المحدثين) ، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الـــكون قد يسرت فى ضوء

المعلومات الفلكية المعروفة فى ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هى مركز العالم[٢٠].
وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية « الانحرافات » ليفسر [بها أفلاك الكواكب ، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر . وقاس بعد القمر عن الأرض بطريقة الزيغان(*) التى لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا ، وقدر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعا وخمسين مرة ، وهو يعادل تقديرنا الحاضر بوجه التقريب ؛ وإن كان بطليموس قد اتبع پسيدونيوس فى تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقى

وقد لخص بطليموس فى كتابه **الموجز الجغرافى** جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض ، كما لخص **فى نظام الرياضى** ما كانوا يعرفونه فى الفلك وصاغه فى صيغته الأخيرة . وهنا أيضاً أخطأ أخطاء جسيمه فى أزياجه التى بذل فيها جهداً كبيراً ، والتى حدد فيهاخطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض : وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير پسيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته . ولكن هذه الغلطة المشجعة التى نقلها عنه بطليموس هى التى يرجع إليها الفضل فى اعتقاد كولمبس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند فى وقت قصير بالسير فى اتجاه الغرب[٢١] . وكان بطليموس أول من استعمل لفظى « متوازيات » (Rarallels) و « خطوط الزوال » merdians علم الجغرافية ، وقد نجح فى أن يصور على خرائطه جسما كرياً على سطح مستو . ولكنه كان فى الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافيا ؛ وكان أهم جزء من عمله هو صياغته للقوانين الرياضية . وقد وضع فى كتاب **النظام** زيجا دقيقاً

(*) Parallax ويسميها اسماعيل الفلكى اختلاف المنظر وهو الانتقال الظاهر للكواكب إذا تغير موضع الناظر إليه على سطح الأرض . (المترجم)

لقياس الأقواس ، وذلك بأن قسم نصف قطر الأرض ستين قسما أولى صغيرة Partes minutae primal هى التى صارت الدقائق عندنا ، ثم قسم كل واحدة من هذه الدقائق « أقساماً صغيرة ثانية » هى « الثوانى » عندنا .

ووقع بطليموس فى أخطاء كثيرة ، ولكنه كان له بلا ريب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم . وقد حاول أن يعتمد فى استنتاجاته على الأرصاد وقلما كان هو صاحبها . وقد قام فى أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب ، ووُصف كتابه البصريات Optica — وهو دراسة فى انكسار الضوء — بأنه « أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ القديم »(٢٢) . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذى يعد من أعظم العظماء فى الفلك والجغرافية والرياضيات فى عصره قد كتب أيضاً « أربعة كتب » Tetrabiblios فيما للنجوم من سلطان على حياة بنى الإنسان .

وفى هذه الأثناء كان أرخميديز أصغر يهيئ للعالم القديم فرصة ثانية للقيام بانقلاب صناعى . وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هيرون Hero . وقد أصدر هذا الرجل وقتئذ(*) فى الإسكندرية سلسلة من الرسائل فى الرياضة والطبيعة ، بقى لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية . وقد حذر قراءه فى صراحة بأن النظريات والاختراعات التى يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه ، بل إنها قد تجمعت على مدى القرون الطوال . ووصف فى كتابه الديوپترا Dioptra آلة شبيهة بالمزواة theodolite وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التى بين الإنسان وبين النقط التى لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد . وبحث فى كتابه الحيل Mechanica فى طريقة استخدام أدوات

(*) وهناك خلاف فى تاريخ هذا العالم ، فيولى — وسوفا **Pauly-Wissowa** يحدده بعام ٥٠ ق . م ، بينا يحدده هيبيرج **Heiberg** ، وديل **Diels** ، وهيث **Heath** بحوال ٢٢٥ م(٢٣).

سهلة ، والجمع بينها ؛ ومن هذه الأدوات العجلة ، ومحورها ، والرافعة ، والبكرة والإسفين ، واللولب . ودرس فى كتابة **الهوائيات** Pneumatica ضغط الهواء فى سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب ؛ منها أنه عرض كيف يمكن جعل كل من النبيذ أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة فى قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر فى أعلى الوعاء المقسم قسمين .

ثم تدرج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة ، ومضخة لآلة إطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات ، وساعة مائية ، وأرغن مائى ، وآلة بخارية . وفى هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من الماء المسخن ينتقل من خلال أنبوبة إلى كرة تدور فى اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود . وقد حال إحساس هيرون الفكاهى الشديد بينه وبين ترقية هذا المخترع حتى يمكن الاستفادة منه فى الأغراض الصناعية . ومن أعماله أيضا أنه استخدم البخار لوقف كرة فى الهواء ومنعها من السقوط ، وجعل طائر آلى يغرد ، وتمثال ينفخ فى بوق . ودرس فى كتابه **المرايا** Catoptrica انعكاس الضوء ، وشرح كيف تصنع المرايا التى يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره ، أو يظهر فيها ورأسه إلى أسفل ، أو له ثلاث أعين ، أو أنفان الخ . وعلم المشعوذين كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين . وقد جعل الماء يخرج من حوض إذا وضعت قطعة من النقود فى فتحة فيه . وصنع آلة مخبأة تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل ، ويفتح أبواب هيكل بما يزيد من وزنه ، وبوساطة مكبرات . وبفضل هذه الأساليب ومائة أخرى من نوعها استطاع هيرون أن يكون مشعوذاً بارعا ، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعا من طراز جيمس وت James Watt .

وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب . نعم إنه كانت فى مرسيليا ، وليون ، وسرقسطة ، وأثينة ، وانطاكية ، وكوس ،

وإفسوس ، وأزمير ، وپرجموم مدارس طب شهيرة ؛ ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية ، بل إنا لنجد أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus فى القرن الرابع الميلادى ، حين أخذت مصر تسير فى طريق الاضمحلال ، يتحدث عن الإسكندرية بقوله :

« حسب الطبيب تنويها ببراعته أن يقول إنه قد تعلم فى الإسكندرية »(٢٤) .

وكان التخصص فى الطب يسير قدما ، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالى ٢٢٥ م) : « لا يستطيع إنسان أن يكون طبيبا لكل مرض ، بل يجب أن يكون هناك إخصائيون فى الجروح ، والحميات ، والعيون ، والسل »(٢٥) . وكان تشريح الجثث الميتة يحدث فى الإسكندرية ، ويبدو أنه كان يجرى فيها أيضاً تشريح للأحياء(٢٦) .

ولم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى أقل رقيا فى الإسكندرية منها فى أى مكان فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات ؛ وقد كتبت واحدة منهن تدعى مترودورا Metrodora رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية إلى اليوم(٢٧) . ويزدان تاريخ الطب فى هذا العصر بأسماء عظيمة : منها روفس الإفسوسى الذى وصف تشريح العين ، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، وحسن طرق وقف النزيف فى الجراحة ، ومنها مرينس Marinus الإسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة ، وأنتيلس Antylus أعظم الرمديين فى عصره . وقد كتب ديوسكريديز Dioscorides الفليقيانى (٤٠ — ٩٠ م) كتابا فى العقاقير وصف فيه وصفا علميا ستمائة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً جعل كتابه هذا أهم مرجع فى موضـــوعه حتى عصر النهضة الأوربية . وقد أوصى فى هذا الكتاب باستخدام « الصوفات » لمنع الحمل(٢٨) . وقد استُخدم للتخدير وصفه لنبيذ البيروح mandragora استخداماً ناجحا فى عام ١٨٧٤ .

ونشر سورانس الإفسوسى حوالى عام ١١٦ م رسالة فى أمراض النساء، وفى مولد الأطفال والعناية بهم ، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومؤلفات جالينوس . ويصف المؤلف فيها منظاراً مهبليا وكرسيا للتوليد ، ويصف الرحم من الناحية التشريحية أجود وصف ، ويقـــدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد تختلف عما يقدمه الأطباء فى هذه الأيام ، منها غسل عينى الطفل الحديث الولادة بالزيت(٣٠) ، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها أدوية للمهبل(٣١) ، وهو يجيز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم للخطر (على عكس ما يراه أبقراط)(٣٢) .

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الإخصائيين فى طب النساء فى الزمن القديم ، ولم يفقه أحد فى هـــذا العلم حتى جاء باريه Parê بعده بخمسة عشر قرنا ؛ ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذه الأيام لوضعناه فى أكبر الظن فى منزلة جالينوس .

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معمارى من برجموم ، وقد سماه جالينوس Galenus أى الهادئ المسالم ، لأنه كان يأمل ألا يتخلق بأخلاق أمه(٣٣) . ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة بالفلسفة ، ولم يتحرر قط من غوايتها الخطرة ؛ وفى السابعة عشرة تحول عنها إلى الطب ، ودرسه فى قليقية ، وفينيقية ، وفلسطين وقبرص ، وكريد، وبلاد اليونان ، والإسكندرية (وكان هذا الانتقال فى طلب العلم من طبيعة العلماء الأقدمين) ، ثم اشتغل جراحا فى مدرسة المجالدين فى برجموم ، ومارس صناعته فترة من الزمن (١٦٤ — ١٦٨ م) فى رومة : وفى هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى انجاحه فى صناعته ، كما أقبل عليه كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته ، وذاعت شهرته ذيوعا جعـــل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية ، فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد ، وكان والده الصالح قد نسى ما كان

يدور بخلده حين اختار له اسمه فنصحه ألا ينضم إلى شيعة أو حزب ، وأن يكون صادقا فى كل ما يقول ، وصدع جالينوس بأمر أبيه ، وأخذ يشهر بجهل كثيرين من أطباء رومة وشرههم حتى اضطر بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه . ولكن ماركس أورليوس استدعاه ليعنى بكمودس الصغير (١٦٩) ، وحاول أن يأخذه معه فى إحدى الحملات المركونية ، ولكن جالينوس كان من الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعا إلى رومة . ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته .

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو ، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها ، وبقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة ، تشتمل على جميع فروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة ، وليس لهذه الكتب قيمة طبية فى هذه الأيام ، ولكنها تشتمل فى مواضع منها متفرقة على معلومات نافعة ، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة ، مولعة بالبحث والجدل . وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هى استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة ، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يليق بعقلية العلماء ، وكان سلطانه على من جاء بعده سببا فى بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة . لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة ، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العملية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إنى لأعترف بذلك المرض الذى قاسيت منه الأمرين طوال حياتى — وهو أنى لا أثق ... بأى قول حتى أجربه بنفسى على قدر استطاعتى »[٣٤] . ولما حرمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرح أجسام الآدميين أحياء كانوا أو أمواتاً ؛ عمد إلى تشريح الحيوانات الحية والميتة ، وكثيراً ما كان يتعجل فيطبق على تشريح الجسم الآدمى ما تسفر عنه دراسته للقردة ، والكلاب ، والبقر ، والخنازير .

وقد أفاد علم التشريح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أى

مشاهد آخر فى التاريخ القديم ؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقرى ، والجهاز العضلى ، والأوعية اللبنية ، والغدة اللسانية ، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل ، وصمامات القلب ؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض فى خارجه ، وبرهن على أن الأوردة تحتوى دما لا هواء (كما ظلت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مدى أربعمائة عام) . لكنه قد فاته أن يسبق هارفى إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ظن أن معظم الدم يسير فى الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً ؛ وأن البقية الباقية منه التى تختلط بهواء الرئتين تسير فى الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منها فى الشرايين نفسها . وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسى ، ودل على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال فى الهواء الذى نستنشقه هو نفسه العنصر الفعال فى الاحتراق[٣٥] ؛ وميز التهاب الرئة ، ووصف الورم الوعائى[*] ، والسرطان ، والتدرن ، وعرف ما فى ثانيهما من خطر العدوى . وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبى ؛ فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكى ، وعين الوظيفة الحسية والحركية لكل جزء منه ، وعرف الأعصاب السمبثاوية ، وميز سبعة أزواج من الاثنى عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة ، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الحنجرة ، وبرهن على أن الضرر الذى يصيب أحد نصفى المخ يحدث اختلالا فى النصف المضاد له من الجسم ، وعالج السفوفسطائى پوسنياس من خدر فى خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبيه الضفيرة العضدية التى يخرج منها العصب الزندى الذى يتحكم فى هاتين الإصبعين[٣٦] . وقد برع فى بحث أعراض الأمراض براعة آثر معها أن يشخص علة المريض

(*) اتساع أو تمدد يشمل طبقة أو جميع الطبقات من محيط وعاء دموى (قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

دون أن يوجه إليه أسئلة(٣٧) . وكان كثير الاعتماد على التغذية ، والرياضة ، والتدليك ولكنه كان خبيراً فى العقاقير ، كثير الأسفار للحصول على الأدوية ، النادرة . وندد باستخدام البراز والبول فى العلاج ، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه(٣٨) ، وأوصى باستعمال الكداس الجاف(*) لمعالجة المغص ، ووضع روث المعز على الورم ، وترك ثبتاً طويلا بالأمراض التى يمكن علاجها بالترياق(**) — وهو دواء ذائع الصيت فى ذلك الوقت صنع لمثرداتس الأكبر ليقاوم به السم ، وكان يقدم لماركس أورليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعى(٣٩) .

لكنه لوث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسيل من النظريات التى تعجل فى وضعها . وكان يسخر من السحر والرقى ، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام ، ويظن أن أوجه القمر تؤثر فى أحوال المرضى ؛ وصدق فكرة أبقراط عن الأخلاط الأربعة (الدم ، والبلغم ، والسائل الصفراوى الأسود الأصفر)(†) ، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس فى الأركان (العناصر) الأربعة (التراب ، والهواء ، والنار ، والماء) ، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال فى تلك الأخلاط أو هذه الأركان . وكان قوى الاعتقاد بوجود الروح ، مؤمناً بأن النفْس (pneuma) أو النَّفَس الحيوى أو الروح تسرى فى كل جزء من أجزاء الجسم ، وتبعث فيه النشاط والحركة . وكان كثيرون من الأطباء قد أخذوا يفسرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً ؛ ومن هؤلاء أسكلبياديز الذى كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن ينظر إليه على أنه فرع من الطبيعة ؛ ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة ؛ وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

(*) بق متجانش الأجنحة .

(**) يسمى أيضاً الدرياق ، والدرياج ، والطرياق واللفظ يونانى معرب (شرف) .

(†) لقد عاد الطب الحديث يؤكد شدة أهمية إفرازات الغدد

أجزائها ، وأما الكائن العضوى فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائى على جميع أجزاء الكل . وكما أن الغاية وحدها هى التى يمكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها ، ووظيفتها ؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة . لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية ، وعلى هذا ليس ثمة معجزات ، وخير وحى هو الطبيعة نفسها .

وأحب المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية فى الدين ، كما أحبه المسلمون بعدئذ لهذا السبب عينه ؛ وقد فقدت أوربا كل كتاباته تقريباً فى أثناء الفوضى التى أعقبت غزوات البرابرة ، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق ، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية فى القرن السابع والقرون التى تلته ، وأصبح جالينوس بعدئذ المرجع المعترف به الذى لا يوجه إليه نقد ، فكان هو أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليونانى ببطليموس وجالينوس ، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكمية ، وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة ، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو ، وانحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال پلنى ، ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود فى العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذى يعد أشرف العلوم على الإطلاق .

الفصل الرابع

الشعراء فى الصحراء

تقع بلاد العرب فى الناحية الشرقية من البحر الأحمر ، وقد عجز الفراعنة ، والأكمينيوم ، والسلوقيون ، والبطالمة ، والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة ، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب البدو . لكن فى جزئها الجنوبى الغربى سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية فتلطف حرارتها ، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها فى هذه الأيام . وقد قامت فى خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التى ورد ذكرها فى التوراة(*) ، والتى يكثر فيها الكندر ، والمر ، والقشية (خيار شنبر) ، والقرفة ، والصبر ، والنردين ، والسنا المكى ، والصمغ ، والحجارة الكريمة . وقد استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مدناً تزهو بهياكلها ، وقصورها ، وأروقتها المعمدة[٤٠] . ولم يكتف تجار العرب بأن يبيعوا محصولات بلادهم بأغلى الأثمان ، بل كانوا يسيرون فيها القوافل التجارية إلى بلاد شمالى آسية الغربى ، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع مصر ، وپارثيا ، وبلاد الهند . وبعث أغسطس إيليوس جالس فى عام ٢٥ ق . م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها . وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير ميرفأ أدانا (عدن) العربى ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند .

وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخترق الطرف الشمالى

(*) والقرآن . (المترجم) .

الغربى من جزيرة العرب ، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التى تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلا جهة الجنوب . وكان السبب فى إطلاق هذا الإسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو . وفى هذا الجزء أقام العرب فى القرن الثانى مملكة أخذت تزداد ثراء على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق ، واشتملت على الجزء المصاقب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى . وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس الرابع Aretas (٩ ق . م — ٤٠ م) ، وأضحت بطرة أيامه بلدة هلنستية ، لغتها آرامية ، وفنها يونانى ، وشوارعها فى عظمة شوارع الإسكندرية ؛ وتنتمى إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة فى الصخور القائمة فى خارج المدينة ، وهى ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تنبئ عن القوة ، وعمد يونانية مزدوجة ، يبلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان مائة من الأقدام . وبعد أن ضم تراچان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (١٠٦) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب ، فشادت تلك المدينة العمائر التى ترمز إلى ثرائها وسلطانها . واضمحلت بطرة بعد أن أصبحت طرق القوافل التجارية تلتقى عند بصرى وتدمر Palmyra ، وانحط شأن المقابر العظيمة حتى أضحت « مذاود ليلية لقطعان البدو »(٤١) .

وكان أبرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدائنها العامرة بالسكان ، ولم تنشأ مدن فى عصر من العصور التالية لذلك العصر ، إذا استثنينا القرن الحالى ، بالكثرة التى أنشئت بها فى ذلك العهد ، فقد كان لوكلس ، وپمپى ، وقيصر ، وهيرود ، والملوك الهلنستيون ، والأباطرة الرومان يفاخرون بما ينشئون من المدن الجديدة وبتزيين المدن القديمة ، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذيا للشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، أن يسير عشرين ميلا

دون أن تلقاه مدينة رفح (رافيا) ، وغزة ، وعسسقلان ، ويافا (چپا) ، وأپلونيا ، والسامرة ، وقيصرية . وكانت هذه المدن رغم وجودها فى فلسطين نصف يونانية فى سكانها ، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم . فكانت — والحالة هذه — بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية فى غزوها الوثنى لبلاد اليهود . وأنفق هيرود أموالا طائلة فى جعل مدينة قيصرية خليقة بأغسطس الذى سميت باسمه ، فأنشأ لها مرفأ صالحا جميلا ، ومعبداً شامخاً ، وملهى ومدرجاً ، وأقام فيها قصوراً فخمة وصروحا كثيرة من الحجر الأبيض »[٤٢] . وأنشئت فى داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية — ليڤياس Livias ، وفلادلفيا ، وچراسا ، وجندارا (قطرة Katra) : وفى چراسا مائة عمود هى كل ما بقى من العمد التى كانت قائمة على جانبى شوارعها الرئيسية ؛ وإن خرائب هياكلها ، وملهاها ، وحماماتها ، ومجرى مائها لتنطق بما كانت عليه المدينة من الثراء فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وكانت جدارا ، التى تتردد فى خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية ، تشتهر بمدارسها ، وأساتذتها ، ومؤلفيها . وفيها عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد منپس Menippus الفيلسوف والفكاهى الكلبى الذى يعلم بهجائه أن كل شىء عدا الحياة الصالحة باطل ، والذى كان مثالا احتذاه لوسليوس ، وڤارو ، وهوراس . وفى هذه المدينة « أثينة سوريا » أنشأ مليجر ، أنكريون زمانه ، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التى كان يتغزل فيها بجمال النساء والغلمان . وظل يكتب قصائد الحب حتى كلَّ قلمه :

« ما أحلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز ، بعد أن مسها فم زنوفيلا Zenophila الجميل . وما أسعدنى إذا وضعت شفتيها الورديتين على شفتى ، وعبت روحى عبا فى عناق طويل »[٤٣] .

وكان لهيب من هذا النوع ، خبا قبل الأوان ، يشتعل قويا فى ذاكرته . ذلك هو هليودورا Heliodora التى أحبها فى صور .

سأجدل البنفسج الأبيض ، والآس الأخضر ؛ سأجدل النرجس ، والزنبق اللامع ؛ سأجدل الزعفران الحلو ، والسنبل البرى الأزرق ؛ وسأجدل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد ، حتى يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزين غدائر هليودورا الحلوة(٤٤) . والآن وقد اختطفها الموت ولوث الثرى زهرتها الناضرة ، فإنى أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن تكونى رحيمة حين تضمينها إلى صدرك »(٤٥) .

وقد خلد مليجر اسمه بأن جمع فى « إكليل » (Sléphamos) ما قاله شعراء اليونان فى الرثاء من أيام سابفو Sapphs إلى أيام مليجر . ومن هذه المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليونانى(*) . وفيها نجد أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها ، فمنها ما هو مصقول كصقل الجواهر ، ومنها ما هو أجوف كالألغاز . ولم يكن من الحكمة أن تقطف هذه « الأزهار » الأربعمائة من غصونها ليصنع منها التاج الذابل .

ومن هذه الأبيات ما يحيى ذكرى بعض الموتى من عظماء الرجال ، ومنها ما يخلد ذكرى تماثيل مشهورة ، أو أقارب فارقوا هذه الدار . ومنها قبريات ذاتية ، إذا صح ذلك التعبير . فقد كتبت امرأة ، ماتت وهى تلد ثلاثة أطفال فى وقت واحد ، تقول تلك القالة السديدة : « وبعد هذا فلتطلب النساء

(*) وقد ضم « إكليل » مليجر فى القرن السادس الميلادى إلى ديوان شعر كله تغزل فى الغلمان جمعه استرابون السرديسى (٥٠ ق . م) . وضمت إليه فيما بعد مقطوعات أخرى ، معظمها من أشعار المسيحين . وأخذ ديوان الشعر اليونانى شكله الذى هو عليه الآن فى القسطنطينية حوالى عام ٩٢٠ م .

الأبناء »(٤٦) . ومنها ما هو سهام موجهة إلى صدور الأطباء ، والنساء السليطات ، ومجهزي الموتى للدفن ، ومعلمى الأحداث ، والديوثين ؛ أو إلى صدر البخيل الذى أفاق من إغماءة لما شم رائحة فلس ؛ أو النحوى الذى ظهو حفيد له ذكراً ثم أنثى ثم شيئا آخر هو ذكر وأنثى معاً(٤٧) ؛ أو الملاكم المحترف الذى اعتزل حرفته ، وتزوج ، فكالت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له فى حلبة الملاكمة ؛ أو القزم الذى اختطفته بعوضة فظن أنه يعانى الآلام من اختطاف جنميدى . وثمة مقطرعة تشيد بمدح « المرأة الشهيرة التى لم تضاجع إلا رجلاً واحداً » ؛ ومقطوعات أخرى تقدم بها القرابين للأرباب : ففى واحدة منها تعلق ليس Lais مرآتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التى كانت عليها من قبل ؛ وفى أخرى نرى نيسياس Nicias تسلم راضية منطقتها إلى ڤينوس بعد أن قضت فى خدمة الرجال خمسين عاما . وتمجد بعض المقطوعات أثر النبيذ فى توسيع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة ؛ ومنها واحدة تمجد الزانى الذى يجمع فى وقت واحـــد بين اثنتين والذى دفن تحت الأنقاض بين ذراعى عشيقته ؛ ومنها مراثى وثنية تصف قصر الحياة ؛ ومنها توكيدات مسيحية ليوم البعث السعيد . ومعظمها ، بطبيعة الحال ، يمتدح جمال النساء والغلمان ، ويتغنى بنشوة الحب الموجعة . وإنك لتجد هنا كل ما ورد فى الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجده موجزاً كاملا ، فيه من الأفكار أكثر مما فى الشعر الأنجليزى فى عصر إليزابث . من ذلك أن مليجر يتخذ بعوضة قوادة له ، ويحملها رسالته إلى السـيدة التى كان يحبها فى تلك الساعة . وهاهو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته ، والفيلسوف الذى يسـدى النصح لشيشرون ، يغنى لمحبوبته زنثو Xantho أغنية حزينة فيقول :

يا ذات الخدين الأبيضين كلون الشمع ، والصدر الناعم ذى العطر الشجى ، والعينين اللتين تعشش فيهما ربات الفن ، والشفتين الحلوتين اللتين تفيضـــان بأكمل اللذات . . . غنى لى أغنيتك يا زنشو يا ذات الوجه الشاحب غنى . . . ما أسرع ما تنقطع الموسيقى . أعيدى المنغمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة ، ومسى الوتر بأصابعك العطرة ؛ يا بهجة الحب ، يا زنشو الشاحبة ، غنى (٤٨) . .

الفصل الخامس

السوريون

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى جزئه الشمالى مدن فينيقية القديمة التى كانت هى وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية : وقد ظلت هذه المدن حية طوال الحقبة التى دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام وذلك بفضل عمالها المجدين البارعين فى الصناعات اليدوية ، وبفضل موقعها الذى جعل فيها على مر الأيام مرافئ تجارية هامة ، وتجارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض . وكان فى صور مبان أعلى من مبانى رومة(٤٩) . وأحياء أقذر من أحيائها ؛ تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريهة ؛ ولكنها كانت تعزى نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة ، وبخاصة حريرها الأرجوانى . والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ ، وأنها تخصصت وقتئذ فى صناعة الزجاج والبرنز ، واشتهرت برنيس (بيروت) بمدارس الطب والبلاغة والقانون ، وأكبر الظن أن أپيان وباپنيان المشترعين العظيمين قد تخرجا فى جامعتها ثم انتقلا منها إلى رومة .

ولم يكن فى الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا فى صناعاتها ورخائها ؛ وكان يعمرها فى زمن تراچان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لا يزيدون على ثلاثة ملايين ولا يكادون يجدون ما يكفيهم من أسباب العيش(٥٠). وكان فى الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقى ، والحمامات العامة ، والمجارى الممتدة تحت الأرض ، والأسواق النظيفة ، ومدارس التدريب الرياضى ، وساحات الألعاب ، والمحاضرات ، والموسيقى ، والمدارس ، والهياكل ، والباسلقات ، والأروقة المعمدة ، والأقواس ، والتماثيل العامة ، ومعارض الفن العمومية ، وهى

المظاهر التي كانت تمتاز بها المدن الهلنستية فى القرن الاول بعد الميلاد(٥١). وكانت أقدم هذه المدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة لصيدا ، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها . وقد أحالتها إلى حديقة غناء روافد وفروع لذلك المجرى الذى سماه الأقدمون « نهر الذهب » اعترافاً منهم بفضله . وكانت تلتقى عندها كثير من طرق القوافل ، وتفرغ فى أسواقها غلات قارات ثلاث .

وإذا عاد المسافر فى هذه الأيام فعبر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال فى طرق متربة أدهشه أن يجد فى قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين ومدخل عظيم ، كانت فى يوم من الأيام مما تفخر به هليوپوليس مدينة الشمس اليونانية — الرومانية — السورية . وأسكن أغسطس فى ذلك المكان جالية رومانية صغيرة ، ثم نمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الذاهبة إلى دمشق ، وصيدا ، وبيروت . وأقام المهندسون والبناءون الرومان ، واليونان ، والسوريون فى مكان هيكل بعل الفينيقى القديم مزاراً فخماً لجوبتر الهليوبوليسى ، أقاموا كل جدار من جدرانه من حجر واحد ضخم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة ميل . وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنتين وستين قدماً فى الطول وأربع عشرة فى العرض ، وإحدى عشرة فى الارتفاع ، وفيها من المادة الحجرية ما يكفى لبناء بيت رحب . وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدى إلى المدخل الكورنثى العظيم ، فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامى والبهو الذى يليه المعمدين وجد البناء الرئيسى للهيكل ، وقد بقى منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو فى الجو اثنتين وستين قدماً . وبالقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه ، يقال أحياناً إنه كان هيكل ڤينوس وأحياناً باخوس ، وأحياناً دمتر . وقد أبقى الزمان على تسعة عشر عموداً من عمده ، وعلى باب جميل دقيق النقش . وتتألق هذه العمد الفخمة المنعزلة فى شمس السماء الصافية ، وهى من أجمل ما بقى من

مخلفات العصور السالفة . وإن المرء حين يشاهدها ليحس ، أكثر مما يحس حين يشاهد أي أثر من آثار رومة ، بعظمة الإمبراطورية الرومانية ، وبما فيها من ثراء ، وشجاعة ، ومهارة ، وذوق جميل أمكنها بها أن تشيد في مدنها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفته العاصمة المزدحمة في أي عصر من عصورها .

وتقع على منظر كهذا عين السائح الذي يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حمص ، إمسا Emessa القديمة ، إلى تدمر التي ترجم اليونان اسمها إلى پلميرا Palmyra أي المدينة ذات الألف نخلة . وقد كانت أرضها الخصبة المحيطة بعينين نضاختين ، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حمص ودمشق إلى نهر الفرات ، سببا في ثرائها ، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق ؛ وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلي رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للأباطرة الرومان . وكان على جانبي شارعها الأوسط الرئيسي أروقة ظليلة تحتوي على ٤٥٤ عموداً ، وفي مواضع تقاطعه الأربعة أقواس فخمة بقي منها واحد حتى الآن شاهدا على ما كانت عليه بقية هذه الأقواس من عظمة وجلال . وكان أجمل مباني المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذي شيد في عام ٣٠ م . للثالوث الأعظم بعل ، وبرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر) . وكان حجمه اطراداً لتقاليد الأشوريين في الضخامة ، وكان بهوه ، وهو أكبر الأبهاء في الإمبراطورية الرومانية ، يحتوي على صف من العمد لا مثيل له في بلد من بلادها ، طوله أربعة آلاف قدم ؛ وكان الكثير منها عمدا كورنثية مرتبة صفوفا في كل منها أربعة . وكان في داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقي منها على اقتراب تدمر من پارثيا في الفن كقربهما في المكان .

ويبدأ من تدمر طريق رئيسي يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا — أوريس Dua-Europus . وهنا اقتسم التجار (عام ١٠٠ م)

مكاسبهم مع الثالوث التدمرى بأن شيدوا له هيكلا كان مزيجا من الفن اليونانى والهندى ، وزين مصور شرقى جدرانه بمظلات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطى والفن المسيحى الأول من أصل شرقى(٥٢) . وكان على النهر الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند ملتقى طريقين بريين كبيرين وهما مدينتا ثپساكس Thapsacus وزجما Zeugma . وإذا اتجه المسافر من ثپساكس نحو الغرب مر بمدينتى بروئيا Beroea (حلب) ، وأپاميا Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند لاوديسيا Laodicea — التى لا تزال تحتفظ باسمها القديم اللاذقية مع تحريف قليل فيه ، ولا تزال أيضاً ثغرا ناشط الحركة . وبين هذه البلدة وأپاميا يتجه نهر العاصى نحو الشمال وتمتد على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى أنطاكية عاصمة سوريا فى ذلك الوقت . وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى أنطاكية ، بينا كانت سلويا سپيريا Selluci Spieria ثغر البلاد الواقع على البحر الأبيض على بعد أربعة عشر ميلا من أنطاكية نحو مصب النهر تأتى إليها بحاصلات الغرب . وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصى الذى يجرى من تحته . وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت انطاكية بفضله أن تنافس رودس فى أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستى . وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكبسها بهجة وجمالا ، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم ، وكان شارعها الرئيسى البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعبل ، ويقوم على جانبه صفان من العمد المسقفة ، فكان فى وسع الإنسان أن يسير راجلا من أحد طرفى المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس . وكان الماء النقى يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها . وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم ٦٠٠ر٠٠٠ ، والذين كانوا خليطا من اليونان ، والسوريين ، واليهود بإفراطهم فى اللهو والمرح ، يعبون اللذات عبا ، ويسخرون من الرومان

المتباهين الذين جاءوا ليحكموهم ، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب ، والمدرج ، والمواخير ، والحمامات ، ويستمتعون بكل ما يتيحه لهم دافنى Daphne بستانهم الشهير القائم فى ضاحية المدينة . وكان للأهلين أعياد كثيرة ، تستمتع أفروديتى بنصيب فيها كلها : وفى عيد بروماليا Brumalia الذى كان يدوم معظم شهر ديسمبر ، كانت المدينة كلها ، كما يقول كاتب معاصر ، تبدو كأنها حانة واحدة ، وكانت الشوارع تعج طول الليل بالغناء والقصف والمرح(٥٣) . وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة ، والفلسفة ، والطب ، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً ، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله فى العمل ، فإذا احتاجوا للدين لجأوا إلى المنجمين ، والسحرة ، وصناع المعجزات ، والمشعوذين .

والصورة التى تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هى صورة البلد الرخى رخاء أدوم من رخاء أية ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية . وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة فى البيوت . وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية ، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقى . وكان الفلاسفة اليونان يختلطون فى المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل والكهنة الفنيين ، وقد ظل الأطفال حتى أيام هدريان يضحى بهم قرباناً للآلهة(٥٤) ، وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية ، وعليها طابع العصور الوسطى . وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة فى دور الحكومة وفى الأدب ، ولكن لغات البلاد — وأهمها الآرامية — ظلت لغة التخاطب بين الأهلين . وكان العلماء فيها كثيرين ، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان . فقد كان منهم نقولوس الدمشقى الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوبطرة ، وهيرود ، والذى أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل الممل واجب كتابة تاريخ عام ، وهو واجب يشفق منه هرقول نفسه ، على حد قوله(٥٥) . وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته ، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل .

الفصل السادس

آسية الصغرى

كان فى شمال سوريا مملكة كمچينى Commagene التى كانت فى أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها ؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata ، التى قضى فيها لوشيان أيام طفولته ، آهلة بالسكان . وكان فى الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهونى Osrhoene الصغيرة ؛ وقد حصنت رومة عاصمتها إذسا Edessa (أورفه) لتكون قاعدة لها ضد پارثيا ، وسنسمع الكثير عنها فى عصر المسيحية . وإذا اتجه المسافر غربا من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسى Alexandria Issi (الإسكندرونة) . وكانت هـــذه الولاية ، وهى ولاية شيشرون ، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبى لآسية الصغرى ، ولكنها فى جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعـــد من طور الهمجية .. ولم تكن حاضرتها طرسوس « بالمدينة الحقيرة » كما يقول ابنها القديس بولس ، بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها .

وكان أمام قليقية فى البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة فى استخراج النحاس ، وقطع أشجار السرو ، وبناء السفن ، وتتلقى صابرة ضربات الفاتحين . وكانت مناجمها الغنية ملكا لرومة تستغلها على أيدى الأرقاء . ويصف جالينوس فى أيامه منجماً انهار على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال - وتلك حادثة تتكرر آناً بعد آن فى الأسس الحيولوچية لقوى الإنسان وأسباب راحته .

وكان إلى شمال قليقية ولاية كبدوكيا الجبلية القاحلة ، الغنية بمعادنها النفيسة ، والتى تنبت القمح وتربى الماشية والعبيد لتصدرها إلى خارجها . وكان إلى غربها ولاية ليكاؤنيا Lycaonia التى يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولس لدربى Derbe ، وليسترا Lystra وأيكونيوم iconium . وفى شمال هذا الإقليم نجد جلاتيا Galatia التى استوطنها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم فى القرن الثالث قبل الميلاد . وكان أهم ما أخرجته هو حجر پسينس Pessinus الأسود الذى أرسل إلى رومة ليكون رمزاً لسيبيل ؛ وكانت أهم مدنها فى ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra (أنقره) التى كانت عاصمة الحثيين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، والتى صارت عاصمة تركيا فى هذه الأيام . وكان فى ولاية پيسيديا Pisidia الواقعة غرب قليقية خمس مدن جميلة مثل زنثوس التى كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل بروتس ، وأسپندس Aspendus التى احتفظت بملهاها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتلأ مرة أخرى ليستمع إلى مننдр أو يوريديز .

وكان فى شمال پيسيديا وغربها ولاية «آسية» بأقسامها الأربعة : فريجيا ، وكاريا ، وليديا ، وميزيا Mysia . وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة فى هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام ؛ وقد استطاع فيلوستراتس أن يحصى فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها فى هذه الأيام . وكان ريفها خصباً ، وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلا بعد جيل ، وكانت الثغور قد أفادت من قيام الأسواق الغنية فى إيطاليا ، وأفريقية ، وأسپانيا ، وغالة . لقد كانت فريجيا بلاداً جبليـــة ، ولكنها كانت تزهو بمدنها الكبيرة كأپاميا سيليتى Apamea Celaenae — التى يقول اســترابون إنها لا يفوقها إلا إفسيس فى « آسية » — ولوديسيا التى أسعدها الحظ بفلاسفتها وأثريائها المحسنين الخيرين : وكانت نيدس Cnidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

أن تحالف رومة ، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرق من ديونيشيس — وهى التى أنجبت هيرودوت — وكان ديونيشيس هذا ناقداً أديباً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه القدرة على النقد والتمحيص . وكانت ميلتس قد جاوزت عهد شبابها ، وإن كانت لا تزال ثغراً نشيطاً ؛ وكان وحى أپلو فى ديديما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة إجابات ملغزة ، وكان القصاصون فى هذا الإقليم ينسجون « القصص الميليتية » الغزلية ذات الخيال الوثاب التى تطورت بعد قليل من الوقت فكانت هى الروايات اليونانية القصصية الطويلة . وكانت پريينى Priene بلدة صغرى ، ولكن أهلها أخذوا يتبارون فى تجميلها بالمبانى الفخمة . وفى هذه المدينة انتخبت فى القرن الأول الميلادى امرأة تسمى فيلى Phile لتشغل أسمى المناصب فى البلدة وذلك لأن نفوذ رومة وثراءها قد أخذا يرفعان من منزلة المرأة فى الأراضى الهلينية . وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة الميندر تضم هيكلا يعده الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال — وكان مخصصاً لعبادة أرتميس (١٢٩ ق . م) . وقد خططه هرموچنيز Hermogenes أعظم مهندسى ذلك العنصر . وكان العامة من أهل ميكالى لا يزالون يجتمعون فى كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس دينى لأيونيا .

واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير وبمدرستها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط ؛ وكانت رودس (الوردة) حتى فى إبان ضعفها أجمل مدائن العالم اليونانى . ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها ، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير ، وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة . وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالى لتجارة بحر إيجة ، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذى ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر . وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم ، ومبانيها الجميلة ،

وتماثيلها الرائعة ، وشوارعها المنظمة النظيفة ، وحكومتها الأرستقراطية القديرة ، ومدارس الفلسفة والخطابة الذائعة الصيت . وفى هذه المدارس علم أبلونيوس مولو قيصر ، وشيشرون تلك الأساليب الفنية التى أثرا بها فى كل ما كتب بعدهما من نثر لاتينى .

وكان أشهر عظماء رودس فى ذلك العصر هو پوسيدونيوس صاحب أكبر عقل منشئ مبدع فى التاريخ القديم كله . وكان مولده فى إپاميا Apamea من أعمال سوريا عام ١٣٥ ق . م ، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه فى المسافات البعيدة ، وبعد أن درس على پنيتيوس Panetius فى أثينة اتخذ رودس وطناً له ، وعمل فيها حاكما وسفيراً ، وطاف بعدة ولايات رومانية ، ثم عاد إلى رودس ، واجتذب إلى محاضراته فى الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال پمپى وشيشرون . وذهب فى الثالثة والثمانين من عمره ليعيش فى رومة ومات فيها فى السنة التالية . ومن مؤلفاته كتاب التاريخ العام المفقود الذى يقص تاريخ رومة وممتلكاتها من عام ١٤٤ إلى عام ٨٢ ق . م ؛ وكان العلماء القدامى يضعونه فى منزلة كتاب پولبيوس . وكان وصفه لرحلاته فى غالة ، ورسالته عن المحيط من المصادر التى استمد منها استرابون كتاباته . وكان تقديره بعد الشمس عن الأرض — ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ — أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أى عالم قبله . وقد سافر إلى قادس Cadis ليدرس المد والجزر ، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين . وقدر عرض المحيط الأطلنطى بأقل من عرضه الحقيقى ، وتنبأ بأن فى مقدور المسافر من أسبانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل . وكان رغم إلمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة فى عصره — فكان يعتقد بالشياطين وبالقدرة على معرفة الغيب ، وبالتنجيم ، وقراءة الأفكار ، وبقدرة الروح على أن ترقى حتى تتحد اتحاداً

صوفيا بالله ؛ وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم . وقد عده شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقيين وكان فى هذا مبالغاً فى كرمه ، وفى وسعنا نحن أن نعده من رواد الأفلاطونية الجديدة ، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زينون إلى أفلوطينس .

وإذا سار المسافر محاذيا ساحل آسية وميمما شطر الشمال من كاريا دخل ليديا وأقبل على إفسوس أعظم مدائنها . وقد ازدهرت فى أيام الرومان كما لم تزدهر من قبل . ومع أن برجموم كانت العاصمة الرسمية لولاية « آسية » الرومانية فإن إفسوس أضحت مقر الحاكم الرومانى والموظفين التابعين له ؛ هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية ، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية . وكان سكانها خليطا من أجناس مختلفة ، بلغ عددهم ٢٢٥,٠٠٠ ، ويختلفون من السوفسطائيين الخيرين المحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصخابين المخرفين . وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإضاءة ، وكانت لها بواك مظللة تمتد أميالا عدة . وكان فيها كثير من المبانى العامة التى توجد فى غيرها من المدن ، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام ١٨٩٤ : ومن هذه المبانى « متحف » أو مركز علمى ، ومدرسة طب ، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة فى النقش والزينة ، وملهى يتسع لستة وخمسين ألفاً من النظارة . وهنا أثار دمتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولس بعد هذا العهد . وكان مركز المدينة وأهم مصرف مالى فيها هو هيكل أرتميس ، وكان يحيط به ١٢٨ عموداً كل واحد منها مهدى من أحد الملوك ، وكان يقوم على خدمة كهنته الخصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء ، وكانت طقوسهم مزيجا من الطقوس الشرقية واليونانية : وكان للتمثال البربرى الذى يمثل هذه الإلهة صفان من الأثداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخصوبة . وكان الاحتفال بعيد أرتميس يجعل أيام مايو كلها أيام بهجة ، ومرح ، وحفلات ، وألعاب .

وكان جو أزمير أطيب من جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

من صيادى السمك . وقد وصفها أپولونيوس التياناتى Apollonius of Tyana الذى كان جواب آفاق بأنها « أجمل مدينة تحت الشمس »(٥٩). وكانت تزدهى على غيرها من المدن بشوارعها الطويلة المستقيمة ، وأعمدتها ذات الطبقتين من القرميد ، ومكتبتها ، وجامعتها . وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها ، وهو إيليوس أرستيديز Aelius Aristides (١١٧ — ١٨٧ م) وصفا يكشف عما كانت عليه المدن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء ، فقال :

سر فيها من الشرق إلى الغرب تمر بهيكل فى إثر هيكل ، ومن تل فى إثر تل ، مخترقاً شارعا أجمل من اسمه (الطريق الذهبى) . ثم قف فوق حصنها تر البحر يمتد تحتك ، والضواحى تنتشر حولك . والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سروراً وغبطة . . . وكل شىء فيها من طرفها الداخلى إلى شاطئ البحر كتلة براقة من ساحات للألعاب ، وأسواق ، وملاه . . . وحمامات بلغت من الكثرة حداً لا يسهل عليك معه أن تعرف فى أيها تستحم ، وفوارات وطرقات عامة ، ومياه جارية فى كل بيت من بيوتها . وإن ما فيها من مناظر جميلة ، ومباريات ، ومعارض ليجل عن الوصف ؛ أما الصناعات اليدوية فحدث عن كثرتها ولا حرج . وهذه المدينة هى أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا فى هدوء وطمأنينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون الغش والخداع(٦٠) .

وكان إيليوس واحداً من كثيرين من البلغاء والسوفسطائيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس ؛ وكان معلمه پوليمو Polemo رجلا بلغ من العظمة — كما يقول فيلوستراتس — « درجة جعلته يتحدث والمدائن أقل منه ، والأباطرة لا يعلون عليه ، والآلهة أنداد له(٦١) . وكان إذا حاضر فى أثينة استمع إليه هرودس أتكس Herodes Atticus أعظم منافسيه فى البلاغة ، وكان من تلاميذه المعجبين به . وأرسل إليه هرودس ١٥٠,٠٠٠ درخمة (٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى) نظير استمتاعه بميزة الاستمتاع إلى محاضراته ؛

ولما لم يشكر له پوليمو عمله هذا ، قال له أحد الأصدقاء إن المحاضر قد استقل المبلغ ، فبعث إليه هرودس مائة ألف أخرى ، قبلها پوليمو فى هدوء على أنها حق له . وقد استخدم پوليمو ثروته فى تزيين المدينة التى اتخذها وطناً له ؛ واشترك فى حكمها ، ووفق بين أحزابها ، وكان سفيراً لها . وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء المفاصل الذى كان مصاباً به ، فدفن نفسه فى قبر أسلافه فى لأوديسيا ، وأمات نفسه جوعاً فى سن السادسة والخمسين(٦٢) .

وكانت سرديس ، عاصمة كروسس القديمة ، لا تزال « مدينة عظيمة » فى عهد استرابون . وقد تأثر شيشرون بعظمة متلينى وجمالها ووصفها لنجس Longus فى القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية(٦٣) ؛ وكانت برجموم يتلألأ فيها المذبح العظيم ، والمبانى الفخمة التى شادها ملوكها من أسرة أتالس Attalus ، وأنفقوا عليها من الخزائن التى امتلأت بالمال من كدح العبيد فى غابات الدولة ، وحقولها ، ومناجمها ، ومصانعها ؛ وقد استبق أتالس الثالث التوسع الرومانى والانقلاب الاجتماعى بأن أوصى بمملكته إلى رومة فى عام ١٣٣ ق . م ؛ غير أن أرستنكس ابن الملك يومنيز الثانى من إحدى المحظيات نقض الوصية وقال إن أتالس أرغم عليها ؛ ثم حرض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة ، وهزم جيشاً رومانيا (١٣٢) ، واستولى على عدد كبير من المدن ، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسيوس Blossius معلم ابنى جراكس . وانضم إلى رومة ملكا بيثينيا وبنتس المجاورتين لبرجموم ، كما انضم إليها طبقات رجال الأعمال فى المدن المحتلة فأخمدت رومة بمعونتهم هذه الثورة ومات أرستنكس فى أحد السجون الرومانية . وعاقت الثورة والحروب المثرداتية حياة برجموم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان ، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليعوض بها الإسكندرية عن الكتب التى احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها . وما من شك فى أن برجموم قد انتعشت قبيل عهد فسپازيان ، وشاهد ذلك أن پلنى الأكبر حكم بأنها أكثر

مدائن آسية ازدهاراً . وقامت فيها أيام الأنطونيين حركة بناء جديدة ، ونشأت فى الإسكلپيوم مدرسة طبية خرج منها جالينوس ليداوى أمراض العالم .

واستحالت اسكندرية ترواس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليدا لأصل رومة الطروادى المزعوم ، وقد استندت رومة إلى هذا الأصل المزعوم فى مطالبتها بجميع البلاد التى وصفناها فى هذا الفصل . وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هـذه البلدة (حصار لك) ، وسميت باسم إليوم Illium الجديدة ، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح ، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة فى الإلياذة ، ويطلعونهم على الكهف الذى حاكم فيه پاريس هيرا ، وأفرديتى ، وأثينة . وقد بنى سزكس Cyzicus سفنا على البروپنتس وأرسل منها إلى جميع البحار المعروفة أسطولا تجارياً لم يكن ينافسه إلا أسطول رودس . وهنا شاد هدريان هيكلا لپرسفنى ، كان من أعظم الهياكل التى تفتخر بها آسية . ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمساً وسبعين قدماً ، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر[٦٤] . وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة ، ولهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيليوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن .

وقامت فى أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود .

الفصل السابع

مثرداتس العظيم

كانت بيثينيا وپنتس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى ؛ وكانت أرضهما جبلية فى الداخل ، لكنها كانت غنية بالخشب والمعادن . وقد طغى على سكانها الخشين الأقدمين خليط من التراقيين ، واليونان ، والإيرانيين وحكمت بيثينا أسرة ملكية يونانية — تراقية ، وشادت لها عاصمة فى نيقوميديا ، ومدينتين كبيرتين فى بروصه Prusa ونيقية . وأقام شريف إيرانى سمى مثرداتس دليلا على التقى والورع مملكة له حوالى عام ٣٠٢ ق . م شملت كپدوكيا وپنتس ، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية فى البلاد ، واتخذوا كومانا پنتيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين لهم . وانتشر مُلكهم حتى اصطدم بمصالح رومة الاقتصادية والسياسية ؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثرداتية التى سميت بهذا الاسم الموائم لها كل المواءمة نسبة إلى الملك الجبار الذى جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية ، ونشر فيها جميعاً لواء فتنة صماء لو أنها نجحت لبدلت تاريخ أوربا تبديلا .

وكان مثرداتس السادس قد ورث عرش پنتس وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وحاولت أمه هى والأوصياء عليه أن يقتلوه لتجلس هى على العرش مكانه ، لكنه قفز من قصره ، واختفى عن الأبصار ، وعاش أحد عشر عاماً فى الغابات يصطاد الوحوش ، ويتخذ من جلودها لباساً . وحدث فى عام ١١٥ ق.م انقلاب سياسى مفاجىء أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه . وكانت تحيط

به المؤامرات التي هي من خصائص القصور الشرقية(*) ، فاحتاط لها بأن كان يتجرع قليلا من السم في كل يوم ، حتى كانت له حصانة من معظم أنواع السم التي كانت في متناول المقربين إليه . وقد كشف في أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشافية منه . ثم امتدت هوايته من هذا إلى الطب بوجه عام ، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر پمپي بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة في الجسم وفي الإرادة ، وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابغة إلى دلفي ليشاهدها العابدون ؛ وكان فارساً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً ، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان في مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به ظباء الفلاة ، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً ، ويقطع مائة وعشرين ميلا في اليوم الواحد(٦٥) . وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أي إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب ، وكان له عدد كبير من النساء . ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسي القلب ، غداراً ، وإنه قتل أمه ، وأخاه ، وثلاثة من أبنائه ، وثلاثاً من بناته(٦٦) ، ولكن رومة لم تنقل لنا ما عسى أن يقوله هو دفاعاً عن نفسه . ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة ، في مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة ، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب(٦٧) . وقد درس الآداب اليونانية ، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية ، وأغنى بالمال والنفائس الهياكل اليونانية ، وكان في بلاطه عدد كبير من علماء اليونان ، وشعرائهم ، وفلاسفتهم . وقد جمع كثيراً من التحف الفنية ، وسك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة . ولكنه لم يتورع عن الشهوانيـــة والفظاظة التي كان يمتلئ بها جو النصف

(*) مما يؤسف له أن المؤلف ينسى من آن إلى آن صفة المؤرخ النزيه فيغمز الشرق غمزات كان خليقاً به أن ينزه قلمه عنها . فلسنا نعلم أن الشرق قد اختصت قصور ملوكه بالدسائس ، وفي التاريخ كثير من الشواهد على أن هذه الدسائس لم تكن تقل في قصور ملوك الغرب عنها في الشرق . (المترجم)

الهمجى ، وصدق خرافات أهل زمانه . ولم يكن يحمى نفسه من رومة بما كان خليقاً أن يقوم به النابذ أو السياسى العظيم من حركات صادرة عن نفاذ البصرة وبعد النظر ، بل كان يحميها بالشجاعة الارتجالية التى يعمد إليها الحيوان إذا وقع فى المحظور .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التى خلفتها له أمه ـ ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعيناً على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان ، ثم عبر نهر قوبان ومضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية ، والشمالية ، والغربية . وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهى تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها . فإنها قد استقبلت جيوش مثر داتس اليونانية استقبال الحماة المنقذين . وكانت من المـــدن التى خضعت له سينوب ، وطربزون ، وپنتيكپيم Panticapeum (كرتش) ، وبيزنطية . ولكن سيطرة بيثينيا على الهلسينت (الدردنيل) تركت تجارة پنتس فى البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها . فلما مات نيقوميدس الثانى ملك بيثينيا (٩٤ ق .م) تنازع ولداه على العرش ، واستغاث الثانى وهو سقراط بملك پنتس . وانتهز مثرداتس فرصة النزاع الحزبى فى إيطاليا فغزا بيثينيا لكى يجلس سقراط على العرش . ولم تشأ رومة أن ترى البسفور فى أيدى أعدائها فأمرت مثرداتس وسقراط أن يخرجا من بيثينيا . وصدع مثرداتس بالأمر أما سقراط فرفضه ، فلم يكن من حاكم آسية الرومانى إلا أن خلعه وتوج نيقوميدس الثالث . وغزا الحاكم الرومانى الجديد پنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquilius الحاكم الرومانى ، وبدأت بذلك الحرب المثرداتية الأولى (٨٨ — ٨٤ ق . م) .

وأحس مثرداتس أن الفرصة الوحيدة التى تتيح له البقاء هى إثارة الشرق الهلينى على سادته الإيطاليين ، فأعلن أنه منقذ هلاس وسير جيوشه لتحرير المدن اليونانية فى آسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها ؛ ولما أن قاومته طبقات رجال الأعمال فى المدن ولى وجهه شطر الأحزاب الدمقراطية ، وأخذ يمنيها بإصلاحات شبه اشتراكية . وفى هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعمائة سفينة قد دمر القسم المرابط فى البحر الأسود من الأسطول الرومانى وأوقع جيشه المؤلف من ٢٩٠٫٠٠٠ رجل هزيمة منكرة بقوات نيقوميدس وأكوليوس . وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراهة الرومان وبخلهم[٦٨] فصب الذهب المصهور فى أفواه أكوليوس الأسير — ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية الثائرين إلا وقت قصير . ورأت المدن اليونانية فى آسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها ، ففتحت أبوابها لجيوش مثرداتس ، وأعلنت ولاءها له وللقضية التى نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت فى يوم حدده لها ، وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (٨٨ ق . م) ، وفى ذلك يقول أبيان :

« ومزق الإفسوسيون أجسام الفارين الذين احتموا فى هيكل أرتميس وأمسكوا بصورة المعبودة ، ثم جزوا رؤوسهم . ورمى أهل برجموم بالسهام الرومان الذين احتموا فى معبد اسكلپوس Aesculpius . واقتفى أهل أدرميتيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة فى البحر وقتلوهم وأغرقوا أطفالهم . وطارد أهل كونس Caunus (فى كاريا) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال فستا ، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم ، ثم أتبعوهم بالأمهات ، ثم بالرجال . . . وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذى دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثرداتس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان »[٦٩] .

وما من شك فى أن الطبقات الفقيرة التى قاست أكثر من غيرها مظالم

الحكم الرومانى كانت لها اليد الطولى فى هذه المذابح الجنونية ، وما من شك أيضاً فى أن طبقات الملاك التى ظلت زمناً طويلا تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب . وأراد مثرداتس أن يهدئ ثائرة الطبقات الغنية بإعفاء المدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ، وبمنحها الاستقلال الذاتى التام ، لكنه « أعلن » فى الوقت نفسه ، كما يقول أپيان « إلغاء الديون ، وحرر العبيد ، وصادر كثيراً من الضياع ، وأعاد توزيع الأراضى الزراعية على السكان » . ودبر زعماء العشائر مؤامرة لاغتياله ، فلما كشف سرها أمر بقتل ألف وستمائة من هؤلاء الزعماء . واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات[٧١] على زمام السلطة فى كثير من المدن اليونانية ، ومنها أثينة واسپارطة نفسهما ، وأعلنت الحرب على رومة وعلى الطبقات الغنية معاً ، وقتل يونان ديلوس فى نشوة الحرية عشرين ألف إبطالى فى يوم واحد . واستولى أسطول مثرداتس على جزائر سكلديز كما استولى جيشه على عوبية ، وتساليا ، ومقدونية ، وتراقية . وكان خروج « آسية » الغنية عن سيطرة الرومان سبباً فى وقف الخراج الذى كان يرسل منها إلى الخزانة الرومانية ، وفوائد الأموال التى كان يحصل عليها المستثمرون الرومان ، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر فى الحركة الثورية التى قام بها ستر نينس Saturninus وسنا Cinna . وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمنيين واللوكانيين عرضوا على ملك پنتس أن يعقدوا معه حلفاً .

ورأى مجلس الشيوخ الرومانى الحرب والثورة تواجهانه فى كل مكان ، فباع ما تجمع فى الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليمول بها جيوش صلا . ولسنا نرى من واجبنا أن نعيد هنا كيف استولى صلا على أثينة ، وهزم جيوش الثوار ، وأنقذ الإمبراطورية لرومة ، وعقد مع مثرداتس صلحاً قوامه الذين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة پنتس ، يجهز فى هدوء جيشاً وأسطولا جديدين.

وقرر مورينا Murena المبعوث الرومانى فى آسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده ؛ فلما أن هزم مورينا فى هذه الحرب المثرداتية الثانية (٨٣ — ٨١) لامه صلا على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميدس الثالث ببيثينيا إلى رومة ؛ وأدرك مثرداتس أن مملكته نفسها ستبتلعها رومة عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبنتس بعد أن سيطر على البسفور . وبذل فى الحرب المثرداتية الثالثة (٧٥ — ٦٣) آخر جهوده ، وحارب اوكلس وپمپى اثنى عشر عاماً ، وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم . وحاول الجندى الشيخ ، وكان وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان ، ويغزو إيطاليا من الشمال ، ولكن ابنه فرناسس شق عصا الطاعة عليه ، وأبى جيشه أن يساق إلى هذه المغامرة ؛ وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر ، ولكن السم الذى تجرعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة ، وكانت يداه أضعف من أن تضغط على النصل الذى أراد أن يقتل به نفسه ، ثم أجهز عليه أصدقاؤه ومحاسيبه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيوفهم وحرابهم .

الفصل الثامن

النـــثر

مما يذكر بالحمد للحكم الرومانى أن مدن آسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاقت من حمى هذه الحروب المتقطعة . وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيثينيا – بنتس ، ثم أضحت عاصمة الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس ؛ وخلد اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأخذت المدينتان تتنافسان فى تشييد المبانى منافسة اضطر معها تراجان أن يرسل پلنى الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس . وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنها فلاڤيوس أريانس الذى سجل أحاديث إيكتتس ، كما سبق القول . وكان أريان هذا حاكما على كپدوكيا ست سنين ، وأركونا لأثينة سنة واحدة ، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعا من الوقت لكتابة عدة كتب فى التاريخ لم يبق منها إلا "زحف الإسكندر" المذيل بالإنديكا Indica . وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة لأنه اتخذ أكسنوفون مثلا له فى أسلوبه ، كما اتخذه مثلا له فى حياته . ويقول هو عن كتابه مفتخراً به كما يفخر الأقدمون :

« لقد كنت منذ صباى أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمنصب العام ، ولهذا فإنى لا أرى نفسى غير خليق بأن أعد بين أعظم المؤلفين فى اللغة اليونانية »[٧٢] .

وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة وعلماء ذائعى الصيت . كان منها ميرليا Myrlea التى يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ر٣٢٠ر٢[٧٣] وأمسارتس Amsartis (أمسرا Amsara) التى وصفها پلنى بأنها « مدينة أنيقة جميلة » ، والتى اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة ؛ وسينوب

التى كانت مركزاً غنيا لصيد السمك ومنفذاً لخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه ، وأميسس Amisus (سمسون) وطربيزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون عيشهم بالاتجار مع سكوذيا (جنوبى روسيا) المقابلة لها على شاطئ البحر ، وأماسيا Amasea التى وُلد وعاش فيها استرابون أعظم الجغرافيين الأقدمين.

وكان استرابون ينتمى إلى أسرة غنية تنحدر ، كما يؤكد هو ، من ملوك بنتس ؛ وكان مصاباً بحول غريب(*) لا يزال يسمى باسمه حتى الآن[٧٤] ؛ وكان كثير الأسفار ، ويلوح أن أسفاره كانت فى بعثات دبلوماسية ، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعة لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية . وكتب تاريخاً مكملا لتاريخ پولبيوس ولكنه فقد ؛ ثم أخرج فى عام ٧ ق . م كتابه العظيم الجغرافية الذى حفظت لنا الأيام جميع أجزائه السبعة عشر تقريبا . وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال :

إنى أستسمح قرائى ، وأطلب إليهم ألا يلومونى لطول بحثى بدل أن يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير وقديم . . . ولا بد لى فى هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء ، وأن أخص بالعناية ما هو نبيل وعظيم . . . سواء كان نافعا ، أو ذائع الصيت ، أو باعثاً للبهجة والمتعة : وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة تمثال ضخم لا نبحث كل جزء من أجزائه بدقة وعناية ، بل ننظر إلى الأثر العام الذى ينطبع فى أذهاننا منه . . . فكذلك يجب أن يحكم على كتابى هذا بالطريقة عينها . ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم . . . خليق بأن يكون عمل فيلسوف »[٧٥] .

وهو يعترف فى صراحة بأنه يأخذ عن پولبيوس ، وبسيدونيوس ، لكنه أقل صراحة فيما يأخذ عن أرتستنيز ، ويشتد عليهم جميعاً فى نقد أخطائهم ،

(*) Strabismus (المترجم)

ويقول إن أخطاءه هو يجب أن يلام عليها من أخذ عنهم[٧٦] . وهو يعترف بالمراجع التى أخذ عنها فى صراحة نادرة ويختار هذه المراجع فى العادة بدقة وحسن تمييز . ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية ، وأنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة — وربما كانت هذه القارات فى المحيط الأطلنطى — وأن الأرض شبه كرة ، (ولكن اللفظ اليونانى قد يكون معناه « كريا ») وأن الإنسان إذا سافر من أسپانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند . ويقول عن شواطئ البحار إنها فى تغير دائم بفعل التعرية أو الانفجار ؛ ويظن أن اضطراب باطن الأرض قد يشق برزخ السويس ويصل البحرين . وكان كتابه تلخيصا جريئا لما يعرفه الناس فى عصره عن الأرض ، وما من شك فى أنه من جلائل الأعمال فى العلم القديم .

وكان ديو كريسستوم — ديو ذو الفم الذهبى — (٤٠ — ١٢٠ م) أعظم شهرة فى عصره من استرابون . وكانت أسرته قد اشتهرت فى بروصة من زمن طويل ؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته ، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة ؛ وحذا أبوه حذو جده ، وفعل ديو ما فعله الأب والجد[٧٧] . ولما كبر صار خطيباً وسوفسطائيا ، وسافر إلى رومة ، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسنيوس روفس ، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيثينيا فى عام ٨٢ ؛ ولما حرم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله ، أخذ يضرب فى الأرض ثلاثة عشر عاما وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس ، يأبى أن يتقاضى أجراً على خطبه ، ويكسب قوته فى معظم الأحوال بعمل يديه . ولما جلس نيرڤا على العرش بعد دومتيان ، تبدل نفى ديو تكريما ، فقد اصطفاه نيرڤا وتراچان ووهبا مدينته هبات جمة إجابة لطلبه . ولما عاد إلى بروصه أنفق معظم ثروته فى تجميلها ، واتهمه فيلسوف آخر باختلاس الأموال العامة فحاكمه پلنى ، ويلوح أنه برئ من هذه التهمة . وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة . ويبدو لنا فى هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

جوفاء ليس فيها كثير من المعانى ؛ ويؤخذ عليها ما فيها من إطناب ، وتشبيهات خداعة ، وحيل بيانية ؛ فهى تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة ؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سئم هذا الطول : « إنك قد جعلت الشمس تغرب طول أسئلتك التى لا آخر لها »[٧٨] . ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان ، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذى عاش فيه ، ولما كانت الحروب تقف لكى يستمع الناس إلى خطبه . وقد قال له تراچان فى يوم من الأيام قولا صادقا صريحا : « لست أفهم ما تقول ، ولكننى أحبك بقدر حبى لنفسى »[٧٩] . وكان البرابرة الضاربون على ضفتى البورسثنيز Borysthenes (الدنيبر) يستمعون إليه فى ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهم مجتمعون فى أولمپيا ، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال . وحدث أن جيشاً أوشك أن يتمرد على نيرڤا ، فهدأت سورته بعـــد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العارى .

وأكبر الظن أن الذى أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليونانى الأتكى الجميل بل كان هو جرأته فى التشهير ، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد فى العهود الوثنية القديمة الذى ندد بالدعارة ؛ وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق يمثل ما هاجمه هو من القوة والصراحة . (بيد أنه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبيده فروا منه)[٨٠] . وكانت خطبته فى أهل الإسكندرية تنديداً عنيفاً بترفهم ، وتخريفهم ، ورذائلهم . وقد وقف يوما فى اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط ، وإن « هومر كان أجرأ كاذب فى التاريخ » ؛ ثم وقف يوما آخر فى قلب رومة وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن ، وصور فقر الريف تصويراً مؤثراً فى أسلوب قصصى واضح جذاب ، وأنذر مستمعيه أن الناس أخذوا يهماون الأرض ، وأن

الأساس الزراعي للحضارة قد انهار . ووقف مرة فى أولمبيا ليخطب فى جمع كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، وأخذ يصف أهل ذلك العصر من الأبيقوريين والملحدين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة ، إن الصورة التي لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيفة ، ولكن الرجل العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية . والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكائن الأعلى ، وحتى التمثال الجليل الذي نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضا مجسدا لا يليق بمقامه كما لا يليق به تصوره نجما أو شجرة . ونحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله ، ندرك بفطرتنا أنه موجود ، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شيء مظلم لا يرجى منه خير ؛ وأن الحرية الحقة الوحيدة هى الحكمة — أي أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل ؛ وأن سبيل الحرية ليست هى السياسة أو الثورة ، بل أن سبيلها هى الفلسفة ، وليست الفلسفة الحقة هى الأفكار التى فى بطون الكتب ، بل هى اتباع طريق الشرف والفضيلة كما ينادى بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة فى قلب الإنسان(٨١) .

الفصل التاسع

التيار الشرقى الجارف

استعاد الدين فى القرن الثانى بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال ، فتخلت عما كان لها من سلطان . وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذى جذوره ويترقب الفرص المواتية له . ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم ؛ فقد قبلت كثرتهم الغالبة مجمل ما وصف به هومر الحياة الآخرة[٨٢] . وكانت تقرب القرابين فى خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات ، وتضع أبلة فى فم الميت ليؤدى بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل فى الزمن القديم . وكانت سياسة الحكم الرومانية ترحب بالعون الذى تلقاه من الكهنة الرسميين وتسعى للحصول على تأييد الشعب بإقامة الهياكل الفخمة للآلهة المحلية ، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة فى جميع أنحاء فلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ؛ وظل السوريون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis ، وكان لهذين الإلهين مزار رهيب فى هيرابوليس ؛ وبقيت مدن سوريا ترحب ببعث الإله تموز وتنادى قائلة « لقد قام أدنيس (الرب) » ، وتحتفل فى آخر مناظر عيده بارتفاعه إلى السماء[٨٣] . وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيسس وموته وبعثه بطقوس يونانية . وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كپدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا ، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fanatici أى المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون فى نشوة شديدة على أصوات الأبواق والطبول ، ويطعنون

أنفسهم بالمدى ، ويرشون دماءهم على الإلهة وعبادها الخاصين[٨٤] . ودأب الناس على خلق آلهة جدد ؛ فألّهوا قيصر ، والأباطرة ، وأنطنيوس ، وكثيراً من العظماء المحليين فى حياتهم وبعد مماتهم . وأخذت هذه الآلهة يمتزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فنزداد عددها ويعظم شأنها فى كل مكان ، وتقام الصلوات بألف لغة لألف إله أملا فى النعيم والنجاة ؛ فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً ، بل كانت جمة من العقائد المتشابكة ، المتناقضة ، المتنافسة ؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها فى بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً .

وثبتت عبادة سيبيل فى ليديا وفريجيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغيرها من الأقاليم ، وظل كهنتها يُخْصون أنفسهم كما فعل حبيبها أتيس ؛ فإذا أقبل عيدها الربيعى صام عبادها ، وصلوا ، وحزنوا لموت أتيس ؛ وجرح كهنتها سواعدهم ، وشربوا دماءهم ، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب . فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولئك العباد : « قوّوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإله ، وستكون النجاة حظكم جميعاً »[٨٥] . وفى آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى فى موكب للنصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييها وتناديها فى رومة باسم «أمّنا»[٨٦] (Nostra Domina) .

وكانت إيزيس الإلهة المصرية ، والأم الحزينة ، والمواسية المحبة ، وحاملة هبة الحياة الخالدة ، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبيل ؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم ، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى ؛ وكان يحتفل بهذا البعث السعيد فى كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخى أروع احتفال وأفخمه ؛ وكان عباده المبتهجون يتنادون : « لقد وجدنا أوزريس من جديد »[٨٧] . وكانوا يرمزون

إلى إيزيس بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهى ، ويسمونها فى الأوراد والأدعية « ملكة السماء » ، و « نجم البحر » ، و « أم الإله »[٨٨].
وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية ، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الحنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خال من العنف ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، وما يقوم به كهنتها الحليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير[٨٩] ، وما كانت تتيحه هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهن ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم . وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتشر إلى صقلية فى القرن الثالث ، وإلى إيطاليا فى القرن الثانى ، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية . وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين ، وكشف عن آثار معبد لها فى لندن[٩٠].

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة ما للنساء من قوة مقدسة خلاقة ، وما يتصفن به من رعاية للأمومة .

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل فى هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان مثراس هذا فى المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتى ابن أهورا – مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إلهاً للنور ، والحق ، والطهر ، والشرف ؛ وكان يقال أحياناً إنه هو الشمس ، وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه ، ويحميهم ، ويشجعهم فى كفاحهم الدائم للشر والكذب ، والدنس ، وغيرها من أعمال أهرمان أمير الظلام . ولما أن نقل جنود پمپى هذا الدين من

كپدوكيا إلى أوربا صور فنان يونانى مثراس راكعا على ظهر ثور يطعنه بخنجر فى عنقه ، وأضحت هذه الصورة هى الرمز الرسمى لذلك الدين :

وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوما مقدسا لإله الشمس ، وكان أتباعه يحتفلون فى الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولد مثراس « الشمس التى لاتغلب » والإله الذى نال نصره السنوى على قوى الظلمة فى يوم الانقلاب الشتائى ، والذى بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياء يزداد يوما بعد يوم[٩١] . ويحدثنا ترتليان Tertullian عن كهنة مثراسيين على رأسهم « حبر أكبر » وعن عزاب وعذارى فى خدمة الإله » ؛ وكانت القرابين تقرب إليه على مذبحه فى كل يوم ، كما كان عباده يشتركون فى تناول طعام مقدس من الخبز والنبيذ ، وكانت الإشارة التى يختتم بها عيده هى دقات ناقوس[٩٢] . وكان يحتفظ على الدوام بنار متقدة أمام القبو الذى يمثل فيه الإله الشاب يطعن الثور بخنجره . وكان الدين المثراسى يحض على الخلق الكريم ، ويطلب إلى « جنوده » ألا ينقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر بجميع أنواعه . ويقول كهنته إن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مثراس ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً أبدياً ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء السماء حيث يستقبلها أهورا — مزدا نفسه[٩٣] . وانتشرت هذه الأساطير التى تبعث فى نفس أصحابها الأمل والقوة فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى فى غربى آسية ، وانتقلت منه إلى أوربا (متخطية بلاد اليونان) ، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سورهدريان . وروّع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية ، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية ، أو أنها فى المثراسية حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان) . وليس من

السهل أن نعرف أى الدينين أخذ عن الآخر ، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة فى جو بلاد الشرق .

وكانت فى كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط « طقوس خفية » تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير ، وتضحية ، وتثبيت ، ووحى ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه . وكان الأعضاء الجدد يدخلون فى دين سيبيل بوضعهم عراة فى حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر . وكانت أعضاء التذكير فى الثور ، وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع فى إناء خاص ، وتهدى إلى الإلهة[٩٤] . وكان فى المثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليونانى والرومانى القديم باسم الثور بليوم taurobolium أو رمى الثور ويصف أپوليوس فى عبارات جزلة رائعة المراحل التى يمر خلالها خادم إيزيس — فترة الصوم المبدئية الطويلة ، والورع والتقشف ، والتطهير بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الرؤى الصوفية للألهة لتهبه النعيم الأبدى . ويلتزم الطالب فى إلوسس أن يعترف بخطاياه (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقده شجاعته) ، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة ، ويستحم فى الخليج ليتطهر من الدنس الجسمى والروحى ، ثم يقرب القربان ، وهو فى العادة خنزير . وفى عيد دمتر كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم ، ويقتصرون فى أثناء حزنهم هذا على تناول الكعك المقدس ، وخليط رمزى من الدقيق والماء والنعناع . وفى الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث پرسفونى ، ويعد الكاهن الذى يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث كپرسفونى بعثاً جديداً[٩٥] . وقد صورت الطائفة الأرفية ، متأثرة بالآراء الهندوكية أو الفيثاغورية ، موضوع هذه الطقوس فى جميع الأراضى اليونانية ، فقالت إن الروح تحبس فى طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبة ، وإن

فى مقدورها أن تنطلق من هذا التجسد الثانى المشين بأن تسمو حتى تتحد اتحاداً هياميا بديونيشس . وكان الإخوان الأرفيون فى اجتماعهم يشربون دم ثور يضحون به للمنقذ الميت الذى يكفر عن خطاياهم ويوحدون بينه وبين هذا المنقذ . وكان الاشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيراً ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الإله ، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله[٩٦]

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر ، فقد نشر المجوس فنهم هذا فى أنحاء الشرق وسموا الشعوذة القديمة باسم جديد ؛ وكان عالم البحر الأبيض المتوسط غنيا بمن فيه من السحرة ، وصانعى المعجزات ، والمتنبئين ، والمنجمين ، والزهاد القديسين ، ومفسرى الأحلام العلميين . وكانت كل حادثة غير عادية تتخذ نذيراً إلهيا بما سيقع من الحوادث فى المستقبل ، وأصبح لفظ أسكسيز Askesis ، الذى كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريبا رياضيا ، يقصد به وقتئذ إخضاع الجسم لسلطان الروح ؛ فكان الناس يضربون أنفسهم بالسياط ، ويبترون أعضاءهم ، ويجيعون أنفسهم ، أو يقيدون أجسامهم بالسلاسل فى مكان واحد ؛ ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا التعذيب أو الحرمان[٩٧] الذاتى . ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجالا ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط . يعيشون فيها منفردين فى صوامع وبيع ، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية ، ويجتمعون فى يوم السبت للصلاة الجامعة ويسمون أنفسهم **معالجى النفوس** (**Therapeutae**)[٩٨] . وقال الملايين من الناس إن الكتابات المعزوة إلى أرفيوس ، وهرمس ، وفيثاغورس ، والعرافات ومن إليهم قد أملاها أو أوحى بها إله من الآلهة . وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحى قد هبط عليهم من السماء يجوبون الأقطار متنقلين من مدينة إلى مدينة ،

يعالجون الناس بما يبدو فى نظرهم أنه من المعجزات . من ذلك أن الإسكندر الأبونوتيكى Alexander of Abonoteictus قد درب أفعى على أن تخفى رأسها تحت ذراعه ، وتقبل أن يثبت فى ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان ، ثم أعلن أن الأفعى هى الإله أسكليبوس ، وأن هـذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع فى المستقبل ، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التى يضعها فى رأسها المستعار(٩٩).

وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية . وقد صور فيلوستراتس فى أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين فى كتابه **حياة أبولونيوس التيانالى** of Tyana ، فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الإخوان الفيثاغوريين الصارمة ، فحرم على نفسه الزواج ، وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، ولم يحلق لحيته قط ، وامتنع عن الكلام خمس سنين كاملة(١٠٠) ، ووزع المال الذى تركه له والده على أقاربه ، وأخذ يطوف ، كما يطوف الرهبان المعدمون ، فى فارس ومصر ، وغربى آسية ، وبلاد اليونان ، وإيطاليا ؛ وأتقن علوم المجوس ، والبراهمة ، والزهاد المصريين . وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها ، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان ، ويعبد الشمس ؛ ويؤمن بجميع الآلهة ، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل . وكانت حياة التقى وإنكار الذات التى فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله ، أما هو فلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبلونيوس . وتعزو إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات : فقد كان الناس يقولون إنه يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وإنه رفع بنتا من بين الأموات(١٠١) . لكنه كان فى واقع الأمر فيلسوفا أكثر منه ساحراً ،

يعرف الأدب اليونانى ويحبه ، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة . وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله : « علمينى ألا يكون لى إلا القليل وألا أرغب فى شىء » . ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه أجابه بقوله : « الفاكهة اليابسة والخبز[١٠٢] » . وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها الجسد ، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقا حيا ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم ؛ وحضهم على تجنب العداء ، واغتياب الناس ، والغيرة ، والكراهية ؛ ومن أقواله لهم : « إذا كنا فلاسفة ، فلن نستطيع أن نكره بنى جنسنا »[١٠٣] . ويقول فيلوستراتس إنه « كان فى بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيوعية ويعلم الناس أن من واجبهم أن يعين بعضهم بعضاً »[١٠٤] . ولما اتهم بأنه يثير نقع الفتنة ، ويعلم الناس السحر ، جاء طائعا إلى رومة ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين ، فسجن ، ولكنه فر من سجنه ومات حوالى سنة ٩٨ م . بعد أن عمر طويلا . وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء[١٠٥] .

ترى ما هى الصفات التى جعلت نصف رومة ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت ألوية هذه الأديان الجديدة ؟ من هذه الصفات ما تنطوى عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات ؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خلائق من جميع الأمم ، وجميع الأحرار ، وجميع الأرقاء . ولا تلقى بالا إلى ما بين الناس من فروق فى الأنساب أو الثراء ، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع . وقد بنيت هياكلها بحيث تتسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد وللإله المعبود . وكانت سيبيل وإيزيس الإلاهتين أمين ثاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية — ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين . إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يخرج

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة . ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونساؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ فى إيزيس وسيبيل ، بل إن العابد التقى فى بلاد البحر الأبيض المتوسط فى هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن ، وإن الصلاة المحببة التى يرددها أكثر من سائر الصلوات هى الصلاة التى لا يوجهها إلى العذراء بل إلى الأم التى بورك فيها بمن ولدته من بطنها .

ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً فى قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً فى خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب ، وترانيم ، تتنقل من الحزن إلى السرور ، وما تحتويه من طقوس ذات رموز تنطبع فى الخيال وتبعث الشجاعة من جديد فى النفوس التى أثقلتها الحياة الرتيبة المملة . ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدون الثياب الكهنوتية من حين إلى حين بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات ، يتدرجون فيها من المبتدئ المتقشف الزاهد إلى الخادم الدينى الذى لا ينقطع عن مواساة الناس . وكان فى مقدور الروح التى تدرك ما ارتكبته من ذنوب أن تتطهر منها ؛ وكان يستطاع فى بعض الأحيان شفاء الجسم الذى أنهكته العلة ، بكلمة أو طقس موح ؛ وكانت المراسم السرية الخفية التى يمارسونها ترمز إلى ما يتردد فى صدور الناس من رجاء فى أن يتغلبوا على كل شىء حتى الموت نفسه .

لقد سما الناس فى وقت من الأوقات بما كانوا يتوقون له من عظمة وخلود ، فجعلوهما مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاء عليهما ، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التى كانت من صنعهم والتى هى نفوسهم مجتمعة . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تذوب فى حركة السلم الجديدة ، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة ، ولم تكن تمثل

جماهير الشعب التى لا حول لها ولا طول . وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشتراكه فى أعمالها ، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية فى أسفلها وتشيعها بين الدهماء من السكان . وكان ما فى الأديان الشرقية وما فى المسيحية . التى أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها ، من وعد بالخلود الشخصى ، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة ، والفاقة ، والمحن ، والكدح ، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته . ولاح أن العالم كله أخذ يأتمر ليمهد السبيل إلى المسيح .

الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

١٣٢ ق . م – ١٣٥ م

الفصل الاول

پارثيا

بين بحر پنتس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشمَّاء التى رست عليها سفينة نوح ، كما تقول قصة الطوفان . وفى أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التى تصل پارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود ، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية . وكان سكانها من الجنس الهندورپى يمتون بصلة القربى للحثيين والفريجيين ، ولكنهم ظلوا محتفظين بأنفهم الأناضولى . وكانوا فى الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة ، يحذق الصناعات اليدوية ، ولا يجاريه شعب آخر فى براعته التجارية ؛ استغلوا أرضهم الضنينة أحسن استغلال ، وأنتجوا من الثروة ما يكفى لأن يعيش ملوكهم معيشة الترف ، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان . وقد ذكر دارا الأول فى نقش بهستوم (٥٢١ ق . م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس ، وكانت فيما بعد تابعة تبعية اسمية لدولة السلوقيين ثم تداولتها أيدى پارثيا ورومة مراراً عدة ، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلى . وكان أشهر ملوكها ترجرانس الأكبر Tirgranes (٩٤ – ٥٦ ق . م) الذى فتح كپدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانيـــة هى ترجانوسترا Triganocetra ،

وانضم إلى مترداتس فى ثورته على رومة ؛ ولما أن قبل بمبي عذره ، أهدى إلى القائد المنتصر ٦٠٠٠ وزنة (٢١ر٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) ، و١٠ر٠٠٠ درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) لكل قائد مائة ، وخمسين درخمة لكل جندى فى الجيش الرومانى . واعترفت أرمينية بسيادة رومة فى عهد قيصر وأغسطس ونيرون وأصبحت فى فترة من الزمان فى عهد تراچان ولاية رومانية . لكن ثقافتها كانت رغم هـذا ثقافة إيرانية ، وكانت ميولها فى العادة نحو پارثيا .

وكان الپارثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيمينيين ثم الملوك السلوقيين . وكان هؤلاء الپارثيون من العنصر السكوذى — التورانى أى أنهم من جنس الشعوب الضاربة فى الجنوب الشرقى من روسيا وفى بلاد التركستان . وفى عام ٢٤٨ ق . م خرج زعيم سكوذى يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين ، وجعل پارثيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة . ولما ضعف الملوك السلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنتيخوس الثالث (١٨٩ ق . م) عجزوا عن حماية بلادهم من الپارثيين الهمج المتهورين ، فلم يكد يختتم القرن الثانى قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية الپارثية الجديدة . وكان للملوك الپارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها فى فصول السنة المختلفة : هكتومپيلس Hecatompylus فى پارثيا ، وإكبتانا (محل همذان) فى ميديا ، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة . وعلى الضفة الأخرى للنهر المقابلة لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهى مدينة سلوقيا التى ظلت عدة قرون مدينة يونانية فى مملكة پارثية . وقد احتفظ الحكام الأرساسيون بالنظام الإدارى الذى أقامه السلوقيون ، لكنهم غشوه بنظام إقطاعى أخذوه عن الملوك الأكيمينيين . وكانت جمهرة الشعب تتألف من أقنان الأرض والرقيق ؛ وكانت الصناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد الپارثيون قد استطاعوا أن يخرجوا منه نوعاً جيداً ،

وكانت « صناعة عصر الخمر تدر أرباحاً طائلة »(٢) ؛ وكان جزء من ثروة البلاد يأتى عن التجارة التى تنقل فى الأنهار الكبرى ، وينقل بعضها فى طرق القوافل التى تجتاز بارثيا فى طريقها بين أقاصى آسية وبلاد الغرب . واشتبكت رومة مع بارثيا فى حرب من سنة ٥٣ ق . م حين هزم البارثيون كراسس Crassus فى كارى Carrhae إلى سنة ٢١٧ م حين ابتاع مكرينس Macrinus الصلح من أرتبانس Artabanus ، بغية السيطرة على هذه الطرق وعلى البحر الأحمر .

وكان البارثيون أغنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب ؛ فقد كان الأشراف ، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم فى كل العصور ؛ وكان أقنان الأرض أميين لا يعرفون للأدب معنى ، وكان الصناع منهمكين فى عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب ، وكان التجار مشغولين بتجارتهم عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة . وكان الأهلون يتكلمون اللغة الفهلوية ، ويكتبون بالآرامية على الجلود ، وكانت الآرامية قد حلت وقتئذ محل الكتابة المسمارية ؛ ولم تبق لنا الأيام سطراً واحداً من الآداب البارثية ، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تمثل فى طشقونة كما كانت تمثل فى سلوقيا ، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر فى أحد أدوار الباخيين ليوربديز . أما الصور والتماثيل التى كشفت فى تدمر ، ودور — أوربس ، وأشور فكانت فى أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين ؛ وكان امتزاج الطرازين اليونانى والشرقى ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر فى فن العصور التى تلت ذلك العصر فى جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية . وقد بقى لنا نقش واضح يمثل رامياً بالسهام على ظهر جواد ، ويوحى بأنه لو بقى لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهـذا الفن أعلى من تقديرنا الحالى(٣) . وقد شاد أمـير إقطاعى عربى من أتباع ملك بارثيا قصراً من حجر الجير فى حترا Hatra القريبة من الموصل (٨٨ ق . م ؟) يحتوى على سبعة أبهاء ذات عقود وقباب ، وشاده على طراز قوى ولكنه همجى . غير أن

أعمالا فنيه بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا فى الأدوات الفضية وفى الحلى .

لكن البارثيين نبغوا فى الفن المحبب إلى بنى الإنسان — ونعنى به زينة الأجسام . لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقصون شعورهم ، وكان الرجال يطيلون لحاهم المجعدة وشواربهم المتهدلة ، ويرتدى الواحد منهم قيصا وسروالا منتفخا يعلوهما فى العادة ثوب متعدد الألوان . أما النساء فكن يرتدين أثوابا مطرزة تطريزا دقيقا جميلا ، ويزين شعرهن بالأزهار . وكان أحرار البارثيين يسلون أنفسهم بالصيد ، ويكثرون من الطعام والشراب ، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركوب . وكانوا محاربين شجعانا ، وأعداء شرفاء ، يحسنون معاملة الأسرى ، ويقبلون الأجانب فى المناصب الكبرى ، ويحمون اللاجئين ، غير أنهم كانوا فى بعض الأحيان يبترون أعضاء المدنى من الأعداء ، ويعذبون الشهود ، ويعاقبون على الذنوب الصغيرة بضرب السياط . وكان من عادتهم تعدد الزوجات إذا أمكنتهم مواردهم من ذلك التعدد ، وكانت نساؤهم محجبات معزولات عن الرجال ، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقسى العقوبات ، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون يقيمون فى سبيله عقبة ما[٣] . ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثى بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتى حظية وألف بعير محملة بلوازمه[٤] .

والصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن البارثيين فى جملتهم هى أنهم كانوا أقل حضارة من الفرس الأكيمينيين ، وأشرف وأكرم أخلاقا من الرومان . فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم فى الدين ، يجيزون لليونان ، واليهود ، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون أن يتدخلوا فى شؤونهم . أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن الزرادشتية الصحيحة ، فكانوا يعبدون الشمس والقمر ، ويفضلون مثراس عن أهورا — مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيرى الشبه بالمسيحيين

إذ يفضلون المسيح على يهوه . وقد كان لكهنة المجوس يد فى القضاء على الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون إليه من الرعاية .

ولما توفى ملكهم فلوجاسس الرابع (٢٠٩ م) تنازع ولداه فلوجاسس الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة . وانتصر أرتبانس فى هذا النزاع ثم هزم الرومان فى نزيب Nisibis . ودامت الحرب بين الإمبراطوريتين ثلاثة قرون ثم انتهت بانتصار البارثيين نصرا غير حاسم لأن سهول أرض الجزيرة كانت توائم خيالة البارثيين أكثر مما توائم فيالق الرومان . ثم تورط أرتبانس بعدئذ فى حرب داخلية لقى فيها حتفه وأعلن أردشير أو أرتحشتر الشريف الإقطاعى فى بلاد الفرس والذى غلبه على أمره ملك الملوك (٢٢٧ م) وأسس الأسرة الساسانية . وعاد الدين الزرادشتى إلى سابق عهده ، وبدأ فى بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التى مرت بها فى تاريخها الطويل .

الفصل الثانى

الهسمونيون

انتهز سيمون مكابى فى عام ١٤٣ ق . م فرصة النزاع القائم بين البارثيين ، والسلوقيين ، والمصريين ، والرومان فانتزع استقلال بلاد اليهود من أيدى الملوك السلوقيين . واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهنا أعلى للدولة اليهودية الثانية (١٤٢ ق . م — ٧٠ م) ، وجعلت ثانى المنصبين وراثيا فى أسرته الهسمونية ، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة أسرة الكهنة — الملوك ، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطتين الروحية والزمنية فى الأسرة وفى الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده .

وأدرك الهسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة فقضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى ، فلم يحل عام ٧٨ ق . م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة ، وإدوم ، ومؤاب ، والجليل ، وإدوميا ، وما وراء نهر الأردن ، وجدارا ، وپلا ، وچراسا ، ورافيا (رفح) ، وغزة ، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهد سليمان . وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين البواسل الذين قاتلوا دفاعا عن حريتهم الدينية الدين اليهودى والختان على رعاياهم الجدد بحد السيف(٥) . وفقد الهسمونيون فى الوقت نفسه غيرتهم الدينية ، واستسلموا شيئاً فشيئاً لما كان فى العناصر التى ضموها إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين(*) الشديد . غير أن الملكة شالوم اسكندرة

(*) شيعة يهودية تمتاز بتمسكها الشديد بالشرائع والأوامر الدينية ؛ وتطور معنى هذا اللفظ فى الزمن الحديث فصار يطلق على من يستمسك فى الدين بالشكل دون الجوهر أى المرائى . (المترجم)

(٧٨ — ٦٩ ق . م) عكست هذا الاتجاه ، وعقدت الصلح مع الفريسيين ، لكن ولداها هركانس الثانى ، وأرستبولس الثانى أخذا يتنازعان العرش قبل موتها ، وعرضت الطائفتان أمرهما على پمپى ، وكان وقتئذ واقفا على رأس فيالقه المنتصرة فى دمشق (٦٣ ق . م) ، فلما انتصر پمپى لهركانس تحصن أرستبولس وجيشه فى بيت المقدس ، فحاصر پمپى تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستبولس احتموا بأفنية الهيكل المسورة ، وظلوا يقاومون پمپى ثلاثة أشهر . ويقول المؤرخون إن تقواهم أعانت پمپى على هزيمتهم ، فقد شاهد أنهم لا يحاربون فى يوم سبتهم ، فأمر رجاله بأن يعدوا فى كل سبت الربا والكباش الهدامة التى سيستخدمها فى اليوم التالى ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود فى ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم فى الهيكل يبتهلون ويقربون القرابين كعادتهم كل الأوقات . فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثنى عشر ألفاً ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينج منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم[٦] . وأمر پمپى رجاله بألا يمسوا ما فى الهيكل من كنوز ، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ٣ ريال أمريكى) ، ونقلت المدن التى كان الهسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب هركانس الثانى حاخاما أعظم ، وحاكما بالاسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان فى حراسة أنتپاتر الإيدومينى الذى أعان رومة فى هذه الحرب . وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءاً من ولاية سوريا الرومانية .

وبينا كان كراسس فى طريقه إلى طشقونة فى عام ٥٤ ق . م — وهى الحملة التى قطع فيها رأسه وجىء به ليمثل فى بلاط ملك الپارثيين دور پنيثوس فى مسرحية الباخيين — نهب ما أبقى عليه پمپى من كنوز الهيكل ، وكان يبلغ مقدارها عشرة آلاف وزنة . ولما أن جاء البشير بأن كراسس هزم وقتل

اغتنم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم ، ولكن لنچينس الذى عين واليا على سوريا بعد كراسس أخمد الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق (٤٣ ق . م)[٧] . ومات أنتباتر فى تلك السنة ، وزحف البارثيون على بلاد اليهود مخترقين الصحراء وعينوا أنتجونس آخر الهسمونيين ملكا على البلاد يأتمر بأمرهم ويخضع لمشيئتهم . وقابل أنطونيوس وأكتاڤيان هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكا على بلاد اليهود وأعانوا جيشه اليهودى بالأموال الرومانية . فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحمى أورشليم من السلب والنهب ، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعدمه ، وذبح جميع زعماء اليهود الذين عاونوا الملك الصورى ، وتهيأت له بذلك أسباب حكم يعد من أكثر العهود إشراقا فى التاريخ (٣٧ — ٤ ق . م) .

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالا من أخلاق عصره الذى أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أذكياء لا خلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من الشرف . لقد كان صورة مصغرة من أغسطس فى بلاد اليهود : فعل فيها ما فعله أغسطس فى رومة فاستبدل بفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً ، وجمل عاصمته بالمبانى والتماثيل اليونانية الطراز ، ووسع رقعة مملكته ، ونشر فيها الرخاء ، وكسب بالختل والسياسية أكثر مما كسبه بقوة السلاح ، وتزوج كثيراً من النساء ، وقضت عليه خيانة أبنائه ، واستمتع بكل ما يتيحه له الحظ المواتى عدا السعادة . ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوى البأس ، عظيم المهارة ، بارع فى رمى السهام والحراب ، صياد عظيم اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشاً . وكان « محارباً لا يستطيع إنسان أن يقف فى وجهه »[٨] . وما من شك فى أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة ، فقد كان فى وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحجة أو بكثرة الرشا على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أو كليوبطرة ، أو أكتافيان . وقد خرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى رومة وهو أقوى سلطاناً وأوسع ملكا مما كان ، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له « روحاً أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة » ، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين الهسمونية ، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه[٩] . ولقد كان « الإديومى Idumean » رجلا كريماً خلا قلبه من الرحمة ، أفاء على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى .

ولقد كان من العوامل التى شكلت أخلاقه ، ما كان يضمره له الذين غلبهم

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد ، وما يكنه له الشعب المتعض من طغيانه والمشمئز من أصله الأجنبي من عداء واحتقار : وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة رومة وأموالها ، وبقي إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التي كان الشعب يأتمر بالليل وبالنهار ليخلع عنه نيرها ويسترد حريته منها . وقد ثقل عبء الضرائب التي فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها منهاجه الضخم في البناء الذى لا تطيقه الثروة القومية . وما لبث هـذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها . وحاول هيرود أن يهدئ ثائرة شعبه بمختلف الوسائل ، ولكن جهوده كلها لم تجده نفعاً . من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية ، وأقنع رومة بأن تخفض مقـدار الجزية المفروضة على بلاده ، وحصل لليهود على مزايا في البلاد الأجنبية ، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلا من القحط وغيره من الكوارث ، وحافظ على الأمن والنظام في الداخل وسلامة البلاد من الأعداء في الخارج ، ونمى موارد البلاد الطبيعية . وفي عهده قضى على اللصوص وقطاع الطريق ، ونشطت التجارة ودب دبيب الحياة في الأسواق والثغور . لكن الملك في الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه ، وقسوته العقاب ، وموت أرستبولس حفيد هركانس الثاني والوارث الشرعي لعرش البلاد غريقاً « مصادفة » في الحمام ؛ وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم ، والذين عين هو رؤساءهم ، يأتمرون به ، وحقد عليه الفرسيون لما بدا من أنه يعتزم صبغ بلاد اليهود بالصبغة اليونانية .

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التي كانت يونانية أكثر منها يهودية سكانها وثقافتها ؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنية من رقة وتنوع ؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً في أصله أو مؤمناً بهذا الدين عن عقيدة ؛ وقد دعاه هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته ، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة ، والملابس ، والأفكار

والآداب ، والفنون اليونانية . وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان ، وعهد إليهم الإشراف على الشئون العليا فى الدولة ، وعين نقولاس الدمشقى ، وهو رجل يونانى ، مستشاره ومؤرخه الرسمى . وقد أنشأ فى أورشليم داراً فخمة للتمثيل ومدرجاً وزينهما بتماثيل لأغسطس وغيره من الوثنيين ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وأدخـــل فى بلاده الألعاب الرياضة والمباريات الموسيقية اليونانية ، وصراع المجتلدين الرومانى[١٠] ، وجمل أورشليم بمبان أخرى على طراز معمارى بدا للشعب أنه طراز أجنبى ، وأقام فى الأماكن العامة تماثيل يونانية أثارت دهشة اليهود وغضبهم بعريها كما أثار غضبهم عرى المصارعين فى الألعاب الرياضية . وقد شاد لنفسه قصراً أقامه بلا ريب على الطراز اليونانى وملأه بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين ، وأحاطه بحدائق واسعة محتذياً فى ذلك حذو أصدقائه الرومان . وقد صدم مشاعر الشعب بقوله إن الهيكل الذى شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً ، وإنه يعتزم أن يهدمه ويقيم فى مكانه هيكلا أوسع منه . ولم يبال باحتجاج الأهلين ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذى دمره تيتس فيما بعد .

وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين قدماً مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز « ذات نقوش عجيبة » تعتمد على صفوف متعددة من العمد الكورنثية ، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم . وكان فى هذا البهو الرئيسى مظلات للصرافين ، الذين يبدلون نقود الأجانب بالنقود التى تقبل فى الهيكل . وكان فيها أيضاً المرابط التى يســتطيع الإنسان أن يشترى منها ما يريد أن يقربه من الحيوانات ، والغرف أو الأروقة التى يجتمع فيها الطلاب لتعلم اللغة العبرية والشريعة ، والمتسولون الصخابون الذين لا مفر من وجودهم فى كل مكان . ومن هـــذا « الهيكل الخارجى » يصعد بمجموعة من الدرج إلى فضاء داخلى مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه . وكان

فى هذا الفضاء « بهو النساء » الذى « يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم »(١١) . ومن هذا الحرم الثانى يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى « بهو الكهنة » حيث يقوم الهواء الطلق المذبح الذى تقرب فيه المحرقات إلى يهوه . وتلى هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمسا وسبعين قدماً واتساعها أربعا وعشرين ، تعلوها كرمة ذهبية ذائعة الصيت ، وتؤدى إلى بناء الهيكل الرئيسى الذى لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم . وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج فى الصغر كلما علت ، وصفحت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد فى عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجوانى والقرمزى . وأمام هذا الستار كانت الماثلة(*) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة وعليها « خبز التقدمة » غير المختمر الذى يقدمه الكهنة ليهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس . وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد ، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوى على « شيء قط » كما يقول يوسفوس . ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام وذلك فى يوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده . وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخى ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً ، ولم تتم إلا قبيل مجيء فيالق تيتس(١٢) .

وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذى كان يعد من عجائب العالم فى عهد أغسطس ، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه ، وعن النسر الذهبى الذى يتحدى عقيدة اليهود

(*) الماثلة منارة المسرجة وقد استعرناها للشمعدان (المترجم)

فى تحريم الصور المنحوتة ، والذى كان يرمز عند مدخل الهيكل لرومة عدوة اليهودية وسيدتها . وكان اليهود العائدون إلى مدائن فلسطين ينقلون أنباء العمائر اليونانية الخالصة التى كان هيرود يجدد بها تلك المدائن ، وكيف ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذى كان مخبوءا فى قبر دواد[١٣] فى إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية ، وفى إهدائه بسخاء للمدن الأجنبية أمثال دمشق ، وببلوس ، وبيروت ، وصور ، وصيدا ، وأنطاكية ، ورودس ، وبرجموم ، وأسپارطة ، وأثينة . واتضح لهم أن هيرود يريد أن يكون معبود العالم اليونانى لا ملك اليهود فحسب ، لكن اليهود كانوا يعيشون بدينهم ، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم فى يوم من الأيام ؛ ومن أجل هذه كان انتصار الروح الهلنية على الروح العبرانية فى شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدلهمة لا تقل عما حل بهم من الاضطهاد على يدى أنتيخس . ولذلك أخذوا يحيكون المؤامرات لقتل هيرود ، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم وقتلهم ، ولم يكتف بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها فى بعض الأحيان[١٤] . وأطلق عيونه بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه ، وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداء له[١٥] .

واستطاع أن يرد كيد أعدائه فى نحورهم عدا كيد أزواجه وأبنائه . وكان له من الأزواج عشر اجتمعت منهن تسع فى وقت واحد ، أما الأبناء فكان له منهم أربعون . وكانت مريمنى Mariamne زوجته الثانية حفيدة هركانس الثانى وأخت أرستبولس اللذين قتلهما هيرود . ويصفها يوسـفوس بأنها امرأة عفيفة ، ولكنها فظة بعض الفظاظة بغريزتها ، تعامل زوجها بغطرسة وكبرياء لأنها رأته مغرماً بها غراماً يخضعه لها كأنه ملك يمينها . . . : . وكانت فضلا عن فظاظتها تشهر بأمه وأخته علناً ، لأنهما من أصل حقير ، وتستطيل فى عرضهما إلى حد « امتلأت معه القلوب » فى بيت الملك « بغضاً وحقداً » . واستطاعت أخت

هيرود أن تقنعه بأن مريمنى تأمر به لتدس له السم ، فوجه هذه التهمة لزوجته أمام أعضاء المحكمة ؛ فحكموا عليها بالإعدام ونفذ فيها الحكم . غير أن هيرود كان يرتاب فى جريمتها ، فجن جنونه من فرط الندم فترة من الزمان ، وأخذ يردد اسمها جهرة ، ويرسل خدمها ليستدعوها ، واعتزل المناصب العامة ، وآوى إلى الصحراء « يعذب فيها نفسه أشد العذاب » حتى جيء به إلى قصره محموماً شارد العقل . واشتركت أم مريمنى مع جماعة آخرين فى مؤامرة ترمى إلى خلعه ، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجاءة ، وأعدم المتآمرين . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنتيپاتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولداه من مريمنى ألكسندر وأرستبولس ، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلا حكموا على الشابين بالإعدام (٦ ق . م) . ولم يمض على ذلك عامان حتى اتهم نقولاس الدمشقى أنتيپاتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه . وأمر هيرود بابنه فجيء به إليه . « وأخذ يبكى ويذكر ما لقيه من النكبات على يدى أبنائه »[١٦] وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده .

وكانت قوى الملك الشيخ فى هذه الأثناء تنهار بتأثير الحزن والمرض ؛ فقد أصيب بداء الإستسقاء ، والقروح ، والحمى ، والتشنج ، والنفس الكريه الرائحة . وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط ما أحبط من المؤامرات لاغتيالة ، ولكنه منع من تنفيذ قصده . ولما سمع أن أنتيپاتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله ، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (٤ ق . م) فى التاسعة والستين من عمره مكروها من جميع شعبه . ويقول أعداؤه عنه إنه « تسلل إلى العرش تسلل الثعلب ، وحكم حكم النمر ، ومات ميتة الكلب » .

الفصل الرابع

الشريعة وأنبياؤها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء . فحكم فليب الإقليم الشرقى المعروف باسم بنتانيا Bantanea ، الذى يحتوى على مدائن بيت سيده ، وكپتولياس ، وجراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى . وحكم هيرود أنتپاس پيريا Peraea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن) ، والجليل فى الشمال حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصرة . وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا . وكان فى هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم ، وحبرون ، وبير سبع ، وغزه ، وجدارا ، وإموس ، ويمنيا ، ويافا ،وقيصرية ، وأريحة ، وأورشليم . وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية ، ويدل وجود الخنازير فى جدارا على وجود غير اليهود فيها . وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة فى المدن الساحلية ما عدا يافا ، ويمنيا فى « المدن العشر » القائمة على شاطئ نهر الأردن أما فى الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود . وكان هذا الانقسام العنصرى ، غير المحبب إلى رومة ، مأساة فلسطين .

وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمئزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثنى وما كان يسوده من فساد خلقى فعلينا أن نرجع إلى زمن المتطهرين المتزمتين فى إنجلترا . لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم ، ودولتهم ، وآمالهم ، وكانوا يظنون أنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين فى نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم ؛ ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود التى جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضى حياتها كلها فى نزاع عنصرى واضطراب سياسى ،

وحروب متقطعة ، يخبو نارها كلها تارة ثم تعود فتلتهب من جديد . يضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين ، بينا كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا فى شراك الشريعة . هـذا إلى ما كان هناك من نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطناً له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع فى بلادهم ، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة[١٥] . وكان الذى يجمع بين هـذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان ، التى كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحببة إليهم .

وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم فى أورشليم وحدها نحو مائة ألف[١٩] . وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم وعلماؤهم يفهمون العبرية ، أما الموظفون والأجانب ومعظم المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية . وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض ويسقون الزرع ، ويعنون بالحدائق والكروم ، ويرعون الضأن . وكانت فلسطين فى حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفى أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج[٢٠] . وكان بلحها ، وتينها ، وعنبها ، وزيتونها ، ونبيذها ، وزيتها غالية الثمن يبتاعها الناس من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ؛ وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذى يحتم عليهم أن يتركوا الأرض بوراً فى السنة السبتية[*] . وكانت الصناعات اليدوية وراثية فى أغلب الأحيان، وكان الصناع ينتظمون عادة فى طوائف . وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم . وكان الأرقاء أقل عدداً منهم فى أى بلد آخر من بلاد البحر الأبيض المتوسط . وازدهرت التجارة الصغرى فى البلاد ، ولكن عدد التجار اليهود ذوى الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلا فيها .

(*) أى السنة السابعة التى تترك فيها الأرض للراحة . (المترجم)

وفى ذلك يقول يوسفوس : « لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش فى بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل ، ولا نميـــل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية) » (٢٢) . وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هلل Hillel القانون الوارد فى سفر تثنية الاشتراع (الأصحاح الخامس عشر ١ — ١١) والذى يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين ، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القومى .

وكان فى داخل الهيكل بهو الجازيث ، ملتقى السنهدرين أو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل . وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق . م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره فى سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الأصحاح الحادى عشر) والذى يسدى فيه النصح لموسى . وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ثم أصبح من حقه فى عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عـــدداً متزايداً من الفرسيين ، وعدداً قليلا من فقهاء الشريعة الموسوية المحترفين (٢٣) . وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة ؛ أما الهسمونيين ، وهيرود ، ورومة فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية ، فقد كان فى وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينيه ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية (٢٤) .

وكان فى الجمعية حزبان يتناعان السيطرة عليها ، كما يتنازعان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصدوقيون (*) ، والذين سموا بهذا نسبة إلى صدوق مؤسس هـــذه الطائفة

(*) شيعة من اليهود الأرستقراط المتشككة عاشت فى أيام العهد الجديد لا تعتقد بالبعث ولا بالدار الآخرة . (المترجم)

وكان أعضاؤه وطنيين فى مبادئهم السياسية ، مستمسكين بدينهم ، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية ، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والقصص الشفوية التى يتناقلها رجال الدين ، ولتفاسير الطليقة التى يقول بها الفرسيون . وكانوا يرتابون فى خلود الروح ، ويمتعون بامتلاك طيبات هذا العالم .

وكان الصدوقيون هم الذين سموا الفرسيين بهذا الإسم (البروشيم أى الانفصاليين) . ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البرهمة الصالحون) عن الذين تدنسوا بإهمال ما تفرضه عليهم طقوس التطهير[٢٥] . وكانوا هم خلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابى الذين كانوا ينادون بوجوب التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود . وقد عرفهم يوسفوس ، وهو منهم ، بأنهم « شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم فى تفسير شرائعهم »[٢٦] . ولكى يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفرسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما فى قوانين موسى من غموض ، ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ، ولتعديل حرفيتها فى بعض الأحيان حسب ضرورات الحياة وظروفها الدائمة التغير .

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين ، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة فى بعض المواضع كما فعلوا فى أوامر هلل الخاصة بالربا ، ولكنهم كانوا يحتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة نفسها . ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاة لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المسطورة والمتواترة . وإذ كان

الفريسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلوى فيما يأملونه من الخلود الجثماني والروحي . وكانوا يحيون حياة بسيطة ، يبتعدون فيها عن الترف ويندون به ، ويكثرون من الصوم ، ويعنون بالاغتسال ، ويتباهون من حين إلى حين باستمساكهم بالفضيلة مباهاة تضايق السامعين . ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية ، وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى وغرسوا فى نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من الانحلال والتضعضع حين ألمت بهم المصائب : ولما أن خرب الهيكل (٧٠م) فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفريسيون عن طريق الأحبار هم المعلمين والرعاة لذلك الشعب الذى تشتت فى بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة .

وكانت أكثر شيع اليهود تطرفاً شيعة الإسينية التى أخذت تتنواها عن الكسدية ، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلدى اسشاى Aschai (المستحم) ، وأن أعضاءها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل المسيح : ولعلهم قد تأثروا أيضاً بآراء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس عبدة النار ، والفيثاغوريين ، والكلبيين ، وهى الآراء التى جاءت إلى أورشليم ملتقى الطرق التجارية فى غرب آسية . وكان عددهم فى فلسطين يبلغ أربعة آلاف ، وقد نظموا أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة العزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى Engadi وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام ، ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك »[٢٧] :

ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام ،

بفضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنتظمة[٢٨] . وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج التيل الأبيض ، ويحمل معه فأساً صغيرة ليغطى بها فضلاته ، ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز فى يوم السبت من أعظم الكبائر[٢٩] .

وكانت قلة منهم تتزوج وتعيش فى المدن العامرة ولكنهم كانوا يسيرون على القاعدة التى وضعها تولستوى وهى أنهم لايضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال . وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، ويسعون إلى الاتصال الصوفى بالله عن طريق التأمل والصلاة . وكانوا يأملون أن ينالوا بتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم فى التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر . وكانوا كمعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة ، والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين ، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاويذ السحرية . ومن « عقيدتهم السرية » جاءت بعض « أجزاء القبلة »(*) . وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيوعية سماوية (ملسوس شمايم) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته نقية طاهرة[٣١] . وكانوا شديدى التحمس فى الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئا من أدوات الحرب ؛ غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية فى الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجمت فيالق تيتس بيت المقدس والهيكل ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد . وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا جو المسيحية :

« ومع أنهم قد عُذّبوا ، وحُرّقوا ، وقُطّعت أجسامهم ، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكى يرغموا على التجديف فى حق صاحب شريعتهم ، أو أكل ما نهوا عن أكله ، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذاك ، أو أن

(*) تعليم تصوفى عند اليهود .

يتملقوا معذبهم ، أو تنحدر من أعينهم دمعة واحدة ، بل إنهم كانوا يتبسمون وسط آلامهم المبرحة ، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم ، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون ، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى » (٣٢) .

أولئك هم الصدوقيون ، والفرسيون ، والإسينيون ، أشهر الشيع الدينية اليهودية فى الجيل السابق لميلاد المسيح . أما الحكمون (Scribes) الذين يضمهم يسوع إلى الفرسيين فى كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة ؛ كانوا علماء متفقهين فى الشريعة ، يحاضرون فيها فى البيع ، ويعلمونها فى المدارس ، ويناقشونها فى المجتمعات العامة والخاصة ، ويطبقونها على الأحكام فى القضايا المختلفة . وكان عدد قليل منهم أحباراً ، وبعضهم صدوقيين ، وكثرتهم فرسيين . وكانوا فى القرنين السابقين لهلل كما كان الأحبار من بعده . كانوا هم فقهاء القانون فى بلاد اليهود ، وقد صارت فتاواهم القانونية ، التى صنفها الزمان ، وتداولتها الألسن ، وانتقلت بالسماع من المعلم إلى التلميذ ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التى كان يعظمها الفرسيون كما يعظمون الشريعة المكتوبة ، وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافا من التعاليم المفصلة التى تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها .

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمى القانون من غير رجال الدين هى شخصية هلل ، وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفى معالمها فى ذلك النسيج الواهى من الخرافات التى حاكها حول اسمه الخلف المفتتن به . ويقول مؤرخوه إنه وُلد فى مدينة بابل (٧٥ ق م) من أسرة كريمة معروفة أخنى عليها الدهر . ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته ، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوى . وكان يؤدى نصف أجره اليومى ثمناً لقبوله فى المدرسة التى كان فيها أستاذان شهيران هما شمايا وأبتوليم يشرحان الشريعة . وعجز يوما من الأيام

عن أداء هذا الأجر ، فلم يسمح له بالدخول ، فتسلق العتبة السفلى لإحدى النوافذ « لكى يستمع إلى ألفاظ الإله الحى » . وتقول القصة إن جسمه تجمد من شدة البرد ، فسقط فوق الثلج ، وعثر عليه فى صباح اليوم الثانى وهو بين الحياة والموت[٣٣] . وصار هو فيما بعد حبرا محترما ، اشتهر بتواضعه ، وجلده ، ودماثة أخلاقه . وتقول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن يغضب هلل وإنه خسر الرهان[٣٤] . وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدى بها الناس فى حياتهم : حب الناس ، وحب السلم ، وحب الشريعة ومعرفتها . وسأله رجل يريد أن يهتدى أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة ، فأجابه بقوله : « لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك » [٣٥](*) . وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التى صاغها اللاويون فى صيغتها الموجبة من زمن بعيد .

ومن تعاليم هلل الأخرى قوله : « لا تحكم على جارك حتى تكون أنت فى مكانه »[٣٧] . وقد حاول أن يهدئ ثائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة . وكانت تفسيراته هى نفسها قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسَّر إقراض المال ، والحصول على الطلاق . وكان هو نفسه ناشراً للسلام لا مصلحاً .

وكان من نصائحه للشبان الثائرين فى عصره : « لا تخرجوا على الجماعة » . وقد قبل هيرود على أنه شر لا بد منه ، وعُيِّن فى عهده رئيساً للسنهدرين (٣٠ ق . م) ، وأحبته الأغلبية الفرسية حباً أبقاه رئيسا للمجلس الكبير إلى

(*) ويضيف التلمود إلى إجابة هلل ، العبارة الآتية : هذه هى الشريعة كلها ، وكل ما عدا ذلك شرح وتعليق عليها »[٣٦] .

يوم وفاته (١٠ م) . ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً فى أسرته مدى أربعمائة عام تعظيما لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثانى فيه لمنافس هلل ، وهو الحبر شماى المحافظ . وكان يفسر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هلل ، ولا يجيز الطلاق ، ويطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفيا ، لا يراعى فيه تغيير الظروف . وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائما قبل هلل بمائة عام وظل قائما حتى خرب الهيكل .

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الآداب اليهودية التي وصلت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية . ذلك أنه قد بدا لليهودى المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب فى الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائى من هذه الكتابة أن يحمد الله ويمجد الشريعة ؛ كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزيين الهياكل بالفنون التشكيلية امتهان لها وانتهاك لحرمتها . ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنيت من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلا لها . وخلاصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة اتهما زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال فى مناقشة الشهود ، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال .

وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذى نسميه سفر الحكمة مما كتب فى ذلك العهد المتأخر . وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأپوكريفا — أى « الخفية » أو غير الموثوق بها والتى لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة . وهى ملأى بالجمال والحكمة ؛ ومن أجل هذا فهى غير جديرة بأن تطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب . ونجد فى أصحاحاتها الأربعة والعشرين ما نجده فى الأصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المجسدة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت ، منذ البدء منذ أوائل الأرض » . وبين عامى ١٣٠ ق . م ، ٤٠ . م نشر يهودى إسكندرى — أو عدد من اليهود الهلنستيين — سفر أمثال سليمان ، وهو سفر يحاول ، كما حاول فيلو ، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية ، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج فى الثقافة اليونانية

أن يعودوا إلى الشريعة ، كل هذا فى نثر لا يقل فى جزالته وقوّته عن أى نثر آخر منذ عهد إشعيا . وأقل من هذا السفر قوة وجزالة سفر مزامير سليمان (حوالى ٥٠ ق . م) ، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل .

ويسرى هذا الأمل فى النجاة من رومة ومن العذاب الدنيوى على يد منقذ إلهى فى كل ما كتب فى هذا العصر من أدب يهودى إلا القليل النادر منه . واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضى والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده . وكان كتاب دانيال الذى كتب فى عام ١٦٥ ق . م ليشجع إسرائيل على الوقوف فى وجه أنتيخس إبفانيس ، لا يزال ذائعا بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلا تحت سيطرة الوثنيين . واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو فى أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين عامى ١٧٠ ، ٦٦ ق . م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى « سار مع الرب » فى سفر التكوين (الآية ٢٤ من الإصحاح الخامس) . ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه ، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم فى حياة البشر ، ثم نجاة بنى الإنسان على يد مسيح ، وحلول مملكة السماء . وحوالى عام ١٥٠ ق . م شرع كاتب يهودى ينشر نبوءات سيبيلية صور فيها نبيات تنتصر لليهودية على الوثنية ، وتتنبأ بفوز اليهود النهائى على أعدائهم .

والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسية من بلاد فارس أو بابل[٣٨]. فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوّرا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ؛ ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ — شوشيانت أو مثراس — ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين . وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل ، ولهذا كانوا يندون بما فى حضارة « الكفار » من شراهة ، وغدر ، ووحشية ، ووثنية ، وما فى العالم الأبيقورى من « كفر بالله » وعبادة

للشهوات . وقد جاء فى سفر الحكمة أن المنافقين قالوا فى أنفسهم مفتكرين افتكاراً غير مستقيم :

« إن عمرنا هو يسير ومحزن ، ووفاة الإنسان ليس لها شفاء ، ولم يعرف قط المحلول من الجحيم ، لأننا ولدنا من لاشيء ، وبعد هذه نكون كأننا لم نكن لأن النسمة دخان فى أنوفنا ، والنطق شرارة فى تحريك قلوبنا ، وإذا أطفئت بصير الجسم رماداً ، والروح ينسكب كالهواء المبثوث . واسمنا سينسى فى الزمان ، ولا يذكر أحد أعمالنا ، ويزول عمرنا كزوال أثر الغمام ، ويضمحل كالضباب الذى بدده شعاع الشمس وتثقله حرارتها ، لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يرده أحد . فهلم إذن نتمتع بالخيرات الموجودة ، ونستعمل الملذات فى البرية ما دام زمان الشبوبية ، فنمتلئ من الخمر الفائقة والطيوب ، ولا يفوتنا نسيم زهر الربيع . نتكلل بفقاح الورد قبل ذبوله ، ولا يكون مرج إلا يجوز عليه تنعمنا »(٣٩) .

ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يداون بحجج باطلة . وإنهم يربطون عربتهم بنجم ساقط لأن اللذة شيء باطل زائل :
« لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح ، وكرغوة رقيقة تقدها الزوبعة ، وكدخان ينحل فى الرياح ، وكذكر ضيف مكث يوما واحداً وارتحل : أما الصديقون فيحيون إلى الدهر ، وعند الرب ثوابهم ، وعند العلى اهتمامهم . فلهذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب »(٤٠) .

وسيقضى على عهد الشر والإثم — كما تقول أسفار الرؤيا — إما بتدخل الله نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح(*) . أو لم ينبئ به النبى إشعيا

(*) وقد وردت كلمة مسيح (وهى بالعبرية مسيح) فى كثير من المواضع فى العهد القديم . وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨ ق . م) باللفظ اليونانى christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو منح به .

قبل ذلك ذلك العهد بمائة عام إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلها قديراً ، أباً أبديا ، رئيس السلام »(٤١) .

وكان كثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (١١ : ١) فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ؛ ومنهم من يسمونه باسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال ، ويصوّرونه بأنه سينزل من السماء . أما الفيلسوف صاحب سفر الأمثال والشاعر صاحب حكمة سليمان(٤٢) فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التى هى أول شىء « قناها الرب » ، وهى الكلمة أو العقل (logos) التى لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون . ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً ، ولكن إشعيا تصوره فى فقرة من أروع فقراته بأنه : محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن . . . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . . . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا . . . وبجبره شفينا . . . والرب وضع عليه إثم جميعنا . . . من الضغطة ومن الدينونة أخذ وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . . . وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين »(٤٣)

بيد أنهم جميعا متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل(٤٤) ويتخذ أورشليم عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعا ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية(٤٥) . ويسود بعد ذلك « عصر طيب » تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ماكانت تحمله ألف مرّة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أصحاء ، مستمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض(٤٦)

وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستتخلله عهود غير صالحة ؛

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة ، وأن العالم سيحترق فى الفوضى واللهب ؛ وسيقوم الموتى فى « يوم الدينونة الأخير » ليحاسبوا أمام «قديم الأيام» (يهوه) أو أمام « ابن الإنسان » ، وسيكون له السلطان المطلق الأبدى على العالم بعد أن تجدد وصلح ، أى على مملكة الله ؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون « فى الجحيم » ، أما الأخيار فسيُستقبلون فى دار النعيم الأبدى .

ولقد كانت الحركة الفكرية فى بلاد اليهود فى جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها : شعب كان فيما مضى إذا فكر فى المستقبل يحصر تفكيره فيما سوف يؤول إليه مصيره القومى ؛ ثم فقد الآن ثقته بالدولة التى ينتمى إليها ، وأخذ يفكر فى النجاة الروحية الفردية . وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل فى صدور الآلاف المؤلفة من اليونان ، وفى بلاد الشرق الهلنستى وإيطاليا ؛ ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا فى بلد من البلاد أقوى مما كان فى بلاد اليهود . فلقد كان الفقراء أو المحرومون ، والمظلومون أو المحتقرون فى هذه الأرض يتطلعون إلى أن يرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الذل والعذاب . وتقول أسفار الرؤيا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من كان منهم فى القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدى . وكان القديسون الشيوخ ، أمثال شمعون ، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا ابنة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد ، صائمين يترقبون ، ويصلون ، ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم . وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس :

الفصل السادس

الثـــورة

ظل اليهود يكافحون قرونا طويلة ، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلل السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا فى خيام حول المعبد : فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف ، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (٤ ق ٠ م) ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع فى عيد العنصرة وتعرضوا فى هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل ، وحرقت أروقة الدير ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم . ثم تألفت عصابات من الوطنيين فى الريف وهددوا حياة كل من يؤيد رومة ، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة بوداس الجولونى استولت على صفورة عاصمة الجليل : وزحف ڤارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله ، وهدم مئات من بلدانها ، وصلب ألفين من الثوار ، وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق . وذهب وفد من زعماء اليهود إلى رومة وطلب إلى أغسطس أن يلغى الملكية فى بلاد اليهود : فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا (٣٦) .

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام فى عهد تيبريوس ، فلما جلس كلجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعليماته إلى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

وكان اليهود فى عهد أغسطس وتيبريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم . وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم — على حد قول الرواية المأثورة — إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم(٤٩) . وحلّ كلجيولا هذا المشكل بموته . وأقنع أجريا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً (٤١) ، فلما مات أجريبا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقالها ، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه فى عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قِبَل رومة (٤٤) .

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة . ومن هؤلاء فليكس الذى عينه أخوه پلاس Pallas والذى « حكم بلاد اليهود » — كما يقول تاستس — « بقوة الملك وروح الرقيق »(٥٠) . وكان فستس Festus أعدل من فليكس ، ولكنه توفى فى أثناء هذه المحاولة . وجد ألبينس Albinus — إذ جاز لنا أن نصدق يوسفوس — فى النهب وفرض الضرائب ، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المجرمين من السجون نظير أجر يتقاضاه منهم حتى « لم يبق أحد فى السجن إلا من لم يتقاض منه شيئاً »(٥١) . وسلك فلورس Florus — كما يقول هذا الكاتب صديق الرومان المعجب بهم — مسلك « الجلاد لا مسلك الحاكم » فنهب مدناً بأكملها ، ولم يكتف بأن يسرق هو نفسه ، بل تغاضى عن سرقات غيره إذا نال سهماً من الغنيمة . بيد أن هذه الأقوال يشتم منها رائحة العداوة الحزبية ؛ وما من شك فى أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه .

وتألفت عصابات من « المتحمسين » و « الفدائيين » ليحتجوا على هذا الفساد . وأقسم أعضاؤها أن يغتالوا كل يهودى خائن ، فكانوا يندسون وسط الجماعات فى الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون

بين الجماهير فى الفوضى التى تعقب عملهم هذا[٥٢] . ولما أن اغتصب فاورس سبع عشرة وزنة (. ٢٠٠٠ ر ٦١ ريال أمريكى) من كنوز الهيكل ، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله ، وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة وبأيديهم سلات يطلبون الصدقات له لأنه يعانى مرارة الفقر . لكن فيالق فلورس بددت شمل المجتمعين ، ونهبت مئات من البيوت ، وذبحت ساكنيها ، وقبض على زعماء الفتنة ، وجلدوا وصلبوا . ويقول يوسفوس إن ٣٦٠٠ يهودى قتلوا فى ذلك اليوم[٥٣] . وأخذ شيوخ العبرانيين وأثرياؤهم يدعون الناس إلى الصبر ، وحجتهم فى هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً ؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يتهمون هؤلاء بخور العزيمة ومحاباة الظالمين .

• وانقسمت المدينة ، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين ، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى ، وأخذ كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح . ووصل الأمر فى عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢٠٠٠ يهودى من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً[٥٤] ؛ وهكذا استحالت الفتنة ثورة . وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة فى مسادا Massada ، وأقنعتها بأن تلقى سلاحها ، ثم قتلت رجالها عن آخرهم . وفى ذلك اليوم نفسه حدثت فى قيصرية عاصمة فلسطين مذبحة هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود ، وبيع آلاف غيرهم بيع الرقيق . وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودى فى يوم واحد[٥٥] . وقام اليهود المختفون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا ، وأحرقوا بعضها عن آخرها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قتل منهم هم أيضاً كثيرون ؛ ويقول يوسفوس فى هذا :
« وكان من المناظر المألوفة فى ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة بجثث الموتى . . . ملقاة فيها دون أن تدفن ، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء[٥٦] » . وقبل أن يحل شهر سبتمبر عام ٦٦ كان الثوار قد إستولوا على أورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً ، وخذل حزب السلم وفقد أنصاره ، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار .

وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس ، وكان وقتئذ شابا في الثلاثين من عمره ، نشيطا ، نابها ، وهب من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهواته فضيلة . وكلفه الثوار بتحصين الجليل ، فدافع عن حصنها چوتوپاتا ضد قوات ڤسپازيان المحاصرة لها ، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيـــد الحياة غير أربعين جنديا اختبئوا معه فى كهف من الكهوف . وأراد يوسفوس أن يسلم لجنود ڤسپازيان ، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم . وإذ كانوا يفضلون الموت على الأسر ، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذى يقتل به كل منهم على يد من يليه : ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه فى الاستسلام للعدو . وقبيل أن يرسلا إلى رومة مكبلين بالأغلال تنبأ يوسفوس أن ڤسپازيان سيصبح إمبراطورا ، فأطلقه ڤسپازيان من الأسر ، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحا أمينا له فى حربه ضد اليهود . ولما سافر ڤسپازيان إلى الإسكندرية صحب يوسفوس تيتس فى حصار أورشليم .

وكان اقتراب الفيالق الرومانية إيذانا بضم صفوف اليهود وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان . ويقول تاستس إن ٦٠٫٠٠٠ من الثوار تجمعوا فى المدينة ؛ وإن « كل من يستطيع الانخراط فى سلك الجندية قد تسلح ونزل إلى الميدان » ، وإن الروح العسكرية فى النساء لم تكن أقل منها فى الرجال[٥٧] . ونادى يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة المحاصرين إلى الاستسلام ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وحاربوا إلى آخر رجل

فيهم . وحاول اليهود بعد أن نفدت مؤونتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام . فأسر الرومان آلافا منهم وصلبوهم ، ويقول يوسفوس إن « هؤلاء بلغوا من الكثرة حدا لم تتسع معه الأرض لإقامة الصلبان ، ولم يوجد من الصلبان ما يكفي لأجسامهم » . وازدحمت شوارع المدينة بجثث الموتى فى المراحل الأخيرة من الحصار الذى دام خمسة أشهر . وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتنهب مالهم ، ويقال إن ١١٦٫٠٠٠ جثة ألقيت من فوق أسوار المدينة وإن بعض اليهود بلعوا قطعا من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم ، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا فى برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب[٥٨]. ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطا ظنها لينة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين الرومان النار فى الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم ، وكان معظمه مشيداً من الخشب ، أن احترق بأكمله . وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال ، فخورين كما يقول ديو بموتهم فى حرمه[٥٩] . فمنهم من قتل بعضهم بعضاً ، ومنهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم ، ومنهم من قفزوا فى اللهب . ولم يرحم المنتصرون أحداً ، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . وقد قبض على ٩٧٫٠٠٠ وبيعوا فى أسواق الرقيق ، ومات كثيرون منهم فى المجتالدات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التى أقيمت ضمن احتفالات النصر فى بيروت ، وقيصرية ، وفلپاى ، ورومة . ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود فى هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً . أما تاستس فيقدرهم بستمائة ألف (٧٠ م[٦٠]) .

ودامت المقاومة فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ، ولكن تدمير الهيكل كان فى واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت ، وكادت الدولة اليهودية أن تخلو من اليهود ،

وعاش من بقى منهم فيها عيش الكفاف . وكان أفقر فقرائهم يرغم على أن يؤدى للهيكل الوثنى فى رومة نصف الشاقل الذى كان العبرانيون الصالحون يؤدونه فى كل عام لصيانة هيكل أورشليم . وألغيت مناصب كبار الكهنة والسنهدرين : واتخذت اليهودية الصورة التى احتفظت بها إلى أيامنا هذه : صورة دين بلا معبد مركزى ، ولا كهنوت مسيطرين عليه ، ولا قرابين . واختفت طائفة الصدوقيين ، وأصبح الفرسيون والأحبار زعماء شعب لا وطن له ، لم يبق له إلا معابده .

الفصل السابع

التشتيت

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . ومن أجل هذا أرخ علماؤهم تشتيتهم من الوقت الذى دمر فيه هيرودس الهيكل . ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبى أو الأسر البابلى قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم فى الإسكندرية . وإذ كانت كثرة التناسل مما يحتمه الدين اليهودى والشريعة اليهودية على الصالحين المتقين ، وإذ كان وأد الأطفال محرما عليهم. فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضـــلا عن الأسباب الاقتصادية ؛ وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل فى تجارة العالم . وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولا لا يخلو من المغالاة التى أملتها عليه نزعته المعادية للسامية : « يصعب على الإنسان أن يجد فى العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هـــذا الجنس من الناس ، أو غير مملوك له »[61] . ووصف فيلو قبل التشتيت بعشرين عاماً « القارات . . . الملأى بالمحلات اليهودية ومثلها ... الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً »[62] . وما وافى عام ٧٠ من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود فى سلوقية على نهر دجلة وفى غيرها من مدائن پارثيا . وكانوا كثيرى العدد فى بلاد العرب ، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة ، وكانوا فى سوريا وفينيقية وكانت لهم جالية كبيرة فى طرسوس ، وأنطاكية ، وميليتس ، وإفسوس ، وسرديس ، وأزمير . وكانوا أقل من ذلك بعض الشىء فى ديلوس، وكورنثة، وأثينة وفلپاى وپريه ، وسلانيك . أما فى غرب البحر الأبيض فكانت هناك جماعات من اليهود فى قرطاجنة ، وسرقوسة ، وپتيولى ، وكپوا ، وپمپى ، ورومه ، وحتى

فنوزيا موطن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود . وفى وسعنا أن نقدر عدد اليهود فى الإمبراطورية الرومانية إجمالا بنحو سبعة ملايين أى نحو ٧٪ من سكانها وضعفى نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الأيام[٦٣] .

وقد أثاروا بكثرة عددهم ، ولباسهم ، وطعامهم ، وختانهم ، وفقرهم ، وطمعهم ، ورخائهم ، وعزلتهم ، وذكائهم ، ونفورهم من الصور وتشددهم فى مراعاة السبت رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم ، أثاروا بهذا كله حركة عداء للسامية تختلف من المزاح فى الملاهى ، والسخرية بهم فى أقوال جوفنال وتاستس ، إلى ذبحهم فرادى فى الشوارع ، وقتلهم زرافات فى المذابح المدبرة . وقد نصب أبيون الإسكندرى نفسه مدافعا عن هذه الهجمات ، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة(*) .

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى رومة بعد سقوط أورشليم ، وصحب قاهر بنى جنسه فى موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمغانم اليهودية . ومنحه فسبازيان حق المواطنية الرومانية ، ووظف له معاشا وخصص له مسكنا فى قصره وأقطعه أرضا خصبة فى بلاد اليهود[٦٥] . وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم آسره فسبازيان ، وهو فلافيوس ، وكتب تاريخ حرب اليهود (حوالى عام ٧٥) ، ليدافع عن أعمال تيتس فى فلسطين ، ويبرر انشقاقه على بنى جنسه ، ويثبط عزائم اليهود إذا ما فكروا فى الخروج على رومة مرة أخرى بإظهاره قوتها وبأسها . واشتد إحساسه بعزلته فى شيخوخته فألف كتاباً فى قدم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بنى جنسه بأن يصور لغير اليهود ما قام به هذا الشعب من جلائل الأعمال ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم . وقصصه فى هذا الكتاب واضح قوى ،

(*) وقد ابتهج يوسفوس حين علم أن قرحة قد اضطرت أبيون إلى الاختتان .

ووصفه لهيرودس الأكبر لا يقل إمتاعاً عن وصف أفلوطرخس ، ولكن تحيزه والغرض الذى يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب . وقد تطلب **قدم اليهود** عدة سنين وأنهك قوى المؤلف ، فلم يستطع أن يتمه ، وكتب أمناء سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التى يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته[٦٦] . ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب ، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات ، والجدل ، والعزلة الأخلاقية .

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدريج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية فى فلسطين . وبينا كان الحصار مضروباً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلل يدعى يوهنان بن زكاى لأنه خشى أن يبيد المعلمون كلهم فى المذبحة فلا يبقى من ينقذ الأحاديث الشفوية . ولما خرج من المدينة أقام مجمعا علميا فى كرم عند يبنى أو يمنيا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط . ولما سقطت أورشليم نظم يوهنان سنهدريناً جديداً فى يمنيا ، ولم يؤلفه من الكهنة ، والسياسيين ، والأثرياء بل ألفه من الفرسيين والأحبار أى معلمى الشريعة . ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم **بيت الدين** أية سلطة سياسية ، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه فى جميع الشئون المتعلقة بالدين والأخلاق . وكان الحاخام الذى يختاره المجلس رئيسا له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية ، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود . وكان من أثر النظام الصارم الذى فرضه الحاخام جماليل الثانى (حوالى سنة ١٠٠ م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولا ، ثم بين يهود يمنيا ، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد . وحدث فى أيامه أن أعيد النظر فى التفسيرات المتناقضة للشريعة وهى التفسيرات التى نقلها هلل وشماى ، ثم أخذ الرأى عليها ، وكانت النتيجة أن قبلت معظم

تفسيرات هلل وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها .

وإذ كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التي لا غنى عنها والتي تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة ، فقد أصبح تعليم هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس في جميع البلاد التي شتت فيها اليهود . وحل المجمع محل الهيكل ، كما حلت الصلاة محل التضحية ، وحل الربان محل الكاهن ، وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون مختلف القوانين اليهودية المنقولة بطريق السماع (هلاكا) ، وكانوا يؤيدون شروحهم في العادة بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس ، يضيفون إليها قصصا وعظات أو غيرها من المواد (هجاداً) ويوضحونها بها في بعض الأحيان . وأشهر هؤلاء التنايم هو الربان عكيبا بن يوسف . وقد انضم هذا الربان ، وهو في سن الأربعين ، إلى ابنه البالغ من العمر خمس سنين ، وذهبا معاً إلى المدرسة فتعلم القراءة ، واستطاع في زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع أسفار موسى . وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاما افتتح له مدرسة تحت شجرة تين في قرية قريبة من يمنيا . وقد كانت حماسته ، ومثاليته ، وشجاعته ، وفكاهته ، بل وتعسفه الشديد سبباً في التفاف كثيرين من الطلاب حوله . ولما جاءت الأنباء في عام ٩٥ ، أن دومتيان سيتخذ إجراءات جديدة ضد اليهود ، اختير أكيبا وجماليل واثنان آخران من اليهود ليتصلا اتصالا شخصيا بالإمبراطور . وبينا هم في رومة إذ توفى دومتيان . واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم ، وألغى الضريبة المفروضة على اليهود لإعادة بناء رومة .

ولما عاد أكيبا إلى يمنيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك العمل الشاق الذي قضى فيه بقية حياته ونعنى به تقنين الهلاكا ، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه الربان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالى ٢٠٠ م) . وقد بقيت الهلاكا حتى في هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية ، يتناقلها العلماء والحفاظ المحترفون جيلا بعد جيل — فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية .

وكان في الطرق التي جرى عليها أكيبا من السخف بقدر ما في النتائج التي وصل إليها من الصحة . وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيبا إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفيا ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة ؛ ولعل الباعث له على هذا التفسير ما لاحظه من أن الناس لا يقبلون الشيء المعقول إلا إذا كان في صورة غامضة خفية . وعن أكيبا أخذ هذا التنظيم وذاك العرض لعلمي الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون ، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسيين .

ولما بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألفى نفسه ، كما كان في أيام شبابه ، محوطا بالثورة من كل الجوانب . ذلك أن يهود قورينة ، ومصر ، وقبرص ، وأرض الجزيرة ، رفعوا لواء الثورة على رومة مرة أخرى في عامي ١١٥ — ١١٦ ، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود ، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة في تلك الأيام . ويقول ديو إن ٢٢٠٫٠٠٠ قتلوا في قورينة ، و٢٤٠٫٠٠٠ في قبرص . وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال ، ولكننا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب ، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص . ثم أخمدت الفتن ، ولكن من بقي من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوي في ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم . وأشعل الرومان ، بحمقهم وبلاهتهم ، نار الثورة من جديد . ذلك أن هدريان أعلن في عام ١٣٠ أنه يعتزم بناء ضريح لجوبتر في في مكان الهيكل ، ثم أصدر في عام ١٣١ مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علنا[٦٧] . وكانت آخر وقفة وقفها اليهود في التاريخ القديم لاستعادة حريتهم في عام ١٣٢ بزعامة شمعون باركوشيبا الذي ادعى أنه هو المسيح . وبارك أكيبا هذه الثورة رغم أنه كان طول حياته يدعو إلى السلم ، وذلك حين اعترف باركوشيبا أنه هو المنقذ .

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين فى قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفد طعامهم وعتادهم . ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة فى فلسطين وذبحوا ٥٨٠٫٠٠٠ يهودى ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد . وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً ، وخرّ باركوشيبا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيثار . وكان الذين بيعوا من اليهود فى أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان . واختبأ آلاف منهم فى سراديب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر ؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد ، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى[٦٨] .

وأراد هدريان أن يقضى على ما فى اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش ، فلم يكتف بتحريم الختان بل حرم معه الإسبات والاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علناً[٦٩] . وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود ، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد محدد فى العام يسمح لهم فيه بالمجىء إلى دمشق ليبكوا أمام خرائب الهيكل . وقامت فى مواضع أورشليم مدينة إيليا كپتولينا الوثنية ، وشيد فيها ضريحان لجوبتر وڤينوس ، وساحات للرياضة وملاهٍ وحمامات ، وحل مجلس يمنيا وحرم على أعضائه الاجتماع ، وأجيز لمجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع فى لدا Lydda . أما تعليم الشريعة جهرة فقد منع منعاً باتاً ، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام ، وأعدم بالفعل عدد من الأحبار الذين خالفوا . وأصرّ أكيبا ، وكان وقتئذ فى الخامسة والتسعين من عمره ، على أن يعلم تلاميذه ، فزج فى السجن ثلاث سنين ، ولكنه لم ينقطع عن التعليم فى سجنه ، فحوكم ، وأدين ، وأعدم وهـو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية : « اسمع ، يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، والرب واحد »[٧٠] .

وظل اليهود قروناً عدة يعانون آثار النكبة التى حلت بهم بعد ثورة

پاركوشيبا ، وإن كان أنطونينس پيوس قد خفف من صرامة مراسيم هدريان ، ودخلوا من هذه اللحظة فى دور الكهولة ، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب ، ونبذوا الهلنستية على اختلاف صورها ، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم ، وشعرائهم الصوفيين وشريعتهم . ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفى اليهود ، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا . لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة ، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية ، وشرّدوا فى كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حدود تلك الدولة ، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا فى عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا أشد الاستمساك بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر فى تلمود بابل وفلسطين . وهكذا اختبأت اليهودية فى ظلمات الخوف والفزع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .

الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من ٤ ق. م إلى ٣٢٥ م

ثبت مسلسل

كل التواريخ ما عدا أولها بعد الميلاد ، وكل ما كان منها قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه

---

٤ ق . م : مولد المسيح .
٦٠ م : صلبه ، هداية بولس .
٤٥ — ٤٧ : بعثة بولس الأولى .
٥٠ — ٥٣ : بعثة بولس الثانية .
٥١ : بولس فى أثينة .
٥٣ — ٥٧ : بعثة بولس الثالثة .
٥٨ — ٦٠ : فلكس يسجن بولس .
٦٤ : اضطهاد نيرون للمسيحيين .
موت بطرس وبولس .
٦٥ : ليتس أسقف رومة .
٧٧ : كليتس أسقف رومة .
٦٠ — ١٠٠ : الأناجيل الأربعة .
٨٩ : كلمنت الأول أسقف رومة .
٩٠ : رسائل يوحنا .
٩٨ : إواستس أسقف رومة .
١٠٦ : ألكسندر الأول أسقف رومة .
١١٦ : أكسيتس الأول أسقف رومة .
١٢٦ : تلسفورس أسقف رومة .
١٣٧ : هيجينس أسقف رومة .
١٤١ : بيوس الأول أسقف رومة .
١٥٠ : معذرة جستين الأولى .
١٥٦ : أنتسيتس أسقف رومة .
١٦٦ : استشهاد دپوليكارب .
١٧٥ : إليوثيريوس أسقف رومة .
١٧٧ : استشهاد ليون .
١٧٨ : أرينايس أسقف ليون .
١٩٠ : ڤكتور الأول أسقف رومة .

ق . م

١٩٣ : پرتناكس وددیوس چلیانس ، إمبراطوران .

١٩٣ — ٢١١ : سپتميوس سڤيرس ، إمبراطور .

١٩٤ : منتانس ؛ كلمنت الإسكندرى .

٢٠٠ : ليبر أپولوچتكس لترتليان .

٢٠٢ : زفرينس أسقف رومة .

٢٠٣ : توس سپتميوس سڤيرس ؛ أورجن .

٢٠٥ — ٢٧٠ : بلوتينس .

٢١١ — ٢١٧ : كركلا .

٢١٢ : كركلا يوسع نطاق المواطنية .

٢١٥ : حمامات كركلا ، مانى .

٢١٨ : كلستس الأول ، أسقف رومة .

٢١٨ — ٢٢٢ : إلاجابالس ، إمبراطور .

٢٢٢ : إريان الأول : أسقف رومة .

٢٢٢ — ٢٣٥ : الكسندر سڤيرس ، إمبراطور .

٢٢٨ : اغتيال ألپيان .

٢٣٥ — ٢٥٨ : مكسمينس ، إمبراطور .

٢٣٦ : فابيان ، أسقف رومة .

٢٣٨ — ٢٤٤ : جورديانس الأول ، والثانى والثالث ، أباطرة .

٢٤٠ — ٢٧٢ : شابور الأول ، ملك الفرس .

٢٤٤ — ٢٤٩ : فليب العربى ، إمبراطور .

٢٤٨ : سبريان ، أسقف قرطاجنة ، ضد سلسم لأورجن .

٢٤٩ — ٢٥١ : ديسيوس ، إمبراطور ؛ ديوفانتس العالم الرياضى .

٢٥١ : كورنليوس ، أسقف رومة .

٢٥١ — ٢٥٣ : جالس ، إمبراطور .

٢٥٣ — ٢٦٠ : ڤلريانس ، إمبراطور .

٢٥٣ — ٢٦٨ : جلیینس ، إمبراطور .

٢٥٤ : المركانيون يغيرون على شمالى إيطاليا .

٢٥٥ : شابور يغزو سوريا .

٢٥٧ : مرسوم ڤلريان ضد المسيحية .

٢٥٩ : القوط يجتاحون آسية الصغرى .

٢٦٠ : مرسوم التسامح الأول

٢٦٠ — ٢٦٦ : أدناثس فى تدمر .

٢٦٦ — ٢٧٣ : زنوبيا ولنچينس فى تدمر .

٢٦٨ — ٢٧٠ : كلوديوس الثانى ، إمبراطور .

ق . م

٢٧٠ — ٢٧٥ : أورليان ، إمبراطور .
٢٧١ : البرابرة يغيرون على إيطاليا .
٢٧٥ — ٢٧٦ : تاكتس ، إمبراطور .
٢٧٦ — ٢٨٢ : پروبس ، إمبراطور .
٢٨٢ — ٢٨٣ : كارس ، كرمنيس ، نمريانس ، أباطرة .
٢٨٤ — ٣٠٥ : دقلديانوس ، إمبراطور .
٢٨٦ — ٣٠٥ : مكسميانس مع أغسطس .
٢٩٢ : جلريوس ، وقنسطنطيوس ، قيصران .
٢٩٥ : حمامات ، دقلديانوس .
٢٩٦ : مرسينس ، أسقف رومة .
٣٠١ : ثمن مرسوم دقلديانوس .
٣٠٣ — ٣١١ : اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .
٣٠٦ : قسطنطين يصبح قيصراً .
٣٠٧ : مكنثيوس ومسكميان كلاهما أغسطس ؛ باسلقا مكستيوس .
٣٠٧ — ٣٠٩ : مارسلس الأول ، أسقف رومة .
٣٠٧ — ٣١٠ : يوسبيوس ، أسقف رومة .
٣١٢ : واقعة جسر ملڤي ، مرسوم ميلان .
٣١٥ : تاريخ الكنيسة ليوسبيوس .
٣١٣ — ٣٢٣ : قسطنطين وليسينوس يقتسمان الإمبراطورية .
٣١٤ : مجلس أرليس .
٣١٤ — ٣٣٦ : سلفستر الأول ، أسقف رومة .
٣١٥ : قوس قسطنطين .
٣٢٣ : هزيمة لوسنيوس عند أدرنه .
٣٢٤ — ٣٣٧ : قسطنطين إمبراطور وحده .
٣٢٥ : مجلس نيقية .
٣٢٦ : قسطنطين يقتل ابنه وابن أخيه وزوجته .
٣٣٠ : القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية .
٣٣٧ : موت قسطنطين .

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

٤ ق . م – ٣٠ م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية ، وخيالها ، وآمالها – أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدنيس ، وديونيشس ، ومثراس ؟ لقد كان بولنجبرك والملتفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم ڤلتير نفسه ، يقولون فى مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجهر ڤلنى Volney بهذا الشك نفسه فى كتابه **خرائب الإمبراطورية الذى نشره فى عام ١٧٩١** ؛ ولما التقى نابليون فى عام ١٨٠٨ بڤيلاند Wieland العالم الألمانى لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها فى السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنسانى فى العصر الحديث وأبعدها أثراً ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس – التهجم الشديد على صحته وصدق روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحى ؛ وربما أدت هذه البحوث على مر الأيام إلى ثورة فى التفكير لا تقل شأناً عن الثورة

التى أحدثتها المسيحية نفسها . وقد دارت رحى أولى المعارك فى هذه الحرب التى دامت مائتى عام كاملة فى صمت وسكون ، وكان الذى أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته فى عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على ١٤٠٠ صفحة حرص على ألا ينشره فى أثناء حياته . وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط ، رغم معارضة أصدقائه فى هذا النشر ، وسماه **هتامات ولفنبتل** Wolfenbuttel Fragments . ويقول ريمارس إن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية فى جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر فى إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر فى تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذى يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمته من خير أو شر . وفى عام ١٧٩٦ أشار هردر إلى ما بين مسيح متى ، ومرقس ؛ ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوقيق بينها ، وفى عام ١٨٢٨ لخص هنريخ پولس Heinrich Paulus حياة المسيح فى ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات : أى أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية . ثم جاء داقد استروس David Strauss (١٨٣٥ — ١٨٣٦) فى كتابه عن **حياة المسيح** — وهو كتاب عظيم الأثر فى التاريخ — فرفض ما حاوله پولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، وقال إن ما فى الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها . وقد أثارت مجلدات استروس الضخمة عاصفة قوية فى التفكير الألمانى دامت جيلا من الزمان . وفى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب استروس

هاجم فردناند كرستيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل پولس وقال إنها كلها مدسوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، (كورنثة) ورومية (رومة) . وفى عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغى بها أن يثبت أن يسوع لايعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو تجسيداً لطقس من الطقوس نشأ فى القرن الثانى من مزيج من الأديان اليهودية ، واليونانية ، والرومانية . وفى عام ١٨٦٣ أخرج إيرنست رينان Ernest Renan **حياة يسوع** الذى روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل . وقد جمع رينان فى هذا الكتاب نتائج النقد الألمانى ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله . وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازى Loisy الذى حلل نصوص العهد الجديد تحليلا بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرمانه هو وغيره من « المحدثين » . وفى هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة پيرسن Pierson ونابر Naber ، ومتثاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية . وفى ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (١٩٠٦) ؛ وفى إنجلترا أدلى و . ب . أسمث W.B. Smith و ج . م . ربرتسن J. M. Robertson . بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح . وهكذا بدا أن الجدل الذى دام مائتى عام سينتهى إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً .

وبعد فما هى الأدلة التى تثبت وجود المسيح ؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هى التى وردت فى كتاب **قدم اليهود** ليوسفوس (٩٣ ؟ م) :

« وفى ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، وهو رجل من رجال الدين ، إذا

جاز أن نسميه رجلا ، لأنه كان يأتى بأعمال عجيبة ، ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط . وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان . لقد كان هو المسيح » ؟

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلفى للرومان أو اليهود — وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء فى ذلك الوقت — ، نقول إن هذا الثناء لما يبعث الريبة فى هذه الفقرة ، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ، ولا يكادون يشكون فى أنها مدسوسة على يوسفوس[٣] . وفى التامود إشارات إلى يسوع الناصرى . ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية[٤] . وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح فى أدب الوثنيين ما ورد فى خطاب كتبه پلنى الأصغر (حوالى ١١٠)[٥] ، يستشير فيه تراجان عمّا يعامل به المسيحيين[*] وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاستس[٦] اضطهاد نيرون للكرستيانى Christiani فى رومة ويقول إنهم فى ذلك الوقت كان لهم أتباع فى جميع أنحاء أوربا . وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاستس فى أسلوبه ، وقوته ، وتحيزه شبهاً لم يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده فى صدورها من هـذا الكاتب[٧] . ويذكر سوتونيوس (حوالى ١٢٥) خبر هذا الاضطهاد نفسه[٨] ، كما يذكر نفى كلوديوس (حوالى ٥٢) « اليهود الذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح (impulsore Chresto) »[٩] . وتتفق هذه الفقرة أشد الاتفاق مع ما ورد فى أصحاح أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوما أوجب فيه على « اليهود أن يخرجوا من رومة »[١٠] . وهـذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحيين لا المسيح نفسه ؛ ولكننا إذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

(*) نقلنا هذه الفقرة بعد ؟ وتجد نص الخطاب فى الجزء الاول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعا فى جيل واحد ؛ ولا بد لنا من أن نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت رومة قبل عام ٥٢ ببضع سنين ، وإلا لما كانت خليقة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطورى .ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثنى عاش فى منتصف ذلك القرن الأول فى هتامه من كتاب احتفظ لنا به يوليوس أفركانس[١١] إن الظلمة العجيبة التى يقال إنها حدثت وقت موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة ، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية . أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها .

وقصارى القول أن نكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت .

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس . وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل — تؤرخ بعام ٦٤ م ولكنها كتبت فى الحقيقة بعد ذلك التاريخ — لا يكاد يختلف الباحثون فى أنها فى جوهرها من كتابات بولس . ولم يشك أحد قط فى وجود بولس نفسه أو فى لقائه الكثير لبطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ؛ ويعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح فى أثناء حياته ويحسدهم على هذه المعرفة[١٢] . وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير[١٣] وإلى حادث الصلب[١٤] .

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه ، أما الاناجيل فليس أمرها بهذه السهولة . ذلك أن الأربعة الأناجيل التى وصلت إلينا هى البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً ، كانت فى وقت ما منتشرة بين المسيحيين فى القرنين الأول والثانى . واللفظ الدال على الإنجيل "gospel" (وهو فى اللغة الإنجليزية القديمة godspel أى أخبارٌ طيبة) ترجمة للفظ اليونانى euangelion والذى يبدأ به إنجيل مرقس

ومعناه « أخبار سارة » — هى أن المسيح قد جاء ، وأن ملكوت الله قريبة المنال ، وأناجيل متى ، ومرقس ، ولوقا ، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة : ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية « والنظر إليها كلها مجتمعة » ؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة فى النحو أو فى الصقل الأدبى . بيد أن ما فى أسلوبها السهل من قوة وإيصال المعانى عن أقرب طريق ، وما فى تشبيهاتها والصور التى ترسمها من وضوح ، وما فى الإحساسات التى تصورها من عمق ، وما فى القصص التى ترويها من روعة ، كل هذا يكسبها حتى فى صورتها الأصلية الفجة جمالا فذاً ، زاده قوة عند العالم الإنجليزى الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة ، والتى وضعت للملك چيمس .

وترجع أقدم النسخ التى لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء فى النقل ، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ أو أغراضها . والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئا عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلوله مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ إلا فى كتابات پپياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ إذ يقول إن « يوحنا الأكبر » وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها — قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس[١٥] .

ويضيف پپياس إلى هذا قوله : « وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية » — ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح . والراجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

بنصها(*) وإن كان لا يذكر الأناجيل قط . ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس فى الزمن على سائر الأناجيل ، وفى تحديد تاريخه بين عامى ٦٥ و ٧٠ م . وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً فى عدة صور[١٦] فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هى الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه . ويبدو أن إنجيل مرقس كان منتشراً أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم . ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهريا عما كان لديهم من أقوال وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال[١٧] . ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتزر Schwetyer ذلك العالم النابه الحكيم بأن إنجيل مرقس فى جوهره « تاريخ صحيح »[١٨] .

وتقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرنيوس Irenaeus أنه كتب فى الأصل باللغة « العبرية » — أى الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية · وإذ كان يبدو لنا إنه فى هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال إنجيل مرقس ، وأنه ينقل فى أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها ، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى ، وليس من أقوال « العشار » نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٧٥ — ٩٠ م[٢٠] . وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

(*) كشف جرنفل Grenfell وهنت Hunt فى خرائب إحدى المدن القديمة فى مصر فى عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ من عشرين قطعة من « الكلمات » تتفق إلى حد ما مع فقرات مماثلة لها فى الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها .

العهد القديم قد تحققت على يدى المسيح . بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً فى النفس وإثارة للعاطفة . ولا يسعنا إلا أن نعده بين روائع الآداب العالمية ، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم .

والإنجيل حسب نص القديس لوقا ، وهو النص الذى يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول ، يعلن أنه يرغب فى تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ؛ وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود ، وأنه كان صديق بولس ، ومؤلف سفر أعمال الرسل[٢١] . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى[٢٢] . فإنك لتجد فى إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التى يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقص ، وتجد منها ثلثمائة وخمسين فى إنجيل لوقا تكاد أن تكون هى بنصها[٢٣] . وفى إنجيل متى كثير من الفقرات التى توجد فى لوقا ولا توجد فى إنجيل مرقس ، وهنا أيضاً تكاد تكون هى بنصها ، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى ، أو أن لوقا ومتى أخذاها عن أصل مشترك ، لم نعثر عليه بعد . ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لينان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب .

ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . وهو يناقض الأناجيل الأخرى فى كثير من التفاصيل وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح[٢٥] . وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية ، قد جعلا الكثيرين من الباحثين فى الدين المسيحى يشكون فى صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا[٢٦] . بيد أن التجارب توحى إلينا بألا نعجل فى تكذيب الروايات القديمة ؛ ذلك بأن أسلافنا لم

يكونوا كلهم بلهاء . ويتزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول . والراجح أن الروايات المأثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه « رسائل يوحنا » ، ذلك بأنها تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست ، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح » .

فإذا سلمنا بهذا كله بقى الشيء الكثير . إن ما فى الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة ، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجيباً ، وتعرض فى مجموعها صورة متسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حمورابى ، وداود ، وسقراط — لزالوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات(*) . وإن المبشرين بالإنجيل ، رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ، ليسجلون كثيراً من الحادثات التى يعمد المخترعون الملفقون إلى إخفائها — كتنافس الرسل على المنازل العليا فى ملكوت الله ، وفرارهم بعد القبض على

(*) يقول أحد كبار العلماء اليهود قالة لعلها أقوى مما ينبغى : « لو كانت لنا فى تاريخ الإسكندر أو قيصر مصادر كالتى نجدها فى الأناجيل لما خالجنا أقل الشك فى أمرها » — ج . كلوزنر J. Klausner فى كتابه « من يسوع إلى بولس » ص ٢٦٠ .

يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات فى الجليل ، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون ، وتشككه الأول فى رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصيحة اليأس التى رفع بها عقيرته وهو على الصليب ؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط فى أن وراءها شخصية تاريخية حقة . ولو أن عدداً قليلا من الرجال السذج قد اخترعوا فى مدى جيل واحد هذه الشخصية الجذابة ، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمة ، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل . وإن الخطوط الرئيسية فى سيرة المسيح ، وأخلاقه ، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ؛ لتكون أروع ظاهرة فى تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة للألباب .

الفصل الثانى

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح فى « الأيام التى كان فيها هيرودس ملكا على بلاد اليهود »[٢٧] — أى قبل العام الثالث ق . م . على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر » حين عمده يوحنا فى السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس »[٢٧أ] ، أى فى عام ٢٨ — ٢٩ م » وهذا يجعل ميلاد المسيح فى عام ٢ — ١ ق . م . ويضيف لوقا إلى هذا قوله : « وفى تلك الأيام صدر مرسوم من قيصر أغسطس يقضى بأن تفرض ضريبة على العالم كله . . . حين كان كويرنيوس Quirinius والياً على سوريا » . والمعروف أن كويرنيوس كان حاكماً لسوريا بين عامى ٦ —١٢م ؛ ويذكر يوسفوس أنه أجرى إحصاء فى بلاد اليهود ، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان فى عام ٦—٧ م[٢٨] ، ولسنا نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة . ويذكر ترتليان[٢٩] إحصاء ابلاد اليهود قام به سترنينس حاكم سوريا فى عام ٨ — ٧ ق . م ، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذى يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام ٦ ق . م . ولسنا نعرف اليوم الذى ولد فيه بالتحديد ، وينقل لنا كلمنت الإسكندرى (حوالى عام ١٠٠ م) آراء مختلفة فى هذا الموضوع كانت منتشرة فى أيامه ، فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو ، وإنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد — وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثانى بعد الميـــلاد . وفى عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة رومة بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من

نوفمبر ، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتائى الذى تبدأ الأيام بعده تطول ؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس ، أى مولد الشمس التى لا تقهر . واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من ينـــاير ، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وبعبادة الشمس ، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد في الشرق أيضاً[٣٠](*) .

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان فى بيت لحم ، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل ، أما مرقس فلا يذكر بيت لحم . ولا يذكر المسيح إلا باسم « يسوع الناصرى »(**) . وقد سمى بالاسم العادى المألوف « يسوع » Yeshu'a ومعناه معين يهوه ؛ وحرفه اليونان إلى Iesous ، والرومان إلى Iesus .

ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة ، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشتهم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين : « ترى أنى له هذه الحكمة ، والقدرة على القيام بهذه العجائب ؟ أليس هو ابن النجار ؟ أليست أمه تسمى مارية Mary ، أليس أخوته هم يعقوب ، ويوسف ، وشمعون ويهوذا ؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا ؟ »[٣١] . ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبى بليغ وينطق مريم — مارية — بتلك العبارات البليغة ، وهى من أروع القصائد التى يشتمل عليها العهد الجديد .

وتأتى شخصية مريم فى القصة بعد شخصية ولدها فى الروعة والتأثير : فهى تربيه وتتحمل فى تربيته مسرات الأمومة المؤلمة ، وتفخر بعلمه فى أيام شبابه ،

(*) الذى نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد فى اليوم السادس من يناير . (المترجم) .

(**) يظن الناقدون أن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقووا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود — كما تتطلب ذلك النبوءة اليهودية . وذلك لأن أسرة داود كانت تقيم فى بيت لحم . ولكننا لا نجد ما يؤيد هذا الظن .

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه ، وترغب فى أن تبعده عن جموح أتباعه المثيرين ، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافى (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)(*) ، وشاهدته وهو يصلب ، وعجزت عن إنقاذه ، ثم تلقت جسده بين ذراعيها ؛ فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامى ، لأن صلات الآباء والأبناء تؤلف مسرحيات أعمق مما تؤلفه عاطفة الحب الجنسى . أما القصص التى أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندى رومانى فالنقاد مجمعون على أنها « افتراء سخيف »(٣٢) . وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اصطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه ، وعن مذبحة الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً فى هذا الشعر الشعبى . ولا يذكر بولس ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء ، وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف ، بسلاسل أنساب متعارضة ؛ ويلوح أن الاعتقاد فى مولد المسيح من عذراء قد نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود .

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذى لا يغنى عن شباب المسيح . فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره . ولقد كان يوسف نجاراً ، وإن ما كان فى ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما ، وكان يعرف من ينتمى إلى حرفته من الصناع ، كما كان يعرف الملاك ، ورؤساء الخدم ، والمستأجرين ، والأرقاء وكل ما كان يحيط به فى الريف ؛ ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً فى أحاديثه . وكان يحس بما فى الريف من جمال طبيعى ، وما للزهر من لون جميل ، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون . وليست قصة أسئلته للتلاميذ فى الهيكل مما لا يقبله العقل . وكان

(*) نقلنا هذه الأقوال وما بعدها كما هى وإن خالفت بعض عقائد المسلمين والمسيحيين . (المترجم)

ذا عقل يقظ طلعة ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره فى بلاد لشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج . لكنه لم يتعلم تعليما منظما ، وشاهد ذلك أن جيرته كانوا يتساءلون : «كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ »[٣٣] . وكان يتردد على المجمع الدينى ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، ويبدو عليه السرور حين يسمعه . وقد انطبعت فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص . وكان لها أثر كبير فى تشكيله . ولعله قرأ أيضاً سفرى دانيال وأخنوخ ، لأنا نجد فى تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود ، ويوم الحشر ، ومملكة السماء .

وكان الهواء الذى يتنفسه مشحوناً بالحماسة الدينية ، وكان آلاف من اليهود ينتظرون على أحر من الجمر مجيء منقذ إسرائيل . وكان السحر والشياطين ، والملائكة ، وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين ، وإخراجها ، والمعجزات ، والنبوءات ، والاطلاع على الغيب ، والتنجيم ، كانت كل هذه عقائد مسلما بها فى كل مكان . ولعل قصة المجوسى كانت تسليما لا بد منه لعقائد المنجمين فى ذلك العصر[٣٤] ، وكان السحرة يطوفون بالمدن ، وما من شك فى أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين(*) ، وذلك فى خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس فى أثناء عيد الفصح . ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى « الناصرة Mazaranes » كان المنتمون إليها يعيشون فى پيريه فى الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا يرفضون التعبد فى الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس[٣٦] . ولكن الذى

(*) وكان أشوكا قد بعث بمشيريه البوذيين حتى بلغوا مصر وقوريني غرباً[٢٣] ، وأكبر الظن إذن أنه بعثهم إلى بلاد الشرق الأدنى .

أثار حماسته الدينية هو عظات يوحنا ابن اليصابات قريبة مريم .

ويروى يوسفوس قصة يوحنا بشيء من التفصيل[٣٧] . فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شيخاً طاعناً فى السن ، أما الحقيقة فهى عكس هذا ، فهو فى الوقت الذى نتحدث عنه فى سن عيسى أو قريب منه ، ويصفه مرقس ومتى بأنه كان يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل ، ويقف بجوار نهر الأردن ، ويدعو الناس إلى التوبة . وكان يماثل الإسينيين فى الزهد ، ولكنه يخالفهم فى اعتقاده أن التعميد يكفى أن يكون مرة واحدة ؛ وقد يكون اسمه « المعمدان » مرادفاً للفظ اليونانى « إسين » أى الاستحمام[٣٨] ، وقد أضاف يوحنا إلى عقيدة التطهير الرمزى تنديده الشديد بالنفاق ، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة ، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا إلى الدار الآخرة ، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء[٣٩] ، وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور .

ويقول لوقا إنه فى « السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس » أو بعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن ليُعَمَّد على يديه . وهذا القرار الذى اتخذه رجل « يقرب من سن الثلاثين »[٤٠] شاهد على أن المسيح قد آمن بتعاليم يوحنا ؛ وأن تعاليمه هو لن تفترق فى جوهرها عن تلك التعاليم . أما أساليبه ، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا : فهو لم يعمد أحداً[٤١] ، ولم يعش فى البيداء ، بل عاش فى العالم . ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويوحنا إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس أنتپاس « صاحب المدن الأربع » فى الجليل بسجن يوحنا . وتقول الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاده هيرودس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هيروديا وهى لا تزال زوجة لفليپ أخيه غير الشقيق . أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودس أن

يكون يوحنا يستتر بستار الإصلاح الديني ليثير القلاقل السياسية فى البلاد[٤٢].
ويروى مرقس[٤٣] ومتى[٤٤] فى هـذا المجال قصة سالوم ابنة هورديياس ، التى فتنت هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة تطلبها . ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا ، بتحريض من أمها ، وإن الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها . وليس فى الأناجيل شىء عن حب سالوم ليوحنا ، وليس فى يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد فى موته .

الفصل الثالث

الرســـالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب فى الناس مبشراً بملكوت الله[٤٥] ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » ، وإنه « كان يعلم فى مجامعهم »[٤٦] . وليست لدينا صورة مطبوعة فى أذهاننا عن ذلك الشاب المثالى ، وهو يقوم بدوره فى قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا : « روح الرب علىّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق » « وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية »(*)، ويضيف لوقا « وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هـــذا المكتوب فى مسامعكم » ؛ وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه »[٤٨] . ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وارتد أولا فى حذر وحيطة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجـــدل السياسى ، ثم أصبح فى كل يوم أعظم جرأة فى إعلانه إنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى[٤٩] .

وإنا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة : وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه ، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاقى ومثلنا العليا وثيقا الصلة به ، تكونا

(*) هـــذا الجزء من إنجيل لوقا ٤ : ١٨ وإن كان المؤلف يضيفه إلى الآيات السابقة المنقولة عن سفر إشعيا . (المترجم)

على منواله ، ولهذا فإنا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً فى أخلاقه . لقد بلغ شعوره الدينى من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه فى آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان : وإن الإنسان ليجد فى الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح فى مواضع أخرى منها ؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أقسى ما كان يؤمن به معاصروه عن جهنم السرمدية التى يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التى لا تنطفىء أبداً والديدان التى لا تشبع من نهش أجسامهم[٥٠] . وهو يقول دون أن يحتج عليه أحد إن رجلا فقيراً فى الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غنى فى الجحيم[٥١] . وينصحنا بنبل وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا ، ولكنه يلعن الناس والمدن التى لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التى لم تكن تحمل ثمراً[٥٢] . ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أمه[٥٣] . وكان يتصف بحماسة النبى العبرانى المتزمت أكثر من اتصافه بالهدوء الشامل الذى يمتاز به الحكيم اليونانى وكانت عقائده القوية تملأ قلبه ؛ كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم إنسانيته العميقة ؛ ولكن أغلاطه كانت هى الثمن الذى أداه لذلك الإيمان القوى الذى استطاع أن يحرك به العالم . أما فيما عدا هذا فقد كان أحب الناس إلى القلوب . وليست لدينا صورة واضحة له ولم يترك لنا أتباعه وصفاً له دقيقاً ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان وسيما بعض الوسامة ، كما كان ذا روح جذابة ، استطاع بفضلهما أن يجمع حوله كثيرات من النساء وكثيرين من الرجال : وفى وسعنا أن نستدل من بعض العبارات المتفرقة[٥٤] ، على أنه كان يلبس ، كما كان يلبس أهل زمانه ، عباءة فوق جلباب ، وخفين فى قدميه ، ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس[٥٥]. وكانت كثيرات من النساء يجدن عنده شيئا من العطف والحنان يبعث فيهن إخلاصا عامراً تفيض به قلوبهن . وليس انفراد يوحنا بذكر المرأة التى ضبطت وهى تزنى

حجة على كذبها ، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية ، وهى فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح(*) . ولا يقل جمالاً عن هذه القصة قصة أخرى ليس فى طاقة أتباعه أن يخترعوها ، وهى قصة العاهر التى أثرت فى قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين ، فخرت راكعة بين يديه ، ودهنت قدميه بالطيب الثمين ، وغسلتهما بدموعها ، وجففتهما بشعر رأسها ، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد غفرت لها « لأنها أحبت كثيراً »[٥٧] . ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه ، وأنه « احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم »[٥٨] .

ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء الإسينيون والمعمدان . ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر فى حفل للزواج ، وأنه كان يعيش مع « العشارين والمذنبين » ، وأنه قَبِل عاهراً تائبة ضمن أتباعه . ولم يكن يأنف من مسرات الحياة الساذجة ، وإن كان قد قسا قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهى فتاة . وكان فى بعض الأحيان يقبل الدعوة إلى الولائم فى بيوت الأغنياء ، بيد أنه كان فى العادة يختلط بالفقراء ، وإن كانوا من الأمحارين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين كان الفريسيون الصدوقيون يحتقرونهم ويتجنبونهم . وكان يدرك أن الأغنياء لن يؤمنوا برسالته ، فكان لذلك يبنى آماله على ما عساه يحدث من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الأعلين فى ملكوت الله . ولم يكن يشبه قيصر إلا فى وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفى اتصافه بالرحمة ، أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين فى أخلاقهما ، ونظرتهما إلى الحياة ، وما يهتمان به فيها . لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

(*) يوحنا ٧ : ٥٢ وما بعدها . وقد وردت القصة أيضاً فى نسخ خطية قديمة من إنجيل مرقس ولوقا ، ولكنها حذفت من نصيهما المتأخرين ، وليس سبب حذفها خوف الناشرين من أنها قد تساعد على فساد الأخلاق .

نظمهم وشرائعهم ؛ أما المسيح فكان يرغب فى أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع . وكان قيصر هو الآخر ممن يغضبون أحياناً ؛ ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة ؛ أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذى بصيرة ، وكان يجيب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين . ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة ، ولم يكن فى وسع أحد أن يربكه ولو هدده بالقتل . لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه ، بل كان مبعثها نفاذ البصيرة ، وقوة الشعور ، ووحدة الغرض . ولم يكن يدعى العلم بكل شىء ، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التى لا ينتظر وقوعها ، وكان الذى يحمله على المغالاة فى تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له ، كما حدث فى الناصرة وأورشليم . بيد أن قواه كانت غير عادية ، ولعل الذى يثبت هذا هو معجزاته .

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث فى أكثر الأحوال بقوة الإيحاء — أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، فى روح قابلة للتأثر . ولقد كان وجوده فى حد ذاته يبعث القوة فيمن حوله ، فكانت لمسته المبشرة بالخير تشفى المريض وتقوى الضعيف ، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس فى الخرافات والتاريخ[٥٩] دليلا على أن معجزات المسيح هى الأخرى خرافات وأساطير ، فليس منها إلا عدد قليل ، لا يصدقه العقل ، ويمكن مشاهدة أمثالها فى كل يوم تقريبا فى لورد Lourdes ، وما من شك فى أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح فى إبدروس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفسانى فى العالم القديم ، وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفيهم ، وثانيهما عجزه عن القيام

بمعجزات فى الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية ؛ ومن ثم كان قولهم إنه « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته »[٦٠] . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن « سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية ، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) » ؛ والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخف حدتها فى حضرة عيسى ؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها . وأما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها فى صراحة : إن البنت لم تمت بل كانت نائمة — ولعلها كانت مصابة بالشخوص(*) . ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الآمر القوية : « طليثا قومى » (أى يا صبية قومى)[٦١] . ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة ؛ فقد كان يحس أنه لا يأتى بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية . ولسنا نعرف أنه كان مخطئا فى اعتقاده هذا ، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما فى تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة . ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخَوَرْ نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره ، وينهى أتباعه عن إذاعتها ، ويؤنب من يطلب إليه « علامة » ، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التى دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال « عجيبة » .

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليبدلوا أقوال العالم . فالأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعى ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ؛ فهم لا يخفون مطامعهم ، ولما أراد

(*) ويسمى أيضاً بالتخشب والجمود أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يتميز بفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبى المركزى (شرف) .

عيسى أن يهدئ من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون فى يوم الحساب على اثنى عشر كرسيا يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر(٦٢) . ولما أن سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون الذى سماه المسيح باسم كفاس ، أى « الصخرة » . وترجم اليونان اسمه إلى بطرس . وبطرس هذا شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور ، جاد ، كريم ، غيور ، هياب يصل به الوجل فى بعض الأحيان إلى حد الجبن الذى لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه . وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك فى بحيرة الجليل ، وكذلك كان ولدا زبدى Zebedee يعقوب ويوحنا . وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا دائرة ضيقة حول المسيح . وكان متّى جابيا فى مدينة كپرنوم القائمة على الحدود ؛ أى أنه كان يقوم بعمل للدولة ، وإذن فقد كان فى منصبه هذا يخدم رومة ؛ لهذا كان مكروها من كل يهودى يتوّق إلى الحرية . وكان يهوذا الكريوتى وحده دون سائر الرسل الذى لم يأت من الجليل . وجمع الاثنا عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائبا عنهم ؛ وكانوا فى طوافهم مع المسيح فى رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون ، ويأخذون طعامهم آنا بعد آن مما يمرون به من الحقول ، ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتدون بهديهم . وقد أضاف عيسى إلى الاثنى عشر اثنين وسبعين من الأتباع ، وبعث باثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها ، وقال لهم « لا تحملوا كيسا ، ولا مزوداً ، ولا أحذية »(٦٣) . وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والأتباع وقدمن لهم المعونة ، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التى لا غنى عنها ، والتى هى أعظم سلوى لحياة الرجال . وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم .

الفصل الرابع

الإنجيـــل

وكان يعلم الناس بالبساطة التي تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التي تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وبالحكم والأمثال القوية بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات ، والمجازات التي لا تقل روعة عن أمثالها في أي أدب من آداب العالم . وكانت طريقة القصص الرمزي التي يلجأ إليها مألوفة في بلاد الشرق ، وقد أخذ بعض تشبيهاته الرائعة ، ولعله أخذها دون علم منه ، عن أنبياء بني إسرائيل ، وكتاب المزامير ، وأحبار اليهود[٦٤] . بيد أن وضوح خطبه واتجاهها إلى هدفها مباشرة ، وروعة خياله وقوته ، وإخلاصه العظيم ، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشعر الملهم . ولسنا ننكر أن الغموض يكتنف بعض أقواله ، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يتجافى مع العدالة[٦٥] ، وأن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير ، ولكنها كلها تقريبا نماذج في الإيجاز والوضوح والقوة .

وكانت بداية تعاليمه هي إنجيل يوحنا المعمدان ، وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى دانيال وأخنوخ ، إذ ليس في التاريخ طفرات . ومن أقواله أن ملكوت الله قد حان أجلها ، وأن الله سيقضي عما قريب على عهد الشر والخبائث ، وأن ابن الإنسان سيأتي « على سُحُب السماء » ليحاسب جميع البشر الأحياء منهم والأموات[٦٦] . ومن أقواله إن الوقت الذي يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعا ، فأما من تاب وأناب ، وسلك سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برسوله ، فإنه يرث ملكوت السموات ، ويسمو إلى القوة والمجد في عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور والآلام والموت .

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه ، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحا ، ومن ثم نشأت فى وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما فى هذه الأفكار من غموض . ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ آهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك ، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، وكانت هذه هى الرواية اليهودية التى ورثها عنهم المسيح ، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين « ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض » .

ولم ينطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « مملكتى ليست من هذا العالم »(٦٧) إلا بعد أن خبا هذا الأمل . فهل كان يعنى بها حالة روحية أو طوبى مادية ؟ لقد كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبرؤون من الذنوب — « ملكوت الله داخلكم »(٦٩) ؛ وكان فى أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد فى مستقبل الأيام ، حكامه هم الرسل ، ويأخذ من أعطى أو أوذى فى سبيل المسيح مائة ضعف(٧٠) . ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هى الكمال الخلقى إلا مجازاً ، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقى إنما هو إعداد لهذا الملكوت وثمن يؤدى للحصول عليه ، وأنه هو الحال التى تكون عليها جميع الأرواح الناجية فى الملكوت إذا ما تحقق(٧١) .

ومتى يحين موعد هذا الملكوت ؟ قريبا . « الحق أقول لكم إنى لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » . ومن أقواله لأتباعه : « لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان »(٧٣) . ثم أخره قليلا فيما بعد : « إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته »(٧٤) ؛ « لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا

كله »[٧٥] . ومرّت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن إلا الأب »[٧٦] . وستسبقه علامات : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن . : . يعثر كثيرون و . : . يبغض بعضهم بعضا . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين »[٧٧] . وفى بعض الساعات جعل يسوع مجىء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلها عادلا كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة ؛ وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملا من أعمال الله ، وعطية ومعجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية .

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيوعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعيا[٧٨] . وإنا لنرى فى الأناجيل بعض الشواهد التى تؤيد هذا الرأى ، منها أن المسيح لا يخفى احتقاره للرجل الذى يجعل همه فى الحياة جمع المال والانغماس فى الترف[٧٩] ، فهو يتوعد الفتى البطين بالجوع والشقاء ، ويواسى بالتطويبات التى ضمن لهم بها ملكوت الله . ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال : « بع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، و ... اتبعنى »[٨٠] . ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثورى للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يؤلفون جماعة شيوعية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شىء مشتركا »[٨١] . وكانت التهمة التى أدين من أجلها عيسى هى أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود » .

ولكن فى وسع الرجل المحافظ أن يجد فى العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه . منها أن المسيح قد اتخذ متّى صديقا له ، ومتّى هو الذى ظل كما كان

عاملا من قبل الرومان ؛ ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولم يكن له فيما نعلم نصيب فى الحركة اليهودية التى تهدف إلى الحركة القومية ، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية . وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله »[٨٢] . ولسنا نجد فى قصة الرجل الذى « دعا عبيده » قبل سفره « وسلمهم أمواله »[٨٣] أية شكوى من الربا أو الاسترقاق ، بل إنها تسلم بهاتين السنتين بوصفهما من الأمور التى لا تقبل الجدل . ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذى استثمر العشر الميقات (٦٠٠ ريال أمريكى) التى عهد بها إليه سيده ، فصارت عشرين ؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذى تركت له منها واحـــدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته ، ويُنطق هذا السيد بتلك العبارة القاسية : « إن كل من له يُعطى ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه »[٨٤] ، وهى خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم . وفى قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذى يؤجر من عمل ساعة بقدر ما يؤجر الذين ظلوا يكدحون طول اليوم ؛ فينطق المسيح صاحب العمل بقوله : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟ »[٨٥] . ويبدو أن المسيح لم يفكر فى القضاء على الفقر ، لأن الفقراء دائما معه . فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه : « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاءه سيده يجده يفعل هكذا »[٨٦] أى ما كلفه به . وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوى النفوس الثائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات[٨٧] . أما الثورة التى كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثراً ؛ فهى ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال . فإذا استطاع أن يطهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية ، ومن القسوة ، والفجور ، فإن الطوبى

تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التى تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين . وهذا إذا تم كان أعمق الثورات ، التى إذا قيست إليها الثورات جميعها كانت تغيراً موقوتاً يضع طبقة مكان طبقة ، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة . وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين ، أى محدثى الانقلابات فى تاريخ العالم .

وليست أهم أعماله أنه يبشر بدوله جديدة ، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية . وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هى التى تنبأ بقيامها عند ما يحل موعد ملكوت الله[٨٨] ، والتى كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول فى هذا الملكوت . ومن ثم كانت تلك « التطويبات » وما فيها من تمجيد للوداعة ، والفقر والرقة ، والسلام لم يسبق له مثيل ، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثانى ، وأن يكون الناس كصغار الأطفال (لامثلا عليا للفضيلة !) ، وكان عدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشئون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية ، بل كانت نظاما يكاد يماثل نظام الأديرة يهيئ الرجال والنساء لأن يختارهم الله لمملكة مرتقبة ، لن تكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولا فقر ، ولا حرب . وقد أثنى يسوع على الذين تركوا « بيتاً ، أو والدين ، أو إخوة ، أو امرأة ، وأولاداً » بل أثنى أيضاً على الذين « خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات »[٨٩] . وما من شك فى أن هذه التعاليم قد وضعت لتسير عليها أقلية دينية ورعة ، ولم توضع لمجتمع دائم . لقد كانت هذه مبادئ أخلاقية ، ضيقة فى أغراضها ، ولكنها عامة فى مجالها ، لأنها تطبق فكرة الأخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعداء كما تطبقها على الجيران والأصدقاء . وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد فيه الناس الله فى الهيا كل ، بل يعبدونه « بالروح ، والصدق » وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة .

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة ؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وإن الفكرة الرئيسية التى تدور حولها عظات المسيح — فكرة يوم الحساب وملكوت الله — هى من الأفكار التى وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام . ولقد نادت الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمن طويل . فقد جاء فى سفر اللاويين : « تحب قريبك كنفسك » و « كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك[٩٠] » . وكان اليهود قد أُمِرُوا فى سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم[٩١] ، وكان إرميا[٩٢] وإشعيا[٩٣] ، قد أشارا عليهم أن يديروا خدهم لمن يلطمهم . وكان الأنبياء أيضا قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أيا كان نوعها ، وكان إشعيا[٩٤] وهوشع[٩٥] ، قد شرعا يبدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب ، وكان هلل قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس ؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التى كانت سائدة بين شعبه ، وأفاد من تلك المبادئ .

وقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجرى على سنتهم : فلا يخطب إلا فى اليهود . ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود : « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامرين لا تدخلوا »[٩٦] ؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته فى أن يحملوا « الأنباء الطيبة » إلى عالم « الكفرة »[٩٧] ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها إن « الخلاص لهو من اليهود »[٩٨] ، وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقولها عليه إنسان لم يكن حاضرا معه ، أو كتبها بعد ستين عاما من الحادثة التى قيلت فيها . ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفى ابنتها أبى فى أول الأمر وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٩٩] . وقال للأبرص الذى شفاه من عاته « اذهب وأر نفسك للكاهن وقدمَ القربان الذى أمر به موسى »[١٠٠] : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ،

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا »[١٠١] ، ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية ، سار على سنة هلل فلم يفكر فى أنه ينقض هذه الشريعة : لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل »[١٠٢] « ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس »[١٠٣][*] .

لكنه مع هذا قد بدل كل شىء بقوة أخلاقه وشعوره . فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول فى الملكوت بأن يحيوا حياة العدالة ، والرأفة والبساطة . وزاد الشريعة صرامة فى مسائل الجنس والطلاق[١٠٥] ، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعدادا للعفو[١٠٦] ، وذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان[١٠٧] ، وخفف الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذف بعض أوقات الصوم ، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة ، وندد بالجهر بالصلوات ، والتظاهر بالصدقات ، والاحتفالات الفخمة بالجنازات ، وترك الناس أحيانا يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت[١٠٨] .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات عدا الإسينيين ، وكان الذى أغضبهم بنوع خاص ما ادعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله . وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة . وكان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ، ويرون فى هذا النشاط ما كان يراه هيرودس فى نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفى تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومانى بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعى .

(*) ربما كانت هذه الفقرات مما تقوله عليه المسيحيون المتهودون الذين أرادوا أن يحطوا من شأن بطرس[١٠٤] ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا إذ ينقصنا الدليل .

وقد أوجسوا فى نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل ، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى لايقصد به حرفيته . أما المسيح نفسه فقد ندد بهم تنديداً شديداً .

« الكتبة والفريسيون . . . يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع . . . لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون . . . أيها القادة العميان . . . أيها الجهال والعميان ! . . . تركتم أثقل الناموس — الحق والرحمة والإيمان . . . تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة . . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ! . . . تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقا . . . إنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ! أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ . . . إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله »[١٠٩] .

ترى هل كان يوحنا عادلا فى حكمه على الفريسيين ؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقريع ، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس مظاهر التقى الخارجية : غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هى[١١٠] . ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالا مخلصين ، وأشرافاً ظرفاء إلى حد كبير ، يشعرون بأن القواعد الشكلية التى أغفلها يسوع يجب ألا يحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد ، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التى ساعدت على جميع كلمة اليهود ، وبعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم يبغضهم ويعاديهم : وكان بعض

الفريسيين يعطفون على عيسى ، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التى كانت تدبر لاغتياله[١١١] ، ولقد كان نقوميدس Nicomedus أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر ، ويعلن هذا فى صراحة ووضوح . لقد كان أتباعه ينظرون إليه فى أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان ، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذى سيرفع نير الرومان عن إسرائيل ، ويبسط حكم الله على الأرض . ولما أن سألوه « قائلين يارب هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ »[١١٢] لم يجبهم إلا بقوله « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الرب فى سلطانه » وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب فى غموضه حين سأله رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر ؛ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسى فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داود[١١٣] . لكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية ، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أقنعاه تدريجا بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله فى الأرض لا ليعيد سيادة اليهودية ؛ ولم يقل (فى الأناجيل الثلاثة المتشابهة — متى ، ومرقس ، ولوقا) إنه هو والأب إله واحد أو يسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : « لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله »[١١٤] وقال وهو يصلى فى جتسمانى : « ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت »[١١٥] . وقد أخذ لفظ « ابن الإنسان » الذى جعله دانيال مرادفاً للفظ المسيح ، واستعمله فى بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه فى وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه فى مثل قوله : « فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً »[١١٧] — وهى عبارة رآها الفريسيون تجديفا فى حق الله . وكان يدعو الله باسم « الأب » دون أن يقصد بهذا فى بعض الأحيان أباه هو نفسه ، بيد أنه أحيانا أخرى يقول : « أبى » . ويبدو أنه يقصـــد بهذا

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة[١١٨] . وقد ظل وقتاً طويلا ينهى أتباعه عن أن يسموه المسيح ، ولكنه فى قيصرية فلبس رضى بقول بطرس إنه « المسيح ابن الله الحى »[١١٩] . ولما اقترب من أورشليم فى آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس ، حياه « جمهور التلاميذ » « قائلين مبارك الملك الآتى باسم الرب » ، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله : « إنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ »[١٢٠] . وقد جاء فى الإنجيل الرابع أن الجماهير حيته بقولها إنه « ملك إسرائيل »[١٢١] . ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسى سيقضى على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية . وكانت هذه الأصوات والتحيات هى التى قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثوار .

الفصل الخامس

الموت والتجلى

اقترب عيد الفصح واجتمع فى أورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرابين للهيكل . وكان البهو الخارجى يضج بأصوات البائعين ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الضحايا ؛ والصيارفة يعرضون النقود المتداولة فى هذا المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة فى الإمبراطورية الرومانية . ولما زار عيسى الهيكل فى اليوم الثانى بعد دخوله المدينة هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد ، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وتجار الحمام ، وبعثرة نقودهم على الأرض ، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصى . وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم فى الهيكل دون أن يتعرض له أحد[١٢٢] . ولكنه كان يخرج منه ليلا ويبيت فى جبل الزيتون لخوفه أن يُقبض عليه أو يُغتال .

وكان عمال الحكومة — المدنيون منهم والدينيون ، الرومان واليهود — يراقبونه ، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان فى دعوته . وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره ، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسى الذى استقبل به فى أورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التى اجتمعت فى عيد فصح ، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد ، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حكم ذاتى وحرية دينية . ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع ،

وقال له : « إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »(١٢٣) ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح .

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع ، ولعل الذى أوصله إليه بعض أعضاء فى السنهدرين نفسه . ففى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين فى أرجح الأقوال(*) أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح فى دار صديق له فى أورشليم ، وكانوا ينتظرون أن ينجى المعلم نفسه بما له من معجزات ؛ لكنه لم يفعل شيئا من هذا ، ورضى بما قُدِّر له ؛ ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته على أنه تضحية يكفِّر بها عن ذنوب شعبه(١٢٤) . وقد قيل له إن أحد الاثنى عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه ؛ وفى هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخربوطى(**) . وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فبارك الخمر الذى قدمه للرسل ليشربوه ، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية(١٢٧) . ويقول يوحنا إنه قال لهم « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلا بعد ... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا ... لا تضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى . فى بيت أبى منازل كثيرة ... أنا أمضى لأعد لكم مكاناً »(١٢٨) .

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم فى هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء فى مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود) ، إحياء لذكراه ؛ وليس ببعيد أنه ، وهو ذو الإحساس الشرقى المرهف والخيال الشرقى

(*) ولقد طال الجدل حول الزمن الذى امتدت إليه رسالة المسيح ، والسنة التى مات فيها . ولقد رأينا أن لوقا يحدد تعميد المسيح بعام ٢٨ — ٢٩ . أما تاريخ بولس ، الذى يعتمد فيه على ما قاله هو نفسه فى رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الأول والثانى ، وتواريخ الحكام الرومان الذين تولوا محاكمته ، والرواية المأثورة التى تقول إن موته كان عام ٦٤ ، كل هذا يتطلب أن يكون اعتناق بولس لدين المسيح فى عام ٣١ . انظر الفصل السابع والعشرين .

(**) لقد قيلت حجج كثيرة فى تفنيد قصة يهوذا(١٢٥) ، ولكنها حجج لا يقتنع بها العقل(١٢٦) .

الوثاب ، قد سألهم أن يتصوروا أن العيش الذى يأكلونه هو جسمه ، وأن الخمر التى يشربونها هى دمه .

ويقال إن الجماعة الصغيرة اختبأت تلك الليلة فى حديقة جثسيمانى فى خارج أورشليم : وفيها عثرت عليهم سرية من شرطة الهيكل[١٢٩] وقبضت على يسوع : وسيق أولا إلى "بيت أونياس أحد كبار الكهنة السابقين ، ثم نقل منه إلى بيت قيافا ؛ ويقول مرقس إن « المجلس » — ولعل الأصح أن لجنة من أعضاء السنهدرين — اجتمعت فى ذلك المكان . وشهد عليه شهود كثيرون ، وذكروا بنوع خاص تهديده بتخريب الهيكل . ولما سأله قيافا هل هو « المسيح ابن الله ؟ » أجابه كما تقول الرواية « أنا هو »[١٣٠] . واجتمع السنهدرين فى صباح اليوم التالى وأثبت عليه جريمة التجديف (وكان عقابها الإعدام فى تلك الأيام) وقرر أن يسوقه أمام الحاكم الرومانى ، وكان قد جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المحتفلة بعيد الفصح .

وكان بيلاطس البنطى رجلا قاسيا ، استدعى إلى رومة بعد وقت ما من هذه الحادثة متهماً بابتزاز المال واستخدام القسوة[١٣١] ، وعزل من منصبه . على أنه لم يبد له وقتئذ أن هـذا الواعظ الوديع الخلق خطر حقيقى على الدولة ؛ وسأل الرجل يسوع سؤالا يكاد يكون من قبيل المداعبة : « أأنت ملك اليهود ؟ » فأجاب يسوع ، حسب رواية متى بقوله « نعم » . ولا يسع الإنسان إلا أن يشك فى هذه التفاصيل التى تناقلها الناس مشافهة فى أغلب الظن ، ثم دونوها بعد وقوعها بزمن طويل . فإذا أخذنا بهـذا النص وجب علينا أن نجزم بأن يسوع كان قد قرر أن يموت ، وأن نظرية بولس عن التكفير تجد ما يؤيدها فى عمل المسيح نفسه . وينقل يوحنا عن يسوع أنه أضاف إلى جوابه السابق قوله : « لهذا قد ولدت أنا . . . لأشهد للحق » . وسأله بيلاطى « ما هو الحق ؟ » — وهو سؤال لعل الباعث عليه نزعة الإنجيل الرابع الميتافيزيقية ، ولكنه يدل بأجلى بيان على ما هنالك

من فروق بين ثقافة الرومان السوفسطائية الساخرة ومثالية اليهودى الواثقة المتحمسة . ومهما يكن من شىء فلم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه ، وبناء على هذا أصدر پيلاطى وهو كاره حكمه بالإعدام .

وكان الصلب من طرق العقاب الرومانية اليهودية . وكان الجلد يسبقه عادة ، فإذا ما جلد المذنب بقسوة أصبح جسمه كتلة من اللحم المتورم الدامى . ووضع الجنود الرومان تاجا من الشوك على رأس المسيح يسخرون بذلك من تلقيبه « ملك اليهود » ، كما نقشوا على صليبه باللغات الآرامية واليونانية واللاتينية « عيسى الناصرى هو ملك اليهود » Nazarathaeus Rek Joudeorum . وسواء كان يسوع من دعاة الثورة أو من غير دعاتها فليس ثمة ريب فى أن رومة قد حكمت عليه بوصفه من هؤلاء الدعاة ، وكذلك فهم تاستس الأمر على هذا النحو(١٣٤) . وكانت جماعة صغيرة ، لا يزيد عددها على ما يتسع له فناء بيت پيلاطس ، قد طالبت بإعدام المسيح ؛ فلما أن أخذ يصعد تل جمجمة « تبعه جمهور كبير من الشعب » كما يقول لوقا(١٣٥) ، والنساء اللواتى كن يلطمن وينحن عليه . وما من شك فى أن هذا الحكم لم يرق فى عين الشعب اليهودى .

وقد أذن لكل من يريد أن يشهد هذا المنظر الرهيب أن يشهده . وكان الرومان الذين يرون أن لا بد لهم أن يحكموا الناس بالإرهاب يختارون لتنفيذ حكم الإعدام فيمن يرتكبون الجرائم التى يحدد لها القانون هذه العقوبة الطريقة التى يسميها شيشرون « أقسى أنواع التعذيب وأبشعها »(١٣٦) . فكانت يد المذنب وقدماه تُدَق (أو تربط فى حالات نادرة) إلى الخشبة ، وكانت فيها قطعة بارزة تسند العمود الفقرى أو القدمين . وإذا لم يُرحم المذنب فيُقتل فإنه يبقى على هذه الحال يومين أو ثلاثة أيام ، يقاسى فيها آلام عدم الحركة ، وهو عاجز عن طرد الحشرات التى تتغذى من لحمه العارى ، فتخور قواه ببطء حتى يقف القلب عن الحركة ويضع حداً لهذا العذاب الأليم .

وكان الرومان أنفسهم يشفقون على ضحايا هذا التعذيب فى بعض الأحيان ، ويقدمون لهم شراباً فيفقدهم وعيهم . ويقال إن الصليب كان يرفع « عند الساعة الثالثة أى فى الساعة التاسعة صباحا . ويقول مرقس إن لصين صلبا مع يسوع وإنهما كانا يسبانه . ويؤكد لنا لوقا أن واحداً منهما كان يدعو له[١٣٨] . ولم يكن مع عيسى أحد من الرسل إلا يوحنا وحده ، وكان معه ثلاث نساء تسمى كل واحدة منهن مريم ، أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية (وكانت أيضا نساء ينظرن من بعيد)[١٣٩] . واقتسم الجند ثياب الميت كعادة الرومان ؛ وإذ لم يكن للمسيح إلا ثوب واحد فإنهم أخذوا يلقون القرعة ليروا من يأخذ الثوب . ولعلنا نقرأ فى هذا المعنى الآية الثامنة عشرة من المزمور الثانى والعشرين منسوبة إلى المسيح : « يقتسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » : ويبدأ هذا المزمور نفسه بتلك الكلمات : « إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ » . وذلك هو نداء اليأس البشرى الذى يعزوه مرقس ومتى إلى المسيح وهو يحتضر . فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذى أعانه فى موقفه أمام پيلاطس قد انقلب فى تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود ؟ ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية فبدلها بقوله : « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » — وهى عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادى والثلاثين ترديداً يثير الريب لما فيه من دقة .

وأشفق جندى على المسيح الظمآن ، فجاء بإسفنجة مغموسة فى الخل وقربها من فيه ، فشرب عيسى وقال : « قد أكمل » . وفى الساعة التاسعة — الثالثة بعد الظهر — « نادى يسوع بصوت عظيم . . . وأسلم الروح » . ويضيف لوقا إلى هذا — ويدل بقوله على عطف اليهود — « وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر ... رجعوا وهم يقرعون صدورهم »[١٤١] . واستطاع اثنان من اليهود

الرحماء ذوى النفوذ أن يحصلا على إذن من پيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب فأنزلاها وحفظاها بالند والمر وواورياها التراب .

ترى هل مات حقا ؟ لقد كان اللصان اللذان إلى جانبه لا يزالان على قيد الحياة ، وقد كسر الجنود ساقهما حتى تتحمل أيديهما ثقل جسمهما ، فيؤثر ذلك فى حركة الدم ويقف القلب بعد قليل . غير أن هذا لم يحدث فى حالة عيسى ، وإن كان قد قيل إن جنديا طعنه فى قلبه بحربة ، فانبثق الدم من الجرح أولا ثم خرج بعده مصل الدم . وأبدى پيلاطس دهشته من أن يموت رجل بعد ست ساعات من صلبه ؛ ولم يوافق على أن يرفع جسد المسيح عن الصليب إلا بعـــد أن أكد له قائد المائة المكلف به أنه قد مات .

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية — وكان حبها ليسوع تمتزج به تلك النشوة العصبية التى تمتاز بها عواطفها كلها — قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدنه فارغا : فامتلأت قلوبهن خوفا وسروراً معاً ، وجرين لينقلن ذلك النبأ إلى تلاميذه : والتقين فى الطريق برجل حسبنه يسوع ، فانحنين احتراما له ، وأمسكن بقدميه : وفى وسعنا أن نتصور الأمل الذى انبعث فى النفوس الساذجة من هذا النبأ وما لقيه من ترحيب ؛ لقد قهر يسوع الموت وأثبت أنه هو المسيح المنتظر ابن الله ، وملأ ذلك النبأ قلوب « أهل الجليل » بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأى وحى . ويروى الرواة أن المسيح ظهر فى ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه فى الطريق الموصل إلى عمواس ، وتحدث إليهم ، وأكل معهم ، ولكن « أمسكت أعينهما عن معرفته » ثم «أخذ خبزاً وبارك وكسر . . . : فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما »[١٤٢] . ورجع التلاميذ إلى الجليل فلما « رأوه » بعد قليل « سجدوا له ، ولكن بعضهم شكّوا »[١٤٣] . وبينا كانوا يصطادون السمك

رأوا المسيح ينضم إليهم ؛ فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك[١٤٤] .

وجاء فى سِفر أعمال الرسل أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوما من ظهوره إلى مريم المجدلية . لقد كانت فكرة « انتقال » القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، فقد رووها عن موسى ، وأخنوخ ، وإليشع ، وإشعيا . وهكذا اختفى السيد المسيح بنفس الطريقة ، التى ظهر بها . ولكن يبدو أن معظم تلاميذه كانوا يعتقدون مخلصين أنه قد وجد معهم بجسمه بعد صلبه . وفى ذلك يقول لوقا : « ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، وكانوا كل حين فى الهيكل يسبحون ويباركون الله »[١٤٥](*) .

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أننا ننقل أقوال المؤلف بنصها ، وأنه ليس لنا أن نعلق عليها أو نبدل فيها . (المترجم) .

الباب السابع والعشرون

الرسـل

٣٠ – ٩٥ م

الفصل الأول

بطـرس(*)

نشأت المسيحية من الإيحاء الغامض العجيب الخاص بحلول الملكوت ، واستمدت دوافعها من شخصية المسيح نفسه وتخيلاته ، كما استمدت قوتها

(*) إن أهم المراجع التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخ هذه الفترة هى « أعمال الرسل » . والمتفق عليه بوجه عام أن هذا السفر هو والإنجيل الثالث من وضع مؤلف واحد ، ولكن ليس ثمة ما يماثل هذا الإجماع على أن كاتب السفرين هو لوقا ، صديق بطرس الذى لم يكن من اليهود . وإذا كان سفر الأمثال لم يرد فيه شىء عن موت بولس ، فإن النسخة الأصلية منه تكون قد ألفت حوالى عام ٦٣ ليحاول بها صاحبها تسكين عداء الرومان للمسيحية ولبولس ؛ ولكن المرجح أن الكتاب قد ضمت إليه أجزاء أخرى كتبها مؤلف آخر جاء بعد مؤلفه الأول . ويكثر فى هذا السفر ذكر خوارق الطبيعة ، ولكن قصته الأساسية يمكن اعتبارها تاريخاً صحيحاً(١) . وقد ضمت فى القرن الثانى عدة « أعمال » و « رسائل » مختلفة مشكوك فيها حذفت من الكتاب المقدس تحتوى على عدد من القصص الخرافية تروى حياة الرسل بعد المسيح . وكانت هذه « الأعمال » بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر ، ولم تكن بالضرورة محاولات يقصد بها الخداع والتمويه . وقد رفضتها الكنيسة المسيحية ، ولكن أتقياء المسيحيين آمنوا بها ، وخلطوها خلطاً متزايداً بالتاريخ الصحيح .

وينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء فى رسالة بطرس الأولى وهى إحدى الرسائل السبع الواردة فى العهد الجديد معزوة إلى الرسل الاثنى عشر ، وننزع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذى لا يزال مؤلفه مثاراً للنزاع . أما باقى الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكون كثيراً فى صحتها .

من عقيدة البعث والحساب ، والوعد بحياة الخلود ، واتخذت صورة العقائد الثابتة فى لاهوت بولس ، ثم نمت باستيعابها العقائد والطقوس الوثنية ؛ وأصبحت كنيسة ظافرة منتصرة ، بعد أن ورثت ما امتازت به رومة من أنماط وعبقرية منظمة .

ويبدو أن الرسل كانوا جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليل ليقيم ملكوت السموات على الأرض . انظر إلى قول بطرس فى رسالته الأولى : « نهاية كل شىء قد اقتربت فتعقلوا واصحوا للصلوات »[٣] . وتقول رسالة يوحنا الأولى : « أيها الأولاد ، هى الساعة الأخيرة ، وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتى قد صار الآن أضداد كثيرون (نيرون ، فسپازيان ، دومتيان) . من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة »[٤] . وكان الاعتقاد بنزول مسيح ليطهر الأرض ويقيم ملكوت الله ، ويبعث الناس بأجسامهم ، وبعودته إلى الأرض ، هو القاعدة الأساسية للدين المسيحى فى أوائل عهده . على أن هذه العقائد لم تحل بين الرسل وبين استمرارهم فى التمسك بالدين اليهودى . وشاهد ذلك ما جاء فى أعمال الرسل : « وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة »[٥] وأطاعوا قوانين التغذية والحفلات[٦] ، واقتصروا فى أول الأمر على دعوة اليهود وحدهم إلى دينهم ، وكثيرا ما كانوا يخطبون فيهم فى الهيكل[٧] .

وكانوا يعتقدون أنهم قد تلقوا عن المسيح أو عن الروح القدس قوى عجيبة من الإلهام ، وشفاء الأمراض والأقوال . وأقبل عليهم كثيرون من المرضى والعجزة ، ويقول مرقس[٨] إن بعضهم شفوا حين مسحوا بالزيت — وكان هذا المسح على الدوام من وسائل العلاج المنتشرة فى بلاد الشرق . ويصور مؤلف سفر أعمال الرسل صورة مؤثرة للاشتراكية القائمة على الثقة المتبادلة التى كانت سائدة بين هؤلاء المسيحيين الأولين إذ يقول :

« وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد

يقول إن شيئا من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركا . . . لم يكن فيهم أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج »(٩) .

ولما كثر عدد المهتدين ، وكثر ما تحت أيدى الرسل من الأموال عينوا سبعة من شمامسة الكنيسة للإشراف على شئون هذه الجماعة ؛ وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتفاء الأذى من وجودها ، فلما تضاعف عدد « الناصريين » (النصارى) فى بضع سنين قلائل وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ٨٠٠٠(١٠)(*) استولى الرعب على قلب الكهنة ، فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم أمام السنهدرين لمحاكمتهم . وكان السنهدرين يريد أن يحكم بإعدامهم ، ولكن فريسيا يدعى غمالائيل — أكبر الظن أنه معلم بولس — أشار على المجلس أن يؤجل الحكم ؛ ثم وفق بين الرأيين بأن جلد المقبوض عليهم وأطلق سراحهم وحدث بعد ذلك بزمن قليل (٣٠ ؟ . م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين واسمه اصطفانوس (أو استيفن) للمثول أمام السنهدرين واتهم بأنه « يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله »(١٤) ، فدافع الرجل عن نفسه دفاعا قويا غير مبال بما يتهدده من أخطار :

« يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والآذان ، أنتم دائما تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك أنتم ! أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذى أنتم الآن صرتم

(*) فى المرجع الذى يشير إليه المؤلف وهو أعمال الرسل ٤ : ٤ أن عددهم كان خمسة آلاف . (المترجم)

مسلميه وقاتليه ، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه »[١٢](*).

وأثار هذا الدفاع القوى غضب السنهدرين فأمر بأن يجر إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة . وكان شاب فارسى يدعى شاول يساعد على هذا الهجوم ؛ وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت فى أورشليم ويقبض على أتباع « الكنيسة » ويزجهم فى السجن[١٣] .

وفرّ اليهود المهتدون ذوو الأسمـــاء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية وأنشأوا فيها جماعات مسيحية قوية . أما معظم الرسل الذين يبدو أنهم سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس ، فقد بقوا فى أورشليم مع المسيحيين اليهوديين . وبينا كان بطرس يحمل الإنجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب « العادل » « أخو الرب » رئيس الجماعة المقيمة فى أورشليم بعد أن قلّ عددها ونقصت مواردها . وكان يعقوب يبشر بالناموس بكلّ ما فيه من صرامة ، ولم يكن يقلّ عن الإسينيين تقشفاً وزهداً ، فلم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب الخمر ، ولم يكن له إلا ثوب واحد ، ولم يقصّ شعره أو يحلق لحيته قط . وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لايمسهم أذى . ثم حدث حوالى عام ٤١ أن قـُتل رجل يدعى يعقوب بن زبيدى ، فقـُبض على بطرس ولكنه فر . ثم قـُتل يعقوب العادل نفسه فى عام ٦٢ . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على رومة . وأيقن المسيحيون المقيمون فى أورشليم أن « نهاية العالم » قد دنت ، فلم يأبهوا بالشئون السياسية ، وخرجوا من المدينة وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع رومة والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن . وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة ، فاتهم اليهود

(*) لايبعد أن تكون خطب اصطفانوس ، وبطرس ، وبولس وغيرهم كما وردت فى سفر أعمال الرسل من اختراع مؤلف هذا السفر كما جرت بذلك عادة المؤرخين الأقدمين .

المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة ، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح . واتقدت نار الحقد فى قلوب أتباع كلا الدينين ، وأملت عليهم بعض ما كتبوا من أعظم آدابهم تقى وصلاحاً .

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها وتترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها : وأصمت الجليل ، التى قضى فيها المسيح كل حياته تقريباً ، والتى عفت منها ذكرى المجدلية وغيرها من النساء اللاتى كن من بين أتباعه الأولين ، أصمت أذنها عن سماع الوعاظ الذين جاءوها يدعون أهلها للدخول فى دين الناصرى ابن الله . ذلك أن اليهود المتعطشين إلى الحرية ، والذين كانوا يذكرون كل يوم فى صلواتهم أن « الله واحد » لم يستسيغوا فكرة « المسيح » المنتظر الذى لا يأبه بكفاحهم فى سبيل الاستقلال ، ورأوا أن من العار أن يقال إن إلهاً قـــد ولد فى كهف أو اصطبل فى إحدى قراهم . وظلت المسيحية اليهودية قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بالإبيونيم (« الفقراء ») الذين كانوا يجمعون بين التقشف المسيحى والناموس اليهودى الكامل ؛ فلما كان آخر القرن الثانى الميلادى حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر وأخرجتهم من حظيرتها .

وكان الرسل والتلاميذ فى هـــذه الأثناء قد نشروا الإنجيل بين اليهود المشتتين[١٤] بنوع خاص وهم المنتشرون فيما بين دمشق ورومة . فهدى فليب عدداً من أهل السامرة وقيصرية ، وأوجد يوحنا جالية مسيحية قوية فى إفسوس وأخذ بطرس يعظ فى مدن سوريا . وفعل بطرس ما كان يفعله معظم الرسل فاصطحب معه فى أثناء تجواله « أختا » لتكون بمثابة زوجة له ومعينة[١٥] . وبلغ نجاحه فى شفاء المرضى حداً أغرى ساحراً يدعى سمعان المجوسى أن يعرض عليه مالا ليشركه معه فى قواه العجيبة . ففى يافا أقام تابيثا وكان يبدو أنها قد

ماتت ، وفى قيصرية هدى إلى المسيحية قائداً رومانياً على مائة . وجاء فى سفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أن عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء ، ثم اقتصر من ذلك الوقت على تعميد المهتدين من غير اليهود بدل أن يعمدهم ويختنهم معا ، وذلك إذا استثنينا بعض حالات طريفـــة . وفى وسعنا أن نحس بما كان يعمر قلوب هؤلاء المبشرين الأولين من حماسة إذا أطلعنا على رسالة بطرس الأولى :

« بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتقربين من شتات پنطس ، وغلاطية ، وكپدوكية وآسيا ، وبيثينية المختارين . . . لتكثر لكم النعمة والسلام . . . أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء . . . أن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكى . . . يمجدوا الله فى يوم الافتقاد من أجـــل أعمالكم الحسنة التى يلاحظونها . . . فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب . . . كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر . . . أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة ، ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعتقاء أيضاً . . . كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلى بالذهب ولبس الثياب ، بل . . . زينة الروح الوديع الهادئ . . . كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائى كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحيوة . . . غير مجازين عن شر بشر . . . ولكن قبل كل شىء لتكن محبتكم بعضـــكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا »[١٦] .

ولسنا نعرف متى شق بطرس طريقه إلى رومة أو المراحل التى وصل بها إلى تلك المدينة . فأما جيروم (حوالى ٣٩٠) فيؤرخ وصوله إليها بعام ٤١ م . وقد بقيت الرواية القائلة بأنه كانت له اليد الطولى فى إنشاء الجالية المسيحية

فى عاصمة الدولة الرومانية صامدة للنقد[١٧] : ويحدثنا لكتانتيوس Lactantius عن قدوم بطرس إلى رومة فى عهد نيرون[١٨] ، وأكبر الظن أن الرسول زار رومة عدة مرات . وكان وهو طليق ، وبولس وهو سجين ، يبذلان ما وسعهما من جهد ويتنافسان لهداية أهلها حتى استشهد كلاهما فى سبيل هذه الغاية ، ولعل استشهادهما كان فى عام واحد هو عام ٦٤[١٩] . ويروى أرجن أن بطرس « صلب ورأسه مدلى إلى أسفل ، لأنه طلب أن يعذب بهذه الطريقة »[٢٠] ، ولعله كان يأمل أن يكون الموت بها أسرع إليه أو (كما يقول المؤمنون) لأنه يرى أنه غير خليق بأن يموت بالطريقة التى مات بها المسيح . وتقول النصوص القديمة إن زوجته قتلت معه ، وأنه أرغم على أن يراها تساق للقتل[٢١] . وتحدد إحدى القصص المتأخرة حلبة نيرون ، القائمة فى ميدان الفاتكان ، موضعاً لمقتله . وفى هذا المكان شيدت كنيسة القديس بطرس ، وقيل إنها تضم عظامه .

وما من شك فى أن تجواله فى آسية الصغرى ورومة قد ساعد على الاحتفاظ بكثير من العناصر اليهودية فى الدين المسيحى : فقد ورث هذا الدين عنه وعن غيره من الرسل ما فى الدين اليهودى من توحيد ، وتزمت ، واعتقاد فى البعث والنشور ؛ وهذه الرحلات ورحلات بولس هى التى جعلت العهد القديم الكتاب المقدس الوحيد الذى عرفته المسيحية فى القرن الأول ؛ وظلت المجامع اليهودية أهم الأماكن التى تبث فيها الدعوة للمسيحية كما ظل اليهود أهم الجماعات التى تبث بينهم هذه الدعوة حتى عام ٧٠ م . ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية واحتفالاتها وملابسها . وتسامى حمَل پسكال فصار هو حمل الله المكفر عن الخطايا فى القداس الكاثوليكى . كذلك أخذت المسيحية عن أساليب اليهود فى إدارة المجامع تنصيب جماعة من الكبراء (پرز بتيرى أى قساوسة) لتولى شئون الكنائس . وقبلت المسيحية فيها كثيراً من الأعياد اليهودية كعيد الفصح وعيد العنصرة ، وإن كانت قد غيرت أشكالها وتواريخها : وقد ساعد تشتت اليهود

فى أقطار العالم على انتشار المسيحية ، وكان مما مهد السبيل لهذا الانتشار كثرة انتقال اليهود من مدينة إلى مدينة ، والصلات القائمة بينهم فى جميع أنحاء أوربا ، وتجارتهم الواسعة ، والطرق الرومانية المعبدة ، والسلم الرومانية . وكانت المسيحية حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية ، ثم أصبحت فى تعاليم بولس نصف يونانية ، وأضحت فى المذهب الكاثوليكى نصف رومانية ، ثم عاد إليها العنصر اليهودى والقوة اليهودية حين دخلها المذهب البروتستنتى .

الفصل الثانى

بولس

١ — المضطهد

ولد واضع اللاهوت المسيحى فى طرسوس من أعمال كليكيا حوالى السنة العاشرة من التاريخ الميلادى . وكان أبوه من الفريسيين ، ونشأ ابنه على مبادئ هذه الشيعة الدينية المتحمسة ؛ وظل رسول الأمم طوال حياته يعد نفسه فريسياً حتى بعد أن نبذ الشريعة اليهودية . كذلك كان والده مواطناً رومانياً ، أورث ابنه هذا الحق الثمين . وأكبر الظن أن اسم بولس كان هو اللفظ اليونانى المرادف للاسم العبرى شاول ، ولهذا ظل الاسمان يطلقان على هذا الرسول منذ طفولته[٢٢] . ولم يتلق تعليما راقياً ولم يدرس الكتب اليونانية لأن الفريسيين على بكرة أبيهم لم يكونوا يسمحون بأن يتأدب أبناؤهم بهذ الأدب اليونانى الخالص ، ولو أن كاتب الرسائل درس اليونانية لما كتبها بهذا الأسلوب اليونانى الركيك . على أنه عرف كيف يتحدث بهذه اللغة بطلاقة تمكنه من أن يخاطب بها المستمعين له من الأثينيين ، وأن يشير أحياناً إلى بعض الفقرات المشهورة فى الأدب اليونانى . ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية الرواقية انتقلت من البيئة المدرسية فى طرسوس إلى مسيحية بولس . فهو يستعمل اللفظ الرواقى نيوما (neuma) أى النَّفَس للدلالة على المعنى الذى يستعمل فيه مترجموه الإنجليز لفظ Spirit (الروح) . وكان فى طرسوس كما كان فى معظم المدن اليونانية أتباع للأرفية ، وغيرها من العقائد الخفية ، يعتقدون أن الله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره ، وإنه إذا دعى بإيمان حق ،

وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم ، وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة[٢٣] . وهذه الأديان الغامضة الخفية هى التى أعدت اليونان لاستقبال بولس ، وأعدت بولس لدعوة اليونان .

وبعد أن تعلم الشاب حرفة صنع الخيام ، وتلقى العلم فى المجمع الدينى القائم فى المدينة ، أرسله أبوه إلى أورشليم وهناك كما يقول بولس نفسه : « تعلم عند قدمى غمالائيل على طريقة الناموس الدقيقة »[٢٤] . وكان المشهور عن غمالائيل أنه حفيد هلل ، وقد خلفه فى رياسة السنهدرين . وواصل السنة القديمة سنة تفسير الناموس تفسيراً ليناً راعى فيه ضعف النفس البشرية . غير أن الفريسيين الذين كانوا أكثر منه تزمتاً هالهم أن يجدوه ينظر نظرة الإعجاب والتقدير للنساء الوثنيات أنفسهن[٢٥]. وقد بلغ من علمه أن اليهود ، الذين يجلون العلماء أعظم الإجلال ، أطلقوا عليه اسم « جمال الناموس » ، ولقبوه بما لم يلقب به إلا ستة رجال من بعده وهو « الربان » أى سيدنا . واتخذ بولس عنه وعن غيره تلك الطريقة الحصيفة ، والجدلية السوفسطائية فى بعض الأحيان ، فى تفسير الكتاب المقدس ، وهى التى ترى واضحة فى التلمود . وقد بقى بولس إلى آخر أيامه يهودياً فى عقله وخلقه على الرغم من تعلمه أوليات الهلنية ، ولم ينطق بكلمة يشتم منها أنه يشك فى أن شرائع موسى موحى بها من عند الله ، وظل يعتقد فى عزة وفخار كما يعتقد اليهود أن اختيار الله وحده هو طريق النجاة .

وهو يصف نفسه بقوله : « فى الحضرة ذليل بينكم »[٢٦] ويزيد على ذلك : « ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة فى الجسد ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا أرتفع »[٢٧] ولا يزيد فى وصف نفسه على هذا . وتصوره الروايات المأثورة وهو فى سن الخمسين رجلا زاهداً متقشفاً مقوس الجسم ، أصلع الرأس ، ملتحياً عريض الجبهة ، أصفر الوجه صارمه ، نفاذ العينين . وعلى هذا النحو تخيله درور

فى صورة تعد من أروع آيات الفن فى العالم كله ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الصور التى تمثله أدب وفن لا تاريخ .

أما عقله فكان من طراز شائع كثيراً بين اليهود : كان فيه من نفاذ البصيرة وشدة الانفعال أكثر مما فيه من الدماثة والظرف ؛ وكان فيه من الإحساس القوى والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء . وكان قوياً فى العمل لأنه كان ضيق التفكير . وكان رجلا « أسكرته النشوة الإلهية » أكثر مما أسكرت اسپنوزا نفسه ، يلتهب صدره بالحماسة الدينية بالمعنى الحرفى للفظ الالتهاب — لقد كان صدره ينطوى « فى داخله على الإله » نفسه .

وكان يعتقد أنه ملهم موحى إليه قادر على فعل المعجزات . وكان إلى هذا ذا طبيعة عملية ، قادراً على الجد والتنظيم ، صبوراً إلى أقصى حد فى تأسيس العشيرة المسيحية والمحافظة عليها . وكانت عيوبه وفضائله شديدة الصلة بعضها ببعض لا غنى لكلتيهما عن الأخرى شأنه فى هذا شأن الكثيرين من الرجال . فقد كان شجاعا مندفعا ، متعسفا حاسما فى أحكامه ، مسيطراً مجادلا ، متعصبا مبتدعا ، فخوراً أمام الناس متواضعا لله ، عنيفا فى غضبه قادراً على أن يستشعر أرق الحب والرحمة ، يشير على أتباعه أن يباركوا من يضطهدونهم ، ولكنه يتمنى لأعـــدائه الذين يختنون أن « يُقَطّعوا أيضاً »(٢٨) . وكان يدرك أسباب ضعفه ، ويحاول الخلاص منها ، ويقول لمن هداهم « ليتكم تحتملون غباوتى قليلا »(٢٩) . وتلخص الحاشية التى كتبت على رسالته الأولى لأهل كورنثوس أخلاقه حين تقول : « السلام بيدى أنا بولس ، إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أنا ثيما ! ماران أثا ! نعمة الرب يسوع المسيح معكم ، محبتى مع جميعكم » . لقد كان الرجل ما لابد أن يكون لكى يستطيع أن يفعل ما فعل .

وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعا عن اليهودية ، وانتهى بنبذ اليهودية دفاعا عن المسيح ، وكان فى كل لحظة من لحظاته داعيا ورسولا . فلما هاله احتقار اصطفانوس

للناموس انضم إلى قتلته ، وتزعم الاضطهاد الأول للمسيحين فى أورشليم ؛ ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له فى دمشق أتباع كثيرون « تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » (٣١ ؟ م)[٣٠] ؛ ولربما كان تحمسه لاضطهادهم ناشئا من شكوك خفية سرت وتفشت فى نفسه ؛ وكان فى مقدوره أن يقسو ، ولكن هذه القسوة لم تكن من النوع الذى لا يعقبه ندم . ولعل منظر اصطفانوس وهو يرجم بالحجارة حتى يموت ، ولعل لمحات من ذكريات الشباب — ذكريات صلب المسيح — كانت تعود إلى خياله فتضطرب بها ذاكرته وتثقل عليه فى سفره ، وتهيج خياله . ولما اقتربت جماعته من دمشق ، كما جاء فى سفر أعمال الرسل :

« فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى ؟ فقال من أنت يا سيد ؟ فقال الرب(*) أنا يسوع الذى أنت تضطهده . . . . وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً . فنهض شاول من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً ، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق ، وبقى ثلاثة أيام لا يبصر . وليس فى وسع أحد أن يعرف العوامل التى أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسى فى طبيعة الرجل . ولعل ما قاساه من التعب فى سفره الشاق الطويل فى شمس الصحراء اللافحة ، أو لعل ومضة برق فى السماء ناشئة من شدة الحرارة ، لعل شيئا من هذا أو ذاك كله قد أثر فى جسم ضعيف ربما كان مصابا بالصرع ، وفى عقل يعذبه الشك والإجرام ، فدفع بالعملية التى كانت تجرى فى عقله الباطن إلى غايتها ، وأصبح ذلك المنكر الشديد الانفعال

(*) فى الأصل الإنجليزى « الصوت » ولكن لفظ « الرب » هو الوارد فى الترجمة العربية . (المترجم)

أقدر الداعين إلى مسيح اصطفانوس . وكان الجو اليونانى الذى يحيط به فى طرسوس يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية ، كما كانت علوم بنى جنسة من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر ، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفتانة ، الذى لا يتردد الناس فى استقبال الموت من أجله ، هو ذلك المسيح المنتظر ؟ فلما أحس فى آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدى يهودى مهتد ، رحيمتين ، تلمستان وجهه وتسكنان ألمه « فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور ، فأبصر فى الحال وقام واعتمد ، وتناول طعاما فتقوى »[٣٢] . وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع دمشق وقال للمجتمعين فيها إن عيسى ابن الله .

٢ — المبشر

وأصدر حاكم دمشق ، بإيعاز اليهود الذين ساءهم ما فعل بولس ، أمراً بالقبض عليه ، فما كان من أصدقائه الجدد إلا أن أنزلوه فى سلة من فوق أسوار المدينة . ويقول هو إنه ظل ثلاثة أيام يدعو إلى المسيح فى قرى بلاد العرب ، ولما عاد إلى أورشليم عفا عنه بطرس ، واتخذه صديقاً له ، وعاش معه فترة من الزمان . وكان معظم الرسل يرتابون فيه ، ولكن برنابا ، وهو مهتد حديث ، رحب به وقدم له كثيراً من المعونة ، وأقنع كنيسة أورشليم أن تحمل مضطهدها القديم بشرى مجيء المسيح الذى سيقيم عما قريب ملكوت الله . وحاول اليهود ، الذين يتكلمون اللغة اليونانية والذى جاءهم بالإنجيل ، أن يقتلوه ، ولعل الرسل خشوا أن تعرضهم حماسته الشديدة للخطر فأرسلوه إلى طرسوس .

وظل فى مسقط رأسه ثمانى سنين لا يعرف عنه التاريخ شيئاً ، ولعله شعر مرة أخرى بأثر التصوف الدينى المنتشر بين اليونان وما فيه من تبشير بمجيء المنقذ . ثم أقبل عليه برنابا وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين فى أنطاكية .

وأخذ الرجلان يعملان معاً (٤٣ — ٤٤ ؟) فهديا كثيراً من الناس ، فلم تلبث أنطاكية أن فاقت سائر المدن فى عدد من بها من المسيحيين . وفيها أطلق الوثنيون على « المؤمنين » ، أو « التلاميذ » أو « القديسين » كما كانوا يسمون أنفسهم اسم الـكرستيانوى أى أتباع المسيح أى الإنسان الممسوح . وهنا أيضاً انضمت « الأمم » أى غير اليهود إلى الدين الجديد . وكان معظم هؤلاء ممن « يخشون الله » . وكانت كثرتهم من النساء اللاتى آمن ببعض طقوس اليهودية وبما فيها من دعوة إلى الوحدانية .

ولم يكن الإخوة فى أنطاكية فقراء كأمثالهم فى أورشليم ، فقد كانت فيهم أقلية لا بأس بها من طبقة التجار ، فاندفعوا بقوة هذه الحركة الفتية الناشئة إلى جمع قدر من المال ليستعينوا به على نشر الإنجيل ، « فوضع » رؤساء الكنيسة « أيديهم » على برنابا وبولس وبعثوهما فيما يسميه التاريخ « رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى » (٤٥ — ٤٧ ؟) وهى تسمية تستخف بشأن برنابا . وأبحر الرجلان إلى قبرص ، ولقيا نجاحاً مشجعاً بين اليهود الكثيرين المقيمين فى تلك الجزيرة . ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا فى بمفيلية واجتازا طرقا جبلية وعرة تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى أنطاكية فى پسيديا Pisidia . واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما فلما بدأا يعظان « الأمم » كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفى البلدية على إخراج المبشرين من المدينة . ونشأت هذه الصعاب نفسها فى إقونيوم Iconium ، ورجم بولس فى لسترا بالحجارة وجر على وجهه إلى خارج المدينة ، وترك فى العراء ظناً من أعدائه أنه مات . بيد أن قلبى بولس وبرنابا كانا لا يزالان يفيضان غبطة بروح القدس فحملا الإنجيل إلى دوربى Derbe ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا وأبحرا منها إلى أنطاكية السورية ، وفيها واجهتهما أعقد مشكلة فى تاريخ المسيحية .

ذلك أن بعض التابعين الممتازين فى دمشق سمعوا أن المبشرين كانا يقبلان

المهتدين من « الأمم » دون أن يحتما عليهم الختان ، فجاءوا إلى أنطاكية « يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا »[٣٣] . ولم يكن الختان عند اليهودى من الطقوس التى توجبها صحة الجسم ، بقدر ما كان رمزاً مقدسا لعهده القديم الذى عاهد عليه الله ، ولهذا روع اليهودى المسيحى حين فكر فى نكث ذلك العهد . وأدرك بولس وبرنابا أنه إذا نال هؤلاء المبعوثون بغيتهم فإن المسيحية لن يقبلها إلا عدد قليل من غير اليهود ، وأنها ستبقى « بدعة يهودية » (كما سماها هينى فيما بعد) لا تلبث أن تزول بعد قرن من الزمان . ومن أجل هذا سافرا إلى أورشليم (٥٠ ؟) وعرضا المسألة على بساط البحث مع سائر الرسل ، وكانوا كلهم تقريبا لا يزالون يتعبدون مخلصين فى الهيكل . فأما يعقوب فقد تردد كثيراً فى قبول رأيهما ، وأما بطرس فقد دافع عن المبشرين ، واتفق الجميع آخر الأمر على ألا يطلب إلى المهتدين الوثنيين أكثر من أن يقلعوا عن الزنى ، وعن أكل المخنوقة والدم وما ذبح على النصب[٣٤] . ويبدو أن بولس يسر الأمر بأن وعد العشيرة المسيحية المعدمة فى دمشق بشىء من المال المطرد الزيادة فى كنيسة أنطاكية[٣٥] .

لكن هذه النتيجة كان لها من الخطر ما يحول دون البت فيها بهذه السهولة . فقد جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم ، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختتنين ، ولسنا نعرف رأى بطرس فى هذه المسألة ، ولكن بولس يخبرنا أنه « قاوم بطرس مواجهة » فى أنطاكية[٣٦] ، واتهمه بالرياء ؛ ولعل بطرس لم يرغب ، كما لم يرغب بولس ، فى أكثر من أن تكون « كل الأشياء لكل الناس » .

والراجح أن بولس قام برحلته التبشيرية الثانية فى عام ٥٠ من التاريخ الميلادى . وكان قد اختلف مع برنابا الذى اختفى وقتئذ فى موطنه بجزيرة قبرص

ولم يعد له ذكر فى التاريخ . وعاد بولس يزور مرة أخرى بنى ملته فى آسية الصغرى ، وضم إليه فى لسترا تلميذاً يدعى تيموثاوس أحبه من كل قلبه الذى ظل منذ زمن طويل متعطشا إلى من يحب . وسافرا معا واجتازا فريجيا وغلاطية حتى وصلا شمالا إلى اسكندرية ترواس ؛ وفيها تعرف بولس بلوقا وهو ممن اعتنقوا اليهودية من غير المختتنين ؛ وكان لوقا رجلا طيب القلب كبير العقل وهو فى أكبر الظن صاحب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل — وهما السفران اللذان خففا من حدة النزاع الذى امتاز به تاريخ المسيحية منذ بدايته . ثم أبحر بولس وتيموثاوس ومساعد آخر يدعى سيلاس من ترواس إلى مقدونية ، ووطئت أقدامهم لأول مرة أرضا أوربية . فلما وصلا إلى فلبى ، وهى المكان الذى هزم فيه أنطونيوس بروتس قبض عليهما بتهمة تكدير السلام ، وجلدا ، وزجا فى السجن ، ثم أطلق سراحهما حين عرف أنهما مواطنان رومانيان . وانتقلا من فلبى إلى تسالونيكى (سالونيك) ، وفيها دخل بولس المجمع وظل ثلاثة أسبات يخطب فى اليهود . فآمن بدعوته عدد قليل منهم ، وأسسوا فيها كنيسة لهم ، وأثار غيرهم أهل المدينة عليه واتهموه بأنه يدعو لملك جديد ، واضطر أصدقاؤه أن يخرجوه خلسة إلى بيريه فى أثناء الليل . وهناك تقبل اليهود الدعوة بقبول حسن ، ولكن أهل تسالونيكى جاءوا يتهمون بولس بأنه عدو لليهودية ، فأقلع منها إلى أثينة على ظهر سفينة (٥١ ؟) وحيداً كسير القلب كاسف البال .

وهنا فى قلب الديانة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألفى نفسه بلا صديق ، ولم يكن فى هذا البلد إلا عدد قليل من اليهود الذين يستمعون إلى مواعظه . وكان عليه أن يقف بين الناس فى السوق العامة كما يفعل أى خطيب حديث يريد أن يتحدث إلى الجماهير ، وينافس عشرات الخطباء فى إيصال دعوته إلى آذان المارة . وكان بعض من يستمعون إليه يناقشونه فيما يقول ، وبعضهم الآخر يسخرون منه ويسألون : « ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول ؟ »[٣٧] : وأظهر عدد من

الناس اهتماما بقوله ، وأخذوه إلى الأريوبجس أو أكمة المريخ ليجد مكانا أهدأ من السوق العامة يسمع الناس فيه صوته . وقال لهم إنه رأى فى أثينة مذبحا نقش عليه « لإله مجهول » . وأكبر الظن أن هذا النقش كان يعبر عن رغبة من نقشوه فى التسبيح بحمد إله لا يعرفون اسمه على وجه التحقيق ، أو فى استرضاء هذا الإله ، أو طلب معونته ؛ ولكن بولس فسره بأنه اعتراف منهم بجهلهم كنه الله ، ثم أضاف إلى ذلك هذه الأقوال البليغة : « فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه ، هذا أنا أنادى لكم به ، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، هذا إذاً هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى . . . هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء . . . وصنع من دم واحد كل أمة من الناس . . . لكى يطلبوا الله لعلهم يلتمسونه فيجدونه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضاً(*) ، لأننا أيضا ذريته ، فإذاً نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان . فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضيا عن أزمنة الجهل ، لأنه أقام يوما هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدما للجميع إيمانا إذ أقامه من الأموات »[٣٨] .

ولقد كانت جرأة منه أن يحاول التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية(**) ومع هذا فإنه لم يتأثر بهذه المحاولة إلا عدد قليل ؛ ذلك أن ما سمعه الأثينيون من الآراء قبل ذلك الوقت قد بلغ من الكثرة ما يحول بينهم وبين التحمس لما يلقى إليهم منها أياً كان شأنه . وغادر بولس المدينة يائسا وذهب إلى كورنثة ، وكانت التجارة قد جمعت فيها جالية كبيرة من

(*) ينقل بولس هذه العبارة من « ترنيمة زيوس » لكلينثيز أو من فينومينا لأراتس Aratus' phainom'na

(**) لعل من واجبنا أن نعزو هذه الخطبة إلى مؤلف سفر أعمال الرسل المتأدب بأدب اليونان .

اليهود . وأقام فى هذه المدينة ثمانية عشر شهراً (٥١ — ٥٢ ؟ م) يكسب فيها قوته بصنع الخيام ويخطب كل سبت فى كنيسها . وأفلح فى هداية رئيس الكنيس ، وعدد غيره من الأفراد بلغ من الكثرة حداً ارتاع له اليهود فاتهموا بولس أمام غاليون Gallio الحاكم الرومانى بأنه يستميل « الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس » . فأجابهم غاليون بقوله : « إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء ، وناموسكم ، فتبصرون أنتم ، لأنى لست أشاء أن أكون قاضيا لهذه الأمور » ، ثم طردهم من المحكمة . وأخذت الطائفتان تتضاربان « ولكن لم يهم غاليون شىء من ذلك »[٣٩] . وعرض بولس الإنجيل على غير اليهود من أهل كورنثة ودخل كثيرون منهم فى دينه ، ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية ، التى طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم ، ولعلهم حين قبلوها قد مزجوها بتلك العقائد القديمة ، وأثروا فى بولس فجعلوه يفسر المسيحية تفسيراً يألفه العقل الهلنستى .

ثم انتقل بولس من كورنثه إلى أورشليم (٥٣ ؟) ليسلم على الإخوة . ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى بدأ سفرته التبشيرية الثالثة ، وزار فيها الجاليات المسيحية فى أنطاكية وآسية الصغرى ، وبعث فيهم القوة والعزيمة بحماسته وثقته . وقضى فى إفسوس عامين ، وأتى فيها بأمثال عجيبة جعلت كثيرين من الناس يعتقدون أنه صانع معجزات ، وحاولوا أن يشفوا مرضاهم بلمس الأثواب التى لبسها ، ووجد صانعو التماثيل التى كان عابدو الأوثان يضعونها فى هيكل أرطيس أن تجارتهم كسدت ، ولعل بولس قد أعاد هنا ما أعلنه فى أثينة من تشهير بعابدى الصور أو الوثنيين . وقام رجل يدعى دمتريوس ممن كانوا يصنعون نماذج من فضة للضريح العظيم ليتبرك بها الحجاج الصالحون ، قام هذا الرجل بتنظيم مظاهرة احتجاج على بولس والدين الجديد ، وسار على رأس جماعة من اليونان إلى ملهى

المدينة ، وظلوا ساعتين كاملتين ينادون : « عظيمة هى أرطيس الإفسيسيين ! »
وأفلح أحد موظفى المدينة فى تفريق هذا الجمع الحاشد ، ولكن بولس رأى
من الحكمة أن يغادرها إلى مقدونية

وقضى بضعة أشهر سعيداً وسط الجماعات التى أوجدها فى فلپى ،
وتسالونيكى وبيريه . ولما سمع أن الانشقاق والفساد أخذا يفتنان فى عضد
الإخوة فى كورنثة لم يكتف بلومهم الشديد فى عدة رسائل بعث بها إليهم ،
بل انتقل إليهم بنفسه (٥٦ ؟) ليواجه من كانوا يذمونه ويفترون عليه :
وكانوا قد ادعوا أنه يستفيد ماديا من عظاته ، ويسخرون من الرؤى التى
كان يحدثهم عنها ، وطلبوا من جديد أن يتمسك المسيحيون جميعاً بالشريعة
اليهودية . فأخذ بولس يذكر الإخوة الثائرين أنه كان حيثما حل يكسب
قوته بعمل يديه ، وأما الكسب المادى فقد سألهم هل يعرفون ما عاد عليه
من أسفاره — لقد جلد سبع مرات ، ورجم مرة ، وتحطمت به السفينة
ثلاث مرات ، وتعرض لمئات الأخطار من اللصوص ، والوطنيين المتحمسين ،
والغرق فى الأنهار(٤٠) . وترامى إليه وهو فى هذه المحنة أن « جماعة المختتنين »
قد نقضوا ، على ما يبدو ، اتفاق أورشليم وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى
جميع المهتدين أن يطيعوا الشريعة اليهودية إطاعة كاملة . فما كان منه إلا أن
كتب إلى أهـــل غلاطية رسالة تفيض بالغضب ، انفصل بها نهائيا عن
المسيحيين المتهودين ، وأعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة
موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله . ثم سافر إلى أورشليم ،
وهو لا يعلم ماذا ينتظره فيها من محن وبلايا أشد ، ليدفع عن نفسه أمام
الرسل ، وليحتفل فى المدينة المقدسة بعيد العنصرة القديم . وكان يرجو أن
يسافر من أورشليم إلى رومة ، وإلى أسبانيا نفسها ، ولا يستريح حتى تسمع
كل ولاية من ولايات الإمبراطورية بأخبار المسيح الذى قام من بين الموتى
وبما وعد به أتباعه الصالحين .

٣ – العالم الدينى

واستقبله زعماء الكنيسة الكبرى « أحسن استقبال » (٥٧ ؟) ولكنهم حين اختلوا به حذروه بأن قالوا له : « أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعاً غيورون للناموس ، وقد أخبروا عنك أنك تعلّم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلا ألا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد . . . سيسمعون أنك قد جئت ، فافعل هـذا الذى نقول لك . عندنا أربعة رجال عليهم نذر . خذ هؤلاء وتطهر معهم وأنفق عليهم ، فسيعلم الجميع أن ليس شيء مما أخبروا عنك . بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس »[٤١] .

وتقبّل بولس النصيحة راضيا ، وأجرى طقوس التطهير ، ولكن بعض اليهود رأوه فى الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين إنه « هو الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضداً للشعب والناموس » . وقبض عليه نفر من الغوغاء ، وجرّوه خارج الهيكل « وبينما هم يطلبون أن يقتلوه » إذ أقبلت كتيبة رومانيه وأنقذته من القتل بأن قبضت عليه . والتفت بولس ليتحدث إلى الجماهير وأكد لهم أنه يهودى ومسيحى . فنادوا بقتله ، فأمر الضابط الرومانى بجلده ، ولكنه ألغى الأمر حين علم أن بولس يتمتع بحق المواطنية الرومانية . وجىء بالسجين فى اليوم الثانى أمام السنهدرين ، فخاطب بولس المجلس وأعلن أنه فريسى ، ونال بذلك بعض التأييد ، ولكن أعـداءه المهتاجين حاولوا مرة أخرى أن يعتدوا عليه ، فأخذه الضابط إلى الثكنات . وجاءه فى تلك الليلة ابن أخت له يحذره ويقول له إن أربعين من اليهود قد أقسموا ألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقتلوه . وخشى الضابط أن يحدث فى المدينة اضطراب يضر به ، فأرسل بولس ليلا إلى فيلكس والى قيصرية .

وجاء رئيس الكهنة ومعه بعض الشيوخ من بيت المقدس إلى قيصرية بعد

خمسة أيام من ذلك الوقت وقالوا إنهم وجدوا بولس « مفسداً ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة » . وأقر بولس أنه يدعو إلى دين جديد ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يؤمن « بكل ما هو مكتوب فى الناموس » . فما كان من فيلكس إلا أن طرد الشاكين ، ولكنه مع ذلك أبقى بولس تحت الحراسة ومنع أحداً من أصحابه أن يأتى إليه . وبقى بولس على هذه الحال عامين كاملين (٥٨ — ٦٠ ؟) ، ولعل فيلكس كان يرجو أن يحصل على رشوة طيبة .

ولما عين فستوس والياً بعد فيلكس عرض أن يحاكم بولس أمامه فى دمشق ، ولكن بولس خشى هذا الجو المهتاج فلجأ إلى ما له من حق بوصفه مواطناً رومانيا ، وطلب أن يحاكم أمام الإمبراطور نفسه . وبينما كان الملك أغرباس (أجربا) ماراً بقيصرية أذن له بالمثول بين يديه مرة أخرى وحكم عليه بأن علمه الكثير قد جعله يهذى ولكنه فيما عدا هذا برىء . وقال أغرباس إنه « كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر » . وأركب بولس سفينة تجارية سافرت به على مهل ، وقضت فى البحر زمناً طويلا صادفتها فى أثنائه عاصفة شتوية قبل أن تصل إلى إيطاليا . ويقال إن العاصفة دامت أربعة عشر يوما ضرب فيها بولس للبحارة والمسافرين مثلا طيباً مشجعاً للرجل الذى يسمو على الموت ، الواثق من النجاة . وتحطمت السفينة على صخور مالطة ، ولكن من عليها جميعاً نجوا بالسباحة إلى الشاطئ . وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة وصل بولس إلى إيطاليا .

وعامله ولاة الأمور الرومان برفق ، وانتظروا حتى يأتى الشاكون من فلسطين ، وحتى يجد نيرون متسعا من الوقت يستمع فيه إلى قضيته . وسمح له أن يعيش فى بيت يختاره هو لنفسه ، وأن يوكل جندى بحراسته . ولم يكن فى مقدوره أن يتنقل فى المدينة بكامل حريته ، ولكنه كان يستطيع استقبال كل من يشاء . ولهذا دعا زعماء اليهود فى رومة أن يوافوه فى المنزل الذى يقيم فيه ، فجاءوا

واستمعوا إليه وهم صابرون ، ولكنهم لما رأوا أنه لا يعتقد بأن مراعاة الناموس اليهودى ضرورية للنجاة ، تولوا عنه ، فقد كان يبدو لهم أن الناموس هو عماد الحياة اليهودية وسلواها اللذان لا غنى لها عنهما . وناداهم بولس قائلا : « فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون ! »[٤٢] وغضبت الجالية المسيحية التى وجدها فى رومة من موقفه هذا كما غضب منه اليهود . ذلك أن هؤلاء الإخوان وجلهم من اليهود كانوا يفضلون المسيحية التى جاءت إليهم من أورشليم ، فكانوا يختتنون ، وكانت رومة لا تكاد تفرق بينهم وبين اليهود الأصليين . ورحب هؤلاء ببطرس ولكنهم قابلوا بولس بفتور ؛ واستطاع أن يهدى بعض سكان رومة من غير اليهود ، ومن بينهم بعض ذوى المناصب الكبرى ، ولكنه ضاق ذرعا بوحدته فى سجنه وأحس بوطأة القيود المفروضة عليه .

وكان يجد بعض السلوى فيما يبعث به من رسائل طويلة رقيقة إلى أتباعه البعيدين عنه ، وكان قد قضى عشر سنين يكتب مثل هذه الرسائل ، وما من شك فى أن مجموعها يزيد كثيراً على العشر التى وصلتنا منسوبة إليه(*) . ولم يكن يكتبها هو بقلمه ، بل كان يمليها ، وكثيراً ما يضيف إليها حاشية بخط يده غير الأنيق ويبدو أنه تركها دون أن يراجعها ، تركها بكل ما فيها من تكرار وغموض وخطأ نحوى . ولكن ما فيها من شعور عميق يفيض بالإخلاص ، وغيرة وغضبة قوية للقضية الكبرى التى وهب حياته للدفاع عنها ، وكثرة ما فيها من أقوال نبيلة رائعة ، كل هذا قد جعلها أقوى وأبلغ ما كتب من الرسائل فى أدب العالم كله ؛ وإن ما فى أدب شيشرون من سحر ليبدو ضئيلا إذا قيس إلى ما فيها من إيمان قوى فياض . فهى تشتمل على ألفاظ حب قوية

(*) وفى وسعنا أن نعد الرسائل الموجهة إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، ورومية من رسائله بحق ؛ وأن نرجح أن الرسائل الموجهة إلى أهل تسالونيكى ، وفيلبى ، وكولوسى ، وفليمون هى أيضاً له ؛ بل إن الرسالة الموجهة إلى أهل إفسوس نفسها قد تكون أيضاً من رسائله .

ينطق بها رجل كانت كنائسه في منزلة أبنائه الذين يحميهم ويرد عنهم الأذى بأعظم ما يستطيع من قوة ، وفيها هجوم عنيف على أعدائه الذين لا حصر لهم ، وتأنيب شديد للمذنبين والمارقين ، والخصيمين الساعين إلى التفرقة ؛ ولا يخلو جزء منها من إنذار ونصح رحيم رقيق « وكونوا شاكرين ، لتكن فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب »[٤٤] وهاهي ذي كلمات كبيرة يرددها العالم المسيحي كله ويعتز بها : « الحرف يقتل ، ولكن الروح يحيي »[٤٥] ، « المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة »[٤٦] ، « كل شيء طاهر للطاهرين »[٤٧] . محبة المال أصل لكل الشرور »[٤٨] . وهاهي ذي اعترافات صريحة منه بعيوبه بل بريائه الشبيه برياء رجال السياسة :

« استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس . . . لأربح الذين بلا ناموس . . . صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكا فيه »[٤٩] .

وقد احتفظت بهذه الرسائل الجماعات التي وجهت إليها وكثيراً ما كانت تتلوها على الناس جهرة ، ولم يكد يختتم القرن الأول حتى كان الكثير منها معروفا وواسع الانتشار ؛ فهاهو ذا كلمنت الروماني يشير إليها في عام ٩٧ ، ويشير إليها أيضا بعد قليل من ذلك الوقت كل من أجناسيوس Ignatius وپوليكارب Polycarp ؛ ولم تلبث أن دخلت في أخص خصائص اللاهوت المسيحي . ولقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح . وكانت العوامل التي أوحت إليه بالأسس التي أقام عليها ذلك اللاهوت هي انقباض نفسه ، وندمه ، والصورة التي استحال إليها المسيح في خياله ، ولعله قد

تأثر بنبذ الأفلاطونية والرواقية للمادة وَالجسم واعتبارهما شَراً وخبثاً ؛ ولعله تذكر السُّنة اليهودية والوثنية سنة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس :
أما هذه الأسس فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم ، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته(*)(٥٠).
وتلك فكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود . ولقد كانت مصر ، وآسية الصغرى ، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد — تؤمن بأوزريس ، وأتيس وديونيشس — التى ماتت لتفتدى بموتها بنى الإنسان . وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثريوس Eleutherios (المنجى) تطلق على هذه الآلهة ، وكان لفظ كريوس Kyrios (الرب) الذى سمى به بولس المسيح هو اللفظ الذى تطلقه الطقوس اليونانية - السورية على ديونيشس الميت المفتدى[٥٢] ، ولم يكن فى وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية ، الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه ، أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين ، ولهذا ناداهم بولس بقوله : « هو ذا سر أقوله لكم » [٥٣] .

وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت الشعبى المؤمى بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار سفر الحكمة ، وفلسفة فليمون . من ذلك قول بولس إن المسيح هو « حكمة الله »[٥٤] و « ابن الله الأول » بكر كل خليقة ،

(*) لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين ، والموابيين ، والفينيقيين ، والقرطاجنين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل ، بل بطفل محبوب ، لاسترضاء السماء الغضبى . ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل مجرم محكوم عليه بالإعدام . وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثوابا ملكية ، لكى يمثل بها ابن الملك ، ثم تجلد وتشنق . وكان هذا نفسه يحدث فى رودس فى عيد كرونس . وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنية . وفى ذلك يقول فريزر Frazer « وفى يوم الكفارة كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى ، ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ؛ حتى إذا ما حمل الحيوان خطايا الشعب على هذا النحو أطلقه فى البرية »[٥١] .

فإنه فيه خلق الكل . . . الكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل »[٥٥] ، وليس هو المسيح المنتظر (المسيا) اليهودى ، الذى سينجى إسرائيل من الأسر ، بل هو الكلمة الذى سينجى الناس كلهم بموته . وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع الواقعة وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة ، واستطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين ، الذين لم يكونوا يجارونه فى آرائه الميتافيزيقية . لقد كان فى وسعه أن يخلع على حياة المسيح وعلى حياة الإنسان نفسه أدوارا عليا فى مسرحية فخمة تشمل النفوس على بكرة أبيها والأبدية بأجمعها . وكان فى وسعه فوق هذا أن يجيب عن الأسئلة المربكة أسئلة الذين قالوا إنه إذا كان المسيح إلها حقاً فلم رضى أن يقتل فقال : إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذى استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم . فكان لا بد أن يموت ليحطم أغلال الموت ، ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله .

ويقول بولس إن عاملين اثنين يقرران من سوف ينجيهم موت المسيح وهما اختيار الله والإيمان المصحوب بالتواضع . فالله يختار من بداية العالم إلى نهايته من ينالون نعمته ورضوانه ومن تحل بهم نقمته[٥٦] . ومع هذا فقد نشط بولس فى تقوية إيمان الناس حتى يكون إيمانهم هذا سبيلا إلى نيل رضاء الله . وقال : إن الروح لا تستطيع أن تحس بذلك التبدل العميق الذى يخلق صاحبها خلقاً جديداً ، ويوحد بين المؤمن وبين المسيح ، ويمكنه من الاشتراك فى ثمار موته . ويقول بولس إن الأعمال الطيبة ، وإطاعة كل ما جاء فى أوامر الشريعة اليهودية البالغ عددها ٦١٣ أمراً ، لا يكفيان للنجاة ، لأن هذه الأعمال وتلك الطاعة لا تستطيع أن تبدل طبيعة الإنسان أو أن تطهر النفس من الذنوب . لقد اختتم عهد الناموس بموت المسيح ، ووجب ألا يكون الآن يهودى ويونانى ، أو عبد وحر ، أو ذكر وأنثى « لأنكم جميعا واحد فى المسيح »[٥٨] . لكن بولس لم يمل قط من أن يغرس

فى قلوب الناس فائدة العمل الطيب مقترناً بالإيمان ؛ وإن أشهر ما قيل من العبارات عن الحب نفسه لهى ألفاظه هو :

إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجا يرن ، وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم ، وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ، ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً ؛ وإن أطعمت كل أموالى ، وإن سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً ، المحبة تتأنى وتترفق ، المحبة لا تحسد ، المحبة لا تتفاخر . . . ولا تطلب ما لنفسها . . . وتحتمل كل شيء . . . أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة »[٥٩] .

أما الحب الجنسي فيجيزه بولس ، ولكنه لا يشجعه مطلقاً . ومن أقواله فقرة توصى[٦٠] . ولكنها لا تثبت أنه قد تزوج : « ألَعَلَّنا (هو وبرنابا) ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل وإخوة الرب وصفا ؟ » ولكنه فى فقرة أخرى يسمى نفسه عزبا[٦١] . وكان يشبه يسوع فى تجرده من الشهوات الجسمية[٦٢] ، ولقد روع حين سمع بالشذوذ الجنسى بين الإناث والذكور[٦٣] . وسأل أهل كورنثه قائلا : « أولستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم . . فمجدوا الله فى أجسادكم »[٦٤] ، وعنده أن بقاء البنات عذارى خير من الزواج ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق « وزواج المطلقين والمطلقات حرام ، إلا إذا كان المطلق زوجا لامرأة غير مؤمنة أو كانت المطلقة زوجة لغير مؤمن فإن لها بعد الطلاق أن يتزوجا . وعلى المرأة أن تطيع زوجها ، وعلى العبد أن يطيع سيده « الدعوة التى دعى فيها كل واحد (أى اعتنق المسيحية) فليلبث فيها ، دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرا فاستعملها بالحرى ، لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب ، كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح »[٦٥] .

ذلك أن الحرية والاسترقاق لم يكن لهما شأن يذكر إذا كان العالم قريبا من نهايته . ولهذا السبب عينه لم يكن للحرية القومية شأن كبير « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله »(٦٠) . لقد كان خليقاً بروحة ألا تقضى على فيلسوف مجامل طيع إلى هذا الحد .

٤ — الشهيد

تقول الرسالة الثانية المشكوك فيها والموجهة إلى تيموثاوس : « بادر أن تجيء إلىّ سريعاً لأن ديماس قد تركني ، إذ أحب العالم الحاضر . . . وكريسكيس وتيطس . . . لوقا وحده معي . . . في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي ، بل الجميع تركوني . . . ولكن الرب وقف معي وقوّاني لكي تتم بيّ الكرازة ويسمع جميع الأمم ، فأنقذت من فم الأسد . . . فإني أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر : قد جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعي ، حفظت الإيمان »(٦٦) ؟

لقد كان في حديثه شجاعاً جريئاً . وتقول إحدى الروايات القديمة إنه أطلق من السجن ، وإنه سافر إلى آسية وأسبانيا ، وعاد منهما إلى الدعوة ، وألقى نفسه مرة أخرى سجيناً في رومة . ولكن أكبر الظن أنه لم يحرر . لقد كان بلا زوجة تؤنسه أو ولد يسليه ، وقد فارقه جميع أصدقائه إلا واحداً منهم ، فلم يبق له نصير إلا إيمانه القوى ، ولعل هذا الإيمان أيضاً قد تزعزع . ولقد كان يعيش كما يعيش غيره من المسيحيين في ذلك العصر مؤملا أن يشهد عودة المسيح ، وكان قد كتب إلى أهل فلبي يقول : « ننتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح . . . الرب قريب » ، وقال إلى أهل كورنثة : « الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . . . والذين يشترون كأنهم لا يملكون . . . لأن هيئة هذا العالم تزول . . . ماران أثا ، المسيح معكم »(٦٨) . لكنه في رسالته الثانية لأهل

تسالونيكى لامهم لأنهم يهملون شئون العالم انتظاراً لقرب مجىء المسيح ، وقال إنه « لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولا ويُستعلَن إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهراً نفسه أنه إله »[٦٩] .

ويبدو لنا من رسائله الأخيرة أنه حاول فى أثناء سجنه أن يوفق بين عقيدته الأولى وبين تأخر مجىء المسيح للمرة الثانية ، وأخذ يضع أمله فى أن يراه بعد أن يموت ، وجعل سلواه ذلك التوفيق العظيم بين العقيدتين الذى أنجى المسيحية — وهو استبدال الأمل فى الاتحاد بالمسيح فى السماء بعد الموت بالعقيدة الأولى عقيدة عودة المسيح إلى هذه الأرض » . ويبدو أنه حوكم مرة أخرى وأدين ؛ وأن الحاكم السياسى وقف مع الرسول الدينى وجهاً لوجه ، وتغلب أولهما على الثانى . ولسنا نعرف حقيقة التهمة التى وجهت إليه ، وأكبر الظن أنه اتهم فى هذه المرة بما اتهم به هو وزملاؤه فى تسالونيكى وهو أنهم « يعملون ضد أحكام قيصر قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع »[٧٠] ؛ وكانت هذه جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وليس لدينا سجل قديم لهذه المحاكمة ، ولكن ترتليان — وقد كتب بعد مائتى عام من وقوعها — يقول إن « بولس استشهد فى رومة فى عهد نيرون »[٧١] . ونرجح أنه وهو مواطن رومانى قد كرم بأن قتل بمفرده ، فلم يختلط بالمسيحيين الذين صلبوا بعد حريق عام ٦٤ ؛

وتقول إحدى الروايات إنه هو وبطرس استشهدا فى وقت واحد وإن كان كلاهما قد استشهد منفرداً ؛ وتصور إحدى القصص المؤثرة هذين الرجلين المتنافسين يرتبطان برباط الصداقة حين يلتقيان فى طريقهما إلى الموت . وقد شيد له فى القرن الثالث ضريح فى موضع على طريق أستيا **Ostia** يعتقد رجال الدين أن بولس أسلم فيه الروح . وجدد هذا الضريح أكثر من مرّة بعد ذلك الوقت ، وكان كلما جدد يزداد رونقاً وفخامة حتى أصبح الآن هو الباسلقا الشهيرة المعروفة باسم « القديس بولس وراء الجدران **San Paols fuori le Mura** »

ذلك رمز خليق بنصره . لقد مات الإمبراطور الذى قضى بإعدامه ميتة الجبناء ، وسرعان ما زال من الوجود كل أثر لأعماله التى أسرف فى إقامتها أيما إسراف ، أما بولس المغلوب على أمره فهو الذى شاد صرح المسيحية الدينى ، كما أنه هو وبطرس وضعا نظام الكنيسة العجيب . لقد عثر بولس فى خبايا الشريعة اليهودية على حلم يصوّر لليهود فلسفة الحشر والنشر ، فحرره ووسّع نطاقه ، وجعله عقيدة ذات قوة تستطيع أن تحرك العالم بأسره ، واستطاع بصبره الشبيه بصبر رجال السياسة أن يمزج مبادئ اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ؛ وأوجد طقوساً خفية جديدة ووضع مسرحية للحشر جديدة استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات تصور هذه العقيدة ، وعاشت بعدها كلها ، وأحل العقيدة محل العمل فى اختبار الفضيلة ، وكان من هـــذه الناحية بداية العصور الوسطى . ولسنا ننكر أن هذا كان تغييراً يؤسف له كل الأسف ، ولكن لعل الإنسانية هى التى شاءت أن يكون ؛ ذلك أن الذين يستطيعون أن يحذوا حذو المسيح هم أقلية من القديسين . ولكن نفوسا كثيرة قـــد تستطيع أن تسمو بآمالها فى الحياة الخالدة إلى مستوى رفيع من الإيمان والشجاعة .

ولم يشعر معاصرو بولس بأثره فى التو والساعة ، لأن الجماعات التى أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى فى بحر الوثنية الواسع الخضم ، ولأن كنيسة رومة كانت من صنع بطرس وبقيت وفيّة لذكراه ، ومن أجل هذا ظل بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان . فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين ، وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف ذكراها فى الأذهان ، وأخذ العقل المسيحى يضطرب بمئات من عقائد الزيغ والضلال ؛ لما حدث هذا أضحت رسائل بولس إطاراً لمجموعة من العقائد أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً وألفت منها كنيسة واحدة قوية .

ومع هذا كله بقى الرجل الذى فصـــل المسيحية عن اليهودية من حيث

الجوهر والأساس يهوديا فى قوة خلقه ، وصرامة مبادئه ؛ ولما أن أراد رجال العصور الوسطى الدينيون أن يجعلوا الوثنيـــة كثلكة براقة لم يجدوا ما يتفق مع هذه النزعة ، فلم يقيموا له إلا قليلا من الكنائس ، وقلما كانوا يقيمون له تمثالا أو ينطقون باسمه ؛ ومرت خمسة عشر قرنا من الزمان قبل أن يجعل لوثر بولس رسول الإصلاح الدينى ، ويجد فيـــه كلفن Calvin النصوص القائمة التى أخذ عنها عقيدته الجبرية . وبهذا كانت البروتستنتية نصراً لبولس على بطرس ، وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لبولس على المسيح .

الفصل الثالث

يوحنا

لقد شاءت أحداث التاريخ المفاجئة أن تنقل إلينا بولس فى صورة واضحة جلية إذا قيست إلى صورة غيره من رسل المسيح ، وأن تترك صورة يوحنا فى خفاء وغموض . ولقد انحدر إلينا مؤلفان كبيران مقرونان باسمه فضلا عن رسائل ثلاث . ويحاول النقاد أن يرجعوا سفر الرؤيا إلى عام ٦٩ – ٧٠(٧٢) ؛ ويعزوه إلى يوحنا آخر هو يوحنا « اللاهوتى » الذى ذكره پپياس Papias (١٣٥)(٧٣) . أما چستن مارتن Justin Martin (١٣٥) فيعزو هذا السفر القوى إلى الرسول « المحبوب »(٧٤) . لكن يوزبيوس ذكر من عهد بعيد يرجع إلى القرن الرابع أن بعض العلماء يشكون فى صحة نسبته إليه . وما من شك فى أن صاحب هذا السفر كان رجلا ذا مكانة عظيمة لأنه يخاطب كنائس آسية بلهجة المهدد صاحب السلطان . فإذا كان كاتبه هو الرسول نفسه (وسنظل نفترض مؤقتا أنه هو) ، فإن فى مقدورنا أن نفهم سبب تسميته : كما سمى أخوه يعقوب ، باسم بوانرجس Boanerges أى ابن الرعد . وكانت إفسوس ، وأزمير ، وپرغامس ، وسارديس وغيرها من مدن آسية الصغرى تنظر إلى يوحنا لا إلى بطرس أو بولس على أنه رئيس الكنيسة الأعلى . وتقول الروايات التى ينقلها يوزبيوس(٧٤) إن دومتيان نفى يوحنا إلى بطمس Patmos وإنه كتب فى هذه الجزيرة من جزائر بحر إيجه الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا . وقد عمر يوحنا طويلا حتى قال الناس إنه مخلد .

ويشبه سفر الرؤيا سفرى دانيال وأخنوخ من حيث الشكل . ولقد كانت رؤى النبوءات الرمزية أحد الأساليب التى يلجأ إليها يهود ذلك العصر فى كثير من الأحوال ؛ ووجدت رؤى أخرى غير رؤى يوحنا ، ولكن

هذا السفر سما عليها جميعاً فى بلاغته الجذابة . ويستند الكاتب إلى العقيدة الشائعة التى تقول إن حلول ملكوت الله يسبقه حكم الشيطان ، وانتشار الشرور والآثام ، فيصف حكم نيرون بأنه هو بعينه عهد الشيطان ، ويقول إنه لما خرج الشيطان وأتباعه على الله غلبتهم الملائكة جيوش ميخائيل ، وقذفت بهم إلى الأرض فقادت العالم الوثنى فى هجومه على المسيحية . ونيرون هو الوحش وعدو المسيح فى هذا الكتاب فهو مسيح من عند الشيطان ، كما أن يسوع مسيح من قبل الله . ويصف رومة بأنها « الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض » ، « وسكر سكان الأرض من خمر زناها » وهى « زانية بابل » مصدر جميع الظلم والفساد ، والفسق والوثنية ، ومركزها وقمتها . هنالك ترى القياصرة المجدفين المتعطشين للدماء ، يطلبون إلى الناس أن يخصوهم بالعبادة التى يحتفظ بها المسيحيون للمسيح .

ويبصر المؤلف فى عدة رؤى متتابعة ما سوف يحل برومة وبالإمبراطورية من ضروب العقاب . سترسل عليها أسراب من الجراد تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين عدا المائة ألف والأربعة والأربعين ألفاً من اليهود الذين يحملون على جباههم خاتم المسيحية[٧٧] . وتأتى ملائكة أخرى فتصب سبع قوارير من غضب الله على الأرض ، فيصاب الناس بقروح شديدة ، ويتحول البحر إلى دم كدم الميت يموت منه كل ما فى البحر من الكائنات الحية . ويطلق ملك آخر حرارة الشمس بأجمعها على الذين لم يتوبوا ، ويلف ملك غيره الأرض فى ظلام دامس ؛ ويقود أربعة من الملائكة ضعفى عشرة آلاف مرة عشرة آلاف من الفرسان يذبحون ثلث أهل الأض ، ويخرج أربعة فرسان يقتلون الناس « بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض »[٧٨] . ويحدث زلزال تندك منه الأرض ؛ وتسقط قطع ضخمة من البرد على من بقى من الكفار ، وتدمر رومة تدميرا تاما . ويجتمع ملوك الأرض ليقفوا وقفتهم الأخيرة فى وجه الله ،

ولكنهم يموتون عن آخرهم ، ويلقى بالشيطان وأتباعه إلى الجحيم بعد أن يمنوا بالهزيمة فى كل مكان . ولن ينجو من هذه الكارثة إلا المسيحيون الصادقون ؛ والذين عذبوا من أجل المسيح ، والذين غسلوا فى دم الخروف(٧٩) سيجزون الجزاء الأوفى » .

ثم يطلق الشيطان بعد ألف عام ليفترس بنى الإنسان ، وتعود الخطيئة فتفشو مرة أخرى فى عالم خال من الإيمان ، وتبذل قوى الشر آخر جهدها لتفسد عمل الله . ولكنها تغلب مرة أخرى ، ويلقى بالشيطان وأتباعه هذه المرة فى الجحيم حيث يبقون جميعاً إلى أبد الدهر . ثم يحل يوم الحساب الأخير فيقوم الموتى جميعاً من القبور ، ويخرج الغرقى من البحار . وفى ذلك اليوم الرهيب « يلقى فى البحيرة المتقدة بنار كبريت » كل « من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة »(٨٠) ، ويجتمع المؤمنون ليأكلوا « لحوم ملوك ، ولحوم قواد ، ولحوم أقوياء ... ولحوم الكل حرا وعبدا ، صغيرا وكبيراً »(٨١) ، ممن لم يبالوا بدعوة المسيح . وستقوم سماء الله مهيأة لتكون جنة على الأرض ، وستكون أساساتها من الحجارة الكريمة ، ومبانيها من فضة أو ذهب شبه زجاج نقى ، وسورها يشب ، وكل باب من أبوابها الاثنى عشر لؤلؤة واحدة ، وسيجرى فيها نهر صاف من ماء حياة تنمو على ضفته « شجرة حياة » . ويقضى على حكم الشر إلى أبد الدهر ، ويرث الأرض مَن يؤمنون بالمسيح ، « والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزن ، ولا صراخ ، ولا وجع فيما بعد »(٨٢) .

وقد كان لسفر الرؤيا أثر عاجل عميق دائم ، وكان ما تنبأ به من نجاة للمؤمنين الصادقين ومن عذاب لأعدائهم هو الدعامة القوية التى حفظت حياة الكنيسة فى عصور الاضطهاد . كذلك كانت فكرة العهد السعيد سلوى أولئك الذين أحزنهم طول انتظارهم عودة المسيح وسرى ما فيه من صور واضحة وعبارات مشرقة فى أقوال العالم المسيحى الشعبية والأدبية ، وظل الناس تسعة عشر قرناً

يفسرون حوادث التاريخ على أنها تحقيق لما فيه من رؤى ، ولا يزال يضفى لونه القاتم ومذاقه المرّ على عقيدة المسيح فى بعض البقاع النائية عن عالم الرجل الأبيض .

وقد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب سِفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع . ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودى وأن الإنجيل فلسفة يونانية ؛ ولعل الرسول كتب تلك الرؤى فى سورة الغضب التى أعقبت اضطهاد نيرون وكان لها من هذا الاضطهاد ما يبررها ، ثم كتب الإنجيل فى أيام نضجه وشيخوخته ونزعته الميتافيزيقية (٩٠ ؟ م) . وربما كانت ذكرياته عن السيد المسيح قد ذهب بعضها إن كان فى وسع الإنسان أن ينسى ذكريات المسيح ؛ وما من شك فى أنه قد سمع فى الجزائر والمدائن الأيونية أصداء كثيرة للتصوف اليونانى والفلسفة اليونانية . وكان بطليموس من قبله قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة إن « أفكار الله » هى النمط الذى شكلت بمقتضاه الأشياء كلها ؛ ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار فى عبارتهم المعروفة *فكرة الله المخصبة* . ثم جسد الفيثاغوريون الجـــدد هذه الأفكار فجعلوها شخصا قدسيا ، ثم استحالت على يد فيلون إلى *عقل الله* أى إلى عنصر قدسى ثان ، به يخلق الله الخلق ويتصل بالعالم .

وإذا ما ذكرنا كل هذا ونحن نقرأ بداية الإنجيل الرابع الذائعة الصيت ، واستبقينا لفظ Logos اليونانى بدل ترجمته الإنجليزية Word (أو العربية كلمة) أدركنا من فورنا أن يوحنا قد انضم إلى الفلاسفة :

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . . .
كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان ؛ فيه كانت الحياة ،
والحياة كانت نور الناس . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا » .

وإذ كان يوحنا قد عاش مدى جيلين فى بيئة هلنستية فقد بذل جهده

لكى يصبغ بالصبغة اليونانية العقيدة الصوفية اليهودية القائلة بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً[٨٣] . والعقيدة المسيحية القائلة بأن عيسى هو المسيح المنتظر، كما أحس من قبل فيلون العالم المتضلع فى البحوث العقلية اليونانية بالحاجة إلى صياغة العقائد اليهودية من جديد كى توائم عقلية اليونان ذوى النزعة الفلسفية ، ولقد واصل يوحنا ، عرف أو لم يعرف ، ما بدأه بولس من فصل المسيحية عن اليهودية فلم يعرض المسيح على العالم ، كما كان يعرض عليه من قبل ، بوصفه يهوديا يلتزم الشريعة اليهودية إلى حد ما ، قل ذلك أو كثر ؛ بل أنطقه فى خطابه لليهود بقوله « أنتم » وبحديثه عن الناموس بقوله « ناموسكم » . ولم يكن « مسيحاً منتظراً » ارسل لينجى خرا إسرائيل الضالة ، بل كان ابن الله الخالد معه ؛ ولم يكن المحكم بين الناس فى المستقبل فحسب ، بل كان هو الخالق الأول للكون . فإذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة ، كان فى وسعنا أن نغفل إلى حد ما حياة الرجل يسوع اليهودية إذ نراها تذوى ويذهب سناها كما يذهب عند الطائفة اللاأدرية غير المؤمنة ؛ أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية ، ومن ثم كان فى وسع العالم الوثنى — بل وفى وسع العالم المضاد للسامية — أن يحتضنها ويرضى بها .

إن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها ، ذلك أن العقل اليونانى المتضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها ، وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب ، والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ؛ وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف . فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان فى هذا أو ذاك ؛ ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفى

بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية . ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها والصورة التى نسجت على منوالها : ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس . وربما كانت تراقيا هى التى بعثت للمسيحية بطقوس ديونيشس ، وموت الإله ونجاته . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام ، وعصور الأرض ، واللهب الأخير الذى سيحرقها ، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور . فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً « يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه»[٨٤] ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثراسية والقربان المقدس فى القداس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذى ابتدعه ليضل به ضعاف العقول[٨٥] .

وقصارى القول أن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم .

الباب الثامن والعشرون

نمو الكنيسة

من ٩٦ إلى ٣٠٩ م

الفصل الأول

المسيحيون

كانوا يجتمعون فى حجراتهم الخاصة أو فى معابد صغيرة ، وقد نظموا أنفسهم على مثال المجامع اليهودية . وأطلقوا على كل جماعة منهم اسم « الإكليزيا » Ekklesia — وهو اللفظ اليونانى الذى كان يطلق على الجمعية الشعبية فى حكومات البلديات — وكانوا يرحبون بالعبيد كما كان يرحب بهم فى عبادات إيزيس ومثراس ، ولم تبذل أية جهود لتحريرهم ، ولكنهم كانوا يواسون بأن يقال لهم إنهم سيعيشون فى ملكوت يكون الناس فيه جميعاً أحراراً . وكان معظم الذين اعتنقوا الدين الجديد فى أول الأمر من الطبقات الدنيا بينهم عدد قليل من الطبقات الوسطى — الدنيا وعدد أقل من الأغنياء ، ولكنهم مع هذا لم يكونوا من « سفلة الناس » كما يدعى سلسس Celsus ؛ بل كانوا يحيون فى الغالب حياة نظام وجد ، يمدون بعثات التبشير بالمال ، ويجمعون الأموال لمساعدة الجماعات المسيحية الفقيرة . وقلما كانت تبذل فى ذلك الوقت جهود لكسب سكان الريف ، فلم يعتنق هؤلاء الدين

الجديد إلا آخر الأمر ؛ وكانت هذه الطريقة العجيبة هي السبب فى أن أطلق لفظ البجانيين Pagani (أى القرويين أو الفلاحين) على سكان دول البحر الأبيض المتوسط قبل اعتناقهم المسيحية .

وكان يسمح للنساء بالدخول فى المجامع الدينية ، وكان لهن بعض الشأن فى أداء الواجبات الصغرى ، ولكن الكنيسة كانت تطلب إليهن أن يحيين حياة التواضع والخضوع والعزلة حتى تستحى غير المسيحيات من حياتهن ؛ فكن يؤمرن بأن يأتين للصلاة والعبادة محجبات ، لأن شعرهن يعد من أكبر المغريات ، وكان يخشى أن يفتتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة[٢] ، بل إن القديس چيروم كان يرى أن يقص هذا الشعر كله[٣]. كذلك كان يطلب إلى النساء المسيحيات ألا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلى ، وأن يتجنبن الشعر المستعار بنوع خاص ، لأن بركة القس إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس غير رأس لابسه صعب عليها أن تعرف أى رأس تباركه[٤] . وقد أصدر بولس أوامر صارمة لأتباعه فقال :

« لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن . . . ولكن إذا كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة » .

« فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده ، وأما المرأة فهى مجد الرجل ، لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة من أجل الرجل ، لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة » .

هذه هى النظرة اليهودية واليونانية لا النظرة الرومانية للمرأة ؛ ولعلها كانت ثورة على الإباحية التى انزلقت إليها بعض النساء بإساءة استعمال ما أوتين من حرية ، ومن حقنا حين نقرأ هذه النذر أن نعتقد أن النساء المسيحيات قد أفلحن فى أن يكن فاتنات مغريات على الرغم من عطلهن من الحلى والعطور ،

وبمعونته براقعهن ، فمارسن بدهائهن ماكان لهن من سلطان فى الزمن القديم . وقد وجدت الكنيسة للأرامل وغير المتزوجات من النساء أعمالا كثيرة نافعة ، فقد نظمتهن فى جماعات « الأخوات » ، وعهدت إليهن القيام ببعض أعمال الإدارة أو الصدقات ، وأنشأت على توالى الزمن طبقات مختلفة من الراهبات كانت أعمالهن الرحيمة أنبل ما تمثلت فيه المسيحية .

وقد وصف لوشيان حوالى عام ١٦٠ « أولئك البلهاء » ، المسيحيين ، الذين يزدرون الأشياء الدنيوية ويرون أنها ملك مشترك بينهم جميعا »[٦] : وجاء ترتليان بعد جيل واحد فأعلن أننا « نحن » (المسيحيين) « نشترك جميعاً فى كل شىء عدا زوجاتنا » ، وأضاف إلى ذلك قوله بتهكمه اللاذع : « فإذا وصلنا إلى هذه النقطة حللنا شركتنا ، حللناها بالضبط عند النقطة التى يجعل غيرنا من الرجال اشتراكهم قويا فعالا »[٧] : وليس من حقنا أن نأخذ هذه الأقوال بحرفيتها ؛ ذلك أن الشركة ، كما يفهم من فقرة أخرى فى أقوال ترتليان ، لا تعنى أكثر من أن كل مسيحى يجب عليه أن يسهم فى رصيد الجماعة المشتركة بقدر ما تمكنه موارده ؛ وما من شك فى أن الاعتقاد السائد بأن النظام القائم فى العالم سيقضى عليه بعد قليل قد جعل هذا التبرع سهلا على المسيحيين ؛ ولعل الأغنياء منهم قد اقتنعوا بأنهم يجب ألا يفاجأوا يوم القيامة وهم ملقون فى أحضان المال . وكان بعض المسيحيين الأولين يعتقدون كما يعتقد الإسينيون أن الرجل الغنى الذى لا يشرك الناس فيما لا حاجة له به من ماله لص[٩] . وقد هاجم يعقوب « أخو الرب » الثروة بألفاظ تنم عن ثورة نفسية مريرة :

« هلم الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة ، غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث ، ذهبكم وفضتكم قد صدئا . وصدأهما ... يأكل لحومكم كنار ، قد كنزتم فى الأيام الأخيرة ، هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ وصياح الحاصدين قد دخل إلى أذنى

رب الجنود ... أما اختار الله فقراء هذا العالم ... ورثة الملكوت ؟ »[١٠] .

ويضيف إلى هـــذا أن الغنى سيذبل كما تذبل الأزهار فى حر الشمس اللافح[١١] .

وسرى فيما اعتاده المسيحيون من تناول وجبة الطعام المشتركة عنصر من عناصر الشيوعية ، فقـــد كان المسيحيون الأولون يجتمعون كثيراً فى عيد الحب Agapé ويكون ذلك عادة فى مساء يوم أحد السبوت . وكان العشاء يبدأ وينتهى بالصلاة وقراءة بعض فقرات من الكتاب المقدس ، وكان القس يبارك الخبز والخمر . ويبدو أن المؤمنين كانوا يعتقدون أن الخبز والخمر كانا هما لحم المسيح ودمه ، أو أنهما يمثلان لحمه ودمه[١٢] . وكان عباد ديونيشس ، وأثيس ، ومثراس يؤمنون بما يشبه هذه العقائد فى المآدب التى يأكلون فيها الأجساد المسحورة لآلهتهم أو رموز هـــذه الأجساد[١٣] . وكانت آخر مراسم عيد الحب هذا هى « قبلة الحب » وكانت هذه القبلة فى بعض المجتمعات يتبادلها الرجال فيما بينهم أو النساء فيما بينهن ؛ لكن هذا القيد الثقيل لم يكن يراعى فى البعض الآخر ، ثم وجد كثيرون من المشتركين فى هذا الحفل البهيج أن فيه من الملذات ما يأباه الدين، وندد ترتليان وغيره بما أدى إليه من الإباحية الجنسية[١٤] . وكانت الكنيسة توصي بألا تفتح الشفاه فى أثناء التقبيل ، وألا تتكرر القبلة إذا أعقبتها لذة[١٥]. ثم أخذ عيد الحب يختفى تدريجا فى القرن الثالث .

وفى وسعنا أن نصدق ما كان يعتقده الأقدمون من أن أخلاق المسيحيين الأولين كانت مثالا يزدجر به العالم الوثنى على الرغم من هذا الحادث السالف الذكر وأمثاله ،وعلى الرغم من تشهير الوعاظ الذين كانوا يطلبون إلى المؤمنين أن ينشدوا الكمال . لقد استطاعت هذه المبادئ الأخلاقية السماوية أن تهذب ما فى الإنسان من غرائز حيوانية ، وتضع له قانوناً أخلاقيا صالحا للحياة مهما يكن الثمن الذى تقاضته من حرية العقل والتفكير ، وذلك بعد أن ضعفت الأديان

الأديان القديمة وزال ماكان لها من أثر ضئيل فى تدعيم الحياة الخلقية ، وبعد أن أخفقت المحاولات التى بذلتها الرواقية لإيجاد قانون أخلاق قريب من القانون الطبيعى ، فلم يكن لها أثر إلا فى الصفوة المختارة من الناس .
لقد كان الاعتقاد بحلول ملكوت الله ينطوى كذلك على الاعتقاد بوجود حَكَمٍ عدل مطلع على جميع أعمال البشر ، يعلم ما تخبئه الصدور ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا يستطيع أحد أن يفر منه أو يخدعه : يضاف إلى هذه الرقابة القدسية رقابة أخرى من الناس بعضهم على بعض . ذلك أن الذنوب لم يكن من السهل إخفاؤها فى هذه الجماعات الصغيرة ، وأن المجتمع كان يوجه أشد اللوم علنا لمن يكشف أمرهم ممن يخالفون من أعضائه القانون الأخلاق الجديد . وقد حرم على المسيحيين الإجهاض ووأد الأطفال وهما اللذان كانا يقضيان على عدد كبير من أفراد المجتمعات الوثنية ، وسوى بينهما وبين القتل العمد[١٦] . وكثيراً ما أنقذ المسيحيون الأطفال الذين تركوا فى العراء ليقضوا نحبهم ، وعمدوهم ، وربوهم مستعينين بما كان يقدم لهم من عون من مال الجماعة العام[١٧] . كذلك حرمت الكنيسة على المسيحيين الذهاب إلى [illegible] مشاهدة الألعاب العامة ، أو الاشتراك

الحفلات التى تقام فى الأعياد الوثنية ، وإن لم تفلح فى هذا بقدر ما أفلحت فى تحريم الإجهاض ووأد الأطفال[١٨] . وقصارى القول أن المسيحية أيدت وشددت ما كان لدى اليهود المتأهبين للقتال من صرامة أخلاقية . وكانت توصى بالعزوبة وبقاء البنات أبكارا وتعد ذلك من المثل الأخلاقية العليا ، ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية ، ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل . ولكن الزوج والزوجة كانا يشجعان على الامتناع عن العلاقات الجنسية[١٩] . أما الطلاق فلم يكن يسمح به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنيا وأراد أن يلغى زواجه بمن اعتنق المسيحية . وكانت الكنيسة تقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال ، وقد حرم اللواط وذم ذما قل أن

يكون له مثيل فى شدته فى التاريخ القـــديم . وفى ذلك يقول ترتليان : « أما من حيث المسألة الجنسية فإن المسيحى يقنع بالمرأة »[٢٠]

وكان كثير مما ورد فى هذا القانون الأخلاقى الصارم يستند إلى قرب عودة المسيح إلى الأرض ، فلما أن بدأ هـــذا الأمل يضمحل ، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى ، وضعفت الأخلاق المسيحية . وشاهد ذلك أن رسالة لا يعرف كاتبها تسمى **راعى هرماس** (حوالى عام ١١٠) تندد بعودة البخل ، والخيانة ، وأصباغ الشفاه ، وصبغ الشعر ، وتلوين الجفون ، والسُّكر ، والزنى بين المسيحيين[٢١] . لكن الصورة العامة التى لدينا عن أخلاق المسيحيين فى ذلك العهد تنطق بالتقوى ، والوفاء المتبادل ، والإخلاص بين الزوجين ، والسعادة ، والطمأنينة ، والثقة ، والإيمان . ولم يسع بلنى الأصغر إلا أن يكتب إلى تراجان يقول إن المسيحيين يحيون حياة هادئة هى مضرب المثل فى الصلاح[٢٢] . ويصفهم جالينوس بأنهم « قد سموا فى تأيب أنفسهم » وفى . . . رغبتهم الشديدة فى الوصول إلى مستوى خلقى رفيع يجعلهم فى منزلة لا تقل عن منزلة الفلاسفة الحقيقيين[٢٣]. وقدقوى شعورهم بالخطيئة حين أخذوا يعتقدون أن البشر جميعهم قد تلوّثوا بسقوط آدم ، وأن العالم سينتهى عما قريب ، ويحلّ اليوم الذى يحكم فيه على الناس بالعذاب السرمدى أو النعيم المقيم .

وقد وجه كثير من المسيحيين همهم كله إلى العمل على أن يستقبلوا يوم الحساب الرهيب طاهرين من الدنس ، فكانوا لذلك يرون فى كل لذة من ملذات الحواس غواية من غوايات الشيطان ، ولهذا أخذوا يندِّدون بعالم الجسم ويعملون لكبت الشهوات بالصوم وبكثير من أنواع التعذيب البدنى ، وكانوا ينظرون بعين الريبة إلى الموسيقى ، والخبز الأبيض ، والخمور الأجنبية ، والحمامات الدفئة ، وحلق اللحية ، ويرون فى هذه الأعمال استهانة بإرادة الله الجلية الواضحة للعيان[٢٤] . واتخذت الحياة حتى عند المسيحى العادى نفسه لوناً أشد قتاماً

مما خلعته عليها الوثنية ، إلا حينما كانت تعمل على استرضاء الآلهة السفلى لدفع أذاها . وانتقل إلى يوم الأحد المسيحى ما كان يراعى فى السبت اليهودى من جد ووقار حين حل أولها محل الثانى فى القرن الثانى بعد الميلاد .

فقد كان المسيحيون يجتمعون فى ذلك اليوم المعروف عندهم بيوم الرب ، ليقيموا قداسهم الأسبوعى . فكان قساوستهم يتلون عليهم نبذاً من الكتاب المقدس ، ويؤمونهم فى الصلاة ، ويلقون عليهم مواعظ فى العقائد ، والتعاليم الأخلاقية ، والجدل الطائفى . وكان يسمح لأفراد الجماعة وخاصة النساء ، فى الأيام الأولى أن « ينطقوا » فى أثناء الغيبوبة أو النشوة بألفاظ لا يستطيع أن يشرح معناها إلا المفسرون الصالحون ؛ ولما أن أدت هذه الأعمال إلى كثير من التهييج والفوضى فى شئون الدين ، عمدت الكنيسة إلى عدم تشجيعها ثم منعتها آخر الأمر منعاً باتا . ووجد القساوسة أنفسهم مضطرين عند كل خطوة إلى كبح جماع الخرافات لا إلى خلقها .

وقبل أن يختتم القرن الثانى كانت هذه الحفلات الأسبوعية قد اتخذت شكل القداس المسيحى . وأخذ هذا القداس ينمو نمواً بطيئاً بالاعتماد على صلاة الهيكل اليهودية ، وعلى الطقوس اليونانية الخاصة بالتطهير ، والتضحية البديلة ، والاشتراك عن طريق العشاء الربانى فى قوى الإله القاهرة للموت ، حتى صار فى آخر الأمر كومة من الصلوات ، والمزامير ، والقراءات ، والمواعظ ، والترتيلات ، وما هو أهم من هذا كله وهو التضحية الرمزية بحمل الله للتفكير عن الخطايا ، وهى التضحية التى حلت فى المسيحية محل القرابين الدموية فى الأديان القديمة . واستحال الخبز والخمر اللذان كانا يعدّان فى الطقوس القديمة هدايا توضع على المذبح أمام الإله بفضل تدشين القساوسة له إلى جسم المسيح ودمه ، وأصبحا يقدمان لله بوصفهما تكراراً لتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب . ويلى هذا موكب مؤثر رهيب يشترك فيه العابدون فى حياة منقذهم ومادته نفسيهما .

وكانت هذه فكرة خلع عليها طول الزمن قداسة ، فلم يكن العقل الوثنى فى حاجة إلى شىء من التدريب لاستقبالها وإدماجها فى « طقوس القداس الخفية » وبها أضحت المسيحية آخر الأديان الغامضة وأعظمها . لقد كانت هذه عادة حقيرة فى منشئها[٢٥] ، جميلة فى تطورها ، وكان قبولها المسيحية وسيلة من أحكم الوسائل التى سلكتها لتوائم بينها وبين رموز العصر وحاجات أتباعها ؛ ولم يكن فى طقوسها كلها طقس يماثل القداس فى بعث الحماسة فى النفس الوحيدة المقفرة ، وتقويتها على مواجهة العالم الذى يناصبها العداء[*] :

وكان « منح البركة » للخبز والخمر أحد الأسرار السبعة المسيحية المقدسة ، وهى الطقوس التى يعتقد الناس أنهم ينالون بها البركة الإلهية . وهنا أيضاً تستخدم الكنيسة شعر الرموز لتخفف به من أعباء الحياة الإنسانية وتعلى مكانتها ، وتجدد فى كل مرحلة من مراحل الملحمة الإنسانية صلة الخالق بالمخلوق وهى الصلة التى تقويه على احتمال متاعب الحياة وآلامها : ولسنا نجد فى القرن الأول الميلادى إلا ثلاث شعائر دينية يؤمن المسيحيون بقداستها — التعميد ، والعشاء الربانى ، ورسامة الكهنوت ؛ ولكن سائر الشعائر كانت أصولها موجودة فى عادات المجتمعات الدينية من ذلك الوقت البعيد . ويلوح أنه كان من عادة المسيحيين الأولين أن يضيفوا إلى التعميد « وضع الأيادى » على من يعمدون ، وبذلك يُدخل الرسول أو القسيس الروح القدس فى المؤمنين[٢٨] : ثم انفصل هذا العمل عن التعميد على توالى الأيام وأصبح هو تثبيت العماد[٢٩] .

ولما استبدل تعميد الأطفال شيئاً فشيئاً بتعميد الكبار شعر الناس بحاجتهم إلى التطهير الروحى بعد مرحلة الطفولة ؛ فاستحال الاعتراف العام بالخطيئة اعترافاً خاصا أمام القس ، الذى يقول بأنه تلقى من الرسل أو خلفائهم من الأساتمة حق

(*) وكان الخبز والماء المقدسان يقدمان لعابدى مثراس فى أثناء طقوسه الخفية ، ولقد دهش الغزاة الفاتحون حين وجدوا طقوساً مماثلة لهذا ، منتشرة بين هنود المكسيك وبيرو .

« الربط والحل » أى فرض الكفارات وغفران الذنوب(٣٠)؛

ولقد كان فرض الكفارات هذا من الأنظمة التى يمكن أن يساء استخدامها لسهولة نيل المغفرة ؛ ولكنه مع هذا يمد المذنب بقوة تمكنه من إصلاح نفسه ، ويوفر على النفوس القلقة متاعب الندم العصيبة »

وكان الزواج فى تلك القرون لا يزال من النظم المدنية ؛ ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها ، وأخذت تطالب الزوجين به ، فرفعت الزواج بهذا العمل من عقد زمنى يستطاع حله إلى عهد مقدس لا يستطاع نقضه . وقبل أن يحل عام ٢٠٠ بعد الميلاد اتخذت عادة « وضع الأيادى » صور « الرسامة الكهنوتية » ، وبمقتضاها أصبح للأساقفة وحدهم حق رسامة القساوسة القادرين على إقامة القداس بصورته الصحيحة ؛ ثم استمدت الكنيسة فى آخر الأمر من رسالة يعقوب (٥ : ١٤) « دهن المريض بالزيت المقدس بعد الموت » وهى البركة الأخيرة التى يتلقاها من القس حين يدهن المسيحى المحتضر أعضاء الحس والأطراف ، فيطهره مرة أخرى من الخطايا ويهيئه للقاء الله . ولو أننا حكمنا على هذه الشعائر بما كان يعزوه إليها القائمون بها والمؤمنون بقوتها ، وأخذنا أقوالهم فيها بحرفيتها ، لكان هذا منتهى السخف منا والجهالة ، لكننا إذا أدركنا أنها تبعث فى النفوس البشرية الشجاعة والإلهام ، حكمنا من فورنا بأنها خير علاج للنفوس وأقربه إلى الحكمة .

وكانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تكرم به حياة المسيحى . ذلك أن من عقائد الدين الجديد عودة الحياة إلى الجسم والروح ، ولهذا كان يعنى بالميت أشد العناية ، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه ، وتوضع كل جثة وحدها فى قبر خاص ؛ ثم أخذ المسيحيون حوالى عام ١٠٠ يتبعون العادات السورية والتسكانية القديمة فيدفنون موتاهم فى سراديب — وأكبر الظن أن هذا لم يكن بقصد إخفائها بل كان رغبة منهم فى الاقتصاد فى الأمكنة

والنفقات ، فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البعد عن سطحها ، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبى هذه الطرقات . وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها ، ولعلهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التى كانت تقوم بهذه المهمة . ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً ، وقد يبعث هذا على الظن بأنها كانت تستخدم مخابئ فى أوقات الاضطهاد ، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السراديب ، وأضحت الدياميس أماكن معظمة يحج إليها الناس ؛ وقبل أن يحل القرن التاسع سدت السراديب ونسيها الناس ، ولم تكشف إلا بطريق المصادفة عام ١٥٧٨ .

وهذه السراديب وما فيها من نقوش بارزة ومظلمات هى التى احتفظت بمعظم ما بقى لنا من الفن المسيحى الأول . فهنا ظهرت فى عام ١٨٠ الرموز التى أصبحت فيما بعد ذات شأن أيما شأن فى المسيحية : اليمامة الممثلة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسم ؛ والفنقس(*) Phoenix الذى عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه ، وغصن النخلة شعار النصر ، وغصن الزيتون رمز السلام ، والسمكة وقد ضمت إلى الشعائر المسيحية لأن اسمها اليونانى i-ch-th-u-s يتكون من الحروف الأولى من العبارة Jesous Christos theou uios soter — « يسوع المسيح ابن الله ، المنقذ » ، وهنا أيضا نجد تلك الفكرة الذائعة الصيت ، فكرة الراعى الصالح ، ممثلة تمثيلا صريحاً على تمثال لعطارد يحمل معزى . وتتمثل فى هذه الرسوم أحياناً رشاقة رسوم پمپى ، ونشاهد ذلك فى الأزهار ، والكروم ، والطيور التى كان يزدان بها قبر دومتيان . وهذه النقوش فى العادة من أعمال صغار الصناع المغمورين الذين يفسدون وضوح الخطوط اليونانية والرومانية بالغموض

(*) طائر خرافى يقولون عنه إنه عاش خمسمائة عام وحيدا فى البرية ، وبعد أن حرق نفسه على كومة الحريق عادت الحياة إلى رماده ، ولهذا كان يعد رمزاً للخلود . (المترجم)

الشرق . ذلك بأن المسيحية كانت فى تلك القرون الأولى منهمكة فى شئون الدار الآخرة انهماكا يحول بينها وبين العناية بتزيين دار الدنيا . يضاف إلى هذا أنها سارت على السنة اليهودية سنة كراهية التماثيل ، وخلطت بين التصوير وبين عبادة الأوثان ، وذمت النحت والتصوير لأنهما فى أكثر الأحيان يمجدان العرى ، وكان من أثر هذه الآراء أن اضمحل الفن التشكيلى بناء المسيحية ، أما الفسيفساء فكانت أكثر انتشاراً ، فكانت جدران الباسلقات وأماكن التعميد مرصعة برصائع من أوراق الأشجار وأزهارها وبخروف عيد الفصح ، وصور من العهد القديم .

وكانت صور شبيهة بهذه تنقش نقشاً غير متقن على التوابيت . وكان المهندسون المعماريون فى هذه الأثناء يعملون على تكييف الباسلقات اليونانية — الرومانية للوفاء بحاجات العبادات المسيحية ؛ ولم تكن الهياكل الصغيرة التى كانت تضم الآلهة الوثنية نموذجا صالحا للكنائس المعدة لاستقبال الجماعات الكبيرة ، أما صحن الباسلقا الرحب وطرقاتها فكانت صالحة لهذا الغرض ، وكأن قباءها قد أعدّ لأن يكون هو المحراب ؛ وفى هذه الأضرحة ورثت الموسيقى المسيحية على استحياء النغم ، والوزن ، والسلم الموسيقى ؛ وكان كثير من رجال الدين يعارضون فى أن تغنى النساء فى الكنيسة ، بل كانوا يعارضون فى أن يغنين فى أى مكان عام ، لأن صوت النساء قد يثير رغبة دنسة فى الرجل القابل للتهييج على الدوام[٣١] : لكن المجتمعين فى الكنائس كثيراً ما كانوا يعبّرون بترانيمهم عن أملهم ، وشكرهم ، وبهجتهم ؛ وأضحت الموسيقى على توالى الأيام أجمل الزينات ، وأرقى الوسائل لخدمة الدين المسيحى .

وهذا الدين فى جملته أعظم الأديان التى عرضت على بنى الإنسان جاذبية ، فهو يعرض نفسه دون ما قيد على جميع الأفراد ، والطبقات ، والأمم ؛ ولم يكن كالدين اليهودى مقصوراً على شعب بعينه أو على الأحرار فى أمة بعينها كما كانت الشعائر الرسمية فى رومة وبلاد اليونان ؛ والمسيحية إذ تجعل الناس

جميعاً وارثين لانتصار المسيح على الموت تعلن المساواة التامة الأساسية بين جميع بني الإنسان ، وتجعل كل الفروق فى المراتب الدنيوية أموراً عارضة تافهة ؛ وقد وهبت البائسين ، والمحطمين ، والمحرومين ، واليائسين ، والأذلاء ، جميعاً فضيلة الرحمة التى لم يكن لهم بها عهد من قبل ؛ كما وهبتهم العزة والكرامة التى ترفع من قدرهم وتعلى شأنهم ، ووهبتهم فوق ذلك وحياً وإلهاماً ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية ؛ وأضاءت حياتهم بما تبعث فيهم من أمل فى ملكوت الله المقبلة ، وفى السعادة الدائمة بعد الموت ؛ ووعدت أشد الناس ذنوباً بالعفو عن ذنوبهم وبقبولهم فى الناجين من العقاب فى الدار الآخرة ؛ أما العقول التى أقلقها طول البحث فى المشاكل المعقدة كمشاكل أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام فقد جاءت إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله تستطيع أكثر النفوس سذاجة أن تجد فيها السلوى والراحة العقلية ؛ وجاءت إلى الرجال والنساء الذين يحبون حياة الفاقة والكدح بمباهج العشاء الربانى والقداس ؛ وهما من الشعائر التى تجعل كل حادثه كبرى فى الحياة منظراً خطيراً فى مسرحية الله والإنسان ؛ وجاءت إلى الفراغ الخلقى الذى خلقته الوثنية المحتضرة ، وإلى فتور الرواقية وفساد الأبيقورية ، وإلى العالم الذى أنهكته علل الوحشية ، والقسوة ، والظلم ، والفوضى الجنسية ؛ وإلى الإمبراطورية الجانحة إلى السلم ، والتى بدت فى غير حاجة إلى فضائل الرجولة القوية ، أو إلى آلهة الحرب ، جاءت إلى هذه كلها بقانون أخلاقى جديد قائم على الأخوة ، والرحمة ، والتأديب ، والسلام .

وبعد أن تشكل الدين الجديد بحيث يفى بحاجات الإنسان أخذ ينتشر بين الناس بما أوتى من قدرة على الذيوع والانتشار ؛ فكان كل من اعتنق هذا الدين ينصب نفسه داعياً له بحماسة لا تقل فى قوتها عن حماسة الثوار . وكانت طرق الإمبراطورية الرومانية ، وأنهارها ، وشواطئ بحارها ، ومسالكها التجارية

أهم العوامل التى عينت الخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية ، فاتجه هذا النماء شرقا من أورشليم إلى دمشق ، والرها ، ودورا ، وسلوقية ، وطشقونة ؛ واتجه منها جنوبا عن طريق بصرى ، وبطرا إلى بلاد العرب ؛ وغربا عن طريق سوريا إلى مصر ، وشمالا عن طريق أنطاكية إلى آسية الصغرى وأرمينية ؛ ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجه إلى كورنثة (كورنثوس) وتسالونيكى ، وإلى درهكيوم وراء الطريق الإجناسى ؛ ثم اخترق البحر الأدرياوى إلى برنديزيوم ، أو عن طريق سلا وكربيلس إلى بتيولى وروما ؛ وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالى أفريقية ، واخترق البحر المتوسط أو جبال الألب إلى أسبانيا وغالة ، ومنها إلى بريطانيا . ثم سار الصليب على مهل فى أعقاب الحكم الرومانى ، وشق النسر الرومانى الطريق للمسيح ؛ وكانت آسية الصغرى فى ذلك الوقت حصن المسيحية الحصين ، ولم يكد يحل عام ٣٠٠ حتى كانت الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير من المسيحيين[٣٢] . وعلا شأن الدين الجديد فى شمالى أفريقية ، فأضحت قرطاجنة وهپو مركزين رئيسيين للعلم والجدل المسيحيين ، وفيهما وجد آباء الكنيسة اللاتينية ، العظام — ترتليان ، وكبريان ، وأوغسطين ؛ وهنا اتخذت نصوص القداس اللاتينية وترجمة العهد القديم اللاتينية صورتيهما المعروفتين وبلغ عدد الجالية المسيحية فى رومة قبيل آخر القرن الثالث نحو مائة ألف ، وكان فى وسع الجالية أن تمد بمعونتها المالية غيرها من الجاليات ، وكانت من عهد بعيد تطالب لأسقفها بالسلطة العليا على سائر الكنائس .

ويمكننا أن نقول بوجه عام إنه لم يحل عام ٣٠٠ بعد الميلاد حتى كان رُبع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب من المسيحيين . وفى ذلك يقول ترتليان (حوالى ٢٠٠) ، « يجهر الناس بأن الدولة مكتظة بنا ، ذلك أن الخلائق على اختلاف سنهم ، وأحوالهم ، ومراتبهم ، يهرعون إلينا ، وينضوون تحت لوائنا . إنا أبناء الأمس القريب ، ولكننا رغم هذا قد ملأنا العالم كله »[٣٣] .

الفصل الثانى

تنازع العقائد

لو أن عادات وعقائد مختلفة متناقضة لم تنشأ فى مراكز المسيحية المتعددة المستقلة بعضها عن بعض إلى حد ما والخاضعة إلى تقاليد وبيئات مختلفة ، لو أن هذا لم يحدث لكان عدم حدوثه أمراً شديد الغرابة . ولقد قدر للمسيحية اليونانية بنوع خاص أن يطغى عليها سيل من البدع الدينية بتأثير عادات العقل اليونانى الميتافيزيقية المولعة بالنقاش والجدل ؛ وليس من المستطاع فهم المسيحية على حقيقتها إلا إذا عرفنا ما دخل فيها من هذه البدع ، لأنها وإن غلبتها لم تسلم من بعض ألوانها وأشكالها .

وكان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحية المنتشرة فى أنحاء العالم : هى أن المسيح ابن الله ، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض ، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم فى الدار الآخرة . ولكن المسيحيين اختلفوا فى موعد عودة المسيح ؛ فلما أن مات نيرون ، وخرب تيطس الهيكل ، ولما أن دمر هدريان أورشليم ، رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح .

ولما أن هددت الفوضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الثانى ، ظن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت[٣٤] ؛ وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ، وأفسد أسقف آخر فى بنطس نظام أتباعه بأن أعلن أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد[٣٥] . ولما لم تصدق كل هذه العلامات ، ولم يعد المسيح ، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً ، فقيل فى رسالة معزوة إلى برنابا

إنه سيعود فى خلال ألف عام[٣٦] ؛ وقال أشد هؤلاء حذراً إن عودته ستكون حين ينقرض « جيل » اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حين لا يبقى أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل ؛ أو كما يقول إنجيل يوحنا : إنه سيرسل بدلا منه الروح القدس أو المقرّى[*] ؛ ثم نقل الملكوت آخر الأمر من الأرض إلى السماء ، ومن حياة الناس فى هذه الدنيا إلى الجنة فى الدار الآخرة . بل إن الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام أصبح لا يلقى تشجيعاً من الكنيسة ، وانتهى الأمر بأن صارت تقاومه وتحكم على القائلين به بالزيغ والضلال .

وملاك القول أن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هى التى أقامت صرح المسيحية ، وأن الأمل فى الدار الآخرة هو الذى أبقى عليها[**] .

وإذا غضضنا النظر عن هذه العقائد رأينا أن أتباع المسيح قد انقسموا فى الثلاثة القرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة . ولو أننا عمدنا إلى ذكر العقائد الدينية المختلفة التى حاولت أن تستحوذ على الكنيسة الناشئة ثم عجزت عن الوصول إلى غرضها ، والتى اضطرت الكنيسة إلى أن تصمها واحدة بعد واحدة بأنها كفر وسعى إلى الانشقاق والتفريق ، لو أننا فعلنا هذا لكان ذلك جهلا منا بالغرض من كتابة التاريخ .

(*) إنجيل متى ١٤ : ١٦ : ٢٦ (المترجم)

(**) يفسر آلاف من المسيحيين ، ومنهم كثيرون من العاملين بها ، اضطرابات هذه الأيام بأنها النذر المنبئة بقرب عودة المسيح . ولا يزال ملايين من المسيحيين وغير المسيحيين والملحدين يعتقدون بأن ستكون على الأرض جنة تختفى منها الحروب والشرور . ويمكن تشبيه عقيدتى النعيم فى الدار الآخرة وجنة الدنيا بدلوين يتبادلان النزول فى بئر إذا نزلت إحداها ارتفعت الأخرى . فلما أن ضعف شأن الأديان اليونانية والرومانية القديمة ، ثارت الاضطرابات الشيوعية فى أثينة (٤٣٠ ق . م) ، وبدأت الثورة فى رومة (١٣٣ ق . م) ، ولما أخفقت هاتان الحركتان ، نجحت العقائد القائلة بالبعث والنشور وبلغت ذروتها فى الدين المسيحى ؛ ولما أن ضعفت العقيدة المسيحية فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد عادت الشيوعية إلى الظهور . وعلى هذا الاعتبار يكون مستقبل الدين مضموناً لا خوف عليه .

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن الأدرية(*) — أى طالب العلم الربانى (gnosis) عن طريق التصوف — لم تكن كفراً بالمسيحية بقدر ما كانت عقيدة منافسة لها : لقد نشأت هذه العقيدة قبل المسيحية ، وكانت تبشر بوجود المنقذ (Soter) قبل أن يولد المسيح[٣٧] . وأكبر الظن أن سمعان المجوسى السامرى الذى عاب عليه بطرس اتجاره بالرتب الكهنوتية كان هو نفسه مؤلف كتاب **المعرض الأكبر** الذى جمع فيه طائفة لا حصر لها من الأفكار الشرقية عن الخطوات المعقدة التى يستطيع بها العقل البشرى أن يصل إلى العلم اللدنى بالأشياء كلها . وفى الإسكندرية امتزجت الأرفية ، والفيثاغورية الجديدة ، والأفلاطونية الجديدة بفلسفة فيلون العقلية ودفعت بسيليدس Basilides (١١٧) ، وڤلنتينس Valentinus (١٦٠) وغيرهما إلى تكوين أنظمة عجيبة من « الفيض الربانى » و « إيوناب » العالم المجسدة(**) ؛ وأوجد بردسانس Bardesanes (٢٠٠) فى الرها اللغة السريانية الأدبية بوصفه هذه الإيونات شعراً ونثراً . وعرض ماركس الأدرى The Gnostic Marcus فى غالة أن يكشف للنساء أسرار ملائكتهن الحارسة ، وكان كل ما أوحى به إليهن إطراء لهن ونفاقاً ، وقبل فى نظير ذلك أن يستمتع بهن[٣٨] .

وكان أعظم الملاحدة الأولين من غير الأدريين ، ولكنه تأثر بآرائهم الدينية . وتتلخص قصة مرسيون Marcion وهو شاب ثرى من أهل سينوب فى أنه جاء إلى رومة حوالى عام ١٤٠ معتزماً أن يتم ما بدأه بولس وهو تخليص المسيحية من اليهودية . وكان مما قاله مرسيون إن المسيح حسب رواية الأناجيل ،

(*) مذهب شيعة كانت تقول إن المادة قديمة وإن الشر من طبيعتها وتخلط بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس . (المترجم)

(**) جمع إيون وهو فى الفلسفة القديمة صفة من صفات الله تجسدت وكان لها نصيب فى خلق العالم . (المترجم)

قد قال إن أباه إله رحيم ، غفور ، محب ؛ على حين أن يهوه ، كما يصفه العهد القديم ، إله غليظ القلب ، صارم فى عدله مستبد ، إله حرب ؛ ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أباً للمسيح الوادع . وتساءل مرسيون قائلا أى إله خير تطاوعه نفسه بأن يقضى على البشر جميعاً بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة ، أو رغب فى المعرفة أو أحب امرأة ؟ إن يهوه موجود ، وهو خالق العالم ، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة فى قالب من الشر . وأراد إله أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض ؛ وظهر المسيح ؛ وكان عند ظهوره فى سن الثلاثين ، فى جسم طينى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس ميزة البعث الروحى الخالص . ويقول مرسيون إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس فينبذون يهوه والشريعة اليهودية ، ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج ، واللذات الجنسية جميعها ، ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد . وعمل مرسيون على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد غير العهد المعروف يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ؛ وأصدرت الكنيسة قراراً بحرمانه ، وردت إليه المال الكثير الذى وهبه إليها حين جاء إلى رومة .

وبينا كانت الشيعتان الأدرية والمرسيونية آخذتين فى الانتشار السريع فى الشرق والغرب ظهر زعيم جديد لشيعة ضالة أخرى فى ميسيا Mysia . فقد قام فى عام ١٥٦ رجل يدعى منتانس Montanus يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشئون هذا العالم وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها ، ويرد حق التنبؤ أو القول الملهم إلى أعضاء الجماعات المسيحية . وآمنت امرأتان تدعيان بريسلا Priscilla ومكسمليا Maximillia بأقواله ، وأخذتا تنطقان فى أثناء غيبوبتهما الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعة . وكان منتانس نفسه يتنبأ فى أثناء نشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه الفريجيين أخذوا يلقبونه بالحدى الذى وعد

به المسيح ، ويلقونه بنفس الترحيب الحماسى الذى كان يصدر من أتباع ديونيشس . وكان مما تنبأ به أن ملكوت السموات قد دنت ساعتها ، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها سفر الرؤيا ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل . ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلت معها بعض المدن من سكانها . وحدث فى هذا الوقت ماحدث فى بداية عهد المسيحية فامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل ، وجعلوا متاعهم ملكا مشاعاً بينهم ، وعمدوا إلى التقشف والزهد استعداداً لمجىء المسيح[٣٩]. ولما اضطهد أنطونينس الحاكم الرومانى المسيحيين فى آسية الصغرى هرع مئات من أتباع منتانس إلى محاكمه سعياً منهم إلى الاستشهاد ، ورغبة فى الجنة . ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتفى بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم : « أيها الخلائق التعساء ! إذا كنتم تريدون الموت حقاً ؛ فهل عدمتم الحبال وأجراف الصخر العالية ؟ »[٤٠] وأعلنت الكنيسة أن تعاليم منتانس كفر وضلال ، وأمر جستنيان فى القرن السادس الميلادى بإبادة هذه الشيعة عن آخرها ، فاجتمع بعض أتباع منتانس فى كنائسهم ، وأضرموا فيها النار ، واحترقوا فيها أحياء[٤١] .

أما الشيع الضالة الصغرى فقد كانت مما يخطئه الحصر ، فمنها شيعة الزهاد التى عمدت إلى قمع شهواتها بمختلف الوسائل ، وقالت إن الزواج من الخطايا ؛ ومنها شيعة المتخيلة (Docetists) (*) القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحما ودماً بل كان شبحا أو خيالا ، ومنها الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان ، والمتبنية(**) ، وأتباع بولس السموساتى Samosata وكانت هاتان الطائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلا عاديا ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ؛ ومنها الظاهرية Modalists والسابلية

(*) والاسم مشتق من اللفظ اليونانى **dokein** أى يبدو . (المترجم)

(**) أى التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة . (المترجم)

(أتباع سابليوس) القائلة بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هى صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان ، ومنها المنكرون وجود شخصية مستقلة للمسيح والقائلون إن ألوهيته ليست إلا قوة وهبت له . وهؤلاء كلهم يعتقدون أن الأب والابن شخص واحد ؛ واليعاقبة الذين يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة ؛ ومنها القائلون بأن للمسيح مشيئة واحدة ، وتغلبت الكنيسة على هذه الشيع كلها بما كان لها من نظام خير من نظمها جميعا ؛ وبتمسكها الشديد بمبادئها ، وبفهمها طبائع الناس وحاجاتهم أكثر منها .

وظهر فى القرن الثالث خطر جديد فى بلاد الشرق يهدد كيان المسيحية ، ذلك أن شابا صوفيا فارسيا يدعى مانى الطشةونى أعلن عند تتويج شابور (٢٤٢) أنه المسيح المنتظر ، وأن الإله الحق أرسله إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية . وأخذ مانى عقائده من الزردشتية ، والمثراسية ، واليهودية ، والأدرية ؛ فقسم العالم مملكتين متناقستين هما مملكتا الظلمة والنور ؛ وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة ، وإن الشيطان هو الذى خلق الإنسان ، ولكن ملائكة إله النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور وهى العقل والذكاء والتفكير . وقال مانى إن فى النساء أنفسهن بصيصاً قليلا من النور ، ولكن المرأة هى خير ما صنع الشيطان ، وهى عامله الأكبر فى إغواء الرجل وإيقاعه فى الذنوب . فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية ، والكلف بالنساء وعن السحر ، وعاش عيشة الزهد ، ولم يطعم إلا الأغذية النباتية ، وصام عن الطعام بعض الوقت ، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ، ويهديه إلى النجاة ، كما يهديه النور الرحيم . وظل مانى ينشر دعوته بنجاح ثلاثين عاماً صلب بعدها بناء على طلب كهنة المجوس ، وحشى جلده بالقش ، وعلق على أحد أبواب مدينة السوس ؛ وبعث استشهاده الناس حماسة قوية ، فانتشرت مبادئه فى غربى آسية وشمالى أفريقية ، واعتنقها أوغسطين مدى

عشرين عاما ؛ وعاشت بعد اضطهاد دقلديانوس ، وفتوح المسلمين ، وظلت تحيا حياة مضمحلة مدى ألف عام إلى أن ظهر چنكيزخان .

وكانت الأديان القديمة لاتزال هى أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية ؛ فأما اليهودية فقد ضمت فى مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه ، وأخذت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود ؛ وظل السوريون يعبدون بعل وإن أسموه بأسماء يونانية ، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء ؛ واحتفظت سيبيل ، وإيزيس ، ومثراس ، بأتباعها إلى آخر القرن الرابع ؛ واستحوذت مثراسية جديدة على الدولة الرومانية فى عهد أورليان ؛ واستمرت النذور والقرابين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة فى هياكلها ، وظل المبتدئون والطلاب يرحلون إلى اليوزيا ، والمواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا فى الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة فى مختلف أنحائها ؛ لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها ، ولم تعد تثير فى الناس ذلك الإخلاص القلبى الذى يبعث الحياة فى الدين اللهم إلا فى أماكن قليلة متفرقة ؛ ولم يكن سبب هذا الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التى كانت فى يوم من الأيام إما جميلة محببة أو قوية صارمة ؛ بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة ، وعمدوا إلى الإسراف فى تحديد النسل إلى أبعد الحدود ، أو إنهاك الجسم ، أو الحروب المدمرة ، فقل عددهم إلى الحد الذى أفقد الهياكل عبّادها فى الوقت الذى فقدت فيه الأرض زرّاعها .

وبينا كان أورليوس يقاتل المركمانيين على ضفاف الدانوب فى عام ١٧٨ حاولت الوثنية محاولة خطيرة أن تحمى نفسها من المسيحية ؛ وكل ما نعرف عن هذه المحاولة مستمد من كتاب أرجن Origen المسمى ضد سلسس Againist Celsus وما فيه من عبارات نقلت فى غير عناية من كتابه كلمة الحق لسلسس .

وكان سلسس هذا — وهو ثانى رجل نذكره فى قصتنا بهذا الإسم — رجلا من رجال الدنيا الذين يمتعون أنفسهم بنعيمها ، ولم يكن من الفلاسفة ؛ وكان يحس أن الحضارة التى يستمتع بها مرتبطة أشـــد الارتباط بالدين الرومانى ، ولذلك أخذ على عاتقه أن يدافع عن هذا الدين بأن يهاجم المسيحية التى كانت وقتئذ أكبر أعدائه وأشدهم بأساً . وعمد إلى دراسة الدين الجديد دراسة دهش من غزارتها أرجن العالم النحرير . ثم أخذ يهاجم ما فى الكتاب المقدس من أمور لا تجوز ، على حد قوله ، إلا على بسطاء العقول ، كما هاجم صفات يهوه ، وما يعزى إلى معجزات المسيح من أهمية ، وما بين موت المســيح وقدرته الإلهية من تناقض . وسخر من اعتقاد المسيحيين بالنار التى سيحترق بها العالم آخر الأمر ، وبيوم الحساب ، وبعقيدة البعث والنشور :

« من السخف أن نظن أنه حين يأتى الله بالنار ، كما يفعل الطهاة ، سيحترق بها سائر البشر ولا يبقى إلا المسيحيون — لا الأحياء منهم وحدهم ، بل من ماتوا من زمن طويل ، فيقوم هؤلاء من قبورهم فى الأرض بأجسامهم التى كانت لهم قبل الموت . الحق أن هذا هو أمل الدود ! . . . وليس فى وسع المسيحيين أن يقنعوا بهذه العقائد إلا المغفلين ، الأراذل ، ضعاف العقول من العبيـــد والنساء والأطفال ماشطى الصوف ، والأساكفة ، والقصارين أجهل الناس وأسافلهم ؛ وكل من هو مذنب آثم ، أو أبله أضله الله سواء السبيل »[٤٢] .

وقد روع سلسس انتشار المسيحية ، وعداؤها للوثنية وازدراؤها إياها ، هى أو الخدمة العسكرية ، والدولة ؛ وقال فى نفسه : كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمى نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها فى جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة ؟ وكان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن

يدين بدين بلاده والعصر الذى يعيش فيه ، دون أن ينتقد علناً ما فيه من سخافات ، لأن هذه السخافات لا أهمية لها ، أما الشيء المهم حقا فهو أن يكون للدولة دين يوحدها ، ويعين على الخلق الكريم ، ويثبت قواعد الولاء لها .

ونسى سلسس ما صبه على المسيحيين من إهانات ، فدعاهم إلى أن يعودوا إلى الآلهة القديمة ، وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة ، وأن ينضموا إلى سائر مواطنيهم فى الدفاع عن الإمبراطورية التى يتهددها الخطر . غير أن أحداً لم يلق بالا إلى هذه الدعوة ؛ ولسنا نجـد له ذكراً فى الآداب الوثنية ، وكان قسطنطين أكثر منه حكمة فأدرك أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجى رومة .

الفصل الثالث

افلوطينس

يضاف إلى هذا أن سلسس كان متقدما عن العصر الذى يعيش فيه ؛ فقد كان يطلب إلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق السادة المهذبين المتشككين فى وقت كانوا يعتزلون فيه مجتمعاً استعبد الكثيرين منهم إلى عالم متصوف يجعل من كل إنسان إلهاً. وكان شعور الناس بهذه القوى التى لاتدركها الحواس ، وهو الشعور الذى يقوم عليه الدين ، قد أخذ ينتشر انتشاراً واسعاً ويتغلب على مادية العصر الذى كان يزدهى بما فيه ، والذى كانت تسوده المادية والجبرية . وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت تتخلى عن تفسير التجارب الحسية التى هى ميدان العلوم الطبيعية ، وتوجه همها كله إلى دراسة العالم الغير المنظور . وأنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس فى تناسخ الأرواح ، وآراء أفلاطون فى الأفكار الإلهية ، نظاما من الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحى بإماتة الحواس الجسمية ، وأن يعودوا بتطهير أنفسهم إلى صعود الدرج التى انحطت بها الروح من عالم السماوات وسكنت فى جسم الإنسان .

وكان أفلوطينس أكبر الممثلين لهذه الفلسفة الدينية الصوفية . وكان مولده فى ليقوپوليس عام ٢٠٣ م ، أى أنه كان قبطيا مصريا ذا اسم رومانى وتربية يونانية . وعثر على الفلسفة فى سن الثامنة والعشرين ، وأخذ ينتقل من معلم إلى معلم دون أن يجد فى أحد منهم بغيته حتى وجد طلبته فى الإسكندرية ، فقد كان فيها وقتئذ أمونيوس سكاس Ammonius Saccas ، وهو رجل مسيحى ارتد إلى الوثنية ، وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، كما فعل تلميذه أرجن من بعده . وبعد أن تتلمذ أفلوطينس على أمونيوس عشر سنين انضم إلى جيش موجه إلى بلاد

الفرس لعله يتلقى الحكمة عن المجوس والبراهمة أنفسهم . فلما وصل إلى أرض الجزيرة قفل راجعا إلى أنطاكية ، ثم ذهب إلى رومة (٢٤٤) وبقى فيها حتى توفى . وقد انتشر مذهبه الفلسفى وأصبح طراز ذلك العصر ، فضمه الإمبراطور جالينوس Gallienus إلى حاشيته ، ورضى أن يساعده على أن ينشئ فى كمپانيا مدينة أفلاطونية تحكم على مبادئ جمهورية أفلاطون ، لكن جالينوس رجع فيما بعد عن وعده ، ولعله فعل ذلك ليوفر على أفلوطينس إخفاقه المخزى .

وأعاد أفلوطينس إلى الفلسفة سمعتها الطيبة بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف رومة ورذائلها ؛ فلم يكن يعنى بجسمه ؛ بل إنه « كان يستحى أن يكون لروحه جسد » على حد قول پرفيرى Porphyry[٤٣] . ومن الأدلة الناطقة باحتقاره جسده أنه أبى أن يقف أمام المصورين بحجة أن جسمه أقل أجزائه شأنا — وفى ذلك إشارة إلى الفن بأن يعنى بالروح لا بالجسم . وحرم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز إلا قليلا : وكان بسيطا فى عاداته رحيما فى أخلاقه ، وابتعد عن كل العلاقات الجنسية ، وإن لم يذمها . وكان تواضعه هو الخليق بالرجل الذى يرى الجزء فى ضوء الكل . ولما حضر أرجن درسه علت وجه أفلوطينس حمرة الخجل وأراد أن يختم محاضرته فقال : « إن تحمس المحاضر يزول حين يحس بأن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه »[٤٤] . ولم يكن أفلوطينس خطيبا مصقعا . ولكن عنايته الشديدة بموضوعه ، وإيمانه بما يتحدث عنه قد عوضاه خير العوض عن البلاغة . ولم يسجل آراءه الفلسفية كتابة إلا متأخراً وسجلها مع ذلك وهو كاره . ولم يراجع قط مسودته الأولى ، ولا تزال الإنيادات رغم ما بذله پرفيرى من عناية فى نشرها أكثر المؤلفات اضطرابا فى تاريخ الفلسفة(*) .

(*) وقد رتب پرفيرى هذه الرسائل الأربع والخمسين فى تسع مجموعات زاعماً أن ٩ هو الرقم الكامل فى نظرية فيثاغورس ، لأنه مربع ٣ الثالوث الكامل الانسجام[٤٥] .

لقد كان أفلوطينس ذا نزعة مثالية يعترف متفضلا بوجود المادة ، ولكنه يقول إن المادة فى حد ذاتها هى إمكانية الشكل غير المتشكلة ، وكل شكل تتخذه المادة تعطيه إياها طاقتها الداخليـــة أى النفس (Psyche) ، والطبيعة هى مجموع الطاقة أو النفس التى تنتج كلية الأشكال فى العالم ؛ والحقيقة الدنيا لا تنتج الحقيقة العليا ؛ أما الكائن الأعلى وهو النفس فينتج الأدنى — الصورة المجسدة . ونمو الإنسان الفرد من بداية خلقه فى الرحم وتكون أعضائه البطىء عضواً بعد عضو حتى يكتمل نموه من عمل النفس أو المبدأ الحيوى الذى فيه ؛ والجسم يتشكل تدريجا بتوقان النفس أو توجيهها . ولكل شىء نفس — أى طاقة داخلية — هى التى تخلق الصورة الخارجية ، وليست المادة خبيثة إلا لأنها لم تتلق الصورة الناضجة ، فهى تطور وقف دون الكمال ؛ والشر هو إمكانية الخير .

ولسنا نعرف المادة إلا عن طريق الفكر — عن طريق الإحساس ، والإدراك ، والتفكير . وليس ما نسميه مادة إلا مجموعة من الأفكار (كما قال هيوم فيما بعد) ، وهى أكثر ما تكون شىء افتراضى مراوغ يضغط على أطراف أعصابنا (« إمكانية الإحساس الدائمة » التى يقول بها مل) ؛ وليست الأفكار شيئاً ماديا ؛ وما من شك فى أن فكرة الامتداد فى المكان لا تنطبق عليها ؛ والقدرة على تحصيل الأفكار واستخدامها هى العقل ؛ وهو قمة الثالوث البشرى المكون من الجسم ، والنفس ، والعقل . والعقل مقدار محدد من حيث اعتماده على الإحساس ؛ وهو حر لأنه أرقى صور النفس المبدعة المشكلة .

والجسد عضو النفس وسجنها معا ؛ والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد ؛ وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، أى بحياة وقدرة كونيتين من نوع ما ؛ وهى حين تعمل لتبلغ بالفكر إلى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا التى سقطت منها على ما يبدو فى أثناء كارثة أو محنة حدثت فى بداية الخليقة . وهنا يستسلم أفلوطينس فى بعض

ثوبات من تفكيره إلى الأدرية التى يقول إنه يرفضها ، ويصف سقوط النفس درجة بعد درجة من السماء إلى الإنسان ذى الجسد ؛ وهو على العموم يفضل الفكرة الهندية التى تقول إن النفس تنتقل من صور الحياة الدنيا إلى العليا أو من صورها العليا إلى الدنيا ، حسب فضائلها ورذائلها ، فى كل صورة من صور الحياة تنتقل إليها . وهو يبدو فى بعض الأحيان فيثاغوريا مازحا ، كما نراه فى قوله : « إن الذين يسرفون فى حب الموسيقى يصبحون فى تجسدهم الثانى طيوراً مغردة ، والفلاسفة الذين يتجاوزون الحد فى التفكير يتحولون إلى نسور[٤٦] . وكلما كانت النفس أكثر رقيا كانت أكثر إصراراً فى سعيها إلى أصلها القدسى ، ومثلها فى ذلك كمثل الطفل الذى ضل من أبويه أو كمثل الجائل المشتاق إلى العودة إلى وطنه . والنفس قادرة على أن تبلغ الفضيلة ، أو الحب الحقيقى ، أو الإخلاص إلى ربات الفن ، أو الفلسفة التى تحتاج إلى صبر طويل ؛ وستعثر على السلم الذى نزلت عليه ، وترقاه إلى ربها . فلتتطهر النفس إذن ، ولترغب رغبة صادقة فى الجوهر غير المرئى ، ولتفقد العالم عن طريق التأمل ؛ ولعلها فى لحظة من اللحظات التى تخفت فيها كل ضوضاء الحواس ، وتنقطع المادة عن طرق أبواب العقل ، ستحس فجاءة بأنها مستغرقة فى محيط الكينونة ، فى الحقيقة الروحية النهائية (وقد كتب ثورو وهو يطفو لاهيا على بركة والدن يقول : « لقد فارقت الحياة فى بعض الأحيان ، وبدأت أكون ») : ويقول أفلوطينس :

« فإذا حدث هذا ترى النفس الإلوهية إلى الحد الذى يحق لها أن تصل إليه فى رؤيتها . . . وتشهد نفسها قد أضيئت ، أى ملئت بنور عقلى ؛ أو بعبارة أصح تدرك أنها ضياء خالص ، غير مثقلة ، نشيطة ، خفيفة ، تسير فى طريقها إلى أن تكون إلها »[٤٧] .

ولكن ما هو الإله ؟ يقول أفلوطينس إنه « هو » أيضاً ثالوث — من الوحدة (ben) ، والفكر (nous) ، والنفس (psyche) . و « من وراء

الكائن يوجد الواحد » ؛ وفى خلال الفوضى الظاهرية البادية فى التعدد الدنيوى تسرى الحياة الموحِّدة . ولا نكاد نعرف عن هذا الواحد إلا أنه موجود ، وكل صفة موجبة نصفه بها ، أو ضمير متحيف نحله محله ، تحديد له غير لائق به . وكل ما نستطيع أن نسميه به هو أنه ، واحد ، وأول ، وخيّر ، وأنه هدف رغبتنا العليا . وينشأ من هذه الوحدة العقل العالمى ، وهو المقابل عند أفلاطون للأفكار أى النماذج المشكلة ، والقوانين المتحكمة فى الأشياء ؛ أو أنها أفكار الله أو عقل الواحد ، أو نظام العالم ومعقوليته . وإذ كانت هذه الأفكار تبقى مع أن المادة صور متغيرة من الأشكال التى تأتى وتروح ، فإن هذه الأفكار هى الحقيقة الصحيحة الباقية . ولكن الوحدة والعقل ، وإن أمسكا الكون وحفظاه من التفكك ، لا يخلقانه ؛ بل الذى يخلقه هو العنصر الثالث من عناصر الألوهية — أى العنصر الذى يبعث الحياة والذى يملأ الأشياء جميعها ويكسبها قوتها وصورتها المقررة لها . ولكل شىء ، من الذرّة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، نفس تبعث فيه النشاط ، هى فى ذاتها جزء من النفس العالمية ، والنفس الفردية ليست خالدة إلا من حيث هى باعثة الحياة أو الطاقة لا من حيث هى كائن متميز(٤٩) . وليس الخلود هو بقاء الشخصية ، بل هو اندماج النفس فى الأشياء التى لا تموت(٥٠) .

والفضيلة هى حركة النفس نحو الله ؛ وليس الجمال مقصوراً على التناسق والتناسب كما ظن أفلاطون وأرسطو بل هو النفس الحية ، أو الألوهية غير المنظورة التى فى الأشياء ، وهى غلبة الروح على الجسد ، والصورة على المادة ، والعقل على الأشياء ؛ والفن هو تحويل هذا الجمال العقلى أو الروحى إلى وسط آخر : ويمكن أن تدرب النفس على أن ترتفع من طلب الجمال فى المادة أو فى الصور البشرية إلى طلبه فى النفس الخفية ، فى الطبيعة وسننها ، وفى العلم ، وما يكشف عنه من نظام دقيق بديع ، وإلى طلبه آخر الأمر فى الوحدة القدسية التى تؤلف بين

الأشياء كلها ، بما فيها الأشياء المتنافرة المتعارضة ، وتجعل منها نظاماً متناسقاً سامياً يثير الدهشة والإعجاب[٥١] . والجمال والفضيلة شيء واحد فى نهاية الأمر — وهما اتحاد الجزء مع الكل وتعاونه معه .

« ارجع إلى نفسك وتأمل ، وإذا لم تجد نفسك جميلا فافعل مع ذلك ما يفعله صانع التمثال . . . فهو يقطع هنا ، ويصقل هناك ، ويجعل هذا الخط أخف ، وذاك أنقى ، حتى ينشأ لتمثاله وجه جميل . فافعل أنت مثل فعله : واقطع كل شيء زائد ، وقوّم كل معوج . . . ولا تنقطع عن نحت تمثالك حتى . . . ترى الطيبة الكاملة مستقرة فى الحرم النقى الطاهر »[٥٢].

إنا لنحس فى هذه الفلسفة بما نحس به فى المسيحية المعاصرة لها من جوّ روحانى — نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيوية واتجاهها نحو الدّين ، وفرارها من الدولة إلى الله . وليس بعجيب أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين زميلين وصديقين ، وأن ينشئ كلمنت Clement أفلاطونية مسيحية فى الإسكندرية . وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام ، وهو مسيحى بلا مسيح ، مثله فى هذا كمثل إبكتتس وأورليوس . ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً ، وما أكثر صحائف أوغسطين التى تردد نشوة هذا الصوفى الجليل . وعن طريق فيلون ، ويوحنا ، وأفلوطينس ، وأوغسطين ، غلب أفلاطون أرسطو ، وتعمق فى أبعد أغوار اللاهوت الكنسى ، وأخذت الثغرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً ، ورضى العقل مدى ألف عام أن يسير فى ركاب الدين .

الفصل الرابع

حماة الدين

وهنا كسبت الكنيسة طائفة من المؤيدين كانوا أحصف عقول الإمبراطورية ، منهم أغناثيوس أسقف أنطاكية الذى أنشأ أسرة قوية من « الآباء » جاءوا بعد الرسل ، ووهبوا المسيحية فلسفة غلبوا أعداءها بحججها القوية . ومنهم جستين Justin الذى حكم عليه بأن يُلقى للوحوش لأنه أبى أن يرتد عن دينه ، فكتب ، وهو فى طريقه إلى رومة ، عدداً من الرسائل تفيض إخلاصاً وحماسة وتكشف عن الروح التى كان المسيحيون يلقون بها الموت :

« فليعلم جميع الناس أنى أموت طائعاً فى حب الله ، إذا لم يحل أحد بينى وبين الموت . وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بى رأفة أرى أنها فى غير أوانها ، بل اتركونى تنهشنى السباع التى أستطيع أن أصل عن طريقها إلى الله . . . بل أغروا الوحوش بدلا من هذا أن تلتهمنى فلا تترك قطعة من جسدى ، حتى إذا نمت نومى الأخير لا أكون كلاًّ على أحد من الناس . . . ألا ما أشد شوقى إلى الوحوش التى أعدت لى . . . ألا فليكن من نصيبى النار والصليب [القتل صلباً] ، وقتال الوحوش ، والتقطيع والتمزيق ، وتهشيم العظام ، وبتر الأطراف ، وتحطيم جسمى كله ، وأقسى أنواع العذاب الشيطانى إذا كنت بهذه الطريقة أصل إلى يسوع المسيح »(٥٣) .

وكتب كودراتس Quadratus ، وأثينا جورس Athenagoras وكثيرون غيرهما « دفاعاً » عن المسيحية ، وكانوا يوجهون هذا الدفاع عادة إلى الإمبراطور . وكتب منوسيوس فلكس Minucius Felix حواراً رائعاً يكاد يضارع كتاب شيشرون فى بلاغته ، أجاز فيه لكاسليوس Caecilius

أن يدافع عن الوثنية دفاعاً قويا ، ولكنه جعل أكتاڤيوس يرد عليه بأدب جم كاد يقنع كاسليوس بأن يعتنق المسيحية . ولما جاء جستين Justin السامرى إلى رومة فى عهد أنطونينس افتتح فيها مدرسة لتعليم الفلسفة المسيحية ، وحاول فى « دفاعين » بليغين أن يقنع الإمبراطور و « فرسمس Verissimus الفيلسوف » بأن المسيحيين مواطنون مخلصون ، لا يتوانون عن أداء الضرائب ، وأنهم إذا عوملوا معاملة الأصدقاء قد يصبحون عوناً عظيم القيمة للدولة . وظل عدة سنين ينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى ، ولكن حدة لسانه خلقت له أعداء ، ولهذا استطاع أحد الفلاسفة المنافسين له أن يغرى ولاة الأمور فى عام ١٦٦ بالقبض عليه هو وستة من أتباعه وإعدامهم على بكرة أبيهم . وبعد ست سنين من ذلك الوقت قام إيرينيوس Irenaeus أسقف ليون بحملة قوية يدعو فيها إلى وحدة الكنيسة ، وذلك فى كتابه المسمى معارضة الإلحاد Adversus Haeresse وهو حملة قوية على كافة ضروب الإلحاد . وقد قال إيرينيوس إنه لا سبيل إلى منع المسيحية أن تتفرق فتصبح ألف شيعة وشيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم — وتلك السلطة هى قرارت مجالس الكنيسة الأسقفية .

وكان أجرأ المدافعين عن المسيحية فى تلك الفترة هو كونتس سپتميوس ترتليانس Quintus Septimius Tertuilianus القرطاجنى . وكان مولده فى تلك المدينة حوالى عام ١٦٠ ، وكان والده قائداً رومانيا على مائة ، ولما شب درس البلاغة فى نفس المدرسة التى تعلم فيها أبوليوس Apuleius ، ثم اشتغل بالمحاماة عاماً واحداً فى رومة . واعتنق المسيحية فى كهولته وتزوج بمسيحية ، ونبذ كل اللذائذ الوثنية ورسم قساً (كما يقول جيروم) . فلما تم له هذا استخدم جميع الفنون والأساليب التى عادت عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحى ، وضم إليها حماسة الرجل المؤمن المهتدى إلى دينه . لقد كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية صوفية ؛ فلما اعتنق ترتليان دينـــه الجديد جعل المسيحية اللاتينية ديناً

أخلاقيا ، قانونيا ، عمليا : وكانت له قوة شيشرون وحدته ، وفحش جوڤنال فى هجائه وسفاهته ؛ وكان فى مقدوره أحياناً أن ينافس تيطس فى تركيز كل ما لديه من حقد وضغينة فى عبارة واحدة . وكان إيرنيوس قد كتب باللغة اليونانية ، فلما جاء منوسيوس وترتليان أصبحت الآداب المسيحية فى الغرب لاتينية ، وأصبح الأدب اللاتينى مسيحيا .

وبينا كان الحكام الرومان فى قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة ، وجه ترتليان فى عام ١٩٧ إلى محكمة خيالية أبلغ رسالة من رسائله كلها وهى المعروفة باسم الدفاع Apologeticus أكد فيها للرومان أن المسيحيين « لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة ، وسلامة الأسرة الحاكمة ، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشاً باسلة ، ومجلس شيوخ وفى أمين ، وأن يمن على العالم بالهدوء »[٥٤] . وامتدح عظمة التوحيد ، وقال إنه وجد أدلة عليه عند كتاب ما قبل المسيحية ! « انظروا إلى ما تشهد به النفس ، ذاتها وهى بقطرتها مسيحية »[٥٥] وبعد عام من ذلك الوقت انتقل بسرعة عجيبة من الدفاع المقنع إلى الهجوم العنيف ، وأصدر كتابه المسمى فى المسرح De Spectaculis وهو وصف ساخر للمسارح الرومانية التى قال عنها إنها حصون البذاءة ، وللمدرجات التى وصفها بأنها أكبر دليل على قسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، وختمها بذلك الوعيد المرير :

« وستشهدون مناظر أخرى – مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب : : يوم يحترق هذا العالم الذى بلغ سن الشيخوخة ، ويحترق أهله جميعاً فى لهيب نار واحدة . ألا ما أوسع هذا المنظر فى ذلك اليوم ! وما أشد عجبى ، وأعلى ضحكى ، وأكثر ابتهاجى وطربى حين أرى هذا العدد الجم من الملوك – وكان يظن أنهم ينعمون فى ملكوت السموات – يئنون ويتوجعون فى أعماق الظلام ! – والحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم فى لهب أشد حرارة من جميع

النيران التى أوقدوها . . . ضد المسيحيين ! — وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون معاً ! . . . وممثلى المآسى وهم الآن أعلى صوتاً فى مأساتهم مما كانوا أى يوم من أيام حياتهم ، واللاعبين ذوى الأجسام اللدنة فى أعماق النار ، وسائقى المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب ! »[٥٦] .

وهذا الخيال المفرط فى القوة يخرج صاحبه عن قواعد الدين السليم . ذلك أنه لما تقدمت بترتليان السن انقلب ما كان فيه أثناء شبابه من نشاط فياض يطلب به اللذة ويصرفه فيها ، انقلب إلى تنديد شديد بجميع أسباب السلوى عدا سلوة الدين والأمل فى نعيم الآخرة ، فكان يخاطب المرأة بأوقح الألفاظ ويصفها بأنها « الباب الذى يدخل منه الشيطان » ويقول لها « من أجلك مات يسوع المسيح »[٥٧] .

وكان ترتليان فى يوم من الأيام قد أحب الفلسفة ، وألف فيها ، كتباً ككتاب فى النفس De Anina حاول فيه أن يطبق على المسيحية مبادئ الرواقية فيما وراء الطبيعة . أما الآن فقد نبذ كل تفكير منطقى منفصل عن الإلهام والوحى ، وقصر أسباب بهجته على ما كان يحتويه دينه من أمور لا يصدقها العقل السليم . « لقد مات ابن الله : ذلك شىء معقول لا لشىء إلا أنه مما لا يقبله العقل . وقد دفن ثم قام من بين الموتى : وذلك أمر محقق لأنه مستحيل »[٥٨] . واستغرق الرجل فى تزمت نكد مكتئب بلغ من أمره أن خرج وهو فى الثامنة والخمسين من عمره على المبادئ السليمة للدين المسيحى ، لأنها فى رأيه ملوثة بالأساليب الدنيوية ، واعتنق المبادئ المنتانية(*) لأنه يراها تطبيقا مستقيما سليما لتعاليم المسيح ، وندد بجميع المسيحيين الذين يقبلون أن يكونوا جنوداً ، أو فنانين ، أو موظفين فى الدولة ، وبجميع الآباء الذين لا يحجبون بناتهم وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين ، وانتهى به الأمر أن أطلق على البابا لقب « راعى الزانين » pastor moechorum[٥٩] .

(*) التى كان يقول بها منتانس القريجى . وقد سبق الكلام عليها . (المترجم)

لكن الكنيسة ازدهرت فى أفريقية على الرغم من هذه الأفعال ، فقد قام فيها أساقفة مخلصون من طراز سبريان Cyprian رفعوا أبرشيه قرطاجنة إلى درجة من الغنى والنفوذ لا تقل عما بلغته رومة . أما فى مصر فقد كان نماء الكنيسة أبطأ منه فى قرطاجنة ، وقد اختفت مراحله الأولى من التاريخ فأصبحنا لا نعرف عنها شيئاً . غير أننا نسمع فجاءة فى أواخر القرن الثانى عن مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب قائمة فى مدينة الإسكندرية قرنت المسيحية بالفلسفة اليونانية ، وأخرجت للعالم أبوين من أعظم آباء الكنيسة هما كلمنت وأرجن . وكان كلاهما واسع الاطلاع على الآداب الوثنية ، محبا لها على طريقته الخاصة . ولو أن الروح التى كانت تغمرهما سادت فى ذلك الوقت لما كان لانفصال الثقافة القديمة عن المسيحية ما كان له من أثر متلف شديد .

ولما بلغ أرچينيز ادمنتيوس Origenes Adamantius السابعة عشرة من عمره (٢٠٢) قبض على والده بتهمة أنه مسيحى ، وحكم عليه بالإعدام ؛ وأراد ابنه أن يشاركه فى السجن وفى الاستشهاد ، ولم تستطع أمه أن تمنعه من ذلك إلا بإخفاء ملابسه كلها ، فأخذ يبعث إلى أبيه رسائل يشجعه فيها على احتمال مصيره ؛ وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل : « احذر أن ترجع عن آرائك من أجلنا »[٦٠] . وأعدم الوالد ووقع عبء كفالة الأم والأطفال الصغار على الشاب . وبعث ما شاهده من استشهاد كثيرين من المسيحيين فى نفس أرجن مزيداً من التقى والإيمان ، فعمد إلى حياة الزهد والتقشف ، وأكثر من الصوم ، وأقلل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافياً ، وعرض نفسه للبرد والعرى ؛ وأخيراً عمد إلى خصى نفسه(*) إطاعة للآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى بعد أن تزمت تفسيرها أشد التزمت . وفى عام ٢٠٣ خلف كلمنت فى رياسة

(*) يقول جبن : « وإذ كان من عادة أرجن أن يفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فإن مما يؤسف له فى رأينا أنه فى هذه الحالة وحدها اتبع المعنى الحرفى لتلك الآية »[٦١] .

المدرسة الأفريقية . ومع أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر فقد اجتذب إليه علمه وبلاغته كثيرين من الطلبة وثنيين ومسيحيين على السواء ، وطبقت شهرته جميع أنحاء العالم المسيحى .

ويقدّر بعض القدامى عدد « كتبه » بستة آلاف ؛ وكان الكثير منها بطبيعة الحال نبذاً وجيزة ، وحتى على هــذا الاعتبار قال فيها چيروم متسائلا : « مَن منا يستطيع أن يقرأ كل ما كتب ؟ »(٦٢) ولقد قضى أرجن عشرين عاماً هائماً بحب الكتاب المقدس ، واستخدم طائفة كبيرة من المختزلين والنساخين يضعون فى أعمدة متوازية النص العبرى للعهد القديم ، وإلى جواره ترجمة يونانية حرفية لهــذا النص ، وفى خانة أخرى ترجمة يونانية له منقولة عن الترجمة السبعينية ، وفى رابعة أكويلية وخامسة سيماكوسية وسادسة ثيودوتية(*) .

ثم أخذ يوازن هذه التراجم المختلفة بعضها ببعض ، واستعان بمعرفته باللغة العبرية فأخرج للكنيسة ترجمة سبعينية مصححة ؛ ولكن هذا لم ينقع غلته فأضاف شروحاً بعضها غاية فى الإسهاب إلى كل سِفر من أسفار الكتاب المقدس . ويحتوى كتابه **المبادىء الأولى** Peri archon أول عرض فلسفى منظم للعقيدة المسيحية ؛ وفى كتابه **الشذرات** (Stromateis) أخذ على عاتقه أن يثبت جميع العقائد المسيحية بالرجوع إلى كتابات الفلاسفة الوثنيين . وأراد أن يخفف عن نفسه عبء هذا الواجب الثقيل فاستعان بالطريقة الرمزية الاستعارية التى استطاع بها الفلاسفة الوثنيون أن يوفقوا بين أقوال هومر وبين ما يقبله العقــل المنطق ، والتى بها وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة اليونانية .

ومن أقوال أرجن فى هذا المعنى أن من وراء المعنى الحرفى لعبارات الكتاب

(*) ولم يبق من هذه التراجم الست إلا قطع قليلة . وقد ضاعت كذلك التراجم الرباعية المحتوية على التراجم اليونانية الأربع .

المقدس طبقتين من المعانى أكثر منه عمقاً — هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى — لاتصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة . وكان يرتاب فى صحة ما ورد فى سِفر التكوين إذا فهم بمعناه الحرفى ؛ ويفسر ماكان يلقاه بنو إسرائيل من يهوه من معاملة غير طيبة أحياناً بأن ما وصفت به هذه المعاملة إنما هو رموز ؛ وقال إن القصص الواردة فى الكتاب المقدس والتى تقول إن الشيطان صعد بعيسى إلى جبل عال وعرض عليه ملكوت الأرض ليست إلا أساطير(٦٣) . ويضيف إلى ذلك أن هذه القصص قد اخترعت فى بعض الأحيان لكى توضح بعض الحقائق الروحية(٦٤) . ويقول متسائلا :

« أى رجل عاقل يصدق أن اليوم الأول واليوم الثانى واليوم الثالث ، وأن المساء والصباح ، قد كانت كلها من غير شمس أو قمر أو نجوم ؟ وأى إنسان تصل به البلاهة إلى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الأرض ، وغرس فيها شجرة الحياة . . . حتى إذا ما ذاق إنسان ثمرتها نال الحياة ؟ »(٦٥) .

وإذا ما واصل أرجن أقواله اتضح لقارئه أنه رواقى ، وفيثاغورى حديث ، وأفلاطونى حديث ، وأدرى ؛ وأنه مع هذا كله مصر على أن يكون مسيحيا . ولو أننا طلبنا إلى رجل مثله أن يترك الدين الذى نشر فيه ألف كتاب وتخلى من أجله عن رجولته لكلفناه ضد طباعه . ولقد درس أرجن ، كما درس أفلوطينس على أمونيوس سكاس **Ammonius Saccas** ، وإنا ليصعب علينا أحياناً أن نفرق بين فلسفته وفلسفتهما . فالله عند أرجن ليس هو يهوه ، بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء . وليس المسيح هو الإنسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ؛ وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الأب ، وجعله خاضعاً له(٦٦) . والنفس عند أرجن ، كما هى عند أفلوطينس ، تنتقل فى مراحل وتجسدات متتالية قبل أن تدخل الجسم ، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متالية

مثلها قبل أن تصل إلى الله . وجميع الأنفس حتى أطهرها تتعذب زمناً ما في المطهر ولكنها كلها تنجو آخر الأمر ، وسيكون بعد « اللهب الأخير » عالم آخر ذو تاريخ طويل ، ثم عالم ثالث ، ورابع . . . كل واحد منها خير من سابقه ، وهذه العوالم الكثيرة المتتالية ستحقق على مهل الخطة التي رسمها الله(٦٧) .

ولسنا نعجب إذا رأينا دمتريوس ، أسقف الإسكندرية ، ينظر بعين الريبة إلى الفيلسوف النابه الذي تزدان به أبرشيته والذي يراسل الأباطرة . وقد أدت هذه الريبة إلى أن رفض دمتريوس أن يرسمه قساً بحجة أن الخصاء يجعله غير أهل للكهنوت . ولكن أسقفين فلسطينيين رسماه أثناء سفره في بلاد الشرق الأدنى . واحتج دمتريوس على هذا العمل وقال إن فيه اعتداء على حقوقه ، وعقد مجمعاً من رجال الدين الذين كانوا تحت رياسته ، وألغى هذا المجمع رسامة أرجن ونفاه عن الإسكندرية ، فانتقل إلى قيصرية وواصل عمله في التدريس ، وكتب فيها دفاعه الشهير عن المسيحية المسمى ضد سلسس Contra Ce sum (٢٤٨) ، وقد بلغ من كرمه أن أقر بقوة الحجج التي أدلى بها سلسس ، ولكنه رد عليها بقوله إن كل صعوبة ، وكل فكرة بعيدة عن المعقول ، في العقيدة المسيحية يقابلها في الوثنية آراء أصعب منها وأبعد منها عن العقل ، ولم يستنتج من هذا أن كلتا العقيدتين باطلة ، بل استنتج أن الدين المسيحي يعرض أسلوباً للحياة أنبل مما يستطيع أن يعرضه دين محتضر يدعو إلى عبادة الأصنام .

وامتد اضطهاد ديسيوس للمسيحيين حتى وصل إلى قيصرية في عام ٢٥٠ ، وقبض على أرجن ، وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره ، ومد على العذراء ، وقيد بالأغلال ، ووضع في عنقه طوق من الحديد ، وبقي في السجن أياما طوالا . ولكن الموت عاجل ديسيوس أولا وأطلق سراح أرجن ، غير أن حياته لم تطل بعد ذلك أكثر من ثلاث سنين ، لأن التعذيب ألحق أشد

الضرر بجسمه بعد أن هد الزهد المتواصل قواه ، ومات فقيراً كما كان حين بدأ يعلم الناس ، ولكنه كان أعظم المسيحيين شهرة فى زمنه :

ولما أن ذاعت بدعه ، ولم تعد سراً مقصوراً على عدد قليل من تلاميذه ، رأت الكنيسة أن لا بد لها أن تتبرأ منه ، وطعن البابا أنستيسيوس فى عام ٤٠٠ فى آرائه التجديفية . ولعنه مجلس القسطنطينية ، وأصدر عليه قرار الحرمان فى عام ٥٥٣ . لكننا لا نكاد نجد عالما مسيحيا ممن جاءوا بعده بعدة قرون لم يغترف من بحر علمه الفياض ، ولم يعتمد على كتبه ، وأثر دفاعه عن المسيحية فى عقول المفكرين الوثنيين كما لم يؤثر فيها « دفاع » آخر قبله . وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفوس فحسب ، بل أضحت فوق ذلك فلسفة ناضجة كاملة النماء ، دعامتها الكتاب المقدس ، ولكنها تعتز باعتمادها على العقل .

الفصل الخامس

تنظيم السلطة الدينية

لعل للكنيسة عذرها فى الطعن على ارجن وحرمانه : ذلك أن تفسيراته الرمزية لم تجعل من المستطاع إثبات أى شىء فحسب ، بل إنها فضلا عن ذلك قضت بضربة واحدة على قصص أسفار الكتاب المقدس وعلى حياة المسيح الأرضية ، وأعادت للفرد حقه فى الحكم فى الوقت الذى كانت تقول فيه إنها تدافع عن الدين . يضاف إلى هذا أن الكنيسة ، وقد رأت نفسها وجهاً لوجه أمام حكومة قوية ، أحست بحاجتها إلى الوحدة ، ولم يكن فى وسعها أن تأمن على نفسها إذا رضيت أن تمزقها إلى مائة شيعة صغرى كل ريح تهب عليها من عقل رجل من أتباعها ، أو من عقل زنديق خارج عليها ، أو نبى مشغوف ، أو ابن نابه . وكان سلسس نفسه قد قال ساخراً : إن المسيحيين « تفرقوا شيعاً كثيرة ، حتى أصبح همّ كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً »(٦٨) . واستطاع إيرينيوس أن يحصى فى عام ١٨٧ عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين ، وأحصى إيفانيوس فى عام ٣٨٤ ثمانين ؛ وكانت الأفكار الأجنبية تتسرب إلى العقيدة المسيحية فى كل نقطة من نقاطها ، وأخذ المؤمنون المسيحيون ينضمون إلى هذه الشيع الجديدة . وأحست الكنيسة أن عصر شبابها التجريبى يوشك أن ينتهى ، وأن نضجها سيحل بعد قليل ، وأن عليها أن تحدد مبادئها ، وأن تعلن على الناس شروط العضوية فيها . وكان لا بد لذلك من ثلاث خطوات ليست فيها واحدة سهلة : وضع قانون عام مستمد من الكتاب المقدس ، وتحديد العقائد ، وتنظيم السلطة .

وتفيض الآداب المسيحية فى القرن الثانى بالأناجيل ، والرسائل ، والرؤى ،

و « الأعمال » . ويختلف المسيحيون أشد الاختلاف من حيث قبولهم هذه الكتابات على أنها تعبير صادق عن العقيدة المسيحية أو رفضها . فقد قبلت الكنائس الغربية مثلا سفر الرؤيا ، أما الكنيسة الشرقية فهى بوجه عام ترفضه . وهذه الكنائس الشرقية تعترف بالإنجيل ، كما يقول به العبرانيون ، وبرسائل يعقوب ، أما الكنيسة الغربية فترفضهما . ويذكر كلمنت الإسكندرى ضمن الكتب المقدسة رسالة كتبت فى أواخر القرن الأول الميلادية اسمها تعاليم الرسل الاثنى عشر .

ولما نشر مرسيون « عهداً جديداً » اضطرت الكنيسة إلى العمل لتحديد ما تعترف به وما لا تعترف به من الأناجيل . ولسنا نعرف متى حددت أسفار العهـــد الجديد التى نعرفها الآن واعتُرف بها — أى اعترف بصحة نسبتها لأصحابها وبأنها موحى إليهم بها ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن هتامة لاتينية كشفها مراتورى Muratori فى عام ١٧٤٠ وسميت باسمه ، ويرجع الباحثون تاريخها إلى عام ١٨٠ تقريباً ، نفترض أن هذا التحديد تم قبل ذلك الوقت .

وتكرر اجتماع المجالس والمجامع الكنسية تكراراً متزايداً فى القرن الثانى ؛ واقتصرت فى القرن الثالث على الأساقفة ؛ وقبل أن يختتم ذلك القرن اعترف بأن هـــذه المجالس هى الفيصل الأخير فى العقيدة المسيحية « الكاثوليكية » أى العامة . وتغلب الدين القديم على البدع الدينية لأنه أشبع حاجة الناس إلى عقيدة محددة تخفف من حدة النزاع وتهدئ الشكوك ، لأنه كان مؤيداً بسلطان الكنيسة .

وكانت مشكلة التنظيم تنحصر فى تحديد مركز هذا السلطان . فقد يبدو أن المجامع الدينية المتفرقة ، بعد أن ضعف سلطان الكنيسة الأصلية فى أورشليم ، أخذت تمارس السلطات مستقلة عن هذه الكنيسة وعن بعضها بعضاً ، إلا إذا أنشأتها جماعات أخرى أو كانت تحت حماية هذه الجماعات . لكن

كنيسة رومة كانت تدعى أن الذى أنشأها هو الرسول بطرس وتستشهد بقول عيسى : « أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات »[٦٩]. لكن بعضهم يقول إن هذه العبارة مدسوسة عليه ، وإنها تورية لا يلجأ إليها إلا شيكسبير . غير أنه يحتمل مع هذا أن بطرس ، إن لم يكن هو الذى أوجد الجالية المسيحية فى رومة ، كان يعظها ويخطب فيها ، وأنه عيّن لها أسقفها[٧٠] . وقد كتب إيرنيو (١٨٧) يقول إن بطرس : « عهد إلى لينس Linus بمنصب الأسقفية » . ويؤيد ترتليان (٢٠٠) هـذه الرواية ، ويهيب سبريان (٢٥٢) أسقف قرطاجنة المنافسة الكبرى لرومة بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسى رومة الأسقفى[٧١] .

ولم يترك الأساقفة الأولون الذين تربعوا على « عرش بطرس » أثراً فى التاريخ . ويبرز من بينهم ثالثهم البابا كلمنت(*) مؤلف رسالة باقية إلى الآن أرسلها حوالى عام ٩٦ إلى كنيسة كورنثة يدعو أعضاءها إلى نبذ الشقاق والمحافظة على النظام[٧٢] . وفى هذه الرسالة يتحدث أسقف رومة ، بعد جيل واحد من موت بطرس ، إلى مجمع دينى بعيد حديثَ من له سلطان عليه . وكثيراً ما كان الأساقفة الأخرون يتحدون سلطان أسقف رومة وحقه فى الإشراف على قراراتهم وإن كانوا يعترفون « بأولوية » هـذا الأسقف خليفة بطرس ووارثه . وكانت الكنائس الشرقية تحتفل بعيد القيامة فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى أيا كان ذلك اليوم فى الأسبوع ، أما الكنائس الغربية فقـد أجلت ذلك العيد إلى يوم الأحد التالى لهذا التاريخ .

(*) كان لفظ (بابا) « أب » الذى أصبح فى الإنجليزية Pope يطلق فى الثلاثة القرون الأولى على كل أسقف مسيحى .

ولما زار پوليكارب Polycarp ، أسقف أزمير ، مدينة رومة حوالى عام ١٥٦ حاول أن يقنع أنتسيتس Anticetus ، أسقف رومة ، بأن يحتفل بعيد القيامة فى اليوم الذى تحتفل به فيه الكنيسة الغربية ، لكنه لم يفلح فى محاولته ؛ ولما عاد إلى بلده رفض اقتراحاً ، عرضه عليه البابا ، يقضى بأن تقبل الكنيسة الشرقية التاريخ الغربى . وكرر البابا ڤكتور (١٩٠) طلب أنتسيتس وصاغه فى صيغة الأمر ، فأطاعه أساقفة فلسطين وعصاه أساقفة آسية الصغرى ، فما كان من ڤكتور إلا أن بعث برسائل إلى المجامع الدينية المسيحية يحرم فيها الكنائس التى عصت أمره ؛ واحتج كثيرون من الأساقفة فى الشرق وفى الغرب نفسه على هذا الإجراء الاستبدادى ، ويبدو أن ڤكتور لم يصر على تنفيذ رغبته .

وكان زفرينس Zfephyrinus الذى خلفه (٢٠٢ — ٢١٨) « رجلا ساذجا غير متعلم »(٧٣) ، ولهذا رفع إلى رياسة الشمامسة رجلا كان ذكاؤه أقل باعثاً للريبة من أخلاقه ، ليساعده فى إدارة شئون أسقفية رومة الآخذة فى الاتساع . ويقول أعداء كالستس Callistus إنه بدأ حياته عبداً ، ثم صار من رجال المال والمصارف ، واختلس الأموال المودعة عنده فحكم عليه بالأشغال الشاقة ، ثم أطلق سراحه ؛ وأثار شغباً فى أحد المجامع الدينية فحكم عليه بالعمل فى مناجم سردينية ؛ ولكنه هرب منها بأن احتال على وضع اسمه فى ثبت من أعفى عنهم ، وقضى عشر سنين يعيش فى أنتيوم Antium عيشة قاسى من هدوئها أشد الآلام . ولما عهد إليه زفرينس العناية بالمقبرة البابوية نقلها إلى طريق أپيا Appia فى السرداب المسمى باسمه ، ولما مات زفرينس واختير كالستس Callistus بابا أعلن هپولتس Hippolytus وغيره من القساوسة أنه لا يصلح لمنصبه ، وأقاموا كنيسة وبابوية غير كنيسته وبابويته (٢١٨) . وزادت الخلافات المذهبية هوة الشقاق : ذلك أن كالستس كان يرى أن يعاد إلى حظيرة الكنيسة من ارتكبوا بعد تعميدهم

خطيئة يعاقب عليها بالإعدام ، (كالزنى ، والقتل ، والردة) ثم أعلنو توبتهم . أما هپوليتس فكان يرى أن هذا التساهل مضر أشد الضرر بالدين ، وكتب **دحضا لجميع البدع** مع تأكيد هذه البدعة بنوع خاص ؛ فما كان من كالستس إلا أن أعلن حرمانه ، وأنشأ للكنيسة إدارة حازمة ، وثبت دعائم سلطة كرسى رومة الأسقفى على جميع العالم المسيحى .

وانتهى انشقاق هپوليتس فى عام ٢٣٥ ؛ ولكن قسيسين — هما نوڤاتس Novatus فى قرطاجنة ونوڤاتيان Novatian فى رومة — أعادا هذه البدعة فى أيام البابا كرنليوس Cornelius (٢٥١ — ٢٥٣) ، فأقاما كنائس منشقة محرمة تحريماً قطعياً على الذين يرتكبون الذنوب بعد التعميد . وأخرج مجلس قرطاجنة برياسة سپريان Cyprian ، ومجلس رومة برياسة كرنليوس هاتين الشيعتين المنشقتين من الكنيسة المسيحية . وكانت استعانة سپريان بكرنليوس سبباً فى تقوية البابوية ؛ لكن الشقاق دب بين الكنيستين بعد قليل ، وكان سببه أن البابا استيفن (٢٥٤ — ٢٥٧) قرر أن لاضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة ، فعقد سپريان مجمعا دينيا من أساقفة أفريقية تولى رياسته بنفسه ورفض هذا القرار . وفعل استيفن ما فعله كاتو من قبل فأعلن حرمان أولئك الأساقفة على بكرة أبيهم وشن عليهم حربا شعواء ؛ ولكن موته العاجل سكن هذا النزاع إلى حين ، وحال دون انشقاق كنيسة أفريقية القوية .

وظل كرسى رومة يزداد قوة على قوة فى كل عقد من العقود التالية رغم تجاوزه حقوقه فى فترة ونكوصه فى فترة أخرى ؛ وكان ثراؤه وكثرة صدقاته العامة مما رفع مكانته ؛ وكان العالم المسيحى بأجمعه يستشيره فى كل ما يصادفه من المشاكل الخطيرة ؛ وكان هو يقدم من تلقاء نفسه على تحريم البدع والضلالات ومقاومتها ، وعلى تحديد ما يجب الاعتراف به من الأسفار المقدسة .

لكنه كان ينقصه العلماء الأعلام ، فلم يكن فيه رجال يفخر بهم أمثال ترتليان ، وأرجن ، وسبريان ؛ وكان يعنى بالتنظيم أكثر مما يعنى باللاهوت ، فكان يبنى ويحكم ، ويترك الكتابة والكلام لغيره . وعصاه سبريان ولكن سبريان هو الذى نادى كتابه الكنيسة الكاثوليكية الموحدة بأن كرسى بطرس أو مقره هو مركز العالم المسيحى وأعلى مكان فيه ، وأعلن إلى العالم مبادئ التضامن ، والإجماع ، والثبات التى كانت ولا تزال أساس الكنيسة الكاثوليكية وعمادها(٧٤) . وقبل أن ينتصف القرن الثالث كان مركز البابوية ومواردها المالية قد بلغا من القوة حداً جعل ديسيوس يقسم أنه يفضل أن يكون فى رومة إمبراطور ثان ينافسه عن أن يكون فيها بابا(٧٥) . وهكذا أصبحت عاصمة الإمبراطورية عاصمة الديانة المسيحية .

وأمدت رومة المسيحية بالنظام كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية وكما أمدتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية . وقد دخلت هذه كلها فى بناء الدين المسيحى مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة . ولم يكن كل ما أخذته الكنيسة من رومة هو العادات والمراسم الدينية التى كانت سائدة فى رومة قبل قيام المسيحية — كالبطرشيل وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين ، واستعمال البخور والماء المقدس فى التطهير ، وإيقاد الشموع ووضع ضوء دائم لا ينطفئ أمام المذبح ، وعبادة القديسين ، وهندسة الباسلقا ، وقوانين رومة التى اتخذتها أساسا للقانون الكنسى ، ولقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus الذى أطلق على كبير الأساقفة مضافا إلى اللغة اللاتينية التى أضحت فى القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة للشعائر الكاثوليكية ؛ بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع الذى أمسى بعد عجز السلطة الزمنية صرح الحكم الكنسى ، فلم يلبث الأساقفة ، لا الحكام الرومان ، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان فى

مدائن الإمبراطورية ؛ وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم ، كما حل مجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات ؛ وسارت الكنيسة الرومانية فى الطريق الذى سارت فيه قبلها الدولة الرومانية ، ففتحت الولايات ، وجملت العواصم ، وثبتت دعائم النظام والوحدة على طول الحدود ؛ وقصارى القول أن رومة قضت نحبها وهى تلد الكنيسة ، واكتمل نمو الكنيسة بأن ورثت التبعات الملقاة على رومة ورضيت أن تضطلع بها .

الباب التاسع والعشرون

انهيار الإمبراطورية

١٩٣ – ٣٠٥ بعد الميلاد

الفصل الأول

أسرة سامية

فى أول يوم من شهر يناير سنة ١٩٣ اجتمع مجلس الشيوخ بعد ساعات قليلة من اغتيال كمودس ، فى نشوة البهجة والغبطة واختار للجلوس على عرش الإمبراطورية عضواً من أجل أعضائه وأجدرهم بالاحترام ، استطاع بإدارته العادلة وهو حاكم للمدينة أن ينهج منهج الأنطونيين ويواصل أحسن تقاليدهم . وقبل برتناكس Pertinax ، وهو كاره ، هذا المنصب الخطير الذى يرفع صاحبه إلى مكانة سامية إذا سقط منها هوى إلى الدرك الأسفل . ويقول فيه هيروديان[1] إنه « سلك سلوك الرجل العادى » ، فكان يستمع إلى محاضرات الفلاسفة ، ويشجع الآداب ؛ وقد ملأ خزائن الدولة بالمال ، وخفض الضرائب ، وباع بالمزاد كل ما ملأ به كمودس القصر الإمبراطورى من ذهب وفضة ، وأقمشة مطرزة وحرير ، وجوار حسان . وفى ذلك يقول ديوكاسيوس : « والحق أنه فعل كل ما يجب على العاهل الصالح أن يفعله[2] . وائتمر المعاتيق الذين فقدوا بفضل سياسته الاقتصادية ما كان يعود عليهم من النفع مع الحرس البريتورى الذى ساءه عودة النظام . وفى الثامن عشر من شهر مارس اقتحم ثلثمائة من الجنود

أبواب القصر وقتلوه ، وحملوا رأسه إلى المعسكر على طرف رمح . وحزن الشعب ومجلس الشيوخ عليه وتوارى أعضاؤه عن الأنظار .

وأعلن قواد الحرس أنهم سيضعون التاج على رأس الرومانى الذى يمنحهم أكبر عطاء . وأقنعت ديديوس چليانس Didius Julianus زوجته وابنته بأن يغادر مائدة الطعام ويعرض على زعماء الحرس عطاءه ، فسار إلى المعسكر ، حيث وجد منافساً له يعرض خمسة آلاف درخمة (٣٠٠٠ ريال أمريكى) هبة لكل جندى ثمناً لعرش الإمبراطورية . وصار سماسرة الحرس ينتقلون من مثر إلى آخر ، يشجعونهم على زيادة العطاء ، فلما أن وعد چليانس كل جندى بـ ٦٢٥٠ درخمة أعلن الحرس اختياره إمبراطوراً .

وثارت ثائرة أهل رومة لهذه المذلة المنقطعة النظير ، فأهابوا بالفيالق الرومانية المعسكرة فى بريطانيا ، وسوريا ، وبنونيا أن تزحف على رومة وتخلع چليانس . وغضبت هذه الفيالق لأنها حرمت من العطاء ، فأخذ كل منها ينادى بقائده إمبراطوراً ، وزحفت كلها على رومة . وتفوق لوسيوس سپتميوس سفيرس جيتا Luçius Septimius Severus Geta قائد جيوش بنونيا على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته ، وما قدمه من رشا : وقطع على نفسه عهداً أن يهب كل جندى ١٢٫٠٠٠ درخمة حين يجلس على العرش ؛ وزحف بهم من بلاد الدانوب حتى صار على بعد سبعين ميلا من رومة فى شهر واحد ؛ واستمال إليه الجنود الذين أرسلوا لصده ، وأخضع الحرس البريتورى بأن عرض عليهم أن يعفو عنهم إذا سلموا إليه قوادهم ، وخالف جميع السوابق بدخوله العاصمة ومعه جنوده بكامل سلاحهم ، ولكنه أرضى المستمسكين بالتقاليد القديمة بأن لبس ثياب المدنيين . وعثر طربيون على چليانس يبكى فى قصره من هول تلك الحوادث ، فأخذه إلى حمام وقطع رأسه (٢ يونيه سنة ١٩٣) .

وكانت أفريقية فى هذه الأثناء تهب المسيحية أعظم المدافعين عنها ، وقد ولد

فيها وقتئذ (١٤٦) سبتميوس واجتاز فيها أولى مراحل تعليمه ؛ وكانت نشأته فى أسرة فينيقية تتكلم بهذه اللغة ، ودرس الآداب والفلسفة فى أثينة ، واشتغل بالمحاماة فى رومة . وكان رغم لهجته السامية من أحسن الرومان تربية وأكثرهم علماً فى زمانه ، وكان مولعاً بأن يجمع حوله الشعراء والفلاسفة ، ولكنه لم يترك الفلسفة تعوقه عن الحروب ، ولم يدع الشعر يرقق من طباعه . وكان رجلا وسيم الطلعة ، قوى البنية ، بسيطاً فى ملبسه ، قادراً على مغالبة الصعاب ، بارعاً فى الفنون العسكرية ، مقداماً لا يهاب الردى فى القتال ، قاسى القلب لا يرحم إذا انتصر . وكان لبقاً فكهاً فى حديثه ، نافذ البصيرة فى قضائه[٢] ، قديراً صارماً فى أحكامه[٣] .

وكان مجلس الشيوخ قد أخطأ إذ أعلن تأييده لمنافسه ألبينس Albinus فذهب إليه سبتميوس وحوله ستمائة من رجال الحرس ، وأقنعه بأن يؤيده فى ارتقاء العرش ؛ فلما تم له ذلك أعدم عشرات من أعضائه وصادر كثيراً من ضياع الأشراف حتى آلت إليه أملاك نصف شبه الجزيرة ؛ ثم ملأ الأماكن التى خلت فى مجلس الشيوخ بأعضاء اختارهم بنفسه من بلاد الشرق التى تدين بالنظام الملكى ، وأخذ كبار رجال القانون فى ذلك العصر — پاپنيان Papinian ، وبولس Paulus ، وألپيان Ulpian — يجمعون الحجج التى يؤيدون بها السلطة المطلقة ؛ وأغفل سبتميوس شأن المجلس إلا حين كان يبعث إليه بأوامره ؛ وبسط سلطانه الكامل على أموال الدولة على اختلاف مصادرها ، وأقام حكمه على تأييد الجيش دون خفاء ، وحول الزعامة إلى ملكية عسكرية وراثية ، وزاد عدد رجال الجيش ، ورفع رواتب الجند ، وعمد إلى الإسراف فى أموال الدولة حتى كاد ينضب معينها . ومن أعماله أنه جعل الخدمة العسكرية إلزامية ، ولكنه حرمها على أهل إيطاليا ؛ فأصبحت فيالق الولايات من ذلك الحين هى التى تختار الأباطرة لرومة بعد أن فقدت العاصمة قدرتها على الحكم .

ومن العجائب أن هذا المحارب الواقعى كان يؤمن بالتنجيم ، وأنه كان من أكثر الناس براعة فى تفسير النذر والأحلام . من ذلك أنه لما أن ماتت زوجته الأولى قبل أن يرتقى العرش بستة أعوام عرض على سورية غنية دل طالعها على أنها ستجلس على عرش أن تتزوجه . وكانت هذه الزوجة هى چوليا دمنا Julia Domna إبنة كاهن غنى لإلجابال Elgabal إله حمص . وكان نيزك قد سقط فى تلك المدينة من زمن بعيد وأقيم له ضريح فى هيكل مزخرف ، وأخذ الناس يعبدونه على أنه رمز الإله إن لم يكن هو الإله نفسه مجسما . وجاءت چوليا إلى قصر سپتميوس ، وولدت له ولدين هما كركلا وچيتا Geta ، وارتقت عرشها الموعود . وكانت أجمل من أن تقتصر على زوج واحد ، ولكن مشاغل سبتميوس لم تكن تترك له من الفراغ ما يسمح له بأن يغار عليها . وقد جمعت حولها ندوة من الأدباء ، وناصرت الفنون ، وأقنعت فيلوستراتس بأن يكتب سيرة أپلونيوس التياناني Apollonius of Tyana ويخلع عليه الكثير من أسباب المديح . وكانت قوة أخلاقها ونفوذها مما عجل السير بالملكية نحو الأساليب الشرقية التى وصلت إلى غايتها من الناحية الأخلاقية فى عهد إيلجابالس Elgabalus ومن الناحية السياسية فى عهد دقلديانوس .

وسلخ سپتميوس من حكمه الذى دام ثمانى عشرة سنة فى حروب سريعة وحشية قضى فيها على منافسيه ؛ ودك بيزنطية بعد حصار دام أربعة أعوام. فأزال بعمله هذا حاجزاً كان يقف فى وجه القوط الآخذين فى الانتشار ، وغزا پارثيا ، واستولى على طشقونة ، وضم بلاد النهرين إلى الإمبراطورية ، وعجل سقوط الأسرة الأرساسية المالكة . وأصيب فى شيخوخته بداء النقرس . ولكنه لم يكن يرضى أن يضعف جيشه بعد أن قضى فى السلم خمس سنين ، فزحف به على كلدونيا Caledonia ، وانتصر على الاسكتلنديين فى عدة وقائع غالية الثمن ، انسحب على أثرها إلى بريطانيا ، ثم آوى إلى يورك حيث وافته المنية (٢١١) .

ومما قاله عن نفسه : « لقد نلت كل شيء ، ولكن ما نلته لا قيمة له »(٤)
ويقول هيرُودْيان إن « كركلا قد أغضبه أن تطول حياة أبيه : : : فطلب إلى الأطباء أن يعجلوا بموت الشيخ بأية وسيلة فى متناول أيديهم »(٥) .
وكان سپتميوس قد لام أورليوس حين سلم الإمبراطورية إلى كمودس ، ولكنه هو نفسه أسلمها إلى كركلا وجيتا ، بهذه النصيحة الساخرة : « وفرا المال لجنودكما ولا يهمكما شيء غير هذا »(٦) . وكان آخر إمبراطور مات فى فراشه فى الثمانين عاما التى سبقت وفاته :

ويبدو أن كركلا(*) قد خلق ، كما خلق كمودس ، لكى يثبت أن نصيبه الرجل من النشاط قلما يكفى لأن يجعله عظيما فى حياته وفى قوته الجنسية معا : وقد كان فى صباه وسيما طيعاً ، فلما بلغ رشده أصبح همجيا مفتتنا بالصيد والحرب ، يقتنص الخنازير البرية ، وينازل أسداً بمفرده ، ويحتفظ بعدد من الآساد بالقرب منه فى قصره ، واتخذ واحد منها رفيقا له فى بعض الأحيان يجالسه على مائدته وينام معه فى فراشه(٧) . وكان يستمتع بصحبة المجالدين والجند بنوع خاص ، ويبقى أعضاء الشيوخ زمنا طويلا فى حجرات الانتظار حتى يفرغ من إعداد الطعام والشراب لرفاقه . ولم يكن يرضى أن يشترك معه أخوه فى حكم الإمبراطورية ، فأمر بقتل جيتا فى عام ٢١٢ ، فاغتيل الشاب وهو بين ذراعى أمه ، وخضب أثوابها بدمه . ويقال إنه حكم بالموت على عشرين ألفا من أتباع جيتا ، وعلى كثيرين من المواطنين ، وعلى أربع من العذارى الفستية ، اتهمن بالزنى(٨) . ولما تذمر الجيش على أثر مقتل جيتا أسكته بأن نفحه بهبة تعادل كل ما ادخره سپتميوس من الأموال . وكان يفضل الجنود والفقراء على رجال الأعمال والأشراف ؛ ولعل ما نقرؤه عنه

(*) وقد سمى نفسه بهذا الاسم نسبة إلى الجلباب الغالى الطويل الذى كان يلبسه ، أما اسمه الحقيقى فهو بسيانيوس Bassianius ، ولما جلس على العرش سمى نفسه ماركس أورليوس أنطونينس كركلا .

من القصص التي يرويها ديوكاسيوس ليست إلا انتقاماً كتبه عضو فى مجلس الشيوخ . واشتدت رغبته فى جمع المال فضاعف ضريبة التركات بأن جعلها عشرة فى المائة من مقدار التركة ؛ ولما رأى أنها لا تطبق إلا على المواطنين الرومان وسع دائرة هذه الحقوق حتى شملت جميع الراشدين من الذكور الأحرار فى الإمبراطورية كلها (٢١٢) ؛ فنال هؤلاء حقوق المواطنين حين استتبعت أكثر ما يمكن أن تستتبعه من القروض وأقل ما تستتبعه من السلطان . وأضاف إلى زينات رومة قوساً أقامه لسبتميوس سفيرس لا يزال باقياً إلى اليوم ، وحمامات عامة تشهد خرائبها الضخمة بما كانت عليه من عظمة وجلال ، ولكنه ترك معظم شئون الحكم المدنى لوالدته ، وشغل نفسه بالحروب .

وكان قد عين چوليا دمنا أمينة سره لشئون العرائض والرسائل . وكانت تشاركه أو تحل محله فى استقبال رجال الدولة أو ذوى المكانة العالية من الأجانب . وهمس الوشاة بأن سلطانها عليه ناشئ من مضاجعته إياها ، وأثار الفكهون الجبناء من أهل الإسكندرية حنقه بتشبيههم لها وله بجوكستا Jocasta وأوديب : وأراد أن ينتقم لنفسه من هذه الإهانة وأمثالها من جهة ، ويأمن على نفسه من ثورة تتقد نارها فى مصر أثناء حروبه لپارثيا من جهة أخرى ، فزار المدينة وأشرف بنفسه (كما يؤكد المؤرخون) على قتل جميع أهل الإسكندرية القادرين على حمل السلاح[٩] .

ومع هذا فقد كان منشئ الإسكندرية المثل الذى احتذاه والمطمع الذى يأمل أن يبلغه . وللوصول إلى هذه الغاية أنشأ فيلقاً من ١٦٫٠٠٠ جندى سماه « فيلق الإسكندر » وسلحه بأسلحة مقدونية من الطراز القديم ، وكان يأمل أن يخضع به پارثيا كما أخضع الاسكندر فارس . وبذل كل ما يستطيع من الجهد ليكون جندياً عظيما ، فكان يشارك جنوده فى طعامهم وكدحهم ، وسيرهم الشاق الطويل ، وكان يساعدهم فى حفر الخنادق ، وإقامة الجسور ، ويظهر

الكثير من صروب البسالة فى القتال ، وكثيراً ما كان يتحدى أعداءه ويطلب إليهم أن يبارزوه رجلا لرجل ؛ ولكن رجاله لم يكن لهم مثل ما كان له من رغبة فى قتال البارثيين ، بل كان حبهم للغنائم أكثر من حبهم للقتال ، فقتلوه فى كارى Carrhae التى هزم فيها كراسس (٢١٧ م) . ونادى مكرينس Macrinus قائد الحرس بنفسه إمبراطورا ، وأمر مجلس الشيوخ ، بعد أن أظهر بعض التردد ، بأن يتخذ كركلا إلهاً . ونفيت چوليا دمنا إلى أنطاكية بعد أن حرمت فى خلال ست سنين من الإمبراطورية ، ومن زوجها ، وأبنائها ، فأضربت عن الطعام حتى ماتت .

وكان لها أخت تدعى چوليا ميزا Julia Maesa لا تقل عنها قدرة وكفاية ، فعادت چوليا الثانية إلى حمص ووجدت فيها حفيدين يبشران بمستقبل عظيم . فأما أحدهما فكان ابن ابنتها چوليا سؤامياس Julia Soaemias ، وكان كاهناً شاباً من كهنة بعل ، يسمى ڤاريوس أڤيتس Varius Avitus ، وهو الذى سمى فيما بعد إلجابالس Elgabalus أى « الإله الخالق »(*) . أما الثانى فكان ابن چوليا ماميا Julia Mamaea ابنة ميزا ، وكان غلاماً فى العاشرة من عمره يدعى ألكسيانس Alexianus وهو الذى أصبح فيما بعد الكسندر سفيرس . ونشرت ميزا الشائعة القائلة إن ڤاريوس هو الابن الطبيعى لكركلا ، وإن كان فى واقع الأمر ابن ڤاريوس مرسلس ، وأطلقت عليه اسم بسيانس ؛ ذلك أن الإمبراطورية كانت أفضل عندها من سمعة ابنتها ، وماذا يضيرها بعد أن مات مرسلس والد الشاب . وكان الجنود الرومان فى سوريا قد ألفوا الشعائر الدينية السورية ، وكانوا يشعرون باحترام لهذا القس الشاب الذى لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر تبعثه فى قلوبهم عاطفة دينية قوية . يضاف إلى هذا أن ميزا أوعزت إليهم بأنهم إذ

(*) وقد أخطأ الكتاب اللاتين فترجموا اسمه Heliogabalus إلى « إله الشمس » .

اختاروا ألجابالس إمبراطوراً فإنها ستنفحهم بعطية سنية . ووثق الجند بوعدها لهم وأجابوها إلى ما طلبت . وضمت ميزا بإبهها إلى صفها الجيش الذى سيره مكرينس لقتالها ، ولما أن ظهر مكرينس نفسه على رأس قوة كبيرة ، تردد مرتزقة السوريين فى ولائهم ، ولكن ميزا وسؤامياس قفزتا من مركبتيهما ، وقادتا الجيش المتردد إلى النصر ؛ لقد كان رجال سوريا نساء ، وكانت نساؤها رجالا .

ودخل ألجابالس رومة فى خريف عام ٢١٩ مرتدياً أثواباً من الحرير الأرجوانى موشاة بالذهب الإبريز ، وحذاءين مصبوغين باللون القرمزى ، وكانت عيناه تشعان بريقاً مصطنعاً وكان فى ذراعيه إسورتان غاليتا الثمن ، وفى جيده عقد من اللؤلؤ ، وعلى رأسه الجميل تاج مرصع بالجواهر . وركبت إلى جواره فى موكب فخم جدته وأمه . وكان أول ما فعله حين حضر إلى مجلس الشيوخ أول مرة أن طلب إليه الموافقة على جلوس أمه إلى جانبه لتستمع إلى المناقشات . وأوتيت سؤامياس من الحكمة ما أوحى إليها بالانسحاب ، وقنعت برياسة المجلس الأصغر مجلس النساء الذى أنشأته سابينا ، والذى كان يبحث المسائل المتعلقة بأثواب النساء وحليهن ، وترتيبهن فى الحفلات الرسمية ، وآداب اللياقة وما إليها ، وتركت حكم الدولة لجدة ميزا .

وكان فى أخلاق الإمبراطور الشاب بعض العناصر المحببة . من ذلك أنه لم ينتقم ممن أيدوا مكرينس ، وأنه كان يحب الموسيقى ، ويجيد الغناء ، وينفخ فى المزمار والبوق ، ويضرب على الأرغن : وإذ كان أصغر من أن يحكم الإمبراطورية فإنه لم يطلب أكثر من أن يستمتع بها . ولم يكن معبوده بعل بل كان هذا المعبود هو الشهوة ، وكان معتزماً أن يعبدها بجميع صورها فى الذكور والإناث على السواء : وكان يدعو كل طبقة من الأحرار إلى زيارة قصره ، وكان أحياناً يأكل معهم ويشرب ويمرح ؛ ويوزع عليهم من آن إلى آن جوائز الاقتراع تختلف من بيوت مؤثثة إلى حفنة من الذباب . وكان يحب أن يمزح

مع ضيوفه : من ذلك أنه كان يجلسهم على وسائد منفوخة تتفجر من تحتهم فجاءة ، ويسكرهم حتى يفقدوا وعيهم حتى إذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين فهود ، ودببة ، وآساد أليفة غير مؤذية . ويؤكد لمبريديوس Lampridius أن ألجابالس لم ينفق مرة أقل من ١٠٠٫٠٠٠ سسترس (١٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) على وليمة واحدة لضيوفه ، وربما بلغت نفقات إحدى الولائم ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ . وكان يخلط قطع الذهب بالبازلا ، والعقيق بالعدس ، واللؤلؤ بالأرز ، والكهرمان بالفول . وكان يهدى الخيل والمركبات ، والخصيان ؛ وكثيراً ما كان يأمر كل ضيف أن يأخذ معه إلى منزله الصفحة الفضية والكؤوس التى كان يقدم له فيها الطعام والشراب . وكان يختار لنفسه أحسن كل شيء . فكان الماء الذى فى أحواض سباحته يعطر بروح الورد ، وكانت المشاجب التى فى حماماته من العقيق أو الذهب الخالص ،وكان طعامه من أندر المأكولات وأغلاها ثمناً ، وأثوابه مرصعة بالجواهر من تاجه إلى حذاءيه ، وتقول الشائعات إنه لم يلبس قط خاتماً مرتين . وكان إذا سافر احتاج إلى ٦٠٠ مركبة يحمل فيها متاعه وقواديه . ولما قال له عراف إنه سيموت ميتة عنيفة ، أعد وسائل غالية للانتحار يستخدمها إذا لزم الأمر : منها حبال من الحرير الأرجوانى ، وأسياف من الذهب ، وسموم فى قنينات من الياقوت الأزرق أو الزمرد . غير أنه اغتيل فى مرحاض .

وأكبر الظن أن أعداءه من أعضاء مجلس الشيوخ ومن فى طبقتهم قد اخترعوا أو بالغوا فى بعض هذه القصص ؛ وما من شك فى أن القصص الخاصة بشذوذه الجنسى مما لا يصدقه العقل . وسواء كانت صحيحة أو كاذبة فإنه كان يعطر شهواته بتقواه ، ويعمل على أن ينشر بين الرومان عبادة إلهه السورى بعل ؛ يضاف إلى هذا أنه اختتن وفكر فى أن يخصى نفسه تكريماً لإلهه ؛ وأحضر من حمص الحجر الأسود المقدس وأخذ يعبده بوصفه رمزاً لإلجابال ، وشاد هيكلا مزخرفاً ليضعه فيه ، وحمل إليه الحجر مغلفاً بالجواهر فى عربة تجرها ستة جياد

بيض ، ومشى الإمبراطور أمامها متجهاً بوجهه نحوها وهو صامت إجلالا لهذا الحجر . ولم يكن يجد ما يمنعه أن يعترف بجميع الأديان الأخرى ، فكان يبسط حمايته على اليهودية ، وعرض أن يجعل المسيحية ديناً مشروعاً ، وكل ما كان يصر عليه فى إخلاص يدعو إلى الإعجاب هو أن يكون حجره أعظم الآلهة(١٢) .

وكانت أمه منهمكة فى علتها تنظر إلى هذه المهزلة الدينية نظرة المتسامح الذى لا يعنيه من أمرها شيء ، ولكن جوليا ميزا صممت ، حين عجزت عن وقفها ، على أن تتعجل الكارثة التى ستقضى على هـــذه الأسرة العجيبة من النساء السوريات . ولهذا أقنعت ألجابالس بأن يتبنى الإسكندر ابن عمه ويوصى به قيصراً وخليفة له ؛ وأخذت هى ومامائيا Mamaea تدربان الغلام على واجبات منصبه ، وسلكتا كل السبل التى تجعل مجلس الشيوخ والشعب ينظران إليه على أنه خير بديل للقس المأفون الذى أساء إلى رومة — لا بإسرافه أو فحشه — بل بإخضاعه جوپتر إلى بعل السورى . وكشفت سؤامياس المؤامرة وأثارت الحرس البريتورى على أختها وابن أختها . لكن ميزا ومامائيا كانتا أقوى منها حجة إذا بسطتا أيديهما للحرس بالمال الوفير ، فقتل رجال الحرس ألجابالس وأمه ، وجروا جثته فى شوارع المدينة وحول ساحة الألعاب ، وألقوها فى نهر التيبر ، ثم نادوا بالإسكندر إمبراطوراً ، ووافق مجلس الشيوخ على هذه البيعة (٢٢٢) .

وجلس ماركس أورليوس سفيرس ألكسندر على العرش ، كما جلس عليه سلفه ، فى الرابعة عشرة من عمره . وكانت أمه قد عنيت عناية منقطعة النظير بتدريب جسمه ، وعقله ، وخلقه . وزاد هو شهرته بالجد ورياضة الجسم ، فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم ، ويشرب نحو نصف لتر من الماء قبل كل وجبة ، ويقتصد فى الطعام ، ولا يأكل إلا أبسط الأطعمة . ونشأ غلاماً وسيما ، طويل القامة ، قوى الجسم ، ماهراً فى جميع أنواع الألعاب وفنون الحرب ، ودرس الآداب اليونانية واللاتينية ، ولم يقلل من حبه لهما

وانهاكه فيهما إلا إصرار ماماثيا ، إذ تلت عليه أشعار ڤرچيل التى تهيب بالرومان أن يدعوا جمال الثقافة لغيرهم من الأجناس ، ويعدوا أنفسهم لإقامة دولة عالمية وحكمها فى سلام . وكان بارعاً « ممتازاً » فى التصوير والغناء ، يعزف على الأرغن والقيثارة ، ولكنه لم يكن يسمح لغير أهل بيته بمشاهدة هذه الأعمال . وكان بسيطاً متواضعاً فى ملبسه وأخلاقه « معتدلا فى استمتاعه بالحب ، ولم تكن له قط صلة بالمخنثين »[١٣] . وأظهر احتراماً عظيما لمجلس الشيوخ ، فكان يعامل أعضاءه كأنهم أكفاء له ، ويستضيفهم فى قصره ، وكثيراً ما كان يزورهم فى منازلهم وكان رحيما ، دمث الأخلاق ، يعود المرضى أيا كانت منزلتهم ، ويستمع إلى كل مواطن حسن السمعة ، ويسرع فى العفو عن معارضيه ، ولم يسفك قط دماء مدنى فى الأربعة عشر عاما التى قضاها فى الحكم[١٤] . وعابت عليه أمه لينه وقالت له : « لقد أسرفت فى لين الحكم ، وفى الإقلال من سلطان الإمبراطورية » ؟ فأجابها بقوله : « نعم ، ولكننى جعلتها أبقى أمداً وأقوى دعامة »[١٥] . لقد كان رجلا من ذهب مصفى ، غير مشوب بزغل يقويه على احتمال صعاب هذا العالم ؟ .

وأدرك السخف الذى تنطوى عليه جهود سلفه والتى كانت تهدف إلى استبدال إلجابال بجوپتر ، وتعاون مع والدته فى إعادة الهياكل والشعائر الرومانية إلى سابق عهدها ؛ ولكن عقله الفلسفى هداه إلى أن يرى أن الأديان جميعها أساليب مختلفة لعبادة قوة واحدة عليا ؛ ولهذا أراد أن يعظم جميع الأديان التى تدعو إلى الخير ، ووضع فى معبده الخاص الذى كان يتعبد فيه كل صباح صوراً لجوپتر وأرفيوس ، وأپلونيوس التياناثى ، وإبراهيم ، والمسيح . وكثيراً ما كان يكرر النصيحة اليهودية – المسيحية القائلة : « لا تعامل غيرك بما لا تحب أن يعاملك به الناس » ، وأمر بنقشها على جدران قصره وعلى كثير من جدران المبانى العامة . وكان يوصى شعبه بالتخلق بأخلاق اليهود والمسيحيين : ولكن الذين لم يتأثروا به من

أهل أنطاكية والإسكندرية الفكهين كانوا يلقبونه « رئيس الكنيس » - وكانت أمه تفضل المسيحيين على غيرهم ، وقد بسطت حمايتها على أرجن ، واستدعته ليفسر للناس أصول دينه المرن .

وإذ كانت چوليا ميزا قد توفيت بعد قليل من اعتلاء الإسكندر العرش ، فقد كانت ماماثيا وكان ألپيان معلم الإسكندر هما اللذين يرسمان خططه السياسية ، وإصلاحاته الإدارية . ومن أعمالهما أنهما اختارا ستة عشر من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وألفا منهم مجلساً إمبراطورياً وقررا ألا ينفذ عمل من الأعمال الكبرى إلا إذا وافق عليه . ولما أن تزوج الإسكندر وأظهر تحيزاً ظاهراً لزوجته بسبب حبه لها أمرت ماماثيا بنفيها ولم ير الإسكندر بداً من الاستسلام لوالدته . ولما كبر زاد نصيبه فى إدارة شئون الدولة فكان « يعنى بالشئون العامة قبل مطلع الفجر » ، كما يقول كاتب سيرته القديم ، « ويوالى النظر فى هذه الشئون زمناً طويلا ، دون ملل أو غضب ، بل يبقى على الدوام مرحاً هادئاً رضياً »[١٦] .

وكانت خطته الأساسية تهدف إلى إضعاف سيطرة الجيش المؤدية إلى انحلال الدولة ، وذلك بإعادة هيبة مجلس الشيوخ والأشراف ؛ فقد كان يبدو له أن حكم الأشراف ذوى الأصول السامية هو البديل الوحيد من حكم المال ، أو الخرافات ، أو السيف ؛ وقد استطاع بمعونة مجلس الشيوخ أن ينفذ مئات الخطط التى أدت إلى اقتصاد كبير فى نفقات الإدارة ، ففصل عدداً كبيراً من الموظفين الزائدين على الحاجة فى قصره ، وفى المناصب الحكوميه ، وفى الولايات ؛ وباع معظم ما كان فى خزائن الإمبراطور من جواهر ، وأودع ثمنها فى بيت المال .

وأصدر قرارات اعترف فيها بهيئات العمال والتجار ، وشجعها وأعاد تنظيمها ، وأجاز لهذه الهيئات أن تختار محامين عنها من بين أعضائها[١٧] . ولعل مجلس الشيوخ كان أقل رضاء عن هذا العمل منه عن أعماله الأخرى ، وقد فرض رقابة شديدة على الأخلاق العامة فأمر بالقبض على العاهرات ونفى

ذوى الميول الجنسية الشاذة . ومع أنه خفض الضرائب فقد أعاد بناء الكلوسيوم وحمامات كركلا ، وشاد مكتبة عامة وقناة ماء طولها أربعة عشر ميلا ، وحمامات للبادية جديدة ، وبذل المال بسخاء لإنشاء الحمامات وقنوات الماء والطرق فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وعمل على تخفيض فائدة الديون التى كانت ترهق المدينين فأقرض المال من خزانة الدولة بفائدة أربعة فى المائة ، وأعطى الفقراء المال من غير فائدة ليشتروا به أرضاً زراعية . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن عم الرخاء جميع أجزاء الإمبراطورية ، وأن قدرت له أعماله وأثنت عليه ، وأن خيل إلى جميع الناس أن أورليوس التقى العظيم قد عاد إلى الأرض وإلى السلطان .

ولكن الفرس والألمان اغتنموا فرصة وجود هذا الإمبراطور القديس على العرش ، كما اغتنموا فرصة وجود سميه الإمبراطور الفيلسوف ، فغزا أردشير رأس الأسرة الساسانية فى فارس بلاد النهرين فى عام ٢٣٠ وهدد سوريا . وبعث إليه الإسكندر برسالة فلسفية يلومه فيها على عنفه ويقول له إنه « يجب على كل إنسان أن يقنع بما لديه من أملاك »(١٨) . واستنتج أردشير من هذه الرسالة أنه ضعيف خوار العود فرد عليه بأن طلب سوريا وآسية الصغرى ، فما كان من الإمبراطور الشاب إلا أن امتشق الحسام ونزل إلى الميدان مصحوباً بوالدته ، وخاض غمار موقعة غير فاصلة أظهر فيها من البسالة أكثر مما أظهر من الدهاء . ولا يذكر التاريخ إلا النزر اليسير عن انتصاراته وهزائمه ، ولكن الحرب أسفرت عن انسحاب أردشير من بلاد النهرين ، ولعله انسحب ليرد هجوماً وقع على حدوده الشرقية ؛ وتصور النقود الرومانية الإسكندر متوجاً بإكليل الظفر ومن تحت قدميه نهرا دجلة والفرات .

ورأت قبائل الألمان والمركمان أن حاميات الرين والدانوب قد سحبت لإمداد فيالق سوريا فاقتحمت الطرق الرومانية المحصنة وعاثت فساداً فى بلاد غالة الشرقية ، ولكن الإسكندر جاء إليها مع ماميا بعد الفراغ من احتفاله

بالنصر على الفرس ، وانضم إلى جيشه ، وسار على رأسه إلى ميتز Mainz ، وعمل بنصيحة والدته فأخذ يفاوض العدو ويعرض عليه مبلغاً سنوياً من المال نظير احتفاظه بالسلم . ولكن جنوده رأوا فى هذا العمل ضعفاً واستسلاماً فتمردوا عليه ، ولم يكونوا قد غفروا له شحه ، وتشدده فى حفظ النظام ، وإخضاعهم لمجلس الشيوخ ولحكم امرأة ، ونادوا بيوليوس مكسمينس قائد فيالق پانونيا إمبراطوراً . واقتحم جنود مكسمينس خيمة الإسكندر ، وقتلوه هو وأمه وأصدقاءه (٢٣٥) .

الفصل الثانى

الفـــوضى

لم يكن من نزوات التاريخ أن أصبح الجيش صاحب السلطة العليا فى القرن الثالث ، بل كان هذا أمراً طبيعياً . ذلك أن عوامل داخلية أضعفت الدولة وتركتها معرضة للغزو من جميع الجهات ، وكان وقف التوسع بعد أيام تراجان ، ثم بعد أيام سپتميوس ، إيذاناً ببدء الهجوم عليها ، فأخذ البرابرة يفتحون بلادها باتحادهم على غزوها ، كما كانت رومة تفتح بلادهم بتفريقهم . وزادت ضرورة الدفاع من قوة الجيش ورفعت مكانة الجندية ، وجلس القواد على العرش محل الفلاسفة ، وخضع آخر حكم الأشراف لعودة حكم القوة .

وكان مكسمينس جندياً طيباً لا أكثر ، وكان ابن فلاح تراقى . ونشأ صحيح الجسم قوى البنية ، ويؤكد المؤرخون أن طول قامته كان يبلغ ثمانى أقدام ، وأن إبهامه كانت من الغلظة بحيث كان يلبس فيها إسورة زوجته كما يلبس الخاتم . ولم ينل شيئا من التعليم : وكان يحتقر المعلمين ويحسدهم فى وقت واحد ، ولم يزر رومة مرة واحدة فى الثلاث السنين التى تولى فيها الملك بل كان يفضل حياة معسكره على الدانوب أو الرين . وقد اضطرته حاجته إلى المال لينفق منه فى حروبه وفى استرضاء جنوده إلى فرض ضرائب فادحة على الأغنياء أغضبتهم فلم يلبثوا أن ثاروا على حكمه ، وقبل جرديانس حاكم أفريقية الثرى المتعلم ترشيح جيشه له إمبراطوراً منافساً لمكسمينس . وإذ كان وقتئذ فى الثمانين من عمره فقد أشرك معه ولده فى هذا المنصب المهلك . وعجزا جميعاً عن الوقوف فى وجه القوى التى سيرها عليهما مكسمينس وقتل الابن فى ميدان القتال أما الأب فقتل نفسه ، وثأر مكسميفس لنفسه بأن حكم على عدد كبير من الأشراف بالقتل والنفى ، ومصادرة

أملاكهم حتى كاد يقضى على هذه الطبقة . وفى ذلك يقول هروديان Herodian « وكان فى وسع الإنسان أن يرى فى كل يوم أغنى الأغنياء بالأمس يصبح متسولا .»(١٩) . وقاومه مجلس الشيوخ الذى أعاد سفيرس تكوينه وقواه أشد المقاومة ، فأعلن أن مكسمينس خارج على القانون ، واختار اثنين من أعضائه هما مكسمس Maximus وبلبينس Balbinus إمبراطورين . وسار مكسمس على رأس جيش هزيل لملاقاة مكسمينس ، فانحدر هذا من جبال الألب وحاصر أكويليا Aquileia . وكان مكسمينس أفضل القائدين ، وكانت لديه أكبر القوتين ، ولاح أن مجلس الشيوخ وطبقات الملاك سيلقيان مصيرهما المحتوم ؛ ولكن جماعة من جنود مكسمينس الذين كانوا حانقين عليه لأنه وقع عليهم عقاباً وحشياً قتلوه غيلة فى خيمته . وعاد مكسمس ظافراً إلى رومة ، حيث اغتاله الحرس البريتورى هو وبلبينس ، واختار جرويانس الثالث إمبراطوراً ، وأيد مجلس الشيوخ هذا الاختيار .

ولسنا نريد أن نذكر بالتفصيل الممل أسماء الأباطرة الذين جلسوا على العرش فى هذا العصر الدموى الذى سادته الفوضى ، ولا أن نذكر وقائعهم الحربية وقتلهم ومماتهم . وحسبنا أن نقول إن سبعة وثلاثين رجلا نودى بهم أباطرة فى الخمسة والثلاثين عاماً الواقعة بين حكم ألكسندر سفيرس وأورليان : وقتل جرديان الثالث جنــودُه وهو يحارب الفرس (٢٤٤) ، وهزم ديسيوس Decius فليب العربى الذى خلفه على العرش وقتله فى فرونا Verona (٢٤٩) ؛ وكان فليب هذا رجلا من أهل إلبريا ، وكان ثرياً مثقفاً مخلصاً لرومة إخلاصاً خليقاً بالشرف الذى ناله فى القصص القديم ؛ وقد وضع فليب هذا فى أثناء فترات السلم التى تخللت حرب القوط برنامجاً واسعاً ليعيد به إلى رومة دينها وأخلاقها ، وعاداتها الصالحة ، وأصدر أوامره بالقضاء على المسيحية . ثم عاد إلى نهر الدانوب ، والتقى بالقوط ، وشهد بعينه مقتل ابنه إلى جانبه ، وأعلن فى جيشه الهياب المتردد أن خسارة فرد من الأفراد لا قيمة لها البتة ، وهاجم جيش العدو ، وقتل هو فى هزيمة .

من أقسى الهزائم التى أصابت الرومان فى تاريخهم كله (٢٥١) . وخلفه جالس Gallus الذى قتله جنوده (٢٥٣) ، وجاء بعدهما إيمليانس Aemilianus وقد قتله هو الآخر جنوده فى العام نفسه .

وكان ڤليريان Valerian الإمبراطور الجديد فى سن الستين.، ولما جلس على العرش اضطر لملاقاة الفرنجة ، والألمان ، والمركمان ، والقوط ، والسكوذيين ، والفرس فى وقت واحد : ولهذا عين ابنه جلينس Gallienus حاكما على الإمبراطورية الغربية ، واحتفظ لنفسه بالشرق . وزحف بجيش على أرض النهرين ولكن كبر سنه أعجزه عن القيام بهذا الواجب الذى يحتاج إلى قوة أعظم من قوته فلم يلبث أن ناء به . وكان جلينس وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان شجاعاً ، ذكياً ، مثقفاً ثقافة لا تكاد تتفق مع أحوال ذلك القرن المليء بالحروب الوحشية وقد أصلح دولاب الإدارة المدنية فى الغرب ، وقاد جيشه من نصر إلى نصر على أعداء الإمبراطورية عدواً بعد عدو ، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت يأخذ فيه بناصر الفلسفة والآداب ، وأحيا الفن القديم إحياء لم يدم طويلا ، ولكن عبقريته المتعددة الجوانب لم تقو على مغالبة الشرور التى تجمعت فى ذلك الوقت .

فى عام ٢٥٤ أغار المركمان على پنونيا وشمالى إيطاليا ، وفى عام ٢٥٥ غزا القوط مقدونية ودلماشيا ، وهاجم السكوذيون والقوط آسية الصغرى ، وأغار الفرس على سوريا . وفى عام ٢٥٧ استولى القوط على مملكة بسپورس ، ونهبوا المدن اليونانية الواقعة على شاطئ البحر الأسود ، وحرقوا طرابزون ، وساقوا أهلها عبيداً وإماء ، وأغاروا على پنطس . وفى عام ٢٥٨ استولوا على خلقدون ، ونيقوميديا . وبروصه ، وأپاميا ، ونيقية ؛ واستولى الفرس فى العام نفسه على أرمينية ، ونادى پستيومس بنفسه حاكما مستقلا على غالة . وفى عام ٢٥٩ أغار الألمان على إيطاليا ، ولكن جالينس هزمهم عند ميلان . وفى عام ٢٦٠ هزم الفرس

ڤلبريان عند الرها ومات أسيراً في زمان ومكان غير معروفين إلى اليوم .
وتقدم شابور الأول وفرســانه الخفاف الكثيرون مخترقين سوريا إلى أنطاكية ، وباغتوا أهلها وهم يشهدون الألعاب ، ونهبوا المدينة ، وقتلوا آلافاً من أهلها ، وساقوا آلافاً آخرين عبيداً ، واستولوا على طرسوس وخربوها ، وعاثوا فساداً في قليقية وكپدوكية ، وعاد شابور إلى بلاد الفرس مثقلا بالغنائم . وحلت بروما في مدى عشر سنين ثلاث مآس أذلتها وجللتها العار : ذلك أن إمبراطوراً رومانياً خر لأول مرة صريعاً مهزوماً في ميدان القتال ، وأسر العدو إمبراطوراً آخر ، وضحى بوحدة الإمبراطورية استجابة لضرورة ملاقاة الأعداء الذين أغاروا عليها من جميع الجهات . وضعضعت هذه الضربات وما صحبها من رفع الجنود الأباطرة على العرش واغتيالهم ، أركان الإمبراطورية ، وقضت على هيبتها ، وفقدت هذه القوى النفسية التي أنزلها الزمان منزلة القداسة وخلع عليها سلطاناً يألفه الناس ولا يسألون عن مبرراته ، نقول فقدت هذه القوى سيطرتها على أعداء رومة بل فقدتها أيضاً على رعاياها ومواطنيها ، فاندلع لهيب الثورة في كل مكان : ففي صقلية وغالة ثار الفلاحون الذين طال عليهم أمد الظلم ثورات عنيفة ، وفي پنونيا نادى إنچينس بنفسه حاكما مستقلا على الولايات الشرقية : وفي عام ٢٦٣ سار القوط بحراً بإزاء سواحل أيونيا ، ونهبوا إفسوس ، وأحرقوا هيكل أرتميس الفخم ، وساد الإرهاب جميع بلاد الشرق الهلنستي .

ولكن الإمبراطورية في آسية نجت على يدى حليف غير متوقع . ذلك أن أوناثس ، الذى كان يحكم تدمر خاضعا لسلطان رومة طرد الفرس من أرض الجزيرة ، وهزمهم في طشقونة (٢٦١) ، ونادى بنفسه ملكا على سوريا ، وقليقية ، وبلاد العرب ، وكپدوكية ، وأرمينية . ثم اغتيل في عام ٢٦٦ ، وورث ابن له شاب ألقابه ، وورثت أرملته سلطاته .

وقد جمعت زنوبيا ، كما جمعت كليوبطرة التي تدعى هي أنها من نسلها ،

إلى جمال الخلق ، براعة فى الحكم ، وكثيراً من أسباب ثقافة العقل . وقد درست آداب اليونان وفلسفتهم ، وتعلمت اللغات اليونانية ، والمصرية ، والسريانية ، وكتبت تاريخاً لبلاد الشرق . ويلوح أنها جمعت بين العفة والقوة والنشاط ، فلم تبح لنفسها من العلاقات الجنسية إلا ما يتطلبه واجب الأمومة[٢٠] . وعودت نفسها تحمل التعب والمشاق ، وكانت تستمتع بأخطار الصيد ، وتسير على قدميها أميالا طوالا على رأس جيشها . وجمعت فى حكمها بين الحكمة والصرامة ، وعينت الفيلسوف لنجينس رئيساً لوزرائها ، وأحاطت نفسها فى بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين ، وجملت عاصمة ملكها بالقصور اليونانية — الرومانية — الأسيوية التى يدهش لها عابر الصحراء فى هذه الأيام .

وأحست أن الإمبراطورية تتقطع أوصالها ، فاعتزمت إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين ، وأخضعت لسلطانها كيدوكية ، وغلطية ، والجزء الأكبر من بيثينيا ، وأنشأت جيشاً عظيما وعمارة بحرية ضخمة ، فتحت بهما مصر واستولت على الإسكندرية بعد حصار هلك فيه نصف سكانها . وتظاهرت « ملكة الشرق الداهية » أنها تعمل نائبة عن الدولة الرومانية ، ولكن العالم كله كان يدرك أن انتصاراتها لم تكن إلا فصلا من مسرحية واسعة النطاق هى مسرحية انهيار رومة .

وعرف البرابرة ثروة الإمبراطورية وضعفها ، فتدفقوا على بلاد البلقان واليونان . وبينا كان السرماتيون يعيثون فساداً من جديد فى المدن القائمة على شواطئ البحر الأسود ، كان فرع من فروع القوط يسير فى خمسمائة سفينة مخترقا مضيق الهلسپنت إلى بحر إيجه ، ويستولى على جزائره جزيرة فى إثر جزيرة ، ويرسو فى ميناء بيريه ، وينهب أثينة ، وأرجوس ، واسپارطة ، وكورنثة ، وطيبة (٢٦٧) . وبينا كان أسطولهم يعيد بعض المغيرين إلى البحر الأسود ، كانت جماعة أخرى منهم تشق طريقها براً نحو موطنها على نهر الدانوب . والتقى

بهم جالينس على نهر نستس فى تراقية ، وانتصر عليهم فى معركة خسر فيها كثيراً ولكن جنوده اغتالوه بعد سنة واحدة من هذا النصر . وانقضت جموع أخرى من القوط فى عام ٢٦٩ على مقدونية وحاصرت تسالونيكى ، ونهبت بلاد اليونان ، ورودس ، وقبرص ، وشواطئ أيونيا . وأنقذ الإمبراطور كلوديوس الثانى تسالونيكى ، وطرد القوط إلى أعالى وادى الواردار ، وهزمهم عند نايسس (وهى نيش الحديثة) هزيمة منكرة قتل فيها منهم مقتلة كبيرة (٢٦٩) . ولو أنه خسر هذه المعركة لما وقف جيش بين القوط وإيطاليا .

الفصل الثالث

التدهور الاقتصادى

لقد عجلت الفوضى السياسية تدهور الإمبراطورية الاقتصادى ، كما عجل التدهور الاقتصادى انحلال البلاد السياسى ، فكان كلاهما سبباً للآخر ونتيجة له . وكن سبب الضعف الاقتصادى أن ساسة الرومان لم يقيموا قط فى إيطاليا حياة اقتصادية سليمة ، ولعل سهول شبه الجزيرة الضيقة لم تكن فى يوم من الأيام أساساً قوياً تبنى عليه آمال الدولة الإيطالية العالية : وكان يقلل من إنتاج الحبوب منافسة الحبوب الرخيصة الواردة من صقلية ، وأفريقية ، ومصر ، كما أن الكروم العظيمة أخذت تفقد أسواقها التى استولت عليها كروم الأقاليم . وشرع الفلاحون يشكون من أن الضرائب الفادحة تستنفد مكاسبهم المزعزعة ولا تترك لهم من المال ما يحفظون به قنوات الرى والصرف صالحة ، فانطمرت القنوات ، وانتشرت المستنقعات ، وأنهكت الملاريا سكان كمبانيا وروما . ويضاف إلى هذا أن مساحات واسعة من الأرض الخصبة قد حولت من الزراعة إلى مساكن للأثرياء أصحاب الضياع الواسعة ؛ وكان أصحاب هذه الضياع البعيدون عنها يستغلون العمال والأرض إلى أقصى حدود الاستغلال ، ويبررون عملهم هذا بمشروعاتهم الإنسانية فى المدن . وازدهرت العمائر الفخمة وألعاب الرياضة فى المدائن فى الوقت الذى أقفر فيه الريف ، ومن أجل ذلك هجر كثيرون من ملاك الأراضى وعمال الريف الأحرار المزارع إلى المدن وتركوا الجزء الأكبر من الأراضى الزراعية الإيطالية ضياعاً واسعة يقوم بالعمل فيها أرقاء كسالى مهملون : ولكن هذه الضياع نفسها قضت عليها السلم الرومانية ونقص عدد حروب الفتح فى القرنين الأول والثانى ، وما نشأ عن ذلك من قلة الإنتاج ، وارتفاع النفقات ، وكثرة الأرقاء .

وأراد كبار الملاك أن يغروا العمال الأحرار بالعودة إلى الأعمال الزراعية ، فقسموا أملاكهم وحدات أجروها إلى « الزراع » (Coloni) ؛ يتقاضون منهم أجوراً نقدية منخفضة أو عشر المحصول ، وجزءاً من الوقت يقضونه فى العمل من غير أجر فى بيت المالك الريفى أو فى أرضه الخاصة . وقد وجد الملاك فى كثير من الأحيان أن من مصلحتهم أن يعتقوا العبيد ويجعلوهم زراعاً من هذا النوع ، وأخذ هؤلاء الملاك فى القرن الثالث يزدادون رغبة فى سكنى بيوتهم الريفية يدفعهم إلى هذا أخطار الغزو الأجنبى والثورات الداخلية فى المدن ؛ وحصنوا بيوتهم فاستحالت قلاعاً منيعة أصبحت بالتدريج قصور العصور الوسطى(*) .

وقوى نقص الأرقاء إلى وقت ما مركز العمال الأحرار فى الصناعة وفى الزراعة على السواء . ولكن فقر الفقراء لم ينقص على حين أن موارد الأغنياء التهمتها الحروب ومطالب الحكومة[٢٢] . وكانت الأجور وقتئذ تتراوح بين ٦ و ١١ فى المائة من نظائرها فى الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل القرن العشرين ، وكانت الأثمان نحو ثلاثين فى المائة من أثمان الولايات المتحدة فى ذلك الوقت[٢٣] . وكانت حرب الطبقات آخذة فى الاشتداد لأن الجيش المجند من فقراء الأقاليم كثيراً ما كان ينضم إلى من يهاجمون أصحاب الثروة ، وكان يشعر بأن ما يؤديه للدولة من خدمات يبرر ما تفرضه عليهم ضرائب تبلغ حد مصادرة أموالهم لتعطى

(*) وأكبر الظن أن هذا النظام الزراعى الذى وصفناه فى المتن قد بدأ على نطاق أوسع من هذا النطاق حين أسكن أورليوس الأسرى الألمان فى ضياع الإمبراطورية (١٧٢) ، وجعل هذه الضياع ملكاً لهم يتوارثونه ، مشترطاً عليهم أن يؤدوا له ضريبة سنوية ، وخدمة عسكرية إذا طلب إليهم أداءها ، وأن يتعهدوا له بألا يغادروا هذه الأملاك من غير إذن الدولة . وفرضت هذه الشروط عينها على الجنود الرومان القدامى الذين أقطعوا أرضاً على الحدود وخاصة فى « الأراضى العشورية (agri decumates) — على ضفاف الدانوب والرين[٢١] . وانتشر هذا النظام انتشاراً واسعاً فى عهد سپتميوس سڤيرس ، إذ قسم الأراضى التى استولى عليها أجزاء يزرعها مستأجرون يؤدون عنها ضرائب نقداً أو عيناً . وحذا سپتميوس حذو البطالمة ، وحذا الملاك الأفراد حذوه . فبدأ هذا النظام الزراعى بالملوك ، ونشأ عنه النظام الإقطاعى الذى قضى على الملكية .

منها هبات لهم ، أو أن تنهب أموال الأغنياء نهباً سافراً[٢٤] . وتأثرت الصناعة بكساد التجارة ونقصت تجارة الصادر الإيطالية حين انتقلت الولايات من عميلات لإيطاليا إلى منافسات لها ؛ وجعلت الغارات والقرصنة الطرق التجارية غير مأمونة كما كانت قبل عهد بمبي ؛ وكان انخفاض قيمة العملة وتقلب الأثمان من العوامل غير المشجعة للمشروعات الطويلة الأجل ، ولما أصبحت إيطاليا عاجزة عن توسيع حدود الإمبراطورية ، لم يعد فى مقدورها أن تزدهر بأن تمد بالسلع دولة آخذة فى الاتساع ، أو أن تستغل موارد هذه الدولة : وكانت فيما مضى من الأيام تجمع سبائك الذهب والفضة من البلاد المفتوحة ، وتملأ خزائنها بما تنهبه من أموال هذه البلاد ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن النقود كانت تهاجر إلى الولايات الهلنستية الأكثر تصنيعاً من إيطاليا ، وأخذت هى تزداد على مر الأيام فقراً ، فى الوقت الذى كانت فيه ثروة آسية الصغرى المطردة الزيادة تحتم أن تستبدل برومة عاصمة شرقية للإمبراطورية . واقتصرت المصنوعات الإيطالية على الأسواق المحلية ، ووجدت الأهلين أفقر من أن يبتاعوا السلع التى كان فى وسعهم أن ينتجوها[٢٥] . يضاف إلى هذا أن التجارة الداخلية كان يقف فى سبيلها قطاع الطرق ، والضرائب المتزايدة ، وتلف الطرق لقلة العبيد . وأضحت بيوت الأثرياء فى الريف تنتج حاجتها من السلع وتكفى نفسها بنفسها ، وحلت المقايضة فى التجارة محل النقود ، كما حلت الحوانيت الصغيرة عاما بعد عام محل الإنتاج الكبير وكانت تسد حاجة الإنتاج المحلى بنوع خاص .

وزاد الطين بلة كثرة الصعاب المالية ، ذلك بأن المعادن الثمينة أخذت تقل شيئا فشيئا لأن مناجم الذهب فى تراقية ومناجم الفضة فى آسية تناقص إنتاجها ، وكانت داشيا وما فيها من الذهب توشك أن تخرج من يد أورليان . وكانت الفنون والحلى تستنفد كثيراً من الذهب والفضة . وواجه الأباطرة من سبتميوس سفيرس ومن جاءوا بعده هذا النقص الشديد فى الوقت الذى كانت فيه الحروب

لا تخبو نارها أبداً ، فلجئوا أكثر من مرة إلى إنقاص نسبة ما فى النقود من ذهب أو فضة لكى يستطيعوا القيام بنفقات الدولة أو حاجات الحرب . فقد كان ما فى الدينار من معدن خسيس أيام نيرون عشرة فى المائة ، وبلغ فى عهد كمودس ثلاثين ، وفى عهد سپتميوس خمسين ، واستبدل به كركلا الأنطونتيانس Antoninianus المحتوى على خمسين فى المائة من وزنه فضة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٦٠ نقصت نسبة ما فيه من فضة إلى خمسة فى المائة[٢٦] .

وأصدرت دور السك الحكومية كميات لم يسبق لها مثيل من العملة الرخيصة ، وكثيراً ما كانت الدولة ترغم الناس على أن يقبلوا هذه النقود بقيمتها الاسمية ، بدل قيمتها الحقيقية ، وكانت فى الوقت نفسه تأمر بأن تؤدى الضرائب ذهباً أو عينا[٢٧] . وأخذت الأثمان ترتفع ارتفاعا سريعا ، فزادت فى فلسطين إلى ألف فى المائة من القرن الأول إلى القرن الثالث[٢٨] . وفى مصر لم يعد فى مقدور الحكومة وقف تيار التضخم ، حتى صار مكيال القمح الذى كان يباع بثمان درخمات فى القرن الأول يباع بمائة وعشرين ألف درخمة فى أواخر القرن الثالث[٢٩] . ولم تصل الحال فى الولايات الأخرى إلى مثل هذا الحد ، ولكن التضخم فى عدد كبير منها خرب بيوت الكثيرين من أهل الطبقة الوسطى وأضاع أموال المواثقات والمؤسسات الخيرية وزعزع قواعد جميع الأعمال المالية ، فأحجم الناس عنها ، وأضاع جزءاً كبيراً من رؤوس الأموال المستخدمة فى التجارة والاستثمار والتى كانت تعتمد عليها حياة الإمبراطورية .

ولم يكن الأباطرة الذين جاءوا بعد پرتناكس ليسوءهم انعدام طبقة الأشراف وطبقة الملاك الوسطى على هذا النحو . ذلك بأنهم كانوا يشعرون بحقد طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار عليهم بسبب أصلهم الأجنبى ، واستبدادهم العسكرى ، واغتصابهم أموالهم . ولذلك تجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والأباطرة وكانت قد خبت نارها من عهد نيرون إلى عهد أورليوس ؛ وأقام الأباطرة سلطانهم

قاصدين متعمدين على ولاء الجيش ، وصعاليك المدن ، والفلاحين يشترونه بالهبات والأعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن .

وعانت الإمبراطورية من البلاء مثل ما عانته إيطاليا وإن نقص عنه بعض الشيء . نعم إن قرطاجنة وشمالى أفريقية المبعدين عن الغزاة ، قد ازدهرتا ؛ ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشئ من تنازع الأحزاب ، ومن مذابح كركلا ، ومن غزو زنوبيا ، ومن فدح الضرائب ، ومن السخرة والتراخى فى العمل ، وما كانت تبتزه رومة من الحبوب فى كل عام . وكانت آسية الصغرى وسوريا قد قاستا الأمرين من الغزو والنهب ، ولكن صناعاتهما القديمة التى تعودت الصبر على الشدائد لم تقض عليها هذه الاضطرابات . وكانت بلاد اليونان ، وتراقية ، ومقدونية ، قدخربها البرابرة ، ولم تكن بيزنطية قدأفاقت من حصار سپتميوس . ولما جاءت الحرب بالحاميات الرومانية وبالمؤن إلى حدود القبائل الألمانية ، قامت مدائن جديدة على شواطئ الأنهار — ويانة ، وكارلزبرج ، واستراسبرج ، وميز : وكانت غالة قد اضطرب فيها النظام ، وفترت همة أهلها بسبب غزو الألمان لها ، ذلك بأنهم نهبوا ستين مدينة من مدنها ، وأخذت الكثرة الغالبة من المدن والبلدان الأخرى تنكمش داخل أسوارها الجديدة ، وتتخلى عن طراز الشوارع العريضة المستقيمة الرومانية التخطيط والطراز ، لتحل محلها الأزقة الضيقة غير المستقيمة التى يسهل الدفاع عنها والتى كانت من مميزات العهود القديمة والعصور الوسطى . وحتى فى بريطانيا نفسها ، كانت رقعة المدن آخذة فى النقصان وكانت بيوت الريف آخذة فى الاتساع (٣٠) ؛ ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة أو اضطرتها إلى الاختفاء فى الريف . وقصارى القول أن الإمبراطورية بدأت بسكنى المدن وبالتحضر ، وها هى ذى تختم حياتها بالعودة إلى الريف وبالهمجية .

الفصل الرابع

الوثنية تحتضر

يمكن القول بوجه عام إن الضعف الثقافى سار فى إثر الضعف الاقتصادى والسياسى ، ولكن حدث فى هذه السنين البئيسة أن نشأ علم الجبر ذو الرموز ، وبرزت أعظم الأسماء فى فقه القانون الرومانى ، وأروع نماذج النقد الأدبى القديم ، وطائفة من أفخم المبانى الرومانية ، وأقدم قصص الحب ، وأعظم الفلاسفة الصوفيين .

ويلخص الديوان اليونانى سيرة ديوفانتس Diophantus الإسكندرى (٢٥٠) تلخيصاً جبرياً فكهاً فيقول إن حداثته دامت سدس حياته ، وإن لحيته نبتت بعد أن انقضى $\frac{1}{12}$ من عمره بعد سن الحداثة ، وإنه تزوج بعد أن مضى $\frac{1}{7}$ آخر من حياته ، وإنه رزق بولده بعد خمس سنين أخرى ، وإن هذا الولد عاش حتى بلغت سنة نصف سن أبيه ، وإن الوالد مات بعد أربع سنين من موت الولد — أى إنه مات فى سن الرابعة والثمانين ، وأشهر ما بقى من مؤلفاته حتى الآن هو كتابه « الأرثماطيقى Arithmatica » (الحساب) — وهو رسالة فى الجبر . وفيه حـــل لمعادلات الدرجة الأولى ، والمعادلات الرباعية التى تؤدى إلى معرفة المجهول ، والمعادلات التى لا يمكن منها وحدها معرفة المجهول حتى الدرجة السادسة . وقد استخدم حرف سجما sigma اليونانى للدلالة على الكمية المجهولة التى نرمز لها نحن بحرف س (وفى الإنجليزية بحرف x) ، وسمى هذه العلامة أرثمس Arithmos (أى العدد) ، واستعمل حروف الهجاء اليونانية للدلالة على الأسس وكان جبر من نوع ما معروفاً قبل آيامه : فقد اقترح أفلاطون لتدريب عقول الشبان وتسليتهم مسائل متنوعة كتوزيع تفاحة بنسب معينة على عدد

من الأشخاص[٣٢] ، وأذاع أرخميدز ألغازاً من هذا النوع فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان المصريون واليونان يحلون بعض المسائل الهندسية بالطرق الجبرية دون الالتجاء إلى رموز علم الجبر . وأكبر الظن أن ديوفانتس لم يفعل أكثر من تنظيم طرق كان يعرفها معاصروه[٣٣] ، وأن مصادفات الزمان هي التى أبقت على أعماله ؛ وفى استطاعتنا أن نُرجِع إليه عن طريق العرب تلك الطريقة الجريئة الغامضة التى تهدف إلى صياغة جميع النسب الكمية فى العالم كله فى قانون واحد .

وعلا نجم پاپنيان ، وپولس ، وألبيان ، أعظم الأسماء الثلاثة فى القانون الرومانى فى عهــد سپتميوس سفيرس ؛ وكانوا كلهم رؤساء الحرس البريتورى وكانوا بحكم منصبهم هذا رؤساء الوزارة فى الدولة ؛ وكانوا كلهم يبررون قيام الحكم المطلق بحجة أن الشعب قد عهد بحقوقه فى السيادة إلى الإمبراطور . ويمتاز كتابا پانيان **الأسئلة** Questiones ، **والأجوبة** Responsa بوضوحهما ، وإنسانيتهما وعدالتهما إلى حد جعل جستنيان يعتمد عليهما فى كثير من مجموعاته القانونية . ولما قتل كركلا جيتا أمر بابنيان أن يكتب دفاعاً قانونياً عن عمله هذا ، فأبى بابنيان وقال إن « قتل الإخوة أسهل من تبرير هذا القتل » ، فأمر كركلا بقطع رأسه . ونفذ أحد الجنود الأمر فقطع رأسه ببلطة فى حضرة الإمبراطور . وواصل دومنيوس ألپيانس جهود پاپنيان القضائية والإنسانية . وسخر جهوده القضائية للدفاع عن العبيد لأنهم فى رأيه أحرار بالفطرة ، وعن النساء لأن لهن مثل ما للرجال من الحقوق[٣٤] ، وكانت كتاباته فى جوهرها تنسيقاً لأعمال من سبقوه شأنها فى هذا شأن جميع الأعمال الهامة فى تاريخ القضاء ؛ ولكن أحكامه كانت باتة جازمة إلى حد أبقى على ما يقرب من ثلثها فى **ملخص** جستنيان . ويقول عنه لمبرديوس : « لم يبلغ الإمبراطور ألكسندر سفيرس ما بلغه من سمو المنزلة إلا لأنه كان يحكم أكثر ما يحكم وفقاً لنصائح ألپيان »[٣٥] . بيد أن ألپيان قد عمل على قتل بعض

معارضيه ؛ ومن أجل هذا فإن بعض أعداءه من رجال الحرس قتلوه عام ٢٢٨ انتقاماً منه . وكانت أسباب قتله أقل انطباقاً على القانون من قتل معارضيه ولكنه أدى إلى نفس النتيجة . وشجع دقلديانوس مدارس القانون وأمدها بالمال ، وألف لجاناً لتقنين ما سن بعد تراجان من شرائع ، وجمعها كلها فى القانون الجريجريانى Codex Gregorianus . ثم أتت على فقه القانون سنة من النوم دامت إلى أيام جستنيان .

وسار فن التصوير فى القرن الثالث على الأنماط التى كان يسير عليها فى بمبى والإسكندرية ، والقليل الذى أبقى عليه الزمان منه فج ، كاد الدهر أن يبليه : أما النحت فكان مزدهراً لأن الكثيرين من الأباطرة كانوا يطلبون أن تنحت لهم تماثيل ، غير أنه جمد حتى أصبح المنظر الأمامى للشخص المصور بدائى الطراز ؛ ولكن هذا العصر لم يفقه أى عصر بعده فيما أخرجه من صور تدهش الناظر إليها بصدقها وواقعيتها . ومما يدل على فضل كركلا ، أو يدل على غباوته ، أنه أجاز لمثال أن يصوره فى صورة شخص فظ ، أكرت الشعر متجهم الوجه ، وهى الصورة المحفوظة إلى الآن فى متحف نابلى . ولدينا تمثالان ضخمان من تماثيل ذلك العصر هما الثور الفرنيزى وهرقول الفرنيزى ، وكلاهما مبالغ فى حجمه ، متوترة عضلاته توتراً غير مستحب ، ولكنهما يشهدان بما كان فى هذا العصر من إتقان فنى لم ينقص قط عن إتقان العصور السابقة : ومما يدل على أن المثالين كانوا لا يزالون قادرين على أن يجروا على النمط القديم تلك النقوش البارزة الناطقة بالعفة والطهارة والتى نراها على ثالوث ألكسندر سفيرس وهى ثالوث لدوفيزى . غير أن النقش الذى على قوس سپتميوس سفيرس فى رومة ليس فيه شىء مما يمتاز به الفن الأتكى من بساطة وظرف ، بل يتصف بالخشونة والقوة الواضحتين اللتين تكادان تنبئان بعودة البربرية إلى إيطاليا .

وسار فن العمارة بالنزعة الرومانية التى ترى السمو فى ضخامة الحجم إلى أقصى

حد ، فأقام سبتميوس على تل البلاتين آخر ما أقيم عليه من القصور الإمبراطورية وضم إليها جناحا جهة الشرق يعلو فى الجو سبعة طباق — وهو المعروف بالسبتزنيوم Septizonium . وقدمت جوليا دمنا ما يلزم من المال لإنشاء إيوان فستا ، وإقامة هيكل فستا الصغير الذى لا يزال باقيا فى السوق العامة . وشاد كركلا لسرپيس زوج إيزيس ضريحاً ضخماً احتفظ الزمان بقطع جميلة منه إلى اليوم . ومن أعظم خرائب العالم روعة حمامات كركلا التى تم بناؤها فى عهد ألكسندر سفيرس . نعم إنها لم تضف شيئا جديداً إلى هندسة البناء ، لأنها تسير فى جوهرها على طراز حمامات تراجان ، ولكن البناء الضخم القائم يعبر أحسن تعبير عن صاحبها قاتل چيتا وپاپنيان . وكان بناؤها الرئيسى المكون من الآجر والأسمنت المسلح يشغل ٠٠٠ر٢٧٠ قدم مربعـــة — أى أكبر من مسطح مجلس البرلمان الإنجليزى وبهو وستمنستر مجتمعين . وكانت درج حلزونية تؤدى إلى أعلى الجدران . وهناك جلس شلى وكتب قصيدة بروميثيوس الطليق . وكان بداخل الحمامات عـــدد كبير من التماثيل ، ويحمل سقفها ٢٠٠ عمود منحوتة من الحجر الأعبل والمرمر ؛ والحجر السماقى ، وكانت أرض الحمامات وجدرانها المبنية من الرخام مطعمة بمناظر من الفسيفساء ، وكان الماء يصب من أفواه ضخمة من الفضة فى برك وأحواض تتسع لاستحمام ١٦٠٠ شخص فى وقت واحد . وأنشأ جلينس وديسيوس حمامات مماثلة لها ، وفى هـــذه الحمامات الأخيرة أقام المهندسون الرومان قبة مستديرة فوق بناء ضخم ذى عشرة أضلاع متساوية وسندوها بدعامات عند زوايا البناء ذى العشرة الأضلاع وهى وسيلة لم تكن تستعمل إلا قليلا قبل ذلك الوقت ولكنها أصبحت كثيرة الاستعمال فى المستقبل . وفى عام ٢٩٥ شرع مكسميان فى بناء الحمام الحار الذى كان أضخم الحمامات الإمبراطورية الحارة الأحد عشر ، وسماه حمامات دقلديانوس ، وهو تواضـــع منه لم يكن معروفا فى وقته . وقد أعد لأن يستحم فيه ٣٦٠٠ شخص فى وقت واحد . وكان به فوق

ذلك مدارس للتدريب الرياضى ، وأبهاء للحفلات الموسيقية ، وقاعات للمحاضرات . وأنشأ ميكل أنجلو من حجرة واحدة من هذا الحمام كنيسة سانتا ماريا دجلى أنجيلى Santa Maria degli Angeli وهى أكبر كنيسة فى إيطاليا بعد كنيسة القديس بطرس . وأنشئت فى الولايات مبان لا تفوقها فى ضخامتها إلا العمائر السالفة الذكر ، وأقام دقلديانوس نفسه كثيراً من المبانى فى نيقوميديا ، والإسكندرية ، وأنطاكية . وزين مكسميان ميلان وزين جليريوس سرميوم وجمل قسطنطيوس ثريف Treves .

وكان الأدب أقل ازدهاراً من العمارة ، لأنه قلما كان فى مقدوره أن يصل إلى الثروة التى تجمعت فى أيدى الأباطرة . ومع هذا فقد زاد عدد دور الكتب ووسعها ، وكان لطبيب من أطباء القرن الثالث مجموعة تبلغ ٦٢٫٠٠٠ مجلد ، واشتهرت مكتبة ألبيان بما فيها من المخطوطات التاريخية ؛ وبعث دقلديانوس بالعلماء إلى الإسكندرية لينسخوا ما فيها من المخطوطات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ، ويأتوا بنسخ منها إلى مكتبات رومة . وكان العلماء كثيرى العدد محببين إلى الأهلين ، وقد أشاد فيلوستراتس بذكرهم فى كتابه حياة السوفسطائيين ؛ وواصل پرفيرى عمل أفلوطين ، وهاجم المسيحية ، وأهاب بالعالم أن يقتصر على أكل الخضر ؛ وحاول أيمبليكس Iamblicus أن يوفق بين الأفلاطونية ومبادئ الديانة الوثنية ، وأفلح فى ذلك إلى حد استطاع معه أن يوحى بآرائه إلى الإمبراطور چوليان . وجمع ديچين ابرتيوس سير الفلاسفة وآراءهم فى مقتطفات وقصص رائعة فاتنة ؛ وبعد أن التهم أثينيوس النقراطيسى Athenaeus of Naucratis كل ما فى مكاتب الإسكندرية أفرغ كل ما جمعه فى كتابه المعروف باسم سوفسطائى مائدة الغداء وهو حوار ممل فى الأطعمة ، ومرق التوابل ، والعاهرات ، والفلاسفة ، والمفردات اللغوية ؛ يخفف من ملله ما نجده فى بعض أجزائه من كشف عن عادة قديمة ، أو ذكرى عظيم ؛ وكتب لنجينس ، وهو كاتب من پلميريا فى أغلبه

الظن ، رسالة لطيفة فى « السمو » قال فيها إن اللذة الخاصة التى يبعثها الأدب فى الإنسان ، منشؤها أنها « تسمو » بالقارئ عن طريق الفصاحة التى يستمدها الكاتب من قوة اقتناعه ، وإخلاصه ووفائه لأخلاقه(*) . وشرع ديوكاسيوس ككيانس من أهل نيقية فى بيثينيا يكتب *تاريخ روما* (٢١٠ ؟) وهو فى سن الخامسة والخمسين بعد أن قضى حياته يتقلب فى مناصب الدولة . وأتم هذا الكتاب فى الرابعة والسبعين وقص فيه تاريخ المدينة من رميولوس إلى أيامه ، ولم يبق من هذا الكتاب إلا أقل من نصف أسفاره الثمانين ، ولكن هذه الأسفار الباقية تشمل ثمانين مجلداً ضخما . ويمتاز هذا العمل باتساع نطاقه أكثر مما يمتاز بعلو صفاته ، وفيه قصص واضحة حية ، وخطب مبينة ، واستطرادات فلسفية ليست سخيفة المعنى رثة العبارة مستمسكة بالقديم ، ولكن النبوءات والنذر تفسد الكتاب كما تفسد كتاب ليفى ، وهو مثل كتاب تاستس وصف مطول لمعارضة مجلس الشيوخ ؛ وهو كجميع كتب التاريخ الرومانية يعنى أكثر ما يعنى بتقلبات السياسة والحرب كأن الحياة لم تكن فى ألف عام إلا ضرائب وموت .

وأهم من هؤلاء الرجال والكرام فى نظر مؤرخ العقل هو ظهور الرواية الغرامية فى هذا القرن . وقد سبقها إعداد طويل تدرج من **القيروبيديا** لزنوفون ، إلى القصائد الغزلية لكلماكس ، إلى القصص الخرافية التى تجمعت حول الإسكندر : « والحكايات الميليثية » التى يرويها أرستيديز وغيره فى القرن الثانى قبل الميلاد وما تلا ذلك القرن من أجيال . وقد أعجب بهذه القصص

(*) تعزو أقدم المخطوطات هذا المقال مرة إلى « ديونيسيوس لنجينس » ومرة أخرى إلى « ديونيسيوس أو لنجينس » ، ولا تذكر شيئاً غير هذا يستدل به على شخصية كاتبه . ولسنا نعرف أديباً يدعى لنجينس فى التاريخ القديم إلا كاسيوس لنجينس كبير وزراء زنوبيا . وقد اشتهر فى جميع أنحاء الإمبراطورية بغزارة علمه حتى لقد سماه يونابيوس Unapius « مكتبة حية » . ووصفه برفيرى « بأنه زعيم النقاد »(٣٦) .

التى تروى أخبار المغامرات والحب جمهرة الأيونيين اليونان بتقاليدهم ، الشرقيين بمزاجهم ، ولعلهم وقتئذ قد أصبحوا شرقيين بدمائهم . وتطورت الرواية المنمقة تطورات شتى على أيدى پترونيوس فى رومة وأپوليوس فى أفريقية ؛ ولوشيان فى بلاد اليونان ، وأيمبليكس فى سوريا ، ولم تكن فى بادئ الأمر تعنى بالحب عناية خاصة ، حتى إذا كان القرن الأول بعد الميلاد امتزجت رواية المغامرات برواية الحب ، ولعل هذا الامتزاج كان استجابة منهما لزيادة عدد القارئات من النساء .

وأقدم الأمثلة الباقية من هذه الروايات هى « الإثيوبيكا Aethiopica » أو القصص المصرية التى كتبها هليودورس الحمصى ، وقد ثار الجدل الكثير حول تاريخ هذه القصص ، ولكن فى وسعنا أن نعزوها إلى القرن الثالث ؛ وتبدأ بأسلوب خلع عليه قدم العهد ثوباً من الجلال :

« افتر ثغر النهار عن بسمات البهجة ، وأرسلت الشمس أشعتها فأنارت قلل التلال ، حين وقف جماعة من الرجال يبدو من أسلحتهم ومظهرهم أنهم قراصنة ، وأخذوا ينظرون إلى البحر بعد أن صعدوا إلى قمة أحد المنحدرات المطل على مصب النيل الهرقليوتى . ولكنهم لم يجدوا هناك شراع سفينة يبشرهم بالغنيمة فوجهوا أبصارهم نحو الشاطئ الممتد من تحتهم ؛ وكان هذا هو الذى رأوه[٣٧] .

ونلتقى على حين غفلة بثياچينس Theagenès الشاب الغنى الوسيم وبالأميرة كركليا Chsriclea الجميلة الباكية . وكان القراصنة قد قبضوا عليهما ، وحلت بهما كثير من ضروب الشدائد المختلفة ، من سوء التفاهم ، والوقائع الحربية ، والقتـــل واللقاء ، تكفى لأن تكون مادة لجميع القصص التى تصدر فى فصل من فصول السنة فى هذه الأيام . وتختلف هذه القصة عن قصص پترونيوس وأپوليوس فى أن عفة العذارى فى رواية هليودورس مسألة غير ذات خطر كبير ، يمر عليها القارئ بسرعة ، بينا هى عند پترونيوس وأپوليوس جوهر القصة ومحورها الذى تدور عليه

فترى هليودورس يحافظ على عفة كركليز وينجيها من عشرات الأخطار ، ويدبج عدداً من العظات القوية المقنعة فى جمال الفضيلة النسوية ووجوب المحافظة عليها . ولعلنا نجد هنا شيئاً من تأثير المسيحية ؛ بل إن الرواية المتواترة تجعل مؤلف القصة أسقف تسالونيكى المسيحى فيما بعد . ولقد كانت **الإثيوبطا** ، على غير علم أو قصد من مؤلفها ، منشأ عدد لا يحصى من الروايات التى نسجت على منوالها ؛ فلقد كانت هى أنموذج قصة سرفنتيز Cervantes المسماة Pesilesy Sigismunda وقصة كورندا فى رواية **إنقاذ أورشليم** لتاسو ، وقصص السيدة ده اسكوديرى Mme de Scudéry ففى هذه الرواية نجد جريمة الحب ، ودلائله ، والتوجع والإغماء والخاتمة السعيدة التى نجدها [illegible]ات الآلاف من القصص الممتعة ، وهنا نجد رواية **كلارساهارلو** Clarissa Harlow قبل كاتبها رتشردسن Richardson بألف وخمسمائة عام .

وأشهر قصص الحب جميعها فى النثر القديم قصة **دفنيس وكلوى** Daphnis and Chloë . ولسنا نعرف عن مؤلفها إلا اسمــه لنجس Longus ، كما أننا نظن مجرد ظن أنها ألفت فى القرن الثالث بعد الميلاد . وتقول إن دفنيس عرض لتقلبات الجو القاسية وقت مولده ، وإن راعياً أنقذه وعنى بتربيته وإنه أصبح هو الآخر راعياً . وفى القصة فقرات رائعة فى وصف الريف توحى بأن لنجس كشف ما فيه من جمال بعد طول مقامه فى المدينة ، كما كشفه الشاعر ثيوكريتس الذى نسج هو على سواله . ويحب دفنيس فتاة حسناء أنقذت هى الأخرى بعد أن عرضت للجو القاسى فى طفولتها . ويرعى الفتى والفتاة قطعانهما وتتوثق بينهما عرى الصداقة والألفة ، ويستحمان معاً وهما عريانين فى طهر وبراءة ، ويقبل كلاهما الآخر أول قبلة يسكران منها . ويشرح لها جارسنج نشوة حبهما ، ويصف لهما ما لاقاه فى أيام شبابه من آلام العشق فيقول « لم أكن أفكر فى طعامى ،

ولم أكن أذوق طعم الراحة ، وهجر الكرى عيني ، وأمضني الحزن ، وأسرعت ضربات قلبي ، وأحست أطرافي ببرودة الموتى[٣٨] . ويعرفهما أبواهما ، وكانا وقتئذ من أغنياء الناس ، ويهبانهما الكثير من المال ، ولكنهما لا يعبآن بالثراء ، ويعودان إلى حياة الرعي المتواضعة : والقصة مكتوبة ببساطة الفن الجميل المصقول وقد ترجمها أميو Amyot إلى اللغة الفرنسية بالسلسة المطواعة (١٥٥٩) فكانت هذه الترجمة هي المثال الذي احتذاه سان بيير في پول وفرجينيا كما أوحت بما لا يحصى من الرسوم والقصائد والقطع الموسيقية .

وشبيه بها قصيدة من الشعر تعرف باسم أمسية فينوس . ولا يعرف أحد اسم منشئها أو متى أنشأها ، وأغلب الظن أنها من شعر ذلك القرن نفسه[٣٩] . وموضوعها هو موضوع خطب لكريشيوس التي تمتاز بما فيها من التفات ، ورواية لنجس الغرامية — وخلاصتها أن ربة الحب تلهب قلوب جميع الأحياء بالرغبة الجامحة ، وأنها لهذا السبب هي خالقة العالم الحقة !

غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ،

غداً سيحب من ذاق قبل طعم الحب ،

لقد أقبل الربيع النضر ، وأخذ يغني غناء الحب ،

وولدت الدنيا من جديد ، وها هو ذا حب الربيع ،

يدفع كل طير إلى قرينه ، وها هي ذي الغابات المترقبة

تنثر غدائرها لتستقبل شآبيب الربيع ،

غداً سيحب من لم يطف به طائفة الحب ،

وسيحب من ذاق قبل طعم الحب .

وعلى هذا النحو يسترسل الكاتب في شعره العذب الصافي ، ويجد الحب في المطر المخصب ، وفي أشكال الزهر ، وفي أهازيج الأعياد البهجة ، وفي التجارب

الصعبة التى يعانيها الشباب المشتاق . وفى مواعيد اللقاء الوجلة ، وسط الغابات ؛ وبعد كل مقطوعة يتردد الوعد القوى الجامع : « غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ، وسيحب من ذاق قبل طعم الحب » . وإنا لنجد هنا فى آخر القصائد الغنائية الكبرى التى تغنت بها الروح الوثنية الوزن الشعرى لترانيم العصور التى تستبق أنغام شعراء الفروسية الغزليين بعدة قرون .

الفصل الخامس

المملكية الشرقيـة

لما مات كلوديوس الثانى فى أثناء انتشار وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء (٢٧٠) اختار الجيش خليفة له ابن فلاح إليرى : وكان دومتيوس أورليانس Domitius Aurelianus قد ارتفع من أوطأ الطبقات بقوة الجسم والإرادة ، وقد لقبوه من قبيل السخرية « يد على سيف » . وكان مما يشهد بعودة العقل إلى الجيش أنه اختار رجلا يطلب عند غيره من النظام ما يطلبه عند نفسه .

وبفضل قيادته صد أعداء رومة عن حدودها فى كل مكان عدا نهر الدانوب ، فهناك نزل أورليان عن داشيا للقوط لعلهم بذلك يقفون حاجزاً بين الإمبراطورية وبين غيرهم من البرابرة . ولعل هذا الاستسلام قد شجع الألمان والوندال على غزو إيطاليا ، ولكن أورليان انتصر عليهم فى ثلاث معارك وشتت شملهم . وكان يفكر فى القيام بحملات حربية على أجزاء قاصية ، ويخشى أن يهاجم الأعداء رومة فى أثناء غيابه ، فأقنع مجلس الشيوخ بأن يوافق على صرف المال اللازم لبناء أسوار جديدة حول العاصمة ، كما أقنع النقابات الطائفية بأن تقوم بهذا العمل . وأخذت المدن فى جميع أنحاء الأمبراطورية تشيد الأسوار حولها ، وكان قيامها بهذا العمل شاهداً على ضعف قوة الرومان وخاتمة السلم الرومانية .

ورأى أورليان أن الهجوم أفضل من الدفاع ، ولذلك اعتزم أن يعيد مجد الإمبراطورية بالهجوم على زنوبيا فى الشرق ، ثم على تتريكس Tetri cus الذى اغتصب السيادة على غالة بعد پستيوس . واسترد پروبس Probus قائد أورليان مصر من ابن زنوبيا فى الوقت الذى كان هو نفسه يخترق بجيوشه بلاد البلقان ،

ويعبر الهلسپنت ، ويهزم جيش هذه الملكة فى حمص ويحاصر عاصمتها . وحاولت الملكة أن ‏ مر ، وتستنجد بالفرس ولكنها أسرت ، واستسلمت المدينة ونجت من التدمير ، ولكن لنجينس قتل (٢٧٢) . وبينا كان الإمبراطور عائداً على رأس جيشه إلى الهلسپنت ، ثارت تدمر وقتلت الحامية التى تركها فيها . فعاد إليها مسرعاً كسرعة قيصر ، وحاصر المدينة مرة أخرى واستولى عليها بعـد قليل من الوقت ، وأباحها لجنوده يسلبون وينهبون ويعيثون فيها فساداً ، ودك أسوارها ، وقضى مرة أخرى على تجارتها ، وتركها تعود قرية صحراوية ، وهـكذا ظلت من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر . وسارت زنوبيا مكبلة بالأغلال تزين موكب أورليان وهو داخل منتصر إلى رومة ؛ وسمح لها بأن تقضى البقية الباقية من عمرها حرة إلى حدما فى تيبور Tit ur (*) .

وفى عام ٢٧٤ هزم أوليان تتريكس عند شالون Châlons وعاد بعدئذ إلى غالة . واغتبطت رومة بعودة سيادتها إليها فرحبت بالقائد الظافر ولقبته « مرجع العالم » restitūtor orbis . ثم وجه عنايته إلى واجبات السلم ، فأعاد إلى الإمبراطورية شيئاً من النظام الاقتصادى بإصلاح النقد الرومانى ، وأعاد تنظيم الأداة الحكوميـة بأن طبق عليها نفس النظام الصارم الذى رد به الحيـاة إلى الجيش . وكان يعزو بعض ما تعانيه رومة من الفوضى الأخلاقية والسياسية إلى تعدد الأديان والمذاهب فيها ، ويسعى لأن يوحد الأديان القديمة والجديدة ويوجهها إلى عبادة إله واحد هو إله الشمس ، والإمبراطور نائبه فى الأرض . ولما أظهر الجيش ومجلس الشيوخ تشككهما ، أبلغهما أن الله ، لا اختيارهما ولا تأييدهما ، هو الذى جعله إمبراطوراً . وأنشأ فى رومة هيكلا للشمس رائع الجمال ، كان يرجو أن يمتزج فيه بعل حمص وإله المثراسية . وكانت الملكية المطلقة والتوحيد تسيران

(*) انظر الرسالتين المتبادلتين بين زنوبيا وأورليان فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

وقتئذ جنباً إلى جنب ، وكانت كلتاهما تسعى لأن تستعين بالأخرى ؛ وكانت سياسة أورليان الدينية توحى بأن قوة الدولة آخذة فى الاضمحلال ، وأن قوة الدين آخذة فى الارتفاع ، وقد أصبح الملوك وقتئذ ملوكاً بنعمة الله . وكانت هذه هى فكرة الشرقيين عن الحكومة ، وهى فكرة وجدت فى مصر ، وبلاد الفرس ، وسوريا ؛ فلما قبلها أورليان عجل التيار الذى كان يحول الملكية إلى حكومة شرقية ، وهو التيار الذى بدأ من عهد ألجابالس وانتهى عند دقلديانوس وقسطنطين .

وبينما كان أورليان يقود جيشاً مخترقاً به تراقية ليحسم الأمر بينه وبين فارس إذ اغتاله فى عام ٢٧٥ جماعة من ضباطه لأنهم خدعوا فظنوا أنه ينوى إعدامهم . وارتاع الجيش لكثرة ما ارتكبه هو نفسه من الجرائم فطلب إلى مجلس الشيوخ أن يختار من يخلف الإمبراطور القتيل ؛ ولم يكن أحد يرغب فى هذا الشرف الذى ينذر بالقتل على الدوام ؛ وانتهى الأمر بأن رضى به تاستس لأنه كان وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره . وكان تاستس هذا يدعى أنه من نسل المؤرخ المسمى بهذا الاسم ، وكانت تتمثل فيه جميع الفضائل التى كان ينادى بها ذلك الكاتب الموجز المتشائم ؛ لكنه قضى نحبه من فرط الإعياء بعد ستة أشهر من جلوسه على العرش . وندم الجند على ندمهم ، فعادوا إلى الاستئثار بالسلطة ونادوا بپروبس Probus إمبراطوراً (٢٧٦) .

وكان ذلك اختياراً موفقاً ، كما كان پروبس خليقاً باسمه(*) لأنه كان يمتاز بالشجاعة والاستقامة . فقد طرد الألمان من غالة ، وطهر إليركم Illyricum من الوندال ، وشاد سوراً بين الرين والدانوب ، وأرهب الفرس بكلمة منه ، واستمتعت الإمبراطورية كلها فى أيامه بالسلم ؛ وسرعان ما عاهد شعبه على ألا تكون فى البلاد أسلحة ، ولا جيوش ، ولا حروب ، وعلى أن يعم الأرض كلها حكم القانون .

(*) يشير الكاتب إلى أن معنى الكلمة اللاتينية Probus هو طيب أو صالح . (المترجم)

وبدأ هذه الطوبى بأن أرغم جنوده على أن يصلحوا الأراضى البور ، ويجففوا المستنقعات ويغرسوا الكروم ، ويقوموا بضروب أخرى من الأعمال العامة . واستاء الجيش من هذا التسامى الذى لم يكن له به عهد ، فاغتاله (٢٨٢) ، وحزن عليه ، وأقام نصباً تذكاريا له :

ونادى برجل يدعى ديو قليز Diocles ابن معتوق دلماشى إمبراطوراً على الدولة . وكان ديو قليشيان أودقلديانوس — وهو الاسم الذى اختاره بعد ذلك لنفسه — قد ارتقى بمواهبه الفذة ومبادئه الأخلاقية المرنة حتى عين قنصلا ، وحاكما فى بعض الولايات ، وقائداً لحرس القصر . وكان رجلا أكثر دراية بشئون الحكم منه بالحرب . وقد جلس على العرش بعد عهد من الفوضى أشد من الفوضى التى عمت البلاد من أيام ابنى جراكس إلى أيام أنطونيوس ، ولكنه هدأ كل الأحزاب الثائرة المتنافرة ، وصد الأعداء عن جميع الحدود ، وبسط سلطان الحكومة وقواه ، وأقام حكمه على تأييد للدين ورضاء رجاله : وكان ثالث ثلاثة تدين لهم الإمبراطورية بالشىء الكثير — أغسطس وأورليان ، ودقلديانوس : فأما أغسطس فقد أنشأها ، وأما أورليان فقد أنقذها ، وأما دقلديانوس فقد نظمها تنظيما جديدا .

وكان أول قراراته الحاسمة قراراً كشف عن المستور من أحوال الدولة وعن أفول نجم رومة ، فقد هجر المدينة ولم يتخذها عاصمة لملكه ، واتخذ مقامه فى نيقوميديا وهى مدينة فى آسية الصغرى تبعد عن بيزنطية بقليل من الأميال جهة الجنوب ، وظل مجلس الشيوخ يعقد جلساته فى رومة كما كان يعقدها قبل ، وظل القناصل يقومون بمراسمهم المألوفة ، وظلت الألعاب الصاخبة تدور كسابق عهدها والشوارع تموج بمن فيها من الناس على اختلاف أجناسهم ؛ ولكن السلطة والقيادة قد انتقلتا من هذه المدينة التى أضحت مركز الانحلال الاقتصادى والأخلاقى . وكان الذى دفع دقلديانوس إلى هذا العمل هو الضرورة الحربية . ذلك أنه كان لا بد

من الدفاع عن أوربا وآسية ، ولم يكن الدفاع عنهما مستطاعا من مدينة فى جنوب جبال الألب وتبعد عن تلك الجبال هذا البعد الشاسع ؛ ولهذا أشرك معه فى الحكم قائداً محنكا يدعى مكسميان (٢٨٦) ، وعهد إليه الدفاع عن الغرب ، ولم يتخذ مكسميان رومة عاصمة له بل اتخذ بدلا منها مدينة ميلان . وبعد ست سنين من ذلك العام اتخذ كلا الأغسطسين Augusti « قيصراً » ليساعده فى أعباء الحكم وليكون خليفة له من بعده . فاختار ديوقليشان جليريوس Galerius واتخذ هذا عاصمته مدينة سرميوم Sirmium وهى متروفيكا Mitrovica على نهر الساف Save ، وعهد إليه حكم ولايات الدانوب ؛ وعين مكسميان قنسطنطيوس كلورس Constantius Chlorus (الأصغر) خلفاً له . واتخذ هذا حاضرته مدينة أوغسطا ترفرورم Augusta Trevirorum (تريف Trèves) . وتعهد كل أغسطس أن يعتزل الملك بعد عشرين عاما ليخلفه قيصره ؛ وكان من حق هذا القيصر أن يعين هو الآخر « قيصراً » يعاونه ويخلفه . وزوج كل أغسطس ابنته « بقيصره » فأضاف بذلك رابطة الدم إلى رابطة القانون . وكان دقلديانوس يرجو بذلك أن يسد الطريق على حروب الوراثه ، وأن يعيد إلى الحكومة استقرارها ودوامها وسلطانها ، وأن تكون الإمبراطورية متأهبة لملاقاة الأخطار فى أربع نقاط هامة ، سواء أكانت هذه الأخطار ناشئة من الثورات الداخلية ، أم من الغزو الخارجى . لقد كان تنظيما باهراً ، جمع كل الفضائل إذا استثنينا فضيلتى الوحدة والحرية . فقد انقسمت الملكية ، ولكنها كانت ملكية مطلقة ، وكان كل قانون يصدره كل حاكم من الحكام الأربعة يصدر باسمهم جميعاً ، ويطبق فى أنحاء الدولة ، وكان قرار الحكام يصبح قانوناً ساعة صدوره ، من غير حاجة إلى تصديق مجلس الشيوخ فى رومة ؛ وكان الحكام هم الذين يعينون جميع موظفى الدولة ، ومدت أداة بيروقراطية ضخمة فروعها فى جميع أنحاء الدولة . وأراد دقلديانوس أن يزيد

من قوة هذا النظام فحول عبادة عبقرية الإمبراطور إلى عبادة شخصه بوصفه تجسيداً لجوبتر ، وتواضع لكسمليان فرضى أن يكون هو هرقول ؛ وهكذا هبطت الحكمة والقوة من السماء لتعيدا النظام والسلم إلى الأرض ، واتخذ دقلديانوس لنفسه تاجا — عصابة عريضة مرصعة باللآلى — وأثواباً من الحرير والذهب ؛ وأحذية مرصعة بالحجارة الكريمة ، وابتعد عن أعين الناس فى قصره ، وحتم على زائريه أن يمروا بين صفين من خصيان التشريفات والحجاب وأمناء القصر ذوى الألقاب والرتب ، وأن يركعوا ويقبلوا أطراف ثيابه . لقد كان فى الحق رجلا يعرف العالم حق المعرفة . وما من شك فى أنه كان يضحك فى السر من هذه الخرافات والأشكال ولكن عرشه كان يعوزه ما يخلعه الزمان عليه من شرعية ، وكان يأمل أن يدعمه وأن يقمع اضطراب العامة وعصيان الجيش بأن يخلع على نفسه مظاهر الألوهية والرهبة . وفى ذلك يقول أورليوس ڤكتور : « واتخذ لنفسه لقب السيد Dominus ، ولكنه كان يسير فى الناس سيرة الأب »[٤٠] وكان معنى إقامة هذا الطراز الشرق من الحكم الاستبدادى على يد ابن عبد رقيق ؛ وهذا الجمع بين الإله والملك فى شخص واحد ، كان معنى هذا عجز الأنظمة الجمهورية فى العهود القديمة ، والتخلى عن ثمار معركة مرثون ، والعودة إلى مظاهر بلاط الملوك الإكيمنيين ، والمصريين ، والبطالمة ، والپارثيين ، والملوك الساسانيين ، وإلى النظريات التى كان يقوم عليها حكم هؤلاء الملوك كما عاد الإسكندر إليها من قبل . ومن هذه الملكية الشرقية الصبغة جاء نظام الملكيات البيزنطية والأوربية ، وهو النظام الذى ظل قائماً إلى أيام الثورة الفرنسية . ولم يبق بعد هذا إلا أن يتحالف الملك الشرقى عاصمة شرقية مع دين شرقى . ولقد بدأت الخواص البيزنطية فى الظهور أيام دقلديانوس .

الفصل السادس

اشتراكية دقلديانوس

وسار دقلديانوس فى عمله بنشاط لا يقل عن نشاط قيصر ، فأخذ يعيد تنظيم كل فرع من فروع الإدارة الحكومية . وبدل أحوال الأشراف بأن رفع إلى طبقتهم كثيرين من الموظفين المدنيين أو العسكريين ، وبأن جعلها طبقة وراثية ذات مراتب مختلفة على النظام الشرقى ، وألقاب كثيرة ، ومراسم معقدة متعددة . وقسم هو وزملاؤه الإمبراطورية إلى ست وتسعين ولاية تتألف منها اثنتان وسبعون أبرشية ، وأربع مقاطعات ، وعُيِّن لكل قسم حاكم مدنى وآخر عسكرى وأصبحت الدولة بذلك ذات حكومة مركزية صريحة ، ترى أن الاستقلال الذاتى المحلى ، وأن الدمقراطية نفسها ، ترف لا يصلح إلا لأوقات الأمن والسلم ، وتبرر سلطانها المطلق بحاجات الحرب القائمة أو المتوقعة . ودارت رحى الحرب فى تلك الأيام فعلا وأحرزت الدولة فيها انتصارات باهرة ؛ فاستعاد قنسطنطيوس بريطانيا التى ثارت عليه ، وأوقع جليريوس بالفرس هزيمة منكرة حاسمة أسلموا بعدها أرض النهرين و خمس ولايات وراء نهر دجلة ، وصد أعداء رومة عن حدودها جيلا من الزمان .

وواجه دقلديانوس وأعوانه فى زمن السلم المشاكل الناشئة من الانحلال الاقتصادى ، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاماً اقتصادياً تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات[٤١] . ووضع نظاماً نقدياً سليما بأن عين للعملة الذهبية وزناً وعياراً محددين ، احتفظت بهما الإمبراطورية الشرقية حتى عام ١٤٥٣ ، ووزع الطعام على الفقراء بنصف ثمنه فى السوق

أو بغير ثمن على الإطلاق ، وشرع يقيم كثيراً من المنشآت العامة ليوجد بذلك عملا للمتعطلين[٤٢] ، ووضع عدداً كبيراً من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك حاجات المدن والجيش ؛ وبدأ هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجار والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا إشراف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لعدم تعطلهم ولأرباحهم[٤٣] . وكانت الدولة من زمن قديم تمتلك معظم مقالع الحجارة ، ورواسب الملح ، والمناجم ، ولكنها خطت فى ذلك الوقت خطوة أخرى فحرمت تصدير الملح ، والحديد ، والذهب ، والخمر ، والحبوب ، والزيت ، من إيطاليا ، وفرضت نظاماً دقيقاً صارماً على استيراد هذه المواد[٤٤] . ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التى تنتج حاجيات الجيش ، وموظفى الدولة وبلاط الأباطرة . وحتمت على مصانع الذخيرة ، والنسيج ، والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين ، واشترت هذا القدر بالأثمان التى حددتها هى له ، وألقت على جمعيات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها ، فإذا تبينت أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أممت هذه المصانع ، وجهزتها بعمال فرضت عليهم أن يعملوا فيها[٤٥] . وبهذا وضعت الكثرة الغالبة من المؤسسات الصناعية والنقابات الطائفية فى إيطاليا شيئاً فشيئاً تحت سيطرة الدولة المتحدة فى عهد أورليان ودقلديانوس . وخضع القصابون ، والخبازون ، والبناءون ، وصناع الزجاج ، والحديد والحفارون خضع هؤلاء جميعاً لنظم مفصلة وضعتها لهم الحكومة[٤٦] . ويقول رستوفتزف Rostovtzeff إن الهيئات الصناعية المختلفة كانت أشبه «بمراقبات صغرى على مؤسساتها تقوم بهذا العمل نيابة عن الدولة ، كانت أشبه بهذه المراقبات منها بمالكة المؤسسات . وكانت خاضعة لسلطان موظفى المصالح الحكومية المختلفة ، ولقواد الوحدات العسكرية المتباينة »[٤٧] .

وحصلت جمعيات التجار والصناع من الحكومة على مزايا كثيرة متنوعة ،

وكثيراً ما كانت تؤثر تأثيراً كبيراً فى خططها ؛ وكانت فى نظير هذه المزايا وهذا التأثير تعمل كأنها أعضاء فى الإدارة القومية ، فكانت تساعد الحكومة على تجنيد الأيدى العـاملة ، وجباية الضرائب للدولة من أعضائها(٤٨) . وامتدت وسائل من الإشراف الحكومى شبيهة بهذه الوسائل فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلى مصانع الأسلحة القائمة فى الولايات ، وإلى صناعة الأطعمة والملابس . وفى ذلك يقول پول – لوى Paul Louis :
« وكان فى كل ولاية رقيب خاص يشرف على نواحى النشاط الصناعى ، وأضحت الدولة فى كل مدينة كبيرة صاحب عمل وذات قوة كبيرة . . . تسيطر على جميع المصانع الخاصة التى كانت ترزح تحت أعباء الضرائب الفادحة »(٤٩) .

ولم يكن مستطاعا أن يسير هذا النظام إلا إذا سيطرت الدولة على أثمان السلع ، ولهذا أصدر دقلديانوس وزملاؤه فى عام ٣٠١ **قانون الإثمان** الذى حددت به أقل الأثمان والأجور التى يجيزها القانون لجميع السلع أو الخدمات الهامة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وهاجم القرار فى مقدمته الاحتكارات التى منعت البضائع من السوق فى الوقت الذى « قلت فيه السلع » لكى ترتفع أثمانها .

« ومنذا الذى . . . خلا قلبه من العاطفة الإنسانية فلا يرى أن ارتفاع الأسعار ظاهرة عامة فى أسواق مدننا ، وأن شهوة الكسب لا يحد منها وفرة السلع ولا أعوام الرخاء ؟ – ولهذا . . . يرى أشرار الناس أنهم يخسرون إذا ما توافرت الحاجات . . . إن من الناس من يجعلون همهم الوقوف فى وجه الرخاء العام . . . والجري وراء الأرباح الباهظة القاتلة . . . . لقد عم الشره جميع العالم . . . . فحيثما اضطرت جيوشنا للذهاب لتأمين الناس بوجه عام ، رفع الجشعون الأثمان ، ولم يكتفوا بالحصول على سبعة أضعاف الثمن المعتاد أو ثمانية أضعافه ، بل زادوه إلى الحد الذى تعجز الألفاظ عن وصفه ، حتى لقد يضطر

الجندى إلى دفع مرتبه كله وإعانة الحرب فى شراء سلعة واحدة ، وبذلك يذهب كل ما يقدمه العالم كله لإمداد الجيش بحاجته فى جيوب أولئك اللصوص الجشعين(*)(٥٠) .

ولقد ظل هذا المرسوم حتى وقتنا الحاضر أعظم محاولة فى التاريخ كله لاستبدال القرارات الحكومية بالقوانين الاقتصادية . ولكن التجربة أخفقت إخفاقا عاجلا كاملا ، فقد أخفى التجار ما عندهم من السلع وشحت البضائع أكثر من ذى قبل ، واتهم دقلديانوس نفسه بالتغاضى عن ارتفاع الأسعار(٥٢) ؛ وحدثت عدة اضطرابات ؛ واضطرت الحكومة إلى التراخى فى تطبيق المرسوم لإعادة الإنتاج والتوزيع إلى حالتهما الطبيعية(٥٣) . وانتهى الأمر بإلغائه على يد قسطنطين .

وكانت علة ضعف هذا النظام الاقتصادى الخاضع للسيطرة الحكومية

(*) وتكشف أقصى الأثمان التى حددها ذلك المرسوم لبعض السلع عن مستوى الأسعار والأجور فى عام ٣٠١ م فالقمح ، والعدس والبسلة كان ثمن (البشل (Bushel) منها يعادل ٥ ر ٣ ريال أمريكى ، وكان الشعير ، والشيلم ، والفول بـ ١٠ ر ٢ ريال للبشل : والنبيذ بـ ٢١ — ٢٦ من مائة من الريال للپينت pint ؛ وزيت الزيتون بـ ٥ ر ٤٠ من مائه من الريال للپينت ، ولحم الخنزير بـ ٥ و ١٠ من مائة من الريال للرطل الإنجليزى ، ولحم العجول أو الضأن بـ ٧ من مائه من الريال للرطل الإنجليزى ، والدجاج الصغير كل اثنتين بـ ٥ ر ٥٢ والزبابات (dormouse) كل عشر بـ ر ٣٥ ؛ وأحسن أنواع الكرنب والخس كل خمس منها بـ ٥ ر ٣ والبصل الأخضر كل ٢٥ بـ ٥ ر٣ ؛ وأحسن البزاناب (snails) كل عشرين بـ ٥ ر ٣ ؛ والتفاح أو الخوخ الكبير كل عشر بـ ٥ و ٣ ؛ والتين كل ٢٥ بـ ٥ ر٣ ؛ والشعر كل رطل إنجليزى بـ ٥ ر٣ ، والأحذية يتراوح ثمن الزوج منها بين ٦٢ من مائة و٣٨ ر١ ريال ، وكانت أجور عمال الزراعة بين ٢٫٣ ، ٤٦ من مائة من الريال ، يضاف إليها الطعام ؛ وكان البناءون ، والنجارون ، والحدادون ، والخبازون ، يتقاضون ٤٦ من مائة من الريال مضافا إليها ثمن الطعام ؛ والحلاقون ٧٥ ر ١ ريال عن كل شخص ، والكتبه ٢٣ر عن كل ١٠٠ سطر ، ومدرسو المدارس الأولية ٤٦ رعن كل تلميذ فى كل شهر ؛ ومدرسو الآداب اليونانيه أو اللاتينية أو الهندية ٨٤ ر ١ عن كل تلميذ فى الشهر ، والمحامون ٣٦ ر ٧ ريالات عن كل قضية ٥١

هى ما تطلبه تنفيذه من نفقات . فقد بلغت البيروقراطيه التى تطلبها تنفيذه من الاتساع درجة وصفها لكتنيوس بأنها احتاجت إلى نصف السكان ، ولا شك فى أنه بالغ فى هذا التقدير مبالغة كان الباعث عليها ميوله السياسية (٥٤). ووجد الموظفون آخر الأمر أن عملهم هذا مما تنوء به العدالة الإنسانية ، وكانت رقابتهم متباعدة يستطيع الناس أن يفلتوا منها بما أوتوا من مكر ودهاء . وارتفعت الضرائب ارتفاعاً لم يكن له مثيل من قبل ، وفرضت على كل شىء لأداء أجور الموظفين ، ونفقات البلاط ، والجيش ، وبرنامج المنشآت العامة ، وإعالة العجزة والمتعطلين . ولم تكن الدولة قد كشفت بعد طريقة الاستدانة لتخفى بها إسرافها وتؤجل يوم حسابها ؛ فقد كانت أعمال كل عام ينفق عليها من إيراد العام نفسه . وأراد دقلديانوس أن يحتاط لما عساه أن يحدث من أداء الضرائب بعملة مخفضة ، فأمر بأن تؤدى الضرائب عيناً كلما كان ذلك مستطاعا ، وحتم على دافعى الضرائب أن يؤدوا ما عليهم إلى مخازن حكومية ، ووضع نظاما شاقا لنقل هذه الضرائب العينية من هذه المخازن إلى مقرها الأخير (٥٥) . وجعل موظفى البلديات فى كل بلدية مسئولين من الوجهة المالية عن كل تقصير فى تحصيل الضرائب المفروضة على إقليمهم (٥٦) .

وإذا كان من طبيعية كل ممول أن يحاول الهروب من أداء ما عليه من الضرائب ، فقد أنشأت الدولة قوة خاصة من الشرطة للفحص عن أملاك كل شخص ودخله ؛ واستخدمت وسائل التعذيب مع الزوجات ، والأطفال ، والعبيد لإرغامهم على الكشف عن ثروة بيوتهم أو مكاسبها ؛ وفرضت عقوبات صارمة على من يحاولون الهرب من أداء ما عليهم (٥٧) . ومع هذا كله فقد كاد الفرار من الضرائب أن يصبح وباء متفشياً فى الإمبراطورية كلها فى القرن الثالث ، وأضحى أكثر تفشياً فى القرن الرابع ؛ فكان الأغنياء يخفون ثروتهم ، وبدّل الأشراف طبقتهم ووضعوا أنفسهم فى عداد الطبقة الدنيا حتى لا يختاروا للوظائف

البلدية ؛ وهجر الصناع حرفهم ، وترك الزراع أرضهم المثقلة بالضرائب ليصبحوا أجراء عند غيرهم ، وأقفرت كثير من القرى وبعض البلدان الكبيرة (مثل طبرية فى فلسطين) من أهلها لفدح الضرائب المفروضة عليها[٥٨] ؛ فلما كان القرن الرابع اجتاز عدد كبير من الأهلين حدود الإمبراطورية ولجأوا إلى البرابرة فراراً من الضرائب الفادحة .

وأكبر الظن أن الذى حمل دقلديانوس على الالتجاء إلى تلك الأعمال ، التى أوجدت فى واقع الأمر نظام الاسترقاق الإقطاعى فى الحقول ، والمصانع ، والنقابات الطائفية ، هو حرصه على منع هذه الهجرة التى تكلف الدولة كثيراً من النفقة ، وعلى ضمان ورود الطعام بانتظام للجيش والمدن ، والضرائب لبيت المال . وبعد أن جعلت الحكومة مالك الأرض بما فرضته عليه من الضرائب النوعية مسئولا عن حسن استغلال مزارعيه لأرضه ، قررت أن يبقى الزارع فى أرضه حتى يؤدى جميع المتأخر عليه من الديون أو العشور . ولسنا نعرف متى صدر هذا القرار التاريخى ، ولكنا نعرف أن قسطنطين سن فى عام ٣٣٢ قانوناً يفترض وجود هذا القرار ويؤكده ؛ ويجعل المستأجر « يرتبط كتابة » بالأرض التى يزرعها ، لا يستطيع تركها إلا برضاء مالكها ، فإذا بيعت الأرض بيع هو وأسرته معها[٦٠] . وليس فيما وصل إلينا من المعلومات ما يدل على أن الزارع قد احتج على هذه القيود ؛ ولعل هذا القانون قد قدم إليه ضماناً لأمنه وسلامته ، كما هو حادث فى ألمانيا فى هذه الأيام . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقلت الزراعة فى القرن الثالث من الاسترقاق إلى الحرية ثم إلى الاسترقاق الإقطاعى ، وبهـذا النظام استقبلت العصور الوسطى .

واتبعت فى الصناعة وسائل من هذا النوع ليضمن بذلك استقرارها . فحرم على العمال تغيير عملهم ، أو الانتقال من مصنع إلى مصنع إلا بموافقة الحكومة ؛ وقصرت كل نقابة طائفية على حرفتها والعمل المقرر لها ، وحرم على أى إنسان أن

يغادر النقابة التى سجل اسمه فيها[٦١] ، وألزم كل من يعمل فى الصناعة أو التجارة بأن ينضم إلى نقابة من هذه النقابات الطائفية ، وحتم على الابن أن يشتغل بحرفة أبيه[٦٢] ؛ فإذا رغب إنسان فى أن يستبدل بمكانه أو حرفته مكاناً آخر أو حرفة أخرى ، ذكرته الدولة بأن إيطاليا يحاصرها البرابرة ، وأن على كل رجل أن يبقى حيث هو .

ولما استهل عام ٣٠٥ نزل دقلديانوس ومكسيمليان عن سلطتهما باحتفالين مهيبين أقيما فى نيقوميديا وميلان ، وأصبح جالريوس ، وقنسطنطيوس أغسطسين إمبراطورين أولهما للشرق وثانيهما للغرب . ولم يكن دقلديانوس قد تجاوز وقتئذ الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه اختفى فى قصره الواسع القائم فى أسبالاتا Spalata ، وقضى فيه الثمانية الأعوام الباقية من حياته . وشهد بعدها انهيار حكومته الرباعية فى غمار الحرب الأهلية . ولما أن ألح عليه مكسميان أن يستولى على أزمة الحكم مرة أخرى ، ويقضى على الشقاق والحرب ، قال إنه لو رأى مكسميان الكرنب الجيد الذى يزرعه فى حديقته لما طلب إليه أن يضحى بهذه المتعة جرياً وراء متاعب السلطان[٦٣] .

والحق أنه كان قميناً بكرنبه وراحته ، فقد قضى على الفوضى التى دامت خمسين عاماً ، وأقر من جديد سلطان الحكومة والقانون ، وأعاد الاستقرار إلى الصناعة ، ورد الأمن إلى التجارة ؛ وأذل فارس ، وخضد شوكة البرابرة ؛ وكان بوجه عام مشترعاً أميناً مخلصا ، وحاكما عادلا إذا ضربنا صفحا عن بعض الاغتيالات القليلة التى جرت على يديه .

ولسنا ننكر أنه أقام بيروقراطية باهظة الأكلاف ، وقضى على الاستقلال الذاتى للولايات ، وعاقب معارضيه أشد عقاب ، واضطهد الكنيسة التى كان فى وسعه أن يتخذها حليفة له فيما بذل من الجهود لإصلاح أحوال الدولة ، وجعل سكان الإمبراطورية مجتمعا من الطبقات ، فى أحد طرفيه زراع جهلاء وفى طرفه

الآخر ملك مستبد مطلق السلطان . ولكن الظروف التي واجهتها رومة لم تكن تسمح بانتهاج سياسة تقوم على مبادئ الحرية ؛ وقد جرب ماركس أورليوس والكسندر سفيرس هذه السياسة وأخفقا فيها ، ورأت الدولة الرومانية نفسها محوطة بالأعداء من كل جانب ، ففعلت ما لا بد أن تفعله الأمم جميعها في أوقات الحروب التي يتقرر فيها مصيرها ، وقبلت طغيان زعيم قوي ، ورضيت أن يفرض عليها ما لا تكاد تطيقه من الضرائب ، وتخلت عن الحرية الفردية إلى أن تنال الحرية الجماعية . ولقد قام دقلديانوس بالأعمال التي قام بها أغسطس ، وإن كانت قد كلفت أولهما أكثر مما كلفت الآخر ، ولكنه والحق يقال قام بها في ظروف أقسى من ظروفه ؛ وقد أدرك معاصروه ومن جاءوا بعده الأخطار التي نجوا منها بفضل جهوده فلقبوه « أبا العصر الذهبي » . وسكن قسطنطين البيت الذي شاده له دقلديانوس .

الباب الثلاثون

انتصار المسيحية

٣٠٦ – ٣٢٥ م

الفصل الأول

النزاع بين الكنيسة والدولة

٦٤ – ٣١١ م

كانت الحكومة الرومانية فيما قبل أيام المسيحية تُظهر فى أغلب الأحيان للأديان المعارضة للدين الوثنى المقرر تسامحاً تظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللإمبراطورية ؛ فلم تكن تطلب من أتباع العقائد الجديدة إلا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجدون بها الآلهة ورئيس الدولة . ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين واليهود ، دون سائر أتباع الأديان الخارجة على دين الدولة ، هم الذين يأبون أن يعظموا عبقريأتهم . ذلك إن إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كان قد أصبح دليل الولاء للإمبراطورية وتوكيداً لهذا الولاء ، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التى تطلب إلى من ينالون حق المواطنية فى هذه الأيام . لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة ، وترى فى عبادة الإمبراطور نوعاً من الشرك وعبادة الأصنام ، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض . واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية

حركة متطرفة — بل لعلها حركة شيوعية — تعمل فى السر على قلب النظام القائم .

وقد استطاعت القوتان قبل عهد نيرون أن تعيشا معاً من غير أن يشتجر بينهما النزاع ؛ وكان القانون يعفى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور ؛ ونال المسيحيون فى أول أمرهم هذه الميزة لأنه لم يكن يستطاع التفريق بينهم وبين اليهود . ولكن مقتل بطرس وبولس ، وحرق المسيحيين ليزيد حرقهم ألعاب نيرون بهاء ، بدلا هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائماً ، وحربا تندلع نارها بين الفينة والفينة . فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الإيذاء ، أسلحتهم كلها إلى صدر رومة — فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام ؛ وسخروا بآلهتها ، وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث[1] ، وتنبئوا بسقوطها بعد زمن قليل ، وأعلنوا ، فى حماسة الدين الذى أخرجه عن تسامحه عدم تسامح الدولة معه ، أن كل من أتيحت لهم الفرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذاباً أبديا ؛ وقال الكثيرون منهم إن هذا سيكون أيضا مصير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأى سبب من الأسباب ، وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط وحده من هذا العذاب . ورد الوثنيون على هذا بأن سموا المسيحين « حثالة الناس » و « البرابرة الوقحين » ، واتهموهم بأنهم « أعداء الجنس البشرى » ، وقالوا إن الكوارث التى حلت بالإمبراطورية ليست إلا نتيجة غضب الآلهة الوثنية والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا أحياء[2] ؛ وأخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات ، فاتهم المسيحيون بأنهم سحرة متصلون بالشياطين ، وأنهم يقترفون الخطايا سراً ، ويشربون دماء الآدميين فى عيد الفصح[3] ، ويعبدون الحمار .

لكن النزاع كانت له أصول أعمق من هذا الخصام . ذلك أن الدولة كانت أساس الحضارة الوثنية فى حين أن الدين كان هو أساس الحضارة المسيحية . فالرومانى كان ينظر إلى دينه على أنه جزء من كيان الحكومة

وشعائرها ، وكانت الوطنية هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقية العليا . أما المسيحي فكان ينظر إلى دينه على أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسي ، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما ؛ وكان يدين بأعظم الولاء للمسيح لا لقيصر . وقد وضع ترتليان المبدأ الثوري القائل بأن الإنسان غير ملزم بأن يطيع قانونا يعتقد أنه ظالم[٤] ؛ وكان المسيحي يعظم أسقفه ، بل يعظم قسيسه ، أكثر من تعظيمه الحاكم الروماني ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفي الدولة[٥] . وكان اعتزال المسيحي للشئون الدنيوية يبدو للوثني كأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومي والإرادة القومية . وأشار ترتليان على المسيحيين بأن يرفضوا الخدمة العسكرية ؛ وعمل عدد كبير منهم بنصيحته كما يدل على ذلك نداء سلسس لهم بأن يضعوا حداً لهذا الرفض ، ورد أرجن عليه بأن المسيحيين سيدعون للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها[٦] . وكان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين ، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التي يقيمونها في أعيادهم ، وألا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة للفجور[٧] . وحرم على المسيحي أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تتزوج بغير مسيحي ؛ واتهم الوثنيون العبيد المسيحيين بأنهم يبذرون بذور الشقاق في الأسر بتحريضهم أبناء أسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحي ؛ واتهم الدين المسيحي بأنه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت[٨] .

على أن معارضة الدين الجديد قد جاءت من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة . ذلك أن الحكام كانوا في كثير من الأحيان رجالا مثقفين متسامحين ولكن جمهور السكان الوثنيين قد ساءهم عزلة المسيحيين ، وتعاليهم ، وثقتهم بأنفسهم ؛ وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدين الذين يهينون الآلهة . ويشير ترتليان إلى « الكراهية العامة التي يحسون بها نحونا »[٩] .

ويلوح أن القانون الرومانى منذ أيام نيرون كان يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام[١٠] ؛ ولكن معظم الأباطرة كانوا يتغاضون عن تنفيذ هذا القانون متعمدين[١١] ، فكان فى وسع المسيحى إذا اتهم بمخالفته أن ينجو عادة من العقاب بحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور ؛ ويبدو أنه كان يسمح له بعد ذلك أن يمارس شعائر دينه غير مضيق عليه[١٢] . أما المسيحيون الذين يرفضون تقديم هذا الولاء للإمبراطور فكانوا يسجنون ، أو يجلدون ، أو ينفون ، أو يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، أو بالإعدام فى حالات نادرة . ويبدو أن دومتيان نفى بعض المسيحيين من رومة ولكنه « وهو الرجل الرحيم إلى حد ما ، لم يلبث أن وقف ما بدأه »[١٣] . ونفذ پلنى هذا القانون مدفوعاً إلى ذلك بفضول الرجل الهاوى الذى يبغى إظهار سلطانه على الناس (١١١) ، إذا جاز أن نحكم عليه من رسالته التى بعث بها إلى تراچان :

« إن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون ؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى ، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم ؛ فإذا أصروا عليها أمرت بقتلهم . . . . إن الناس بعد أن هجروا المعابد ، فلا يكادون يطرقونها ، قد أخذوا الآن يعودون إليها . . . . وكثر الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال على شرائها »[*] .

وقد رد عليه تراچان بقوله :

« إن الخطة التى سرت عليها يا عزيزى پلنى فى بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة . . . . يجب ألا تجد فى البحث عن

(*) انظر نص هذه الرسالة كاملا ، ورد تراچان عليها فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » الجزء الأول (المترجم) .

هؤلاء الناس ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم ، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحى وأيد ذلك : . . بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه . . . . فإذا بلغت عن أحدهم ولم يذكر فى البلاغ اسم المتَّهِم فلا تتخذه بينة على أحد »[١٤] .

وتوحى الفقرة التى أثبتناها هنا بخط الرقعة بأن تراجان لم ينفذ القانون القائم من قبل أيامه إلا مكرها ؛ ولكننا مع ذلك نسمع عن شهيدين بارزين فى أيام زعامته : أحدهما سمعان رئيس كنيسة أورشليم ، وثانيهما أغناثيوس أسقف أنطاكية ؛ وأكبر الظن أنه قد استشهد غيرهما ممن هم أقل منهما شهرة .

وأمر هدريان ، المتشكك الذى يتسع عقله لقبول كل الآراء ، موظفيه بأن يفسروا كل شك فى مصلحة المسيحيين[١٥] ؛ أما أنطونينس ، الذى كان أكثر منه استمساكا بدينه ، فقد أباح اضطهادهم أكثر من هدريان . وحدث فى أزمير أن طالب الغوغاء فليب حاكم ولاية آسية ألا يتهاون فى تنفيذ القانون ، فأجابهم إلى ما طلبوا وأمر بإعدام أحد عشر من المسيحيين فى المجتلد (١٥٥) ، ولكن هذا لم يطفئ من تعطش الغوغاء للدماء بل زادهم ظمأ إليه ، فأخذوا يطالبون بإعدام الأسقف بوليكارب وهو أب ورع فى السادسة والثمانين من العمر قيل إنه فى أيام صباه كان يعرف القديس يوحنا . وقد وجد الجنود الرومان هذا الشيخ فى بيت فى ضاحية من ضواحى المدينة ، فجاءوا به إلى الوالى وهو يشهد الألعاب دون أن يبدى الرجل أية مقاومة . وألح عليه فليب أن « أقسم اليمين ، وسب المسيح ، وسأصفح عنك » . ويقول أقدم سفر من **أعمال الشهداء** إن بوليكارب أجابه بقوله : « لقد ظللت خادما له ستا وثمانين سنة ؟ لم يسىء فيها إلىّ قط ، فكيف إذن أسب ملكى الذى أنجانى ؟ » ونادى الغوغاء بأنه ينبغى أن يحرق حيا . وتقول الوثيقة التى فاض بها قلب مفعم بالتقوى والإيمان إن النار

كانت برداً وسلاماً عليه ، « بل كان فيها كالخبز الذى يخبز ، وقد فاحت منه رائحة ذكية كالتى تنبعث من البخور أو غيره من الأفاوية الغالية » وأمر الطغاة آخر الأمر سيافاً أن يجهز عليه بسيفه ؛ فلما فعل خرجت منه يمامة ، وخرج دم بلغ من غزارته أن انطفأت منه النار وأثار ذلك دهشة الجماهير كلها »[١٦] .

وتجدد الاضطهاد فى عهد أورليوس الورع . ذلك أنه لما حلت بالبلاد الكوارث من فيضان ، ووباء ، وحرب ، فى حكمه الذى كان فى أول أمره حكما موفقاً سعيداً ، ساد الاعتقاد بأن سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها . وشارك أورليوس الجماهير فى ذعرها ، أو لعله خضع لها ، فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوماً يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب « باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة » بتلقينها عقائد جديدة . وثارت الجماهير الوثنية فى تلك السنة نفسها ثورة عنيفة على المسيحيين فى ڤينا وليون ورجموهم بالحجارة كلما تجرءوا على الخروج من بيوتهم . وأمر المرسوم الإمبراطورى بالقبض على زعماء المسيحيين فى ليون ، ومات الأسقف پوثينس ، وهو شيخ فى سن التسعين ، فى السجن من آثار التعذيب . وأرسل رسول إلى رومـــة ليسأل الإمبراطور عما يشير به فى معاملة سائر المسجونين ، فأشار ماركس بأن يطلق سراح من ينكر الدين المسيحى ، وأن يقتل من يعتنقه كما يقضى بذلك القانون .

وكان أهل ليون يحتفلون وقتئذ بعيد الأوغسطاليا كعادتهم فى كل عام ، وأقبلت الوفود من جميع بلاد الغالة حتى ازدحمت بهم عاصمة الولاية . وبينا كانت الألعاب قائمة على قدم وساق جىء بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ووجهت إليهم الأسئلة ، فأما من أنكروا فقد أخرجوا من المدرج ، وأصر سبعة وأربعون على الاستمساك بدينهم « فقتلوا بعد أن ذاقوا من ألوان العذاب ما لا مثيل له إلا فى أيام محاكم التفتيش . من ذلك أن أتلس الذى يلى پوثينس فى المراتب الكهنوتية قد أرغم على الجلوس على كرسى من الحديد المحمى الذى شوى جسمه وأزهق

روحه[١٧] . وظلت بلندينا Blandina وهى أمة صغيرة السن ، تعذب يوما كاملا ، ثم ربطت فى زكيبة ، وألقيت فى المجتلد ليفتك بها ثور وحشى . وتحملت الفتاة عذابها وهى صامتة ، ولذلك اعتقد كثيرون من المسيحيين أن المسيح كان يُفقد شهداءه قوة الإحساس بالألم ؛ ولعل النشوة الدينية والخوف هما علة عدم الإحساس . وفى ذاك يقول ترتليان : « إن المسيحى كان يلهج بالشكر حتى حين يحكم عليه بالإعدام »[١٨](*) .

وخفت حدة الاضطهاد فى عهد كمودس ، ثم عاد إلى ما كان عليه فى عهد سبتميوس سفيرس ، وبلغ من شدته أن كان التعميد نفسه يعد جريمة تستحق العقاب . وفى عام ٢٠٣ استشهد كثيرون من المسيحيين فى قرطاجنة ومن هؤلاء أم فى مقتبل العمر تدعى بربتوا Berpetua تركت وراءها وصفاً يفتت الأكباد لأيامها التى قضتها فى السجن ، ورجاء أبيها لها أن تنكر الدين المسيحى . وقد ألقيت هى وأم شابة أخرى إلى أحد الأثوار الوحشية وافترسهما الثور . والدينا فى أحد أسئلتها الأخيرة « حين ألقى بها إلى الثيران » دليل على ما يحدثه الخوف والغيبوبة من تخدير . وتصف لنا قصتها كيف وجهت بنفسها إلى عنقها خنجر المجالد الذى أمر على الرغم منه أن يقتلها[١٩] . ولم تكن الإمبراطورات السوريات اللائى جلسن على العرش بعد سبتميوس يعنين كثيراً بالآلهة الرومانية . ولقيت المسيحية فى أيامهن شيئاً من التسامح الناشىء من عدم اهتمامهن بأمرها . ويبدو أن السلم قد سادت جميع الأديان المتنافسة فى أيام ألكسندر سفيرس .

وانتهت الهدنة بتجدد هجمات البرابرة . وإذا شئنا أن نفهم الاضطهاد فى عهد

(*) ومعلوماتنا عن الاضطهاد الذى حدث فى ليون مستمدة من رسالة بعث بها « خدام المسيح فى بلد لوم وفينا من أعمال غالة إلى إخوانهم فى آسية وفريجيا » وقد بقيت هذه الرسالة فى كتاب تاريخ الكنيسة ليوسبيوس ٥ : ١ . ولعل بعض المغالاة قد سرت إلى هذا التقرير .

ديسيوس (أو أورليوس) على حقيقته وجب علينا أن نصور لأنفسنا أمة منهمكة فى حرب عوان ، تزعجها الهزائم المنكرة ، وتتوقع أن يغزو بلادها الأعداء . وتجتاح الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية فى عام ٢٤٩ ؛ ويهرع الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلوات والدعوات ؛ وفى وسط هذه الحمى التى تتأجج فيها نيران الوطنية والخوف ، يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهدين الذين لا يعنيهم الأمر ، ويظلون كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها[٢٠] ، ويسخرون من الآلهة ، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير « بابل » وعودة المسيح . وأراد ديسيوس أن يتخذ من حال الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماسة الوطنية والوحدة القومية فأصدر مرسوما يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة رومة بعمل يتقربون به إليها ويردون به غضبها . ويلوح أن المسيحيين لم يطلب إليهم أن ينكروا دينهم ، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل إلى الآلهة التى طالما أنجت رومة من الخطر المحدق بها كما يعتقد العامة . واستجابت كثرة المسيحيين إلى هذا الأمر ؛ ففى الإسكندرية « كانت الردة عامة » على حد قول الأسقف ديونيشيوس[٢١] ؛ وحدث ذلك بعينه فى قرطاجنة وأزمير ؛ وأكبر الظن أن المسيحيين من أهل تلك المدن وأمثالها كانوا يرون أن هذا التوسل لا يعدو أن يكون نوعاً من الوطنية ؛ ولكن أسقفى أورشليم وأنطاكية قضيا نحبهما فى غيابة السجن ، وأعدم أسقفا رومة وطولوز (٢٥٠) ، وألقى مئات من المسيحيين الرومان فى غيابة الجب ، وقطعت رءوس بعضهم ، ومات الكثيرون منهم على قوائم الإحراق ، وألقى عدد قليل منهم إلى الوحوش فى حفلات الأعياد . وخفت حدة الاضطهاد بعد عام من ذلك الوقت ، ولم يحل عيد الفصح فى عام ٢٥١ حتى انتهى أمرها أوكاد ؛ وبعد ست سنين من ذلك الوقت أمر ﭬليريان ، فى خلال أزمة أخرى من أزمات الغزو والرعب ،

أن « يمثل كل شخص للشعائر الرومانية » ، وحرم كل الاجتماعات المسيحية . وعصى البابا سكتس Sixtus هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته ، وكذلك قطع رأس سبريان أسقف قرطاجنة ، وحرق أسقف طراقونة حيا . وفى عام ٢٦١ نشر جالينوس ، الذى جلس على العرش بعد أن أزال عنه الفرس ڤلبريان ، أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى اعترف فيه بأن المسيحية من الأديان المسموح بها وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم . وحدثت اضطهادات خفيفة فى السنين الأربعين التالية ، ولكن هذه السنين كانت فى معظمها سنى هدوء ونماء سريع للمسيحية لم تر لها مثيلا من قبل . فقد كان الناس فى خلال الفوضى والرعب السائدين فى القرن الثالث يفرون من الدولة الواهية المزعزعة الأركان إلى الذين يجدون فيهم سلواهم ، وقد وجدوا هذه السلوى فى المسيحية أكثر مما كانوا يجدونها فى غيرها من الأديان المنافسة لها . واعتنق المسيحية وقتئذ عدد من الأغنياء ، فشادت كنائس فخمة ، وأجازت لأبنائها أن يستمتعوا بطيبات العالم . وخبت نار الأحقاد الدينية بين الأهلين ؛ وأصبح المسيحيون أكثر حرية فى الاختلاط بالوثنيين ، بل إنهم تزوجوا منهم ، وبدا أن ملكية دقلديانوس الشرقية قد قدر لها أن تعزز الأمن والسلام فى الدين وفى السياسة على السواء .

بيد أن جليريوس كان يرى أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل السلطة المطلقة ، فأخذ يحرض رئيسه على أن يجعل العودة إلى العهود الرومانية السابقة عودة كاملة ، وذلك بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة . وتردد دقلديانوس فى الأخذ بهذه المشورة ، لأنه كان عازفاً عن ركوب أخطار لا موجب لها ، ولأنه كان أكثر من جليريوس تقديراً لثقل هذا العبء . ولكن حدث فى يوم من أيام القربان الإمبراطورية أن رسم المسيحيون علامة الصليب ليتقوا شر الشياطين الخبيثة ؛ ولما أن عجز العرافون عن أن يجدوا فى أكباد الحيوانات المذبوحة العلامات التى كانوا يرجون تفسيرها ألقوا الذنب على وجود أشخاص

كفار نجسين ، فأمر دقلديانوس أن يقرب جميع الحاضرين القرابين إلى الآلهة أو يجلدوا ، وأن يمتثل جميع جنود الجيش هذا الأمر أو يفصلوا من الخدمة (٣٠٢) . ومن أغرب الأشياء أن الكتاب المسيحيين يتفقون هنا مع الكهنة الوثنيين فيقول لكتنتيوس Lactantantius[٢٢] إن صلوات المسيحيين أبعدت الآلهة الرومانية ، وكتب الأسقف ديونيشيوس بهذا المعنى ذاته قبل ذلك بجيل . ولم يترك جليريوس فرصة إلا انتهزها للقول بأن الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة ، وما زال يلح على دقلديانوس حتى خضع له فى آخر الأمر . وأمر الحكامُ الأربعة فى عام ٣٠٣ أن تهدم كل الكنائس المسيحية ، وأن تحرق الكتب المسيحية ، وتحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها ، ويحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة ، ويعاقب بالإعدام من يضبط منهم فى أى اجتماع دينى . وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة نقوميديا وتدميرها عن آخرها .

وكان المسيحيون وقتئذ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله ، فقامت حركة ثورية فى سوريا ، وأضرم بعضهم النار مرتين فى قصر دقلديانوس بنقوميديا . واتهم جليريوس المسيحيين بجريمة الحرق عمداً ، واتهموه هم بنفس التهمة ، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا ، ولكن الجريمة لم تثبت على أحد . وأصدر دقلديانوس فى شهر سبتمبر أمراً بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية ، أما من يرفض ذلك منهم فلتسلط عليه جميع أنواع العذاب التى تعرفها رومة . فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدراء استشاط غضباً من هذه المقاومة ، وأمر جميع كبار الحكام فى الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحى ، وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة . ولعله قد سره أن يـ ـك هذه المقامرة التعسة إلى من يخلفه فاعتزل الملك .

ونفذ مكسميان هذا المرسوم فى إيطاليا تنفيذاً عسكريا كاملا صارما . وشجع جلبريوس بعد أن صار أغسطس الاضطهاد فى الشرق بجميع وسائل التشجيع ، فزاد عدد الشهداء فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية عدا غالة وبريطانيا ، حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من الكنائس . ويؤكد لنا يوسبيوس ، ولعله يفعل ذلك فى سورة الغضب ، أن الناس كانو يجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم ، أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف ، وكان الملح أو الخل يصب فى جروحهم ، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة فى انتظارها ، أو يشدون إلى الصلبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً . ودقت عصى حادة الأطراف فى أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم ، وسملت أعين بعضهم ، وعلق بعضهم من يده أو قدمه وصب الرصاص المصهور فى حلوق البعض الآخر ، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا ، أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة ؛ ومزقت أشلاء البعض بأن شدت أجسامهم إلى غصون أشجار ثنيت ثنياً مؤقتاً(٢٣) وقد وصل إلينا علم ذلك كله عن المسيحيين ، أما الوثنيون فلم ينقلوا إلينا شيئاً من هذه الأخبار .

ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين ، بعضهم من أتباع الدين القويم ، وبعضهم من الملاحدة ، وقاسى عدد آخر يخطئه الحصر ألواناً مختلفة من العذاب . وارتد آلاف من المسيحيين عن دينهم ؛ وتقول بعض الروايات إن مرسلينس Marcellinus أسقف رومة نفسه أرغم بضروب من الأرهاب والتعذيب على أن يرتد عن دينه ، ولكن معظم من نالهم الاضطهاد ثبتوا على دينهم ؛ وكان منظر استبسالهم فى الإخلاص لدينهم ، أو كانت أخبار هذا الاستبسال ، رغم ما قاسوه من ألوان العذاب ، كان هذا وذاك سبباً فى شد عزيمة المترددين ، وضم أنصار جدد للجماعات الدينية المضطهدة . وأثارت ضروب الاضطهاد الوحشى المتزايدة الرحمة فى قلوب الأهلين الوثنيين ؛ ووجد الصالحون فى نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلى التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذى

لم يكن له مثيل في التاريخ الروماني كله . لقد كان الشعب في الأيام الخالية يدفع الدولة إلى القضاء على المسيحية ؛ أما الآن فقد وقف الشعب بعيداً عن الحكومة ، وعرض كثيرون من الوثنيين أنفسهم للموت بحماية المسيحيين أو إخفائهم حتى تنجلى هذه العاصفة[٢٤] . وقد انجلت فعلا فى عام ٣١١ ، ففى ذلك العام أصدر جلريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية دينا مشروعا ، وطلب إلى المسيحيين أن يدعوا له فى صلاتهم نظير « رحمتنا التى وصلت إلى أقصى حدود الرقة »[٢٥] . وكان الباعث له على إصدار هذا المرسوم رجاء زوجته وتوسلها له أن يصالح إله المسيحيين الذى لم يهزم ؛ وكان جليريوس وقتئذ يشكو من داء عضال ، ويوقن بإخفاقه فى القضاء على المسيحية .

وكان اضطهاد دقلديانوس أشد ما ابتليت به الكنيسة المسيحية ، كما كان فى الوقت نفسه أعظم انتصار نالته على أعدائها . نعم إن هذا الاضطهاد أضعفها إلى حين ، بعد أن خرج منها بعض من انضموا إليها أو نشأوا فى أحضانها خلال خمسين عاماً من أعوام الرخاء لم يتعرض لهم فيها أحد بسوء ؛ ولكن سرعان ما أخذ المرتدون يتوبون عن ذنبهم ويطلبون العودة إلى حظيرتها ؛ ذلك أن أخبار وفاء الشهداء الذين قضوا نحبهم ، أو عذبوا فى سبيل دينهم ، أخذت تنتشر من مكان إلى مكان . ونسجت حول أعمال الاستشهاد هذه قصص خيالية مبالغ فيها مثيرة للعواطف محركة للنفوس ، كان لها شأن أيما شأن فى إحياء العقيدة المسيحية ، وتثبيت دعائمها . وفى ذلك يقول ترتليان « إن دم الشهداء هو البذور » التى نبتت منها المسيحية[٢٦] . وليس فى تاريخ البشرية قصة أعظم روعة من قصة فئة قليلة من المسيحيين توالت عليها ضروب الظلم والازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة ، ولكنها صبرت على هذه المحن جميعها واستمسكت بدينها ، وتضاعف عددها وهى هادئة ساكنة ، تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى ، تصد القوة بالقوة ، والوحشية بالأمل ، ثم تهزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ . لقد التقى قيصر والمسيح فى المجتلد ، فانتصر المسيح على قيصر .

الفصل الثانى

قسطنطين

شهد دقلديانوس ، وهو هادئ فى قصره بدلماشيا ، فشل الاضطهاد والحكومة الرباعية ، ذلك أن الإمبراطورية لم تشهد قط فى أيامها السابقة ما شهدته من الاضطراب بعد نزوله عن العرش . وقد استطاع جلريوس أن يقنع قنسطنطيوس بأن يعين سڤيرس ومكسمينس دازا « قيصرين » (٣٠٥) . وما لبث مبدأ الوراثة أن أخذ يثبت دعواه ، فقد رغب مكسنتيوس Maxentius بن مكسميان أن يخلف أباه فى سلطانه ، وثارت هذه الرغبة نفسها فى قلب قسطنطين .

وكان فلاڤيوس ڤليريوس قسطنطينس قد بدأ حياته فى نايسس Naissus ابناً غير شرعى لقنسطنطيوس من محظيته الشرعية هلينا ، خادمة إحدى الحانات فى بيثينيا[٢٧] . فلما أصبح قنسطنطيوس قيصراً طلب إليه دقلديانوس أن يتنحى عن هلينا ويتزوج بثيودورا ربيبة مكسميان . ولم يتلق قنسطنطين من العلم إلا قليلا ، فقد انخرط فى سلك الجندية فى سن مبكرة ، وأظهر بسالته فى الحروب التى قامت ضد مصر وفارس : ولما خلف جلريوس دقلديانوس أبقى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنسطنطيوس . ولما طلب إليه قنسطنطيوس أن يرسل إليه الشاب ، تلكأ جليريوس فى إجابته إلى طلبه وأظهر فى ذلك كثيراً من الدهاء ، ولكن قسطنطين فرّ من حرّاسه ، واخترق أوربا راكباً ليلا ونهاراً لينضم إلى أبيه فى بولونى Boulogne ، ويشترك معه فى حرب ضد بريطانيا . وكان جيش غالة شديد الولاء لقنسطنطيوس لِـمَا كان يتصف به من الرحمة ، فلما أبصر ابنه الوسيم ، الشجاع ، النشط ، أحبه حبا جما ؛ ولما مات والده فى يورك York (٣٠٦) ، لم يكتف الجند بأن ينادوا بقسطنطين

« قيصراً » فحسب بل نادوا به **أغسطساً** — إمبراطوراً . لكنه رضى بأصغر اللقبين بحجة أنه لن يأمن على حياته إذا لم يكن من ورائه جيش يحميه . ولم يستطع جليريوس أن يتدخل فى الأمر لبُعده ، فاعترف به « قيصراً » ، وهو كاره . وحارب قسطنطين الفرنجة الذين غزوا الإمبراطورية وانتصر عليهم ، وأطعم وحوش المدرج الغالى ملوك البرابرة .

وفى هـذه الأثناء نادى الحرس البريتورى فى رومة بمكسنتيوس إمبراطوراً ، لأنه كان يتوقّ لعودة الزعامة إلى العاصمة التليدة (٣٠٦) . وانقض عليه سفيرس من ميلان وهاجمه . وضاعف مكسميان الاضطراب والفوضى فعاد إلى لبس الأرجوان(*) إجابة لطلب ولده ، واشترك فى الحرب التى شبت نارها وقتئذ . وتخلى جنود سفيرس عنه وقتلوه (٣٠٧) ؛ وأراد جليريوس ، وكان فى ذلك الوقت شيخاً طاعناً فى السن ، أن يقوى مركزه ليواجه الفوضى التى أخذت تضرب أطنابها فى البلاد ، فعيّن **أغسطساً** جديداً — فلافيوس ليسنيوس Flavius Licinius ، فلما سمع قسطنطين بهذا اتخذ لنفسه أيضاً هذا اللقب (٣٠٧) ؛ وبعد سنة واحدة لقب مكسمنيوس دازا نفسه باللقب عينه ، وبهذا أصبح فى الإمبراطورية ســتة **أغاطسة** بدل الاثنين اللذين كانا على عهد دقلديانوس ، ولم يكتف واحد منهم بأن يكون قيصراً فقط . وتنازع مكسنتيوس مع والده ، وذهب مكسميان إلى غالة ليستغيث بقسطنطين ، وقد كان وقتئذ يحارب الألمان على ضفاف الرين . وحاول مكسميان أن يكون هو قائد الجيوش الغالية بدله ، واخترق قسطنطين غالة بجيشه ، وحاصر المغتصب فى مرسيليا ، وأسره ، وتفضل عليه بأن أجاز له أن ينتحر (٣١٠) .

وأزال موت جليريوس الحاجز الأخير بين الدسائس والحرب ، فاثتمر

(*) أى عاد إمبراطوراً كما كان من قبل (المترجم) .

مكسميانس ومكسنتيوس للقضاء على ليسنيوس وقسطنطين ، واتمر الثانيان للقضاء على الأولين . ورأى قسطنطين أن يكون هو البادئ بالعمل ، فعبر جبال الألب ، وهزم جيشاً لعدويه قرب تورين Turin ، وزحف على رومة بسرعة مدهشة ونظام عسكرى يذكّران الإنسان بزحف قيصر من الربيكون Rubicon . والتقى فى السابع والعشرين من شهر اكتوبر عام ٣١٢ بقوى مكسنتيوس عند سكسا ربرا Saxa Rubra (الصخور الحمراء) ، التى تبعد تسعة أميال عن رومة جهة الشمال ، وأفلح بخططه الحديثة الفائقة أن يرغم عدوه على أن يقاتل ونهر التيبر من ورائه ، وليس له من طريق يسلكه إذا تقهقر إلا أن يعبر جسر ملفيوس ويقول يوسبيوس[٢٨] إن قسطنطين شاهد بعد ظهر اليوم الذى دارت فيه المعركة صليبا ملتهبا فى السماء وعليه تلك العبارة اليونانية en touti mika ومعناها « بهذه العلامة انتصر »(*) .

وفى صباح اليوم الثانى — كما يقول يوسيبيوس ولكتنتيوس[٣١] رأى قسطنطين فيما يرى النائم أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف X على دروعهم وفى وسطه خط يقطعه وينثنى حول أعلاه — علامة الصليب . فلما استيقظ من نومه صدع بما أمر وخاض المعركة خلف لواء « عرف من ذلك الوقت باسم اللبارم Labarum » رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ المسيح يربطهما صليب . ولعل حقيقة الأمر أن قسطنطين رأى أن يربط حظه بحظ المسيحيين حين رأى مكسنتيوس يرفع لواء مثراس أورليان ، وهو لواء الشمس التى لا تقهر . وكان عدد جنوده المسيحيين وقتئذ كبيراً ، وبهذا جعل هذه المعركة نقطة التحول

(*) تنقلها الرواية المتواترة عادة فى صورتها اللاتينية in hoc vinci أو in hoc signo vinces « بهذه العلامة سوف تنتصر » . وعمدتنا الوحيد فى هذه الرؤيا هو يوسبيوس وهو باعترافه يميل إلى تأييدها[٢٩] إذ يقول : « وإذ كان الإمبراطور قد أقسم حين قصها على أنها صحيحة بعد أن اعتزمت أن أكتب تاريخه . . . فمن ذا الذى يستطيع أن يشك فى قوله ؟ »[٣٠]

فى تاريخ الأديان . ولم يكن الصليب يسيء إلى جنود قسطنطين من عُبّاد مثراس ، لأنهم طالما حاربوا تحت لواء يحمل شعاراً مثراسيًّا من الضوء(٣٢). ومهما يكن من شيء فقد انتصر قسطنطين فى واقعة جسر ملفيوس وهلك مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده فى نهر التيبر ، ودخل القائد الظافر رومة وحيّته المدينة وأصبح سيّد الغرب بلا مُنازع .

وتقابل قسطنطين وليسنيوس فى ميلان فى أوائل عام ٣١٣ لينسقا حكمهما : وأراد أولها أن يجعل تأييده للمسيحيين عاما يشمل الولايات جميعها ، فأصدر هو وليسنيوس « مرسوم ميلان » يؤكدان فيه التسامح الدينى الذى أعلنه جلريوس ووسعا نطاقه حتى شمل الأديان كلها ، ويأمران بأن يعاد إلى المسيحيين ما انتزع من أملاكهم فى أثناء الاضطهاد الأخير . وعاد قسطنطين للدفاع عن غالة بعد هذا الإعلان التاريخى الذى كان فى واقع الأمر اعترافاً بهزيمة الوثنية ؛ واتجه ليسنيوس نحو الشرق ليكيل الضربات إلى مكسمينس (٣١٣) ؛ ولكن مكسمينس مات بعد قليل من ذلك الوقت فأصبح قسطنطين وليسنيوس حاكمى الإمبراطورية لا ينازعهما فيها منازع . وتزوج ليسنيوس أخت قسطنطين ، واغتبط الشعب الذى مل الحروب بمخايل السلام البادية فى الأفق .

ولكن كلا الحاكمين لم يفارقه قط أمله فى أن يكون صاحب السيادة وحده على الدولة جميعها ؛ ووصل العداء المتزايد بينهما فى ٣١٤ إلى امتشاق الحسام ، فغزا قسطنطين بانونيا ، وهُزم ليسنيوس ، واضطر إلى أن يسلم اه جميع أملاك الدولة الرومانية فى أوربا ما عدا تراقية . وانتقم ليسنيوس من المسيحيين المؤيدين لقسطنطين بالعودة إلى اضطهادهم فى آسية ومصر ؛ فطرد المسيحيين من قصره فى نقوميديا ، وحتم على كل جندى أن يعبد الوثنية ، وحرّم اجتماع الرجال والنساء فى أثناء العبادات المسيحية ، ثم حرّم آخر الأمر

جميع الشعائر المسيحية داخل المدينة ، وأمر بطرد من عصى من المسيحيين من خـــدمة الحكومة وحرمانهم من حق المواطنية ، ومن أملاكهم ، أو حريتهم أو حياتهم .

وظل قسطنطين يترقب الفرصة التى تمكنه من إنقاذ المسيحيين فى بلاد الشرق ومن إضافة الشرق نفسه إلى أملاكه . وأتيحت له هذه الفرصة حين غزا البرابرة تراقية وعجز ليسنيوس عن الزحف لملاقاتهم ، فسار قسطنطين على رأس جيشه إلى تسالونيكى لينقذ ولاية ليسنيوس من الغزاة . فلما أن صد البرابرة احتج ليسنيوس على دخوله تراقية ، وتجددت الحرب بين الملكين لأن كليهما لم يكن يجنح للسلم . والتقى حامى المسيحية ومعه ١٣٠,٠٠٠ من رجاله بحامى الوثنية على رأس ١٦٠,٠٠٠ فى أدرنة أولا ثم فى كريسبوليس Chrysopolis (أشقودرة) ، وانتصر وأصبح وحده إمبراطوراً على الدولة الرومانية (٣٢٣) . واستسلم ليسنيوس بعد أن وعده قسطنطين بالعفو عنه ، ولكنه أعدم فى السنة الثانية متهما بأنه عاد إلى دسائسه . واستدعى قسطنطين المنفيين من المسيحيين ، وأعاد إلى كل « المؤمنين » ما فقدوه من الامتيازات والممتلكات . ومع أنه كان لايزال يعلن أن الناس كلهم أحرار فيما يعبدون ، فقد أعلن وقتئذ صراحة اعتناقه الدين المسيحى ، ودعا رعاياه أن ينهجوا نهجة فى اعتناق الدين الجديد .

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصا في عمله هذا ؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية ، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر الظن أن الرأى الأخير هو الصواب(٣٣) . لقد اعتنقت أمه هلينا الدين المسيحى حين طلقها قنسطنطيوس ؛ ولعلها أفضت إلى ولدها بفضائل المسيحية ، وما من شك فى أنه تأثر بما ناله من انتصارات فى المعارك الحربية التى خاض غمارها مستظلا بلواء المسيح وصليبه . ولكن المتشكك وحده هو الذى يحتال هذا الاحتيال على استخدام مشاعر الإنسانية الدينية لنيل أغراضه الدنيوية . ويقول صاحب كتاب **تاريخ أغسطس** Historia Augusta على لسانه : « إن الحظ وحده هو الذى يجعل الإنسان إمبراطوراً »(٣٤) — وإن كان قوله هذا تواضعاً منه لا اعتقاداً بسيطرة الظروف على مصائر الناس . وقد أحاط نفسه فى بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين(٣٥) ، وقلما كان بعد اعتناقه دينه الجـــديد يخضع لما تتطلبه العبادات المسيحية من شعائر وطقوس ، ويتضح من رسائله التى بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التى كانت تضطرب بها المسيحية — مع أنه لم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية . وقد كان فى أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ؛ فكان يستدعيهم إليه ، ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم من آراء . ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أوّلا وحاكما سياسيا بعدئذ ؛ ولكن الآية انعكست فى حال قسطنطين ، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية .

ولقد شهد فى حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات ، وانطبع فى نفسه بلا ريب انتصار المسيحية رغم كل اضطهاد . نعم إن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة ، ولكنهم كانوا إذا قيسوا إلى غيرهم قلة متحدة ، مستبسلة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية ، وكان فيها عدد كبير من النفوس التى لا عقيدة لها ولا نفوذ فى الدولة . وكان المسيحيون كثيرين فى رومة بنوع خاص فى عهد مكسنتيوس ، وفى الشرق فى أيام ليسنيوس ؛ وقد أفاد قسطنطين من تأييد المسيحية اثنى عشر فيلقاً لاقى بها هذين القائدين . ولقد أعجب بجودة نظام المسيحيين إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية ، وبمتانة أخلاقهم ، وحسن سلوكهم ، وبجمال شعائر المسيحية وخلوها من القرابين الدموية ، وبطاعة المسيحيين لرؤسائهم الدينيين ، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخرة . ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان ، ويعيد إلى الزواج والأسرة ما كان لها من شأن قديم ، ويخفف من حدة حرب الطبقات . وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد ، ذلك بأن معلميهم قد غرسوا فى نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، ولقنوهم حق الملوك المقدس . وكان قسطنطين يأمل أن يكون ملكا مطلق السلطان وهذا النوع من الحكم يفيده لا محالة من تأييد الدين ، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية ؛ ولعل هذا النظام العجيب ، بما فيه من أساقفة وقساوسة ، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها .

لكن قسطنطين اضطر إلى أن يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر ، لأن الوثنية كانت هى الغالبة على العالم الذى يعيش فيه . ولذلك ظل يستخدم ألفاظا توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثنى ؛ وقام فى خلال السنين الأولى من سلطانه

المفرد فى صبر وأناة بجميع المراسيم التى يتطلبها منه منصب **الكاهن الأكبر** ، والتى تحتمها عليه الطقوس التقليدية ، وجدّد بناء الهياكل الوثنية ، وأمر بممارسة أساليب العرافة ؛ واستخدم فى تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً ، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض[٣٦] .

ولما توطدت دعائم قوته أخذ يجهر تدريجاً بمحاباة المسيحية ، فمحا بعد عام ٣١٧ من نقوده واحدة بعد واحدة ما كان على وجهها من صور وثنية ، ولم يحلّ عام ٣٢٣ حتى كان كل ما عليها من الرسوم نقوشاً محايدة لاهى مسيحية ولا وثنية . ومن المراسيم القانونية الباقية من عهده مرسوم مشكوك فيه ولكنه لم يثبت كذبه ، يخوّل الأساقفة المسيحيين حق الفصل فيما يقوم فى أبرشياتهم من منازعات قضائية[٣٧] ، وأعفت قوانين أخرى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب[٣٨] وجعلت الجماعات المسيحية شخصيات معنوية قضائية ، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات ، وجعلت الكنيسة هى الوارثة لأملاك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية[٣٩] . كذلك وهب قسطنطين أموالا إلى المجامع الدينية المحتاجة إليها ، وشاد عدداً من الكنائس فى القسطنطينية وغيرها من المدن ، وحرم عبادة الأوثان فى عاصمته الجديدة . وكأنه نسى مرسوم ميلان فحرم اجتماع الشيع الدينية الملحدة ، وأمر آخر الأمر بتدمير مجامعهم الدينية[٤٠] ، وربى أبناءه تربية مسيحية سليمة ، وأعان بالمال أعمال البر المسيحية التى كانت تقوم بها أمه . وابتهجت الكنيسة بهذه النعم التى فاقت كل ما كانت تتوقعه ؛ وكتب يوسبيوس صحائف كانت فى واقع الأمر عقود مدح لقسطنطين وإقراراً بفضله . واحتشد المسيحيون فى جميع أنحاء الإمبراطورية ليعبّروا عن شكرهم لانتصار إلههم .

غير أن سحباً ثلاثاً كدرت صفو ذلك اليوم الذى « لا سحاب فيه » :

تلك هي انشقاق الأديرة ، والانشقاق الدوناني(*) ، والإلحاد الأريوسي(**) .
وكانت الكنيسة ، في الفترة الواقعة بين اضطهادى ديسيوس ودقلديانوس ، قد أضحت أغنى الهيئات الدينية في الإمبراطورية ، وخففت من هجماتها على الثراء . فترى سبريان يشكو من أن أبناء أبرشيته قد أضل حُبُّ المال عقولهم ؛ ومن أن النساء المسيحيات يصبغن وجوههن ، وأن الأساقفة يتولون مناصب في الدولة تدرّ عليهم المال الكثير ، فأثروا ، وأقرضوا المال بربا فاحش ، وارتدوا عن دينهم إذا بدت لهم أول علامة من علامات الخطر[٤١] . ويبدى يوسبيوس حزنه من تناحر القساوسة في تنافسهم على المناصب الكنسية العليا[٤٢] ،

وقصارى القول أن الدنيا جعلت المسيحيين رجال دنيا في الوقت الذى هدت فيه المسيحية العالم إلى ذلك الدين ؛ وأظهرت الدنيا ما في الفطرة البشرية من غرائز وثنية . وقامت الرهبنة المسيحية احتجاجا على هذا التوفيق المتبادل بين الروح والجسم . ذلك أن أقلية من المسيحيين كانت ترغب في الابتعاد عن كل طاعة للشهوات البشرية ، وتطالب بالاستمرار على الانهماك المسيحى القديم في التفكير في الحياة الأبدية الخالدة . وجرى بعض هؤلاء الزهاد على سنّة الكلبيين ، فتخلوا عن جميع أملاكهم ، وارتدوا ثوب الفلاسفة الخلق ، وعاشوا على ما يقدّم لهم من صدقات . وذهب بعضهم ليعيشوا بمفردهم في الصحراء المصرية كما فعل بولس الناسك . وحدث حوالى عام ٢٧٥ أن بدأ راهب مصرى يدعى أنطونيوس ربع قرن من حياة العزلة قضى بعضها أولا في قبر ، وبعضها في حصن جبلى مهجور ، وبعضها الآخر في فجوة ضيقة نحتها في الصخور ، كانت تنتابه فيها أثناء الليل

(*) نسبة إلى دوناتس **Donatus** وهو زعيم شيعة مسيحية أفريقية ظهرت في القرنين الرابع والخامس ، وكانت تعارض أى نقص في احترام الشهداء ، وتطالب بإعادة تعميد من ينضمون إليها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية (المترجم) .

(**) نسبة إلى أريوس الإسكندرى المتوفى عام ٣٣٦ م . والذى كان ينكر الوهية المسيح . (المترجم)

رؤى مخيفة وأحلام لذيذة تغلّب عليها كلها ، حتى اشتهر بالقداسة ، وعمّت هذه الشهرة جميع أنحاء العالم المسيحى ، وعمرت الصحراء بالنساك المنافسين له . وأحس باخوميوس فى عام ٣٢٥ أن اعتزال الناس أنانية فجمع الزهاد فى دير عند طابين فى مصر ، وأنشأ الرهبنة الجماعية التى صار لها أعظم الأثر فى بلاد الغرب . وقاومت الكنيسة حركة الرهبنة وقتا ما ، ثم رضيت بها لتوازن اهتمامها المتزايد بشئون الحكم .

وقبل أن يمضى عام واحد على اعتناق قسطنطين المسيحية حدث فيها انشقاق شديد الخطورة كاد يقضى عليها فى ساعة النصر . ذلك أن دوناتس Donatus أسقف قرطاجنة ، يؤيده قس اسمه كاسمه ومزاجه كمزاجه ، أصر على أن الأساقفة الذين أسلموا الكتاب المقدس لرجال الشرطة الوثنيين قد فقدوا بعملهم هذا أهليتهم لمنصبهم وسلطتهم ، وأن شعائر التعميد ورسامة القساوسة التى تجرى على أيدى هؤلاء الأساقفة باطلة ، وأن صحة العشاء الربانى يقف بعضها على الحالة الروحية للقائم بخدمته . ولما رفضت الكنيسة العمل بهذه العقائد الصارمة نصب الدوناتيون أساقفة جدداً فى كل مكان رأوا أن الأسقف الذى فيه لا تنطبق عليه شروطهم . وحزن قسطنطين أشد الحزن لِمَا أعقب هذه الحركة من فوضى وعنف ، وقد كان يظن أن المسيحية ستكون قوة تعمل على الوحدة ؛ ولعله قد تأثر بعض التأثر بالحلف الذى عقد إلى حين بين الدوناتيين وبين القائمين بالحركات المتطرفة بين الزراع الإفريقيين . ولهذا دعا الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد فى أرليس (٣١٤) ، وأيد ما أصدره من قرار بالتشهير بالدوناتية ، وأمر المنشقين بالعودة إلى الكنيسة ، وقرر أن المجامع التى لا تطيع هذا القرار تفقد أملاكها وحقوقها المدنية (٣١٦) . وبعد خمس سنين من ذلك الوقت طافت بعقله فى فترة قصيرة ذكرى مرسوم ميلان ، فألغى هذه القرارات ، وتسامح مع الدوناتيين

تسامحاً مصحوباً بالسخرية . وبقيت هذه الشيعة حتى قضى العرب على أتباع الدين القويم وعلى الملحدين حين فتحوا أفريقية .

وفى هذه السنين نفسها شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة ؛ ذلك أن قساً مصريا تقدم إلى أسقفه حوالى عام ٣١٨ بآراء غريبة عن طبيعة المسيح ، ويصفه مؤرخ كاثوليكى عالم وصفاً كريماً فيقول :

« كان أريوس . . . طويل القامة ، نحيل الجسم ، مكتئب المظهر ، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش . وكان معروفاً بأنه من الزهاد ، كما يستدل على ذلك من ملبسه — وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة . وكانت طريقته فى الحديث ظريفة ، وخطبه مقنعة ؛ وكانت العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للدين ، وهن كثيرات فى الإسكندرية ، يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين »(٤٣) :

ويقول أريوس إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها . واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول ، ولكن أريوس أصر عليه وقال إنه إذا كان الابن من نسل الأب ، فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن . يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خُلق فلابد أن يكون خَلقه من لا شىء ، أى من غير مادة الأب ؛ لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة . وقد وُلد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهيّة من الكلمة نفسها . ونحن نرى فى هذه العقائد استمرارا للأفكار المنحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين ، وفيلون ، وأفلوطينس ، وأرجن إلى أريوس . وبذلك أصبحت الأفلاطونية التى كان لها أعظم الأثر فى اللاهوت المسيحى فى نزاع مع الكنيسة .

وارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء ، وازتاع أكثر من هذا من سرعة انتشارها بين رجال الدين أنفسهم . ولهذا دعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع فى الإسكندرية ، وأقنع أعضاءه بأن يحكموا بتجريد أريوس وأتباعه ؛ وأبلغ الإجراءات التى اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة ، فاعترض عليها بعضهم ، وأظهر بعض القساوسة عطفاً على أريوس ، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا فى الولايات الأسيوية فى هذه المشكلة ، وترددت فى المدائن أصداء « الضجيج والاضطراب ... حتى كان الدين المسيحى » ، كما يقول يوسبيوس « موضوع السخرية الدنسة من الوثنيين ، حتى فى دور التمثيل نفسها »(٤٥) . ولما جاء قسطنطين إلى نقوميديا بعد أن هزم ليسنيوس ، سمع هذه القصة من أسقفها ، فأرسل إلى ألكسندر وإلى أريوس رسالة شخصية يدعوهما فيها أن يتخلقا بهدوء الفلاسفة ، وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة فى سلام ، فإن لم يفعلا فلا أقلّ من أن يخفيا جدلهما عن آذان الجماهير . ويكشف هذا الخطاب ، الذى نقله لنا يوسبيوس ، فى صراحة عن قلة اهتمام قسطنطين بعلوم الدين ، وعن الهدف السياسى الذى كان يبتغيه من سياسته الدينية :

« لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس فى الله إلى صورة واحدة ، لأنى قوىّ الاعتقاد بأنى إذا استطعت أن أوحّد آراءهم فى هذا الموضوع سهّل علىّ كثيراً تصريف الشئون العامة . ولكنى مع الأسف الشديد أسمع أن بينكما من الخلاف أكثر مما كان قائماً فى أفريقية من وقت قريب . ويبدو لى أن سبب هذا الخلاف بينكما صغير تافه غير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد . فأنت يا ألكسندر تريد أن تعرف رأى قساوستك فى إحدى النقاط القانونية ، فى جزء من سؤال هو فى حد ذاته عديم الأهمية ؛ وأما أنت يا أريوس فقد كان الواجب عليك ، إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل ، أن تظل صامتاً . . . ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير . . . لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل

يشغلون به أنفسهم ، ولا يرجى منها إلا أن تزيد عقول الناس وحدة . . . تلك أعمال سخيفة خليقة بالأطفال العديمي التجربة لا برجال الدين أو العقلاء من الناس »[٤٦]

ولم يكن لهذه الرسالة أثر ما لأن مسألة اتفاق الأب والابن فى المادة لا مجرد تشابههما كانت فى نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلها فإن كيان العقيدة المسيحية كلها يبدأ فى التصدع ، وإذا ما سمحت باختلاف الرأى فى هذا الموضوع فإن فوضى العقائد قد تقضى على وحدة الكنيسة وسلطانها ، ومن ثم على ما لها من قيمة بوصفها عوناً للدولة . ولما انتشر الجدل فى هذه المسألة ، واشتعلت نيران الخلاف فى بلاد الشرق اليونانى ، اعتزم قسطنطين أن يقضى عليه بدعوة أول مجلس عام للكنيسة . ولهذا عقد مجلساً من الأساقفة عام ٣٢٥ فى نيقية البيثينية بالقرب من عاصمة نقوميديا ، وأعد ما يلزم من المال لنفقاتهم . وحضر الاجتماع عدد لا يقل عن ٣١٨ « يصحبهم » كما يقول واحد منهم « حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة »[٤٧] ، وهو قول يدل على مقدار نماء الكنيسة العظيم . وكان معظم الأساقفة من الولايات الشرقية ، لأن كثيراً من الأبرشيات الغربية تجاهلت هذا الجدل ، واكتفى البابا سلفستر الأول Silvester I بأن مثّله بعض القساوسة ، لأن المرض حال بينه وبين حضور الاجتماع بنفسه .

واجتمع المجلس فى بهو أحد القصور الإمبراطورية تحت رياسة قسطنطين ، وافتتح هو المناقشات بدعوة موجزة وجهها إلى الأساقفة يطلب إليهم فيها أن يعيدوا إلى الكنيسة وحدتها . ويقول يوسبيوس إنه كان يستمع بصبر عظيم الى المناقشات ، ويهدئ من عنف الجماعات المتنازعة[٤٨] ، ويشترك فى المناقشات بنفسه . وأكد أريوس من جديد رأيه القائل بأن المسيح مخلوق ، لا يرقى إلى منزلة الأب ، ولكنه « مقدس بالاشتراك » معه لا غير . وقد أرغمته بعض الأسئلة

الحاذقة على أن يعترف بأنه إذا كان المسيح مخلوقاً ، وأن له بداية ، فإن فى مقدوره أن يتحول ، وأنه إذا استطاع أن يتحول ، فقد ينتقل من الفضيلة إلى الرذيلة .

وكانت إجاباته عن الأسئلة منطقية ، صريحة ، قاطعة . وقد أوضح أثناسيوس Athanasius ، رئيس الشمامسة البليغ المشاكس ، الذى جاء به الإسكندر معه ليقطع به لسان معارضيه ، أنه إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب ، فإن الشرك لا بد أن ينتصر . وقد سلم بما فى تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إله واحد من صعوبة ، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من خفاء وغموض . ووافقه الأساقفة جميعهم على رأيه عدا سبعة عشر منهم ووقعوا قراراً يعلنون فيه هـذا الرأى . ورضى مؤيدو أريوس أن يوقعوا معهم إذا سمح لهم بأن يضيفوا إلى هذا الإعلان نقطة واحدة وهى أن يستبدلو كلمة هومويوسيون Homoiousion (أى مماثلا فى الجوهر) بكلمة هومؤوسيون Homoousion أى من جوهر واحد . ولكن المجلس رفض هذا التعـديل وأصدر بموافقة الإمبراطور القرار الآتى .

« نحن نؤمن بإله واحد ، وهو الأب القادر على كل شيء ، خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن وبسيد واحد هو المسيح ابن الله ، المولود ... غير المخلوق من نفس جوهر الأب ... وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنساناً ، وتعذّب ، وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء ، وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات ...(*) »

ولم يرفض توقيع هذة الصيغة إلا خمسة من الأساقفة ، نقصوا آخر الأمر إلى اثنين . وحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى أريوس الذى لم يتزحزح عن عقيدته أو يتوب عما صدر منه ، حكم عليهم باللعنة والحرمان ، ونفاهم الإمبراطور

(*) ويختلف هذا عن « العقيدة النيقية » المتبعة الآن والتى هى تعـديل لهذ القرار صدر فى عام ٣٦٢ .

من البلاد . وصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بإحراق كتب أريوس جميعها ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام(*)

واحتفل قسطنطين بانفضاض المجلس بأن دعا جميع الأساقفة الذين حضروه إلى وليمة ملكية ، ثم صرفهم بعد أن طلب إليهم ألا يمزق بعضهم أجساد بعض(٥١) ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد ، أو أنه هو لن يغير رأيه فيه . غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطا خطوة كبيرة فى سبيل وحدة الكنيسة . فلقد أذاع المجلس عقيدة الكثرة العظمى من رجال الدين ، وهى أن نظام الكنيسة وبقاءها يتطلبان تحديد العقائد بطريقة ما ؛ وقد أثمر آخر الأمر ذلك الإجماع العملى على العقيدة الأساسية التى اشتق منها اسم الكنيسة فى العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكة . وكان فى الوقت نفسه إيذانا باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعضد القوى للإمبراطورية الرومانية . واضطر قسطنطين أن يكون أكثر تصميما من ذى قبل على التحالف مع المسيحية ؛ وهكذا بدأت حضارة جديدة ، مؤسسة على دين جديد ، تقوم على أنقاض ثقافة مضعضعة وعقيدة محتضرة . لقد بدأت العصور الوسطى .

(*) وقرر المجلس أيضاً أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة فى يوم واحد يحدده كل عام أسقف الإسكندرية على أساس قاعدة فلكية ، ويذيعه أسقف رومة . أما مسألة بقاء رجال الكنيسة بلا زواج فإن المجلس كان يميل إلى أن يطلب إلى القساوسة المتزوجين أن يتعففوا عن العلاقات الجنسية ، ولكن بفنوتيوس **Paphntius** أسقف طيبة العليا أقنع زملاءه الأساقفة بأن يتركوا العادة المتبعة كما هى ، وكانت هذه العادة تحرم الزواج بعد الرسامة ، ولكنها تجيز للقس أن يجامع زوجته إذا كان قد بنى بها قبل الرسامة .

الفصل الرابع

قسطنطين والحضارة

أنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطية سماها رومة الجديدة Nova Roma وسمتها الأجيال التى أعقبته باسمه . وفى عام ٣٣٠ أدار ظهره نحو رومة ونيقوميديا كلتيهما ، واتخذ القسطنطينية عاصمة له ، وأحاط نفسه فيها بأبهة الملوك الشرقيين وحاشيتهم ، لاعتقاده أن ما تحدثه هذه الأبهة من تأثير نفسانى فى الجيش والشعب سوف يجعل ما تحتاجه مظاهرها من المال الكثير اقتصاداً حقيقياً فى مطالب الحكم . وبسط رعايته على الجيش بما أوتى من حسن السياسة وقواه بأن أمده بالسلاح ، وخفف من نير الاستبداد بقراراته الرحيمة ، وناصر الآداب والفنون ، وشجع مدارس أثينة ، وأنشأ جامعة جديدة فى القسطنطينية ، كان فيها أساتذة يتناولون مرتبات من قبل الدولة ، ويعلمون اللغتين اليونانية واللاتينية ، والآداب والفلسفة ، والبلاغة والقانون ، ويدربون الموظفين الذين تحتاجهم الإمبراطورية[٥٢] . وأيد ماكان للأطباء والمدرسين فى جميع الولايات من امتيازات ووسع نطاقها ، وأمر الحكام أن ينشئوا فى ولاياتهم مدارس للعمارة ، وأن يستجلبوا الطلاب إليها بمختلف الامتيازات والمكافآت ، وأعفى الفنانين من الواجبات المفروضة على غيرهم من المدنيين حتى يوفر لهم ما يكفى من الوقت لإتقان فنهم وتعليمه أبناءهم . وقد استعان بالكنوز الفنية فى جميع أنحاء الإمبراطورية على تجميل القسطنطينية حاضرته الجديدة .

وبدأت أعمال البناء فى رومة فى ذلك العهد على يدى مكسنتيوس ، فقد

بدأ هو (٣٠٦) وأتم قسطنطين باسلقا ضخمة كانت هى تاج العمارة القديمة فى الغرب : وعمد فى بنائها إلى طراز الحمامات الكبرى فعدله وشاد على طرازه المعدل صرحا عظيما تشغل قاعدته ٣٣٠ قدما فى ٢٥٠ . وكانت لردهتها الوسطى التى تبلغ ١١٤ قدما فى ٨٢ سقف مكون من ثلاث قباب متقاطعة مشيدة بالأسمنت المسلح يبلغ ارتفاعها ١٢٠ قدما يستند بعضها إلى ثمان دعامات عريضة تواجهها عمد كورنثية ذات حزوز غائرة يبلغ ارتفاعها ستين قدما . وكانت أرضها من الرخام الملوّن ؛ ووضعت بين الأعمدة عدة تماثيل ، وعلت جدران هذه الأجزاء التى بين الأعمدة فوق سقفها لكى تكون دعامات مرتفعة للقباب الوسطى . ولقد تعلم مهندسو القوط ومهندسو النهضة الشيء الكثير من هذه القباب والدعامات ، ولما أراد برامنتى Bramante أن يخطط كنيسة القديس بطرس اعتزم أن يتوّج صحن الكنيسة الواسع بقبـــة ضخمة ، أو « أن يقيم بناء الكنيسة الكبرى فوق باسلقا قسطنطين » .

وشاد أول الأباطرة المسيحيين كنائس كثيرة فى رومة ، وأكبر الظن أن الشكل الأول لكنيسة سان لورنزو التى فى خارج رومة كان من هذه الكنائس . وأراد أن يحتفل بذكرى نصره عند نهر ملفيوس فأقام فى عام ٣١٥ قوسا لا يزال يشرف على طريق النصر Via dei Trionfi ؛ وهو من أكمل الآثار الباقية فى رومة ، ولم ينقص من عظمته كثيراً ما انتزع من أجزائه آناً بعد آن . ويتركب من أربعة جذوع دقيقة التناسب ترتفع فوق القاعدة المنحوتة ، وتقسم الأقواس الثلاثة ، وتسند الدعامة المزخرفة المرتكزة عليها . وعلى الطبقة العليا نقوش بارزة وتماثيل مأخوذة من آثار لتراجان وأورليوس ، كما أن الحليات الوسطى التى بين الأعمدة مأخوذة من مبان شيدت فى عهد هدريان. وربما كان نقشان من النقوش البارزة من عمل فنانى قسطنطين ، ويشهد ما فى هذا الأثر من صور جالسة ، ومن اختلاط سمج بين الوجوه المصورة من الجانب والسيقان المصورة من الأمام ، ومن

تكديس الرءوس فوق الرءوس بدل أن يراعى الفنان قواعد المنظور .
يشهد كل هذا بخشونة الذوق وعدم الإتقان الفنى . ولكن الحفر العميق
وما يقع عليه من ضوء وظل ، يطبع فى الخيال صورة واضحة من العمق
والسعة ؛ والحادثات التى تقصها تلك النقوش ممثلة بحيوية خشنة كأنما الفن
الإيطالى قد اعتزم أن يعود إلى منبعه الأول .

ويبدو تمثال قسطنطين الضخم المحفوظ الكنسرفتورى بدائيا إلى حد
تشمئز منه النفس ، ولا يكاد العقل يصدق أن الرجل الذى تفضل فرأس
مجمع نيقية يشبه البربرى الفظ إلى الحد الذى يطالع الإنسان فى هذا التمثال —
إلا إذا كان الفنان قد أراد أن يوضح مقدماً تلك العبارة الجامعة الساخرة
التى قالها جبن : « لقد وصفت انتصار الهمجية والدين » .

وفى أوائل هذا القرن الرابع أخذ فن جديد يتشكل ويظهر فى الوجود —
ونعنى به « تزيين » المخطوطات بصور ملونة صغيرة . وكان معظم الأدب
فى ذلك الوقت مسيحى الطابع . ومن أدباء ذلك العصر لوسيوس فرمنيانس
لكتنتيوس Lucius Firminianus Lactantius الذى شرح المسيحية شرحا بليغا فى
كتابيه **الأنظمة المقدسة** Divinae Institiones (٣٠٧) **وفى الاضطهاد المميت**
De Mortibus Persecutorum (٣١٤) الآلام الأخيرة التى عاناها الأباطرة
مضطهدو المسيحيين ، ولم يكن هذا الوصف يقل عن وصف شيشرون بلاغة
وحقداً . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن طبيعة الدين تحتم أن يكون حراً ،
طليقاً ، غير متأثر بأى ضغط »[٥٥] ، وتلك بدعة لم تطل حياته حتى يكفر عنها .
وكان يوسبيوس بمفيلى أسقف قيصرية أوسع منه شهرة . وقد بدأ حياته الأدبية
كاتباً قسيساً وأمين مكتبة لسلفه الأسقف بمفيلس ، وقد بلغ من حبه لهذا الأسقف
أن تسمى باسمه . وكان بمفيلس الأكبر قد حصل على مكتبة أرجن وضم إليها

أكبر مجموعة من الكتب المسيحية عرفت حتى ذلك الوقت . وعاش يوسبيوس بين هذه الكتب ، فأصبح بذلك أكثر رجال الدين علما فى زمانه . وقضى بمفيلس نحبه أثناء اضطهادات جليريوس (٣١٠) ، وأخذ الناس يتساءلون فيما بعد كيف بقى يوسبيوس حيا بعد هذا الاضطهاد ، حتى أقضت هذه الأسئلة مضجع الرجل وآذت سمعته . وقد عاداه الكثيرون لموقفه الوسط بين أريوس والإسكندر ، ولكنه رغم هذا أصبح فى بلاط الإسكندر كما كان يوسويه Bossut فى بلاط لويس الرابع عشر ، وكلف بكتابة سيرة الإمبراطور ، وجمعت بعض كتاباته فى **تاريخ عام** — يعد أوفى الكتب التاريخية القديمة . وقد رتب يوسبيوس التاريخين المقدس والدنس فى عمودين متوازيين يفصل بينهما صف من تواريخ السنين المشتركة فى كليهما ، وحاول أن يحدد السنة التى وقعت فيها كل حادثة خطيرة من أيام إبراهيم الخليل إلى أيام قسطنطين . وقد اعتمدت كل التواريخ المتأخرة على « قانونه » هذا :

ثم كسا يوسبيوس هذه العظام لحما ، ونشر فى عام ٣٢٥ **تاريخا كنسيا** يصف فيه نماء الكنيسة من أول عهدها إلى مجمع نيقية . ويحتوى الفصل الأول من هذا الكتاب — وكان نموذجا نسج على منواله بوسويه مرة أخرى — على أقدم ما كتب فى فلسفه التاريخ — فقد صور الزمان كأنه ميدان القتال بين الله والشيطان ، كما صور الحوادث جميعها على أنها معينة على انتصار المسيح . والكتاب سيئ الترتيب ولكنه حسن الأسلوب ؛ وقد فحص عن المراجع فحصاً دقيقاً راعى فيه الذمة والضمير ، وتبلغ أحكامه من الدقة ما تبلغه أحكام أى كتاب قديم فى التاريخ ؛ وهو فى كل خطوة يخطوها يجعل الخلف مديناً له وذلك بما ينقله عن وثائق خطيرة لولا هذا النقل لما عرف العالم عنها شيئاً . والأسقف المؤلف غزير المادة ، واسع الاطلاع إلى حد كبير ، وأسلوبه تسرى فيه العاطفة القوية ، والشعور الفياض ، ويسمو إلى أعلى الدرجات فى لحظات الكراهيـــة

الدينية وهو يعترف صراحة بأنه حذف من كتابه كل ما لا يقوّى إيمان قرائه المسيحيين أو يؤيد فلسفته ، ويحاول أن يكتب تاريخ المجلس العظيم — مجلس نيقية — دون أن يذكر اسم أريوس أو أثناسيوس . وهذا الغش الشريف نفسه هو الذى يجعل كتابه الآخر **حياة قسطنطين** تسبيحاً بحمد الرجل لا ترجمة له . فهو يبدؤه بثمانية فصول ملهمة عن تقوى الإمبراطور وأعماله الصالحة ، ويصف لنا كيف « حكم الإمبراطورية حكماً راعى فيه حدود الله أكثر من ثلاثين عاماً » . وليس فى مقدور الإنسان بعد أن يقرأ هذا الكتاب أن يظن أن قسطنطين قتل ولده وابن أخته وزوجته .

ذلك أن قسطنطين قد أحسن تدبير كل الأمور ما عدا أمور أسرته ، شأنه فى هذا شأن أغسطس . ولقد كانت صلاته بأمه طيبة سعيدة بوجه عام ، ويبدو أنها سافرت بتكليف منه إلى أورشليم ودمرت ذلك الهيكل الشائن ، هيكل أفروديتى الذى بنى ، كما يقول البعض ، فوق قبر المسيح المنقذ . ويقول يوسبيوس إن الضريح المقدس ظهر للعين فى ذلك المكان ، وفيه الصليب بعينه الذى مات عليه المسيح . وأمر قسطنطين أن تشاد كنيسة الضريح المقدس فوق القبر ، وحفظت الآثار المعظمة فى خزانة مقدسة خاصة . ومن ذلك الحين بدأ العالم المسيحى يجمع مخلفات المسيح والقديسين ويعبدها ، كما كان العالم الوثنى فى الأيام القديمة السابقة يعتز بمخلفات حرب طروادة ويعظمها ، وكما كانت رومة نفسها تفخر بتمثال أثينى إلهة الحكمة حامية طروادة . وقد غير العالم المسيحى مظهر هذه العبادة وجدد جوهرها كما يفعل الخلائق من أقدم العهود . وشادت هلينا كنيسة صغيرة فى بيت لحم فى الموضع الذى تقول الرواية إن يسوع ولد فيه ، وقامت فى تواضع بخدمة الراهبات اللائى كن يقمن بالخدمة فى هذه الكنيسة ، ثم عادت إلى القسطنطينية لتموت بين ذراعى ولدها .

وتزوج قسطنطين مرتين : أولاهما بمنيرڤينا Minervina التى رزق منها بابنه كرسپس Cripus ؛ والثانية بفوستا Fausta ابنة مكسميان التى رزق منها بثلاثة بنين وثلاث بنات. وأصبح كرسپس جندياً ممتازاً ، وكان نِعم العون لأبيه فى حروبه ضد ليسنيوس . وفى عام ٣٢٦ قُتل كرسپس بأمر قسطنطين ؛ وامر الإمبراطور حوالى ذلك الوقت نفسه بقتل ليسنيانس Licinianus بن ليسنيوس من قنسطنطيا أخت قسطنطين ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت أعدمت فوستا بأمر زوجها ؛ ولسنا نعرف سبب مقتل هؤلاء الثلاثة ، غير أن زوسمس Zosimus يؤكد لنا أن كرسپس غازل فوستا ، وأنها شكته إلى الإمبراطور ، وإن هلينا ، وكانت شديدة الحب لكرسپس ، انتقمت لموته ، بأن أقنعت قسطنطين أن زوجته قد استسلمت لولده(٥٧) . لكن الأرجح من هذا كله أن فوستا عملت على أن تبعد كرسپس من طريق ابنها الذى كانت تريده وارثاً لعرش الإمبراطورية ، وربما كان سبب مقتل ليسنيانس أنه كان يحيك المؤامرات ليحصل على نصيب أبيه فى الدولة .

ونالت فوستا بغيتها بعد موتها ؛ ذلك بأن قسطنطين أوصى فى عام ٣٣٥ بأن تقسم الإمبراطورية بين من كان حيًّا من أولاده وأولاد أخته . وبعد سنتين من ذلك الوقت احتفل فى يوم عيد القيامة بمرور ثلاثين عاماً من حكمه ، وأحس بعد ذلك بدنو أجله ، فذهب ليستحم فى الحمامات الحارة فى أكويريون Aquyrior القريبة من القسطنطينية . ولما اشتد عليه المرض استدعى قساً ليجرى له مراسم التعميد المقدس الذى أخره عمداً إلى تلك الساعة . وكان يرجو أن يطهره هذا التعميد مما ارتكبه من الخطايا فى حياته المزدحمة بالأعمال . ثم خلع الحاكم المجهد الأثواب الملكية الأرجوانية وارتدى الثوب الأبيض ثوب المسيحى الحديث التنصر وأسلم الروح .

لقد كان قسطنطين قائداً بارعاً ، وإداريا عظيما ، وسياسيا لا يشق له في شئون الحكم غبار ، ورث الأعمال التي كان يبغي بها دقلديانوس إعادة الدولة إلى سابق عهدها وأتمها ؛ وبفضله طال عمر الإمبراطورية ١٥٠ عاما . وقد واصل أنماط الحكم الملكي المطلق التي سار عليها أورليان ودقلديانوس مدفوعاً إلى هذا بأطماعه وكبريائه وباعتقاده أن الحكم المطلق هو العلاج الذي تتطلبه الفوضى السائدة في ذلك الوقت . وكان أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطورية بين أبنائه ؛ ولعله قد تنبأ بأن هؤلاء الأبناء سيتنازعون فيما بينهم ، يريد كل منهم أن ينفرد بالملك ، كما فعل هو من قبل ، ولكنه ظن أنهم سيقاتلون حتما إذا اختار وارثاً للملك غيرهم ؛ وهذا أيضاً هو الثمن الذي تبتاع به الملكية المطلقة . أما أوامره التي أصدرها بالإعدام فليس في مقدورنا أن نصدر حكما صحيحاً عليها لأنا لا نعرف أسبابها . وربما كانت مشاكل الحكم وأعباءه الثقيلة قد ناءت به فتغلبت المخاوف والغيرة على العقل والحكمة إلى حين ؛ وإن لدينا لشواهد على أنه في سنيه الأخيرة قد ندم أشد الندم على ما فعل . ويبدو أن عقيدته المسيحية ، التي كانت بدايتها خطة سياسية ، قد استحالت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص ، وأصبح أكثر المبشرين في دولته مثابرة على عمله ، واضطهد الملاحدة اضطهاد المؤمن المخلص لدينه ، وكان يعتمد على الله في كل خطوة يخطوها . وقد وهب الإمبراطورية الهرمة حياة جديدة بأن ربط بينها وبين دين فتي ، ونظام قوي ، ومبادئ أخلاقية ؛ وكان في عمله هذا أعظم حكمة من دقلديانوس . وبفضل معونته أضحت المسيحية دولة وديناً ، وأمست هي القالب الذي صبت فيه الحياة الأدبية والفكر الأوربي مدى أربعة عشر عاما . ولعل الكنيسة التي رأت أن تشكر له فضله عليها كانت محقة حين لقبته بأنه أعظم الأباطرة إذا استثنينا أغسطس وحده .

الخاتمة

الفصل الأول

لِمَ سقطت رومه ؟

يقول أحد العلماء النابهين فى هذه الأيام « إن أعظم ما يواجهه التاريخ من مشاكل مشكلتان : أولاهما كيف نفسر قيـــام الدولة الرومانية ، وثانيتهما كيف نفسر سقوطها[1] » . ولعلنا نقرب من فهم هاتين المشكلتين إذا تذكرنا أن سقوط رومة كقيامها لا يعزى إلى سبب واحد بل إلى كثير من الأسباب ، وأن هذا السقوط لم يكن حادثاً واحداً بل كان عملية امتدت إلى أكثر من ثلثمائة عام . والحق أن ثمة أمماً لم تدم حياتها بقدر ما استلزمه من الزمن سقوط رومة .

والحضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضى هى على نفسها من الداخل . وشاهد ذلك أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة فى شعب رومة نفسه ، أى فى أخلاقها ، وفى النزاع بين طبقاتها ، وفى كساد تجارتها ، وفى حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفى ضرائبها الفادحة الخانقة ، وحروبها المهلكة . ولقد كان الكتّاب المسيحيون شديدى الإدراك لهذا الضعف المتعدد الأسباب ، فلقد بشر ترتليان حوالى عام ٢٠٠ ، وهو جذلان ، بما سماه ipsa clausula saeculi أى « نهاية عهد » — معتقداً أنه فى أغلب الظن مقدمة لدمار العالم الوثنى . ورد سبريان قبيل عام ٢٥٠ على ما اتهم به المسيحيون من أنهم أصل ما حاق بالإمبراطورية من محن بأن هذه المحن ترجع إلى أسباب طبيعية :

« يجب أن تعلموا أن العالم قد شاخ ، ولم يبق ما كان له قبل من قوة ، وأنه يشهد بنفسه على اضمحلاله . إن مقدار ما يسقط من المطر وما تشعه الشمس من دفء آخذان فى النقص[١] ، وكادت المعادن ينضب معينها ، وقل ما ينتجه الزارع من غلة »[٢] .

وما من شك فى أن هجمات البرابرة ، واستغلال العروق المعدنية الغنية الذى دام عدة قرون ، قد أنقصا ما تخرجه رومة من المعادن النفيسة ؛ وأن ما حدث فى إيطاليا الوسطى والجنوبية من تقطيع الغابات ، وفعل التعرية والتحات ، وإهمال قنوات الرى الناشئ من نقص عدد الفلاحين ، واضطراب الحكومات — ما من شك فى أن هذا كله قد ترك إيطاليا أفقر مما كانت فى سابق عهدها . بيد أن السبب الحقيقى لم يكن ناشئاً من أن التربة قد استنفدت قدرتها على الإنتاج ، أو أن جو البلاد قد تغير ، بل كان ما حاق بأهلها من إهمال وعقم سببهما ما حل بهم من ضيق وتثبيط للعزيمة .

وكانت الأسباب الأحيائية(*) أدهى من الأسباب السابقة وأعظم منها أثراً . فقد بدا نقص خطير فى عدد السكان فى الغرب بعد هدريان . ويشك بعض المؤرخين فى هذا النقص ، ولكن إسكان البرابرة بالجملة فى ولايات الدولة على أيدى أورليوس ، وڤلنتنيان ، وأورليان ، وپروبس ، وقسطنطين ، لا يكاد يترك مجالا للشك فى حقيقة هذا النقص[٣] . ولما أراد أورليوس أن يسد ما حدث من النقص فى جيشه جند العبيد ، والمجالدين ، ورجال الشرطة ، والمجرمين ؛ وهذا لا يحدث إلا إذا كان الخطر الذى يتهدد البلاد وقتئذ أشد من ذى قبل : أو أن السكان الأحرار كانوا أقل عدداً منهم فى الأيام السابقة ؛ والذى لا شك فيه أن غير الأحرار من السكان قد نقصوا عما كانوا عليه من قبل . ولهذا السبب أقفرت

(*) نسبة إلى علم الأحياء biological (المترجم)

ضياع كثيرة وتركت أرضها بوراً ، وخاصة فى إيطاليا ، حتى لقد عرضها برتناكس من غير ثمن على من يرضى أن يفلحها . ويتحدث قانون سنّه سبتميوس سفيرس عن نقص الرجال hominum penuria[٤] . وقد ظل هذا النقص يجرى فى مجراه قروناً طوالا فى بلاد اليونان . وشاهد ذلك أن الأسقف ديونيشيوس يقول إن سكان الإسكندرية نقصوا فى أيامه (٢٥٠) إلى نصف ما كانوا عليه فى الأيام السابقة ، وكانت هذه المدينة فى تاريخها السابق تفخر بكثرة من فيها من السكان . وكان يؤلمه أن « يرى الجنس البشرى آخذاً فى النقصان والتبدد المستمر »[٣] . ولم يكن يزداد فى هذا الوقت إلا البرابرة والشرقيون فى خارج الإمبراطورية وفى داخلها .

ترى ما سبب هذا النقص فى عدد السكان ؟ إن أكبر أسبابه هو تحديد النسل ، وهو عملية كانت تلجأ إليها الطبقات المتعلمة أولا ، ثم سرت عدواها إلى الطبقات الدنيا المشهورة بكثرة أبنائها[٦] ؛ ولم يحل عام ١٠٠ بعد الميلاد حتى وصلت هذه العدوى إلى طبقات الزراع ، كما يدل على ذلك امتداد المعونة الإمبراطوريه إلى هذه الطبقة لتشجيعها على الإكثار من الأبناء ؛ وقبل أن يبدأ القرن الثالث عمت هذه العادة الولايات الغربية ، وأدت إلى نقص السكان فى غالة[٧] . وانتشرت عادة وأد الأطفال بازدياد الفقر على الرغم من أن القوانين كانت تعد هذا العمل جريمة[٨] . وربما كان الإفراط فى الصلات الجنسية قد أنقص الخصوبة البشرية ؛ وكان للامتناع عن الزواج أو تأخير وقته هذا الأثر بعينه . يضاف إلى هذا أن عادة الإخصاء أخذت تزداد بسبب سريان العادات الشرقية فى بلاد الغرب وليس أدل على انتشار هذه العادة من أن بلنتيانس Plantianus رئيس الحرس البريتوى أمر بإخصاء مائة غلام قدمهم هدية إلى ابنته بمناسبة زواجها[٩] .

ويلى تحديد النسل فى أسباب نقص السكان ما كان ينشأ عن الأوبئة

والثورات والحروب من مجازر بشرية : وقد قضت الأوبئة التي اجتاحت البلاد في أيام أورليوس ، وجلينس ، وقسطنطين على عدد كبير من السكان ؛ ولم تكد تنجو أسرة واحدة في الإمبراطورية كلها من الوباء الذي تفشى فيها بين عامي ٢٦٠ و ٢٦٥ ؛ ويقال إن خمسة آلاف كانوا يموتون في رومة نفسها كل يوم ، وإن هذه الحال دامت أسابيع كثيرة[١٠] ؛ وقد شرع بعوض كمبانيا يتغلب على الآدميين الذين غزوا المستنقعات البنتية ، وأخذت الملاريا تضعضع قوى الأغنياء والفقراء على السواء في لاتيوم وتسكانيا . ولقد كان لمجازر الحروب ، والثورات ، وربما كان لعادات منع الحمل ، والإجهاض ، ووأد الأطفال ، أثر في نقص القدرة على النسل فضلا عن أثرها في تقليل عدد السكان ؛ ذلك بأن أقدر الرجال كانوا أكثرهم تأخيراً لوقت الزواج ، وأقلهم نسلا ، وأقصرهم آجالا . وكانت معونة الدولة سبباً في ضعف الفقراء ، كما كان الترف سبباً في ضعف الأغنياء ، والسلم الطويلة الأجل سبباً في حرمان الطبقات كلها في شبه الجزيرة من الروح العسكرية والفنون الحربية . وكان الألمان الذين أخذوا من ذلك الوقت يسكنون شمالي إيطاليا ويكثر عددهم في الجيش ، أصح أجساماً وأمتن أخلاقاً ممن بقي على قيد الحياة من سكان البلاد الأصليين . ولو أن الزمان سمح لهذا الجنس الجديد أن يمتزج بالسكان الأصليين على مهل لكان من الجائز أن يتثقف بثقافة الرومان ويبعث النشاط والقوة في الدم الإيطالي ؛ ولكن الزمان لم يكن كريماً إلى هذا الحد . يضاف إلى هـذا أن سكان إيطاليا كانوا قد اختلطوا من زمن بعيد بأجناس شرقية ، أضعف من الجنس الروماني جسما وإن جاز أن تكون أرقى منه عقلا . ولم يكن في مقدور الألمان الذين أخذوا يتكاثرون بسرعة أن يفهموا الثقافة الرومانية ؛ فلم يقبلوها ، ولم ينقلوها إلى غيرهم من الشعوب ؛ وكان الشرقيون الذين يتناسلون هم أيضاً بسرعة يميلون إلى تدمير هذه الثقافة ، أما أصحابها الرومان فقد ضحوا بها في سبيل

الراحة التى يجلبها العقم ؛ وقصارى القول أن رومة لم يغلبها على أمرها غزو البرابرة لها من خارجها بل غلبها تكاثر البرابرة فى داخلها .

وعجل الفساد الخلقى هذا الانحلال . ذلك أن صفات الرجولة التى نشأت من بساطة العيش وتحمل المشاق ، ودعمها إيمان قوى — نقول إن هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثروة وحرية عدم الإيمان . فقد أوتى الناس من أهل الطبقتين الوسطى والعليا فى ذلك الوقت الوسائل التى يتمكنون بها من إرضاء شهواتهم والخضوع لما يحيط بهم من غوايات ، لا يصدهم عن ذلك إلا ما عساه أن يكون لديهم من واجب مراعاة اللياقة والآداب العامة ؛ وضاعف ازدحام المدن بالسكان ضروب التعاقد والمشارطات العامة ، ومنعت رقابة الحكومة والأمة من الامتداد إليها ؛ وجاءت الهجرة بمائة أو نحوها من الثقافات التى لم يعد يهتم الناس بالتفريق بينها لكثرة ما بينها من فروق . وانحطت عند الناس معايير الخلق والجمال لتغلب طبقات الشعب وما أصبح لها من أثر كبير فى البلاد ، وتحررت الشهوات الجنسية من القيود فى الوقت الذى ضاعت فيه الحرية السياسية .

ويقول عظيم المؤرخين : إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية[١١] ، لأن هذا الدين ، كما يزعم هو ومن يسير على نهجه[١٢] ، قد قضى على العقائد القديمة التى كانت هى الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية ، والدعامة السياسية للدولة الرومانية ، ولأنه ناصب الثقافة القديمة العداء — فحارب العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ؛ وجاء بالتصوف الشرقى الموهن فأدخله فى الرواقية الواقعية التى كانت من خصائص الحياة الرومانية ؛ وحول أفكار الناس عن واجبات هذا العالم ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ؛ وأغراهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة ، بدل السعى للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتفانى فى الدفاع ؛ وحطم وحدة الإمبراطورية حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها ؛ وشجع أتباعه على

الامتناع عن تولى المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية ؛ وكان المبدأ الأخلاق الذى يدعو إليه هو مبدأ السلام وعدم المقاومة ، حين كان بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية ، وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذاناً بموت رومة .

ولا يخلو هذا الاتهام القاسى من بعض الحقيقة ؛ فقد كان للمسيحية ، على الرغم منها ، نصيب فى فوضى العقائد التى ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التى كان لها نصيب فى انهيار رومة . ولكن نمو المسيحية وانتشارها كانا نتيجة لضعف رومة أكثر مما كانا سبباً فى هذا الضعف. ذلك أن تحطم قواعد الدين القديم قد بدأ قبل ظهور المسيح بزمن طويل ؛ وقد وجه إليه إنيوس Ennius ولكريشيوس Lucretius هجمات أشد عنفاً من كل ما وجهه إليه أى مؤلف وثنى بعدهما . أما الانحلال الخلقى فقد بدأ من وقت أن فتح الرومان بلاد اليونان ، وبلغ أوجه فى عهد نيرون ؛ ثم صلحت أخلاق الرومان بعدئذ ، وكان أثر المسيحية فى الحياة الرومانية من الناحية الخلقية أثراً طيباً بوجه عام . وبناء على هذا نقول إن المسيحية قد نمت هذا النماء السريع لأن رومة كانت وقتئذ فى دور الاحتضار ، فالناس لم يفقدوا إيمانهم بالدولة لأن المسيحية أبعدت عواطفهم عنها ، بل فقدوه لأن الدولة كانت تنصر الثروة على الفقر ، وتحارب لتستولى على العبيد ، وتفرض الضرائب على الكدح لتعين على الترف ، ولأنها عجزت عن حماية الشعب من المجاعات ، والأوبئة ، والغزو الأجنبى ، والفقر المدقع ؛ فهل يلام الناس بعد ذلك إذا تحولوا عن قيصر الذى يدعو إلى الحرب إلى المسيح الداعى إلى السلم ، ومن الوحشية التى لا يكاد يصدقها العقل إلى الإحسان الذى لم يسبق له مثل ، ومن حياة خالية من الأمل والكرامة إلى دين يواسيهم فى فقرهم ويكرم إنسانيتهم ؟ ألا إن نصيب المسيحية فى القضاء على الدولة الرومانية لم يكن أكثر من نصيب غزو البرابرة لها . لقد كانت هذه الدولة قشرة فارغة حين قامت المسيحية فى ربوعها ، وحين داهمها غزو البرابرة.

ولقد ذكرنا فى فصل سابق الأسباب الاقتصادية التى أدت إلى ضعف رومة ، لأنا رأينا أن ذكرها كان ضرورياً لفهم إصلاحات دقلديانوس ؛ ولسنا نحتاج إلى أكثر من تلخيصها هنا تذكرة للقراء . نذكر اعتماد رومة على الحبوب المستوردة من الولايات اعتماداً مزعزعاً لا تؤمن مغبته ، وانقطاع ورود العبيد وانهيار الضياع الكبيرة ، وانحطاط وسائل النقل والأخطار التى تتعرض لها التجارة ، وفقد رومة أسواق الولايات بسبب منافسة هذه الولايات نفسها لها ، وعجز الصناعة الإيطالية عن تصدير ما يوازى واردات إيطاليا ، وما أدى إليه ذلك من انتقال المعادن الثمينة إلى الشرق ؛ والحرب المدمرة بين الأغنياء والفقراء ، وارتفاع نفقات الجيوش ، والمساعدات التى تقدم للعجزة والفقراء ، والأعمال العامة ، والبيروقراطية المطردة الزيادة ، وتثبيط همم النابهين ذوى الكفايات ، والحاشية المتطفلة التى لا تؤدى عمــلا من الأعمـــال ، ونفاد رؤوس الأموال المستثمرة لما كان يفرض عليها من الضرائب التى تبلغ حد المصادرة ، وهجرة رؤس الأموال والعمال ، واستخدام العبيد فى الأعمال الزراعية ، وفرض نظام الطبقات الصارم على الأعمال الصناعية ؛ كل هذا قد قوض الأسس المادية للحياة الإيطالية حتى أضحت قوة رومة فى آخر الأمر شبحاً سياسياً يعيش بعد موتها الاقتصادى .

وأما الأسباب السياسية التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية فترجع كلها إلى أصل واحد — هو أن الاستبداد المتزايد قضى على شعور الفرد بحقوق المدنية ، وأنضب معين قدرته على القيام بأعباء الحكم . ولما عجز الرومانى عن التعبير عن إرادته السياسية إلا بالعنف ، فقد من أجل ذلك اهتمامه بشئون الحكم وانهمك فى أعماله ، وفى متعه ، وفى فيلقه ، أو فى نجاته الفردية . لقد كانت الوطنية والديانة الوثنية وثيقتى الارتباط إحداهما بالأخرى ، وها هما الآن يقضى عليهما معاً (١٣) . واستنام مجلس الشيوخ إلى الكسل والخمول ، واعتاد الخضوع أو الارتشاء بعد أن ظل يفقد سلطانه ومكانته شيئاً فشيئاً بعد پرتناكس ،

فانهار بذلك الحاجز الأخير الذى كان يستطيع إنقاذ الدولة من أخطار العسكرية والفوضى . وأما الحكومات المحلية التى عدا عليها الرقباء والجباة فلم تعد تستهوى رجالا من الطراز الأول ، وأدت مسئولية الموظفين فى الولايات عن مجموع الضرائب المفروضة على أقاليمهم ، وما تتطلبه مناصبهم العليا من نفقات لا تؤديها إليهم الدولة ، وما تنتظره منهم من أموال ، وخدمات ، وأعمال بر وألعاب ؛ وما يتعرضون له من أخطار الغزو الأجنبي وحرب الطبقات ، أدت هذه كلها إلى تهرب المواطنين من المناصب تهرباً يشبه تهربهم من الضرائب ، والمصانع ، والمزارع ، فكان الناس يتعمدون جعل أنفسهم غير صالحين لتولى هذه المناصب بإنقاص الطبقة التى ينتمون إليها ؛ ومنهم منْ كان يهاجر إلى بلدة غير بلدته ، ومنهم من عمل زارعاً أو راهباً ، وفى عام ٣١٣ وسع قسطنطين نطاق الإعفاء من مناصب البلديات حتى شمل القساوسة المسيحيين ، كما أعفاهم من عدة أنواع من الضرائب ، وهو الإعفاء لذى اعتاد الكهنة الوثنيون أن يتمتعوا به .

وما لبثت الكنيسة ، بسبب هذا الإعفاء ، أن غمرتها موجة من طالبى الرسامة ، وأخذت المدن تشكو ما أصبها من نقص فى الإيراد وفى اللائقين من أهلها أن يكونوا شيوخاً ، حتى اضطر قسطنطين فى آخر الأمر أن يصدر قانوناً يقضى بألا يقبل فى الكهنوت أى رجل لائق لأن يشغل منصباً فى حكومات البلديات[١٤] . وكانت الشرطة الإمبراطورية تتعقب الفارين من المناصب العامة كما تتعقب من يتهربون من الضرائب أو الخدمة العسكرية ، وتعود بهم إلى مدنهم وترغمهم على العمل فى حكوماتها[١٥] ، ثم قررت فى آخر الأمر أن يرث الابن مركز أبيه الاجتماعى ، وأن يقبل المنصب العام الذى تؤهله إليه طبقته . إذا اختير له ؛ وهكذا كمل دق الوظيفة القيود الاقتصادية المفروضة على الطوائف المختلفة :

وخاف جليلنس أن يثور عليه مجلس الشيوخ فأعفى أعضاءه من الخدمة فى

الجيش . ولما كانت الروح الحربية قد انعدمت فى إيطاليا فإن هذا القرار كان خاتمة الضعف العسكرى فى شبه الجزيرة ؛ فكان إنشاء جيوش من أبناء الولايات ومن الجنود المرتزقة ، والقضاء على الحرس البريتورى على يدى سپتميوس سڤيرس ، وظهور قواد للجيش من بين أبناء الولايات ، واستيلاؤهم على عرش الإمبراطورية ، كان هذا كله سبباً فى القضاء على زعامة إيطاليا ، بل قل على استقلال إيطاليا ، قبل سقوط الإمبراطورية فى الغرب بزمن طويل . ذلك أن جيوش رومة لم تعد كما كانت من قبل جيوشاً رومانية ، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات وأكثرهم من البرابرة ؛ ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم ، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم ، وهباتهم ، ومغانمهم . وكانوا يهاجمون مدن الإمبراطورية وينهبونها بنفس الحماسة التى يظهرونها فى مواجهة الأعداء ؛ وكان معظمهم من أبناء الفلاحين الذين يحقدون على الأغنياء وعلى المدن لأن الأولين يستغلون الفقراء ولأن الثانية تستغل الريف ؛ وكانت الحروب الداخلية تتيح لهم الفرصة لنهب المدن نهباً لا يكاد يترك فيها شيئاً يدمره البرابرة الأجانب(١٦) . ولما أصبحت المشاكل الحربية أعظم خطراً من الشئون الداخلية ، اتخذت المدن القريبة من الحدود مراكز للحكم ؛ وأضحت رومة مسرحاً للانتصارات ، ومظهراً للعمائر الإمبراطورية ، ومتحفاً للآثار والأنظمة السياسية . يضاف إلى هذا أن تعدد العواصم وانقسام السلطة حطا وحدة البلاد الإدارية ، فلما أصبحت الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها حكامها ، ومن أن تحميها جيوشها ، بدأت تتفكك .

ولما تركت غالة وبريطانيا وشأنهما تحميان نفسيهما بمفردهما من الألمان والأسكتلنديين دون معونة من الحكومة المركزية اختارت كلتاهما (إمبراطورها) الخاص بها وخلعت عليه السلطة العليا والسيادة الكاملة ؛ ثم انفصلت تدمر عن الدولة فى عهد زنوبيا ، ولم تلبث أسپانيا وأفريقية أن خضعتا دون مقاومة تذكر إلى الفاتحين البرابرة ؛ فلما جلس جلينس على العرش كان ثلاثون قائداً يحكمون

ثلاثين إقليما من أقاليم الإمبراطورية حكماً يكاد يكون مستقلا عن السلطة المركزية . وفى هذه المأساة المروعة ، مأساة دولة عظيمة تتقطع أوصالها ، كانت الأسباب الداخلية هى العوامل الحقة الخفية ، أما الغزاة البرابرة فلم يدخلوها إلا بعد أن فتح لهم ضعفها الأبواب وهيأ هم السبل ، وبعد أن أسلم ضعف الحكام الأحيائى ، والخلقى ، والاقتصادى ، والسياسى ، المسرح إلى الفوضى ، واليأس ، والاضمحلال .

ومن الأسباب الخارجية التى عجلت بسقوط الإمبراطورية الغربية توسع الهون أو الشى أونج — نو Hsiung-nu وهجرتهم فى شمالى آسية الغربى . ذلك أنهم لما صدهم السور الصينى العظيم والجيوش الصينية فى زحفهم نحو الشرق اتجهوا نحو الغرب حتى وصلوا فى عام ٣٥٥ إلى نهرى الفلجا وجيحون . وضغطوا فى زحفهم هذا على السرماتيين فى الروسيا فاضطروهم إلى التحرك نحو البلقان ؛ وتضايق القوط من هذا الزحف فتحركوا مرة أخرى على الحدود الرومانيـــة ، وسمح لهم بأن يعبروا الدانوب ويستوطنوا موئيزيا Moesia (٣٧٦) ؛ ولما أساء الموظفون الرومان معاملتهم فى هذه الولاية ، ثاروا عليهم ، وهزموا جيشاً رومانيا كبيراً عنـــد أدريانوپل (أدرنه) (٣٧٨) وهددوا فى وقت ما القسطنطينية نفسها .

وفى عام ٤٠٠ قاذ ألريك Alaric القوط الغربيين وعبر بهم جبال الألب وانقض على إيطاليا ، وفى عام ٤١٠ استولوا على رومة ونهبوها . وفى عام ٤٢٩ قاد جيسيرك Gaiseric الوندال لفتح أسپانيا وأفريقية ، وفى عام ٤٥٥ استولوا هم أيضاً على رومة ونهبوها . وفى عام ٤٥١ قاد أتلا Atilla الهون وهجم بهم على غالة وإيطاليا ، فهزموا عند شالون Chalons ، ولكنهم اجتاحوا لمباردیا . وفى عام ٤٧٢ عين قائد پانونى اسمه أرستير Orestes ابنه إمبراطوراً وسماه رميولس أوغسطولس Romulus Augustulus ؛

وبعد ست سنين من ذلك الوقت خلع الجنود البرابرة المرتزقون ، الذين كانوا يسيطرون وقتئذ على الجيش الرومانى ، هذا « الأغسطس الصغير » ، وعينوا قائدهم أدوكر Odoacer ملكاً على إيطاليا ؛ وأقر أدوكر بالسيادة للإمبراطور الرومانى الجالس على العرش فى القسطنطينية ورضى هذا الإمبراطور به ملكاً تابعاً له : وظلت الإمبراطورية الرومانية فى الشرق قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، أما فى الغرب فقد لفظت وقتئذ نفسها الأخير :

الفصل الثاني

ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

إن تعليل سقوط رومة لأيسر من تعليل طول حياتها — وأهم عمل قامت به رومة هو أنها ، بعد أن استولت على عالم البحر الأبيض المتوسط ، تثقفت بثقافته ، ووهبته النظام ، والرخاء ، والسلم مدى مائتى عام ، وصدت عنه غارات البرابرة قرنين من الزمان ، وأورثت الغرب قبل موتها تراث اليونان والرومان .

وليس لرومة منافس قط فى فن الحكم . نعم إن الدولة الرومانية قد ارتكبت آلافاً من الأخطاء السياسية ، فقد أقامت صرحها على أرستقراطية أنانية ، وكهنوت ذى طقوس غامضة خفية ، وأنشأت دمقراطية من الأحرار ثم قضت عليها بالعنف والفساد ، واستغلت ما فتحته من البلاد لتزود بخيراتها إيطاليا الطفيلية ، فلما عجزت عن الاستغلال تقوضت دعائمها وانهارت . وخلفت فى أماكن متفرقة فى الشرق والغرب قفاراً وسمت هذا سلاماً . ولكنها أقامت وسط هذا الفساد كله نظاماً فخماً من الشرائع أمن الناس فى أوربا كلها تقريباً على أنفسهم وأموالهم وكان باعثاً قوياً على الجد والمثابرة من أيام المشترعين العشرة إلى أيام نابليون . وشكلت حكومة انفصلت فيها السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، وظل ما فيها من ضوابط وموازين مصدراً ملهماً لواضعى الدساتير إلى عهد الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولقد جمعت زمناً ما بين النظم الملكية والأرستقراطية والدمقراطية ، ونجحت فى عملها هذا نجاحاً أثنى عليه الفلاسفة ، والمؤرخون ، ورعاياها وأعداؤها على السواء . ووضعت أنظمة الحكم البلدى المحلى ، وأمكنت نصف ألف مدينة من أن تستمتع بالحرية زمناً طويلا ، وأدارت شئون

لإمبراطوريتها فى أول الأمر بشره وقسوة ، ثم بدلتهما تسامحاً وعدالة رضيت بهما الدولة العظيمة رضا لم نعرف له نظيراً فيما تلا ذلك الزمان . وجعلت الصحراء تزدهر بالحضارة ، وكفرت عن ذنوبها بما بسطته على بلادها من سلم دائمة طويلة ، وها نحن أولاء فى هذه الأيام نبذل أعظم الجهود لنحيي السلم الرومانية فى هذا العالم المضطرب .

فى هذا الإطار الذى لم يسم عليه إطار غيره شادت رومة صرح حضارة يونانية فى أصلها ، رومانية فى تطبيقها ونتائجها . ولسنا ننكر أن انهماكها فى شئون الحكم قد شغلها عن أن تنتج من الأعمال الذهنية مثل ما أنتجت بلاد اليونان ؛ ولكنها استوعبت التراث الصناعى ، والعقلى ، والفنى الذى تلقته عن قرطاجنة ومصر وبلاد الشرق ، وقدرته أعظم التقدير ، واستمسكت به أشد الاستمساك ؛ ولسنا ننكر كذلك أن العلوم لم تتقدم على يديها ، ولم تدخل شيئاً من التحسين الآلى على الصناعة ، ولكنها أغنت العالم بتجارة كانت تسير فى بحار آمنة ، وأنشأت شبكة من الطرق الباقية حتى الآن أضحت شرايين يجرى فيها دم الحياة الجياش ؛ ولقد مرت فوق هذه الطرق ، وفوق ألف من الجسور الجميلة ، إلى عالم العصور الوسطى والعالم الحديث أساليب الزراعة والصناعات اليدوية ، والفنون ، وعلم إقامة المبانى التذكارية وأعمال المصارف والاستثمار وتنظيم الأعمال الطبية والمستشفيات العسكرية ، ونظام المدن الصحى ، وأنواع مختلفة من الفاكهة ، وأشجار النقل ، ونباتات الحقول والزينة ، التى جاءت بها من الشرق لتتأقلم فى الغرب ؛ وحتى سر التدفئة المركزية قد انتقل من الجنوب الدفىء إلى الشمال البارد . ولقد خلق الجنوب الحضارات ثم غلبها الشمال على أمرها فدمرها أو استعارها من أهلها .

ولم تخترع رومة نظم التربية ، ولكنها أتمتها ووسعتها إلى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، وأمدتها بمعونة الدولة ، ووضعت المنهاج الذى ظل باقياً يعذبنا فى

أيام شبابنا . وفى العمارة لم تخترع الأقواس أو العقود أو القباء ، ولكنها استخدمتها بجرأة وفخامة جعلت بعض الطرز من عمائرها أرقى من جميع نظائرها إلى هذه الأيام ؛ ولقد أخذت الكنائس الكبرى فى العصور الوسطى جميع عناصرها من الباسلقا الرومانية . ولم تخترع رومة التماثيل ، ولكنها وهبتها قوة واقعية ، قلما سما إليها اليونان أصحاب هذه النزعة ؛ ولم تبتدع الفلسفة ولكن لكريشيوس وسنكا هما اللذان وجدت فيهما الأبيقورية والرواقية صورتيهما النهائيتين المصقولتين أعظم صقل . ولم تنشئ الأنماط الأدبية إنشاء ، لا نستثنى من ذلك الهجو نفسه ؛ ولكن من منا يستطيع أن يقدر حق التقدير ما كان لشيشرون من أثر فى فنون الخطابة ، والمقالة ، وأسلوب النثر ، أو أثر فرچيل فى دانتى ، أو تسو Tasso فى ملتن ، . . أوليفى وتاستس فى كتابة التاريخ ، أو هوراس وچوڤنال فى دريدن ، وسوفت ، وپوپ؟

وقد أضحت لغتها بفضل ما دخل عليها من مسخ يثير الإعجاب لغة إيطاليا ، ورومانيا ، وفرنسا ، وأسپانيا ، والبرتغال ، وأمريكا اللاتينية ، أى لغة نصف عالم الرجل الأبيض ؛ وقد ظلت تلك اللغة حتى القرن الثامن عشر اللغة الدولية للعلم والتبحر فى الدرس ، والفلسفة فى بلاد الغرب . وكانت هى المعين الذى اغترفت منه مفردات دولية سهلة لعلمى الحيوان والنبات ، ولقد بقيت حية فى الطقوس المنغمة والوثائق الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولا تزال تكتب بها تذاكر الأطباء ، وتتردد كثيراً فى المصطلحات القانونية ؛ ودخلت عن طريق اللغات الرومنسية(*) (مثل peasant, pagan, paganus ؛ و royal yegal, reyalis) لتزيد من ثروة اللغة الإنجليزية ومرونتها . وملاك القول أن ما ورثناه عن الرومان يظهر أمامنا آلاف المرات فى كل يوم .

ولما أن فتحت المسيحية رومة انتقل إلى الدين الجديد بناء الدين الوثنى

(*) أى المشتقة من اللغة اللاتينية كاللغات السالفة الذكر (المترجم) .

القديم : انتقل إليه لقب الحبر الأعظم pontifex meximus ، وعبادة الأم العظمى ، وعدد لا يحصى من الأرباب التى بثت الراحة والطمأنينة فى النفوس ، والإحساس بوجود كائنات فى كل مكان لا تدركها الحواس ، وبهجة الأعياد القديمة أو وقارها ، والمظاهر الخلابة للمواكب القديمة التى لا يعرف الإنسان بدايتها ، نقول إن هذه كلها انتقلت إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها ، وأسرت رومة الأسيرة فاتحها ، وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزمة الحكم والمهارة الإدارية إلى البابوية القوية ، وشحذت الكلمة المواسية بقوة سحرها ما فقده السيف المفلول من قوته ؛ فحل مبشرو الكنيسة محل جيوش الدولة ، وأخذ هؤلاء يجوبون الآفاق فى جميع الجهات متتبعين الطرق الرومانية ؛ وعادت الولايات الثائرة بعد أن اعتنقت المسيحية إلى الاعتراف بسيادة رومة . وحافظت العاصمة القديمة على سلطانها ، خلال الكفاح الطويل الذى دام فى عصر الإيمان ، وما زال ينمو هذا السلطان ، ينمو ويقوى حتى خيل إلى العالم فى عصر النهضة أن الثقافة القديمة قد انبعثت من قبرها ، وأن المدينة الخالدة أضحت مرة أخرى مركز حياة العالم وثرائه وقمة تلك الحياة وذينك الثراء والفن . وقد احتفلت رومة فى عام ١٩٣٦ بمضى ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها ، وكان فى وسعها أن تعود بنظرها إلى ما تمتاز به حضارتها من استمرار رائع فى تاريخ الإنسانيـــة . ألا ليتها تعود إلى حياتها الماضية .

شكراً لك أيها القارئ الصبور

المراجع مفصلة

CHAPTER XXI

1. Pliny. *Nat Hist*, iii, 6.
2. Dlill, 239.
3. Eattorusso, J, *Wonders of Italy*. 473.
4. Herodoius, I, 196.
5. Strabo, v, 1-7.
6. Varro, *Rerum rust.*, i. 2.
7. Pliny, iii, 6.
8. Strabo, v, 4-5.
9. Varro, *sat Men*, frag. 44. in Friedländer, I, 338.
10. Boissier, *Cicero*, 168.
11. Seneca, *Epist.* li.
12. Strabo, v, 4.3.
13. Reid, 3.
14. Dio, lxvi, 22.
15. Pliny's *Letters*, vi, 16.
16. Ibid, 20.
17. Rostovtzeff, *Mystic Italy*, 52.
18. Mau, 491 ; Boissier, *Rome and Pompeii*, 430.
19. Id., *La rélligion romaine*, II, 296.
20. Mau, 226, 148.
21. Ibid. 16.
22. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 142; Dill. 194 ; Frank, *Economic Survey*, V. 98 ; Friedländer, II. 254.
23. CAH, XI, 587 ; Friedländer II, 228.
24. As at Antium, Lanuvium. Tibur, Aricia.

CHAPTER XXII

1. Cicero, *II, In Verren*, iii. 207.
2. Tacitus, *Annals*, xii. 31.
3. Cicero, *Pro lege Manilia*, 6.
4. Plutarch, *De reip. ger.*, 32.
5. Mommsen, *History*, II, 205.
6. Livy, xxv, 29.
7. Reid 288.
8. Toutain, 269.
9. Bouchier. E.*Life and Letters in Roman Africa*, 73.
10. St. Augustine, *Letters*, 185.
11. Friedländer, I, 312.
12. Boissier, *L' Afrique romaine*, 181-2; Devis, 200.
13. Bouchier, 83.
14. Juvenal, vii. 148.
15. Apuleius, 41 ; a fine example of Adlington's delectable translation 1566).
16. Book XI.
17. Book IV-VI.
18. Strabo, iii, 4-16.
19. Ibid., 3.7.
20. Ibid. 4-16-18.
21. Buchan, 310.
22. Gest. 201.
23. Caesar, *Bello Gallico*, ii, 30.
24. Pliuy, xxxviii, 5.
25. Appian, iv, 7.
26. Strabo, iv, 4-5.
27. Ibid.
28. Caesar, v, 34.
29. Ammianus, xv, 12.
30. Caesar, vi, 14 ; Val. Max ; ii, 6, Hammerton, J., *Universal History of the World*, III. 1524.
31. Caesar, vi, 14.
33. Arnold, W. P., *The Roman System of Provincial Administration*, 142.
34. Pliny, xviii, 72.
35. Frank, *Economic Survey*, V, 133f.
36. Pliny, xxxiv, 18.
37. Ibid, iii, 5.
38. Sidonius Apoilinaris, *Poems*, xxiii, 37.
40. Jullian, C. *Histoire de la Gsule*, V, 35n.
41. In Mommsen, *Provinces*. I, 118.
43. See the statemer of their case in Barnes, H. E. *History of Western Civilization*, I, 434.
44. Nommsen *History*, V, 100.
45. Caesar, V, 12.

46. Tacitus, *Annals*, xiv, 29.
47. Tacitus, *Agricola*, 21.
48. Haverfield, F., *The Roman Occu potion of Britain*, 213.
49. Id., *The Romanization of Britain* 62. *Collingwood and Myres, Roman Britain*, 197; Home, G., *Roman London*, 98.
50. Strabo. iv, 5.2.
51. CAH, XII, 289.
52. *Tine*, Mar. 17, 1941.
53. Tacitus, *Germania*, 14.
54. Strabo, vii, 1.2.
55. Seneca, *De ira*, v, 10.
56. *Germania*, 22.
57. Sumner, W. G., *Folkways*, 380.
58. Ibid., 316.
59. *Germania* 20.

CHAPTER XXIII

1. Dio Chrysostom, *Orat.*, vii.
2. Plutarch, "*Demosthenes*"
3. In Trench, R.C., *Plutarch*, 40
4. Ibid., 41.
5. In Glover, T. R. *Conflict of Religions in the, Early Roman Empire*. 85.
6. Pluiarch, *Quaestiones Romani*; *De Isise et asiride.*
7. Plutarch, *Moralia*, introd., I, 15.
8. Ibid., 37.
9. Ibid, vol. II, pp 123, 128, 131-2, 173.
10. Ibid., 140B.
11. *De tranq. an.*, ix, 20.
12. Dio Chr, *Orat.*, xii
13. Epietetus, *Discoures*, i, 6.26.
14. Lucian, "Of Pantomime," 2.
15. Id, "Demonax," 57.
16. Apuleius, book X.
17. Alciphron, *Letters*, vi, p. 175.
18. Dio. Chr., *Orat.*, lxxii.
19. Philostratus, *Lives of the Sophists*, 223f.
20. Renan, *Christian Church*, 167.
21. Our sole source for Demonax is an essay uncertainly ascribed to Lucian, and possibly colored with fiction.
22. Lucian, "Peregrinus Proteus".
23. Renan *Christian Church*, 166.
24. Lucian, "Demonax" 55; Epictetus *Discoures*, iii, 22.
25. Id., frag. 1.
27. I, 12. 21; vi, 25.
28. IV, 1.
29. I. 24.
30. II, 5.
31. I. 2.
32. *Encheiridion* 8.
33. *Discoures*, i, 6.
34. Ibid., 9.
35. 3, 9 : ii, 8.
36. I, 29.
37. III, 24 ; ii, 6,
38. I, 16.
39. I. 18, 19 ; frag. 43.
40. III, 10.
41. Frag 42.
42. *Encheir.*, 33.
43. *Discourses*, ii, 10.
44. III, 12.
45. 13.
46. Frags. 54. 94
47. *Discourses*, ii 16.
48. I, 9.
49. Ibid, introd., xxviif.
50. In Sextus Empiricus, *Hypotyposes Pyrr.*, 1. 36f, and Gellius, xi, 5.6. For details cf Owen, J., *Evenings with the Sceptios*. I, 323-5.
51. Sextus, *Hyp. Pyrr*, ii, 204.
52. III. 29; i, 135-8.
53. III. 210.
54. *Adv. Dogmaticos*, i, 148; *Hyp. Pyrr.*, iii, 9-11.
55. Ibid., i. 7.
56. Ibid., i, 8. 25.
57. III, 235; *adv. Dogm.*, i 49.
58. CAH, XII, 449.
59. Lucian, "Icaromenippus" 25.
60. "Zeus Cross-Examined" 2-18.
61. "Zeus Tragoedus," 53.
62. *Dialogues of the Dead*, x.
63. "Hermotimus," end.

64. "Charon," 2.
65. "Icaromenippus,"||17.
66. "Charon," 24.
67. "Menippus," 21.
68. Inge W., *Philosophy of Plotinus*, 82.

CHAPTER XXIV

1. Josephus, *Against Apion*. ii, p. 480.
2. Charlesworth, 26; Frank, *Economic Survey*, II, 330.
3. Ibid., 337.
4. 445; Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World*, 1288.
5. Josephus, *Wors*, ii, 16.4; Frank V, 245.
6. Breccia, E., *Alexandria ad Aegyptum*, 41.
8. Dio Chr., xxxii, 69.
9. In Frank, V, 247; Mommsen, *Provinces*, II, 177.
10. Baron, S.W., *Social and Religous History, of the Jews*, ii, p. 489.
11. Edersheim, I, 61.
12. Josephus, *Against Apion*, ii p. 489.
13. Eusebius, *Ecclesiastical History*,
14. Graetz, *H. History of the Jews*, II, 186.
15. Philo, *Quod Deus sit immutabilis* 12.
16. Philo, *De mundi opificio*, i, 4; Inge. I, 98.
17. Philo, *De cofusione linguarum*, 28.
18, In Sachar, *A , History of the Jews*, 110.
19. Philo, *De vita contemplativa*
20. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 40.
21. Bailey, 314.
22. Sarton, G , *Introduction to the History of Science*, I, 274.
23. Ibid., 202; Heath, Sir, T., *History of Greek Mathematics*, II, 306.
24. Ammianus, xxii, 16-19.
25. Philostratus, in Friedländer, I, 171.
26. Bailey, 283.
27. Sarton, 283.
28. Himes, 86.
29. Garrison, 30, 110.
30. Sarton, 282; Castiglione, 202.
31. Ibid ; Himes, 90.
32. Higgard, H., *Devils, Drugs, and Doctors*, 23.
33. Galen *On the Natural Faculties*, introd , xv.
34. Galen in Thondike, L , *History*
35 *of Magic and Experimental Science. I*, 117, 152.
36. Ibid , 143.
37. Williams, I; 174.
38. Castiglione, 275.
39. Thorndike, I, 171.
40. Strabo, xvi, 4.
41. Doughty, C., *Travels in Arabia Deserta*. I, 40.
42. Josephus, *Antiquities*, xv, 9.
43. MacGregor, R , *Greek Anthology*: v, 171.
44. Tr. by Goldwyn Smith in Symonds, J.A. *Greek Poets*, 521.
45. Leslie,S ,*Greek Anthology*,vii,476.
46. Ibid., p. 17.
47. Ibid., Ix, 489.
48. *Greek Anthology*, ix, 570.
49. Strabo, xv, 2.23.
50. Frank. IV, 158.
51. Rostovtzeff, *Roman Empire*,135 ; CAH, II, 634.
52. Breasted J.H., *Oriental Forrunners of Byzantine Painting*, pref.
53. CAH, XI. 638.
54. Ibid., 646.
55. In Mahaffy, *Silver Age*, 211.
59. Philostratus, *Apollonius*, iv. 7.
60. Aelius Aristides, *Orat.*, xvii, 8, in Frank, IV, 750.
61. Philostratus, *Lives of the Sophits*, i, 25.
62. Ibid.

63 Longus, *Daphnis and Chloe*; ad enit., in Heliodorus, *Greek Romances*.
64. Dio Cassius, lxx, 4.
65. Appian, *Roman History*, xiv, 16.
66. Ibid.
67. Pliny, xxv, 8.
68. Ibid., xxxiii, 14.
69. Appian, xiii, 4.
70. Ibid., 7.
71. Ferro, I, 83.
72. Arrian, *Anabasis of Alexander*.
73. Reid, 376.
74. Williams, I, 255.
75. Strabo, i, 1.22-3.
76. Ibid, 8.5.
77. Dio. Chr, xlvi, 3.
78. Ibid., x, 21.
79. In Bigg. C., *Neopplatonism*, 70.
80. Ibid., 78.
81. Dio. Chr., xii 10; xiii 28; xiv, 18; xxiii, 7.
82. Friedländer, III, 299.
83. Frazer, *Adonis, Attis*, and *Osiris*, 157.
84. Cumont, F., *Oriental Religions in the Roman Empire*, 58.
85. Ibid., 55.
86. Frazer. 306; Boissier, *La religion romaine*, 1, 383; Dill, 549f.
87. Plutarch, *Delside*; Dill, 577; Halliday, W., *Pagan Background of Early Christianity*, 240.
88. Tarn, 296; Dill, 582.
89. Cumont, 41, 93.
90. Breasted, J., *Ancient Times*, 660; Weigall, A. *The Pagamism in Our Christianity*, 129.
91. Dill, 610.
92. Ibid, 601, 623.
93. Cumont, 158.
94. Guignebert. C., *Christianity Past and Present*, 71.
95. Hatch, E, *Influenece of Greek Ideas upon the Christian Church*, 283.
96. Frazer, *Adomis*, 229, Halliday, 317.
97. Hatch, 147.
98. Philo, *De, vita contemplativa*.
99. Lucian, "Alexander the Oracle-Monger"
100. Philostatus, *Apollonius*, i, 14.
101. Ibid, 19; iv, 45.
102. I, 33-4.
103. Apollonius, epistles. xliii and xiv in Philostratus.
104. Philostratus, iv, 3.
105 Ibid, viii, 29-31.

CHAPTER XXV.

1. Appian *Roman History*, xii, 15.
2. Frank, IV, 197.
2a. In the State Museum, Berlin; reproduced in Pope, A., *Persian Art*, IV, 134A.
3. Rawlinson, G., *Sixth Great Oriental Monarchy*, 423.
4. Plutarch, "Cressus."
5. Sachar, 105.
6. Josephus, *Antiquities*, xiv, 2.9; Strabo, xvi, 2.40.
7. Josephus, xiv. 11.
8. Id., *Wars*, i, 21.
9. *Antiquitics*, xv, 7; xv i 5.
10. Ibid., xv, 8
11. Ibid.; 11.
12. Ibid.; *Wars*, v, 5; Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, 1, 5-7; Tchürer, Div. I. Vol, 280.
13. *Antiquities*, xxi, 7
14. Our sole authority for this is Josephus ant. xv 8.1
15. Ibid, 10.
16. XVII, 5.
17. Klausner, J., *Jesus of Nozareth*, 145.
18. Moore, G., *Judaism*, 1.23.
19. Baron I, 131.
20. Ibid, 192-3.
21. *Antiquitics*, iv, 10.
22. *Agoinst Apion*, p. 456.
23. Finkelstein, L., *Akiba*, 33.
24. Schürer, Div, II, Vol, I, 162; Moore, I, 82: Goguel, M., *Life*

of Josvs, 471 ; Graetz, II, 54-5.
25. Zeitlin, S., *The Jews*, 43; *id*; *The Pharisees and the Gospels*, 237 ; CAH IX 408.
26. Josephus, *Wars*, i 8. 14.
27. Philo *Quod, omnis homo*, 86 ; *Hypothetica*. 11.4 and 12 ; Josephus, *Aniquities*, xviii. I.
28. Josephus. *Wars*, ii. 8.
29. Ibid, 9.
30. Graetz, II, 29; Ueberweg, F. *History of Philosophy*, I, 228.,
31. Klausner. 231 ; Graetz, II, 145.
32. Josephus, *Wars*, ii 8.
33. In Moore, I, 313.
34. Hastings. J., *Encyclopedia of Religion and Ethics*, s v. Hillel.
35. Philo. in Eusebius, *Praeparatio evangeilca*, viii, 7.
36. Babylonian Talmud, Abort, i, 42. Shab, 31a.
37. Abot. ii, 4.
38. Foakes-Jackson. 134; CAH, IX, 420.
39. Book of Wisdom ii
40. Ibid., v.
41. Isaiah, ix, 6.
42. Book of Wisdom, xviii. 13f.
43. Isaiah, liii.
44. Daniel, ii, 44 ; vii, 13f ; Song of Solomon, xvii.
45. Sibyline Oracles, iii, 767f in Klausner. *From Jesus to Paul*, 159.
46. Isaiah, ii, 4 ; xi, 6 ; Book of Enoch, i-xxvi ; Sib. Or., ii. 303f in Klaunser, 150.
47. Book of Wisdom, iv ; Enoch, cviii.
48. Book of Wisdom, ii-iii.
49. Finkelstein, 263.
50. Tacitus, *Histories*, v, 9.
51. Josephus, *Wars*, ii. 14.
52. Graetz, II, 239.
53. Josephus, I.c.
54. Ibid., v., 1f; Tacitus. v, 12.
55. Josephus, iii, 14.
56. Ibid., ii 18.
75. Tacitus, v. 13.
58. losephus, v, 11.
59. Dio Cassius, lxv, 4.
60. Josephus, x 3 : Tacitus, v, 13.
61. Strabo in Josephus, *Antiquities*, xiv, 7.
62. Philo, *Legatio ad Caium*, 36.
63. Baron, I, 132-3 ; Bevau, E. R. *Legacy of Istael*, 29.
64. Josephus, *Agrinst Apion*, ii 3.
65. Josephus, *Life of Flavius Josephus*, p. 540.
66. Finkelstein, 141.
67. Baron, I, 191.
68. Dio Cassius, lxix, 12f ; Renan, *The Christian Church*. *106*.
69. Moore, *Judaism*, I, 93.
70. Flukelsteiu, 276.

CHAPTER XXVI

1. Reinach. *S., Short History of Christianity*, 22 ; Guignebert Jesus, 63.
2. Josephus, *Antiquities*, xviii. 3.
3. Scott, E., *First Age of Christianity*, 46 ; Schürer, I, 143. This conclusion applies also to the Slavonic version of Josephus ; cf. Guignebert, op. cit. 148.
4. Klausner, *Jesus*, 46; Goguel, 71.
5. Pliny the Younger, v, 8.
6. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
7. Goguel, 94 ; Klausner, 60.
8. Suetonius, "Nero" 16.
9. Id., "Claudius" 25.
10. Acts of the Apostles, xviii, 2. Quotations from the New Testament are in most cases from the translation of E. J. Goodspeed.
11. In Goguel, 9, 184.
12. E.g., Galatians, i, 19 ; I corinthians. ix, 5.
13. I Cor., xi, 23-6.
14. Ibid, xv, 3 ; Gal , ii 20.
15. Eusebin I, *E.H.*, iii, 39.
16. E. g., vi, 30-45 ; viii, 1-13, 17-20.
17. Klausner. *From Jesus to Paul*, 260.

18. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 335.
19. Irenacus, *Contra Haeresе*, ii, 1-3.
20. Guignebert, *Jesus*, 30; CAH. XI, 260.
21. Guignebert. 467.
22. Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, I, 268.
23. *Enc. Brit.*, XIV, 587.
24. Ibid., XIV, 477.
25. Partially listed in *Enc. Brit*, XIII, 95.
26. Scott, *First, Age*, 217; *Enc. Brit.*, XIII, 98; Goguel, 150; CAH, XI, 261.
27. Matthew, ii, 1; Luke, i, 5.
27a. Luke. iii, 1. 23.
28. Josephus, *Wars*, ii, 8.
29. Tertullian, *Adv, Marcionem*, iv, 19.
30. *Enc. Brit.*, V, 642; III. 525.
31. Matt. xiii. 55; Mark, vi. 2.
32. Guignebert, *Jesus*, 127; Klausner 23.
33. John, vii, 15; Mark, vi, 2.
34. Thorndike, 471.
35. *Enc. Brit.*, XIII, 26.
36. Guignebert *Christianity* 58.
37. Josephus, *Antiqueties*, xiii, 5. On the authenticity of the passage cf. Foakes Jackson and Lake I, 10.
38. Graetz, II, 145.
39. Matt., iii., 11-12.
40. Ibid,, 23.
41. John, iv, 2.
42. Josephus, *Antiquitics* xviii, 5..
43. Mark, vi, 14-29.
44. Matt., xiv, 1-12.
45. Mark. i, 14; Matt., iv, 12.
46. Luke. iv, 14;
47. Isaiah, lxi, 1-2.
48. Luke, iv, 19.
49. Luke, vi, 14.
50. Mark, ix, 48; Matt., xiii, 3[illegible].
51. Luke, xvi. 25.
52. Mark, xi, 12-14.
53. Matt, xii, 46; Luke, viii, 19.
54. Mark, i, 7; Matt., v, 40 Luke, vi, 29.
55. Guignebert. *Jesus*, 186.
56. Klausuer, 69.
57. Luke, vii, 36-59.
58. Mark, x, 16.
59. Cf. Robertson. J.M.,*Christianity and Mythology*.
60. Matt., xiii, 57.
61. Mark, v, 35f.
62. Matt., xix, 28.
63. Luke, x. 1-4.
64. Guignebert, *Jesue*, 52, 253; Goguel, 282, 287.
65. E.g., Matt., xx, 1-16.
66. Matt., xxiv, 30.
67. John, xviii, 36.
68. Mark, iv, 11, 30; xii, 34.
69. Luke. xvii 20.
70. Matt., xix 29.
71. Cf. Schweitzer. 212; Guignebert, 341.
72. Mark, [illegible], 25.
73. Matt., x, 23
74. Matt, xvi, 28.
75. Mark, xiii, 30.
76. Mark, xiii, 32.
77. Matt., xxiv, 6-12.
78. E.g, Kaustky, K., *Ur prung des Christentums;* Kafthoff, A, *Rise of Christianity.*
79. Mark, x, 23; Matt, vi, 25; xix, 24; Luke, xvi, 13.
80. Matt., xix, 15.
81. Acts, ii, 44-5.
82. Matt., xxii, 21.
83. Matt., xxv, 14.
84. Luke, xix, 26.
85. Matt., xx, 15.
86. Matt., xxiv, 46; Luke, xvii, 7-10.
87. Matt., xi, 12.
88. Mark, i, 14-15; vi, 12; Matt., x.7.
89. Luke xviii. 29; xiv, 26; Matt., viii, 21f; x, 34; xix, 12.
90. Leviticus, xix, 17-18, 34.
91. Exodus, xxiii, 4-5.
92. Jeremiah, iii, 30.

93. Isaiah, i 6.
94. Ibid., i, 2.
95. Hosea, ii, I.
96. Matt , x, 5.
97. Acts, x-xi
98. John, iv, 22.
99. Matt., xv, 24f; Mark, vii, 27.
100. Matt. viii, 4.
101. Matt., xxiii, 1.
102. Matt., v. 17.
103. Luke, xvi, 17; Matt., v, 18.
104. Foakes-Jackson and Lake, I,316
105. Matt., v, 31-2.
106. Matt., v, 21-2.
107. Mark, ii, 26.
108. Luke xvi, 16; Matt., v, 18.
109. Matt., xxiii, 1-34; xxi, 31.
110. Cf. Mark, xxii, 32 - 8, and Klausner, jesus, 113.
111. Luke, xxiii, 31-3.
112. Acts, i, 6.
113. Mark, xii, 35-7.
114. Matt., xix 17.
115. Mark XIV 36.
116. Daniel, vii, 13.
117. Matt., xii, 8.
118. Matt., xi, 27; Luke. x, 22.
119. Matt., xvi, 16f.
120. Luke, xix, 37.
121. John, xii, 13.
122. Mark, xiv 49; Luke, xxi, 1; xxi, 37.
123. John, xi. 50
124. Mark, x, 45; xiv, 24.
125. E.g., Guignebert, *Jesus*, 454; Brandes, G., *Did Jesus Exist?*, 104.
1 6. Cf. Goguel, 497.
127. Mark, xiv, 26 : Klausner, 326.
128. John, xiii, 33, XIV 1-2.
129. Mark, xiv, 43.
130. Mark, xiv, 61; Matt., xxvi, 63.
131. Philo, *Legatio*, I, 38.
132. Matt., xxvii, 11.
133. John, xxviii, 38.
134. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
135. Luke, xviii, 26.
136. Cicero, vin verrem 64.
137. Mark, xv, 32.
138. Luke, xxiii, 39-43.
139. John, xix 25; Mark, xv, 37.
140 Justinian, *Digest*, xlviii. 20. 6.
141. Luke, xxiii, 48.
142. Luke, xxiv, 13-32.
143. Matt., xxviii, 16-17.
144. John, xxi, 4.
145. Luke xxiv, 52

CHAPTER XXVII

1. Foakes - Jackson and Lake II, *passim*, and especially, 305 - 6; Scott, *First Age*, 110; CAH, XI, 257-8, Klausner, from jesus to Paul 215; Ramsay, W. M., *The Church in the Roman Empire*, 6-8; Renan, *Apostles*, P. v.
2. Shotwell, J., and Loomis, L., *The see of Peter*, 56-7.
3. I Peter, iv, 7.
4. I John, ii, 18.
5. Acts, ii, 46.
6. Ibid., xi, 8.
7. V, 20.
8. Mark, vi, 13.
9. Acts, iv, 32-6; ii, 44-5.
10. IV 4.
11. VI, 11.
12. VII, 51-3.
13. VIII, 2-3.
14. XI, 19.
15. I Cor., ix 5; Clement of Alexandria. *stromata*, vii, 11; Eusebius, *E.H*, iii, 30.
16. I Peter, i, i-iv, 8.
17. Shotwell and Loomis, 64-5.
18. Laetantius, *De Mortibus Persecutorum*, 2.
19. Eusebius, ii, 25.
20. Ibid., iii, I.
21. Renan *Antichrist*, 93.
22. Acts, xiii, 9; Coneybeare and Howson, *Life, Times, and Travels of St. Paul*, 1, 46, 150
23. Guignebert, Chrisianity, 75-6;

Livingstone. R.W., The Legacy of Greece, 83, 54
24. Acts, xxi, 3.
25. Renan, *Jesus*, 167.
26. II Cor.,x. 1
27. Ibid., xii, 7.
28. Gal., v, 12.
29. II Cor, xi, 1.
30. Acts, ix, 1.
31. IX, 3-9.
32. IX, 18.
33. XV, 1.
34. XV,27-9.The account in Acts harmonizes sufficiently well. *pace* Renan and others, with Paul's report in Gal ii.
35. Gal. ii, 10.
36. Ibid., ii, iii
37. Acts, xvii, 18.
38. XVII, 22.
39. XVIII, 12.
40. II Cor., iii, 6.
41 Acts, xxi, 12-4.
42. XXVIII, 28.
43. Guignebert, *Christinity*, 65 ; Goguel, 105, CAH, XI, 257; Klausner, *Jesus*, 63.
44. Coloss., iii, 6.
45. II Cor., iii, 6.
46. I Cor., xv, 33.
47. Titus, i, 15.
48. I Timothy, vi, 10. The letters to Titus and Timothy, however,are of doubtful authenticity
49. I Cor, ix, 19; x, 33.
50. Romans, v. 12.
51. Frazer, Sir J., *The Scapegoat* 210, 413; Weigall, 70f.
52. Guignebert, *Christianity*, 88.
53. I Cor., xv, 51.
54. Ibid., i, 24.
55. Coloss., i, 15-17.
56. Rom., ix, 11, 18; xi, 5.
57. Hebrews, xi, 1. Probably not Paul's.
58. Gal. III 27.
59. I Cor., xii.
60. Ibid., ix, 5.
61. VII, 8.
62. Rom. xiii, 14.
63. Ibid., i, 26.
64. I Cor., vi. 15.
65. Ibid , vii, 20f.
66. Rom., xiii, 1.
66a. II Tim., iv, 9, 6.
67. Philippians, iii, 20., IV 6.
68. I Cor., vii, 29 ; cf. I Thessalonians, iv,15.
69. II Thess., ii, 1-5.
70. Acts; xvii, 7.
71. Ensebius, *E.H.*, iii, 1
72. Revelation, xvii, 10.
73. Renan, *Antichrist*, 95; CAH, X. 726.
74. Duchesne, Mon. L., *Early History of the Christian Church*, I, 99.
75. Eusebius, iii, 25.
76. Ibid., iii, 33.
77. Rev., viii, 4; xiv, 1.
78. Ibid., vi, 2-8.
79. VII, 14.
80. XX, 15; xxi, 8.
81. XIX, 18.
82. XXI.
83. Proverbs, viii, 22-31.
84. John, i 5.
85 Justin, *Apology*, 166; Tertullian, *De Baptismo* 5; Halliday. 9.

CHAPTER XXXVIII

1. Duchesne, I, 38.
2. Tertullian, *Contra Marocionem*, v, 8.
3. Jerome, *Letters*, xciii.
4. Clement of Alexandrts, *Paedagogus*, iii, 11.
5. Paul. I Cor., xi, 3. XIV 34.
6. Lucian, *Peregrinusa Proteus*.
7. Tertullian, *Apologeticus*, xxxix, 11-12
8. Ibid., 5.
9. Renan, *Marc Aurèle* 600.
10. James., v, 1; ii, 5.
11. Ibid., i 10.

12. Renan, *St. Paul*, 402.
13. Klausner. *From Jesus to Paul*, 133-4.
14. Tertullian, *De jejuntis*, i, 17; Duchesne, II, 253. Renan *Christian Church*, 211; Robertson, *History of Freebought*, I, 244
15. Clement of Alex-*Paedag.*, iii, 11 Renan. *Marc Aurèle*, 520.
16. Tertullian, *Apol.* ix, 8.
17. Gibbon. I, 480.
18. Tertullian *De spectaculis*, I. 3.
19. Sumner., W. G. *War and Other Essays*, 54-5.
20. Tertullian, *Apol.*, xlvi, 10.
21. Friedländer III, 204; Tertullian, *De exhort castitatis*, 13; Lea. H. C., *Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy*, 41; Robertson, *History of Freethougg*, 1, 244.
22. Pliny the Younger. x 97.
23. Galen in Hammerton. IV, 2179.
24. Tertullian, *De spect.*, 23.
25. Perhaps anthropophagic, cf. Sunner *Folkways* 451.
26. Renan, *St. Paul*, 268.
27. Frazer, Sir J, *Spirits of the Corn and Wild* II, 92-3; Carpenter, Edw., *Pagan and Christian Creeds*. 65-7.
28. Acts, viii. 14-17; xix, 1-6.
29. *Catholic Encyclopedia*, 217-8.
30. Matt., xvi, 18; John, xx, 23.
31. Friedländer. II. 364.
32. Renan. *Marc Aurèle*, 449.
33. Tertullian *Apol*, xxxvii, 4.
34. Id., *Ad uxorem*. i, 5; Renan, *Marc*, 551. Glover, *Conflict of Religions*. 341.
35. CAH, XII 456.
36. Lake. K., *Apostolic Fathers*. I. 395.
37. Murray. Sir G., *Five Stages of Greek Religion*, 196.
38. Renan, *Marc* 292.
39. Duchesne. I. 196.
40. Friedfänder III. 192.
41. CAH, XII, 459.
42. Origen. *Contra Celsum*. in Glover. 252; Carpenter. 220.
43. Plotinus. *Enneads*. xliii.
44. Porphyry. *Life of Plotinus*. 14.
45. Mac Kenna. Stephen. *Essence of Plotinus*. 11n.
46. Plotinus *Euneads*. iii. 4.
47. Ibid. vi 9.
48. V. I.
49. IV. I; Inge. *Hhilosaphy of Plotinus* II 21-4. 92.
50. Plotinus. v. 1 iii. 7.
51. Ibid. v. 11.
52. Mac Kenna. Intord. xx.
53. In Lake. *Apostolic Fathers*, 1. 23.
54. Tertullian *Apol.* xxx, 4.
55. Ibid. xvii. 6.
56. Id., *De spect.*, 30.
57. Id. *De cultu feminarum*.
58. In Ueberweg. I. 303.
59 CAH. XII. 593.
60. Eusebius. vi. 2.
61. Gibbon. I. 467.
62. Jerome *Letters*. xxxiii
63. Shotwell. *Iniroduction*. 292.
64. Origen. *De principlis*. i. 15-16. in Hatch. 76.
65. Origen, op. cit., iv, 1, in Hatch 76.
66. Duchesne, I, 255f.
67. Inge, *Plotinus*, II, 19, 102.
68. In Watson, *Marcus Aurelius*, 305.
69. Matt., xvi, 18.
70. Shotwell and Loomis, 64-5.
71. Ibid., 60-1, 84-6.
72. Lake, I, 121.
73. Duchesne 1, 215.
74. CAH, XII, 198, 600.
75. Cyprian's Letter in Inge *Plotinus*. I. 62.

CHAPTER XXXIX

1. Herodian. *History of Twenty Cases* II. 83.
2. Dio Casius. lxxiv, 5.
3. Herodian. II, 100, 103; III, 155.
4. *Historia Augusta*. "Septimius" Severus, xviii. 11.

5. Herodian, III, 189.
6. Lot, F. *End of the Ancient World* 10.
7. Dio, lxxxix, 7.
8. Ibid., lxxviii, 16.
9. Herodian, IV, 210; Dio lxxviii, 22.
10. Dio, lxxix, 23.
11. *Historia Augusta* "Elagabalus," 19-32. Dio, lxxx, 13; Herodian, IV, 253.
12. Dio, lxxix, 14; Gibbon, I. 141.
13. *Historia Augusta* "Severus Alexander" 30, 39.
14. Herodian, VI, 5.
15. *Hist. Aug*, "Severus Alexander" 20
16. Ibid., 29.
17. Ibid, 33.
18. Herodian, VI, 8.
19. In Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 399.
20. Gibbon, I, 294.
21. Maine, *Ancient Law*, 177.
22. West, L., "Economic Collapse of the Roman Empire," in *Classical Journal* 1932 p. 106.
23. Abbott, *Common People*, 174.
24. Rostovtzeff, op. cit., 424, 442-3
25. Ibid., 305.
26. Frank, *Economic History*. 489,
72. Ferrero. *Ruin of Ancient Civilization*, 58; Rostovtzeff. *History, of the Ancient World*. II 317.
28. Frank, *Economic Survey*. IV, 220.
29. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 419.
30. Collingwood and Myres. 206.
31. Health, II, 448.
32. Plato, *Laws* 819.
33. Ball, W. W., *Short History of Mathematics*, 96.
34. Justinan, *Digest*, i 1.4.
35. *Hist. Aug.*, "SeverusAlexander, 51
36, Roberts, W. R., introd. to "*Longinus*" *on the Sublime*, Loeb Library.
37. Heliodorus, *Greek Romances*, I.
38. Ibid., 289.
39. In *Catullus, Tibullus*, etc., p. 343
40. In Burckhardt, J., *Deit Zeit Constantantins*, 54.
41. CAH, XII, 273; Frank *Economic Survey* III, 633.
42. Ferrero, *Ancient Rome and Modren America*. 88.
43. Toutain. 326.
44. West, I. c. 102.
45. Rostovtzeff, *Ancient World*, II. 329.
46. Toutain, 326. CAH XII, 271: *Cambridge Medieval History* 1,52
47. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 474.
48. Commingham, W. C., *Western Civilization in its Economic Aspects* I. 191-2.
49. Paul-Louis, 283-5.
50 Translation based on that of Elsa Glaser in Frank *Econmic Survey* V, 312.
51. Ibid., The prices are calculated on the valuation of gold at S35 per oz. in the United States of 1944.
52. Frank *Survey* III. 612.
53. Lactantius. *De Mortibus Persecutorum*. vii.
54. Ibid vii, 3.
55. Charlesworth, 98.
56. West, 105. Ferrero, *Ruin of Ancient Civilzation* 106.
57. Cunningham. I, 188.
58. Frank, *Survey* II, 245. IV, 241.
59. Reid, *Municipalities*; 492; Arnold 265.
60. Heitland, 382.
61. Daivis. W. S., 233.
62. Frank, *Economic History*. 404. Rostovtzeff. *Roman Empire*. 409.
63. Gibbon. I. 377.

CHAPTER XXX

1. Renan, *Marc*, 592.
2. Tertullian *Apol.*, xl, 1.
3. Minucius Felix, *Octavius*, ix, 5 in Tertullian, *Apol.*
4. Guignebert. *Christianity*, 164.
5. I Cor. vi 1; Renan. *Marc*, 597.

6. Origen *Contra Celsum*, viii, 69, in Haliday, 27.
7. Tertullian, *Apol.*, xv, 1-7; Duchesne, I, 34.
8. Friedländer, III, 186.
9. Tertullian, *Apol*, iv, 1.
10. Ramsay, 253; CAH, X, 503.
11. Duchesne, I, 82.
12. Bury, J., *History of Freedom of Thought*, 42
13. Tertullian, *Apol.*, v, 4, Eusebius iii, 17.
14. Pliny the Younger, 96-7.
15. Recript of Hadrian in Eusebius, iv, 9. For a defense of its authenticity cf. Ramsay, 320.
16. From an account said to have been sent to the Christian churches by the elders of the church at Smyrna, in Lake, *Apostolic Fathers*, II, 321.
17. Renan, *Marc*, 331.
18. Tertullian, *Apol.*, xlv, 14.
19. *Memoirs of St. Perpetua*, in Davis and West, *Readings in Ancient History*, 287,
20. Rostovtzeff, *Ancient World* II, 349.
21. Duchesne I, 267,
22. Lactantius, *De Mortibus Perecutorum*, x.
23. Eusebius, viii, 1f.
24. Gibbon, II, 57.
25. Eusebius, viii, 17.
26. Tertullian, *Apol.*, 1, 13.
27. Ambrose in *Enc. Brit*, VI, 297.
28. Eusebius, *Life of Constantine* i, 28
29. Eusebius, *E.H.*, viii, 2.
30. Id., *Life of Constine*, i, 28.
31. Lactantius, *De Mortibus*, xlv, 5.
32. *Cambridge Medievnl History*, 1, 4.
33. For the detailed evidence cf. Burckhardt, 262f.
34. *Hist Aug.*, "Elagabalus," xxxiv, 4.
35. Lot, 29.
36. Flick, A. C., *Rise of the Medieval Church*, 123-4.
37. Duruy, V., *History of the Roman People* VII, 510.
38. Kalthoff, 172; Lot, 98.
39. Eusebius, *Life*, ii, 36.
40. Ibid., iii, 62f.
41. Duchesne, I, 290.
42. Eusebius, *E.H.*, viii, 1.
43. Duchesne, II, 99.
44. Eusebius, *Historical View of the Coaucil of Nice*, 6.
45. Ibid.
46. Eusebins *Life*, ii, 63, 70.
47. Eusebius, *Nice*, 6.
48. Ibid., 15.
49. *Cambridge Medieval History*, i, 121
50. Socrates, *Ecclesiastical History*, i, 8
51. Duchesne, II, 125.
52. Ferrero, *Ruin*, 170.
53. Gatteshi 24, Reimach, *Apollo*, 89.
54. Gibbon, VI, 553.
55. Lactantius, *Divinae [Institions*, v, 19.
56. Eusebius, *Life*. i, 1.
57. *Cambridge Medieval History*, I, 15.

EPILOGUE

1. Reid. J, S., in *Cambridge Medieval History*, I, 54.
2. Cyprian; *Ad Demetrinm*, 3, in Inge, *Plotuns*, I, 25.
3. Cf. West, op. cit., 108.
4. Frank, *Survey*, III, 575.
5. In Eusebius, *E.H.*, vii, 21.
6. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 424.
7. Frank, *Survey*, III, 74.
8. Gibbon, I, 274.
9. Davis, *Influence of Wealth*, 214.
10. Gibbon, 274.
11. Id, chap. xvi, etc.
12. Renan, *Marc*, 589; Ferrero *Ruin* 7, 74; White, E.L., *Why Rome Fell, passim.*
13. Montesquieu, *Grandeur et décadence des Romains*, 36.
14. *Cambridge Medieval History*, I, 10
15. Abbott, 201.
16. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 445.

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧/١١ . ت: ٣٦٦١٥٨ - ٦٠٤١٥ - ١٦ . تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: داجيلاب - بيروت - لبنان

فهرس عام

بالأحداث التى أرخ لها فى الكتاب

مسلسلة حسب السنين

السنون قبل الميلاد ثم بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٤٣ قم — ٧٠ م	مدة الدولة اليهودية الثانية	٢٦١
٥٣ قم — ٢١٧ م	حروب روما مع بارثيا	١٥٨
٥٠ قم	استرابون السرديسى يجمع ديوان شعر كله غزل فى الغلمان	١١٩
٥٠ قم	نشر سفر مزامير سليمان	١٨٠
٤٦ قم	٣٠٠ صاحب مصرف وبائع جملة فى روما	٣٤
٤٣ قم	بيع ثلاثين ألف يهودى فى أسواق الرقيق	١٦٣
٤٣ قم	ظهور الاضطرابات الشيوعية فى أثينة	٢٩١
٣٧ — قم	حكم هيرورد بن انتباتر	١٦٣
٣٠	تعيين هلل رئيساً للسنهدرين	١٧٧
٢٨	كتابة الترجمة السبعينية للتوراة	١٨١
٢٥	أغسطس إيليوس يبعث جالس ليضم مملكة مأرب والعرب	١١٦
٩ قم — ٤٠	حكم الملك ارتاس الرابع	١١٧
٩ قم — ٤٠	مملكة بصرى تبلغ ذرى مجدها	١١٧
٨ — ٧ قم	ستر ينس حاكم سوريا يحصى اليهود	٢١٢
٧ قم	استرابون يخرج كتابه العظيم (الجغرافية)	١٤٢
٦ قم	الحكم على ألكسندر وإستبولس ابنى هيرود بالإعدام	١٦٩
٤ قم	موت هيرود	١٦٩
٤ قم	جنود أركلوس يقتلون ٣٠٠٠ يهودى جاءوا إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح	١٨٤
٤ قم — ٣٢٥	شباب المسيحية	١٩٧
٢ — ١ قدم	مولد المسيح	٢١٢
٦ — ٧ م	إحصا عام فى بلاد اليهود	٢١٢
٦ — ١٢ م	كويرنيوس حاكم سوريا	٢١٢
١٠ م	وفاة هلل	١٧٨
٢٨ — ٢٩ م	يوحنا يعمد يسوع المسيح	٢١٢
٣٠	تشييد هيكل الشمس	١٢٤
٣٠ ؟	اتهام اصطفانوس الشماس بالتجديف	٢٤٣
٣٠ — ٩٥	حياة رسل المسيح	٢٢٥
٣١ ؟	بولس يتزعم الاضطهاد الأول للمسيحيين فى أورشليم	٢٥٢
٣٦	إلغاء الملكية فى بلاد اليهود وجعلها ولاية رومانية	١٨٥
٤٠	وفدان من اليونان واليهود يعرضان قضاياهما على كليجيولا	١٠٢
٤٠ — ٩٠	ديوسكريديز يكتب كتابه فى العقاقير	١١٠
٤٠ — ١٤٠	ديوكريستوم (ديوذو الفم الذهبى)	١٤٣

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٣٠	هدريان يعلن اعتزام بناء ضريح لجوپتر	١٩٤
١٣١	هدريان يصدر مرسوماً بتحريم الختان ويحرم تعليم الشريعة اليهوديه	١٩٤
١٣٢	آخر وقفة لليهود فى التاريخ القديم لاستعادة حريتهم	١٩٤
١٣٥	پپياس ينكر شخصية يوحنا الأكبر	٢٠٧
١٣٥	پپياس يعزو سفر الرؤيا إلى يوحنا اللاهوتى	٢٧١
١٣٥	جستن مارتن يعزو سفر الرؤيا إلى الرسول يوحنا	٢٧١
١٣٥	پپياس ينفرد بذكر الإشارة إلى إنجيل مسيحى	٢٠٧
١٤٠	مرسيون يصل إلى رومة لتخليص المسيحية من اليهودية	٢٩٢
١٤٥	سوتيونيوس يؤرخ اضطهاد نيرون للمسيحية	٢٠٥
١٤٦	مولد سبتميوس سڤيرس	٣٢٢
١٥١	تاريخ الإدشارة إلى إنجيل مسيحى	٢٠٧
١٥٦	منتانس يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بهذا العالم	٢٩٣
١٥٦	پوليكارب أسقف أزمير يزور رومة	٣١٧
١٦٠	مولد كونتس سپتميوس ترتليانس	٣٠٦
١٦٠	لوشيان يصف المسيحية	٢٧٩
١٦٠	ڤلنتينس وأنظمة الفيض الربانى والأيونات المجسدة	٢٩٢
١٦٤ — ١٦٨م	جالينوس يمارس الجراحة	
١٦٥	پرچرينس يجمع محرقته بنفسه ويوقد النار فيها ويحترق فى لهيبها ..	٨١
١٦٥	لوشيان يلقى عصا التسيار ويقيم فى أثينة	٩١
١٦٥	مدوسة المجالدين فى برجوم برومة	١١١
١٦٦	إعدام جستين السامرى مع ستة من أتباعه	٣٠١
١٦٩	ماركس أورليوس يستدعى جالينوس ليعنى بكمودس الصغير	١١٢
١٧٢	أورليوس يسكن الأسرى الألمان فى داخل الإمبراطورية	٢٤٢
١٧٨	أورليوس يقاتل المركمانيين على ضفاف الدانواب	١٩٦
١٨٠	برونوبور يبدأ سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية	٢٠٤
١٨٠	ظهور الرموز المسيحية ذات الشأن	٢٨٦
١٨٠	تاريخ هتامة لاينيه كشفها مراتورى	٣١٥
١٨٧	ايرينيوس يحصى عشرين شيعة مختلفة من المسيحية	٣١٤
١٨٧	ايرنيو يكتب عن بطرس وعهده بمنصب الأسقفية للينس	٣١٦
١٩٠	البابا فكتور يكرر طلب انتسيتس ويصوغه فى صيغة الأمر ..	٣١٧
١٩٣	اجتماع مجلس الشيوخ واختيار برتناكس إمبراطورا بعد اغتيال كودس فى أول يوم من يناير	٣٢١

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٢٧٥	أنطونيوس الراهب المصرى يبدأ ربع قرن من حياة العزلة والتقشف	٣٩٠
٢٧٦	الجند ينادون بروبس امبراطوراً	٣٥٨
٢٨٢	اغتيال الإمبراطور بروبس بيد الجيش	٣٦٩
٢٨٢	تنصيب دقلديانوس إمبراطوراً	٣٥٩
٢٨٦	إشراك الإمبراطور دقلديانوس القائد مكسميان معه فى الحكم	٣٦٠
٢٩٥	شروع مكسميان فى بناء الحمام الحار	٣٤٩
٣٠٠	ربع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب مسيحيون	٢٨٩
٣٠٠	الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير مسيحيون	٢٨٩
٣٠١	دقلديانوس يصدر قانون الأثمان والأجور	٣٦٤ : ٣٦٥
٣٠٣	الحكام الأربعة يأمرون بهدم كل الكنائس المسيحية	٣٧٩
٣٠٥	الامبراطوران دقلديانوس ومكسيميان ينزلان عن سلطتهما	٣٦٧
٣٠٥	جالريوس وقنسطنطيوس أغسطين إمبراطوران بعد نزول دقلديانوس ومكسميان	٣٦٨
٣٠٥	تعيين سفيرس ومكسمينس دازا قيصرين	٣٨٢
٣٠٦ م — ٣٢٥ م	انتصار المسيحة	٣٧٠
٣٠٦	الحرس البريتورى فى روما ينادى بمكسنتيوس إمبراطوراً	٣٨٣
٣٠٦	بدء أعمال البناء فى رومة على يدى مكسنتيوس	٣٩٨
٣٠٧	ترتليان يوجه رسالة الدفاع	٣٠٧
٣٠٧	مقتل الإمبراطور مكسنتيوس	٣٨٣
٣٠٧	قسطنطين يتخذ لنفسه لقب (أغسطس)	٣٨٣
٣٠٧	لوسيوس فرينتانس يشرح المسيحية فى كتاب الأنظمة المقدسة	٣٩٩
٣٠٨	مكسمنيوس دازا يتخذ لنفسه لقب (أغسطس)	٤٨٣
٣١٠	قسطنطين يخترق غالة بجيوشه	٣٨٣
٣١٠	بمفيلس يقضى نحبه فى اضطهادات جلريوس	٤٠٠
٣١١	الإمبراطور جالريوس يصدر مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين	٣٨١
٣١٢	قيصر يزحف من الريبكون ويلتقى بقوى مكسنتيوس عند سكساربرا	٣٨٤
٣١٣	قسطنطين وليسنيوس يتقابلان فى ميلان	٣٨٥
٣١٣	ليسنيوس يتجه نحو الشرق ويكيل الضربات لمكسمينس	٣٨٥
٣١٣	قسطنطين يوسع نطاق الإعفاء من مناصب البلديات	٣٨٥
٣١٤	اشتداد النزاع بين قسطنطين وليسنيوس حاكمى الإمبرارطورية وامتشاقهما الحسام	٣٨٥
١١٤	دوناتس أسقف قرطاجنة يدعو الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد فى أرليس	٣٩١
٣١٤	لوسيوس فرسنيانس بشرح المسيحية فى كتابه الاضطهاد المميت	٣٩٩

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٣١٥	إقامة قوس يشرف على طريق النصر	٣٩٨
٣١٦	دوناتس أسقف قرطاجنة يؤيد قرار التشهير بالدوناتية	٣٩١
٣١٧	قسطنطين يمحو الصور الوثنية من النقود	٣٨٩
٣١٨	أريوس القس المصرى يتقدم إلى أسقفه بآراء غريبة عن طبيعة المسيح تدعو إلى مجمع نيقية	٣٩٢
٣٢٣	انفراد قسطنطين بالإمبراطورية بعد انتصاره	٣٨٦
٣٢٣	قسطنطين يجعل نقوش النقود محايدة لا هى مسيحية ولا هى وثنية	٣٨٩
٣٢٤	إعدام ليستنيوس بتهمة العودة إلى الدسائس	٣٨٦
٣٢٥	باخوميوس يجمع الرهبان فى دير عند طايين فى مصر	٣٩١
٣٢٥	نشأة الرهبنة الجماعية	٣٩١
٣٢٥	عقد مجمع الأساقفة فى نيقية (مجمع نيقية)	٣٩٤
٣٢٥	يوسبيوس ينشر تاريخا كنسيا عاما	٤٠٠
٣٢٦	بناء روما الجديدة وسط خرائب بيزنطية	٣٩٧
٣٢٦	قتل كرسپس بأمر والده قسطنطين	٤٠٢
٣٣٠	قسطنطين يتخذ القسطنطينية عاصمة له	٣٩٧
٣٣٢	قانون بقاء الزارع حتى يؤدى المتأخر عليه من الديون أو العشور	٣٦٧
٣٣٥	قسطنطين يوصى بتقسيم الإمبراطورية بين أولاده وأولاد أخته	٤٠٢
٣٣٧	الاحتفال بمرور ثلاثين عاماً من حكم قسطنطين	٤٠٢
٣٥٥	الهون أو الشيأونج – يو يصلون إلى نهرى الفلجا وجيحون	٤١٣
٣٥٧ – ٣٥٨	الإمبراطور يوليان يقضى الشتاء فى لوتيريا	٥٢
٣٧٦	السماح للقوط بعبور الدانوب واستيطان موئيزيا	٤١٣
٣٧٨	القوط يهزمون جيشاً رومانيا عند (أدرنه) ويهددون القسطنطينية	٤١٣
٣٨٤	إيفانيوس يحصى ثمانين شيعة مختلفة	٣١٤
٣٩٠	جيروم مؤرخ فى القرن الرابع الميلادى	٢٤٦
٣٩٤	ثيودوس يمنع إقامة المباريات الأولمبية	٧٥
٤٠٠	البابا أنستيسيوس يطعن فى آراء أرجن التجديفية	٣١٣
٤٠٠	ألريك يقود القوط الغربيين ويعبر بهم جبال الألب	٤١٣
٤١٠	القوط يستولون على روما وينهبونها	٤١٣
٤٢٩	جيسيرك يقود الوندال لفتح أسبانيا وأفريقية	٤١٣
٤٥١	أتلا يقود الهون ويهجم على غالة وإيطاليا ويجتاح لمبارديا رغم هزيمته عند شالون	٤١٣
٤٥٥	القوط يستولون على روما ثانية	٤١٣
٤٧٢	أرستيز القائد البانونى، يعين ابنه رميولوس أوغسطولس إمبراطوراً	٤١٣
٤٨٦	الجنود البرابرة المرتزقة يخلعون الأغسطس الصغير رميولوس	٤١٤

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٥٥٣	مجلس القسطنطينية يلعن أرجن ويصدر قراراً بحرمانه	٣١٣
٩٢٠	أخذ الشعر اليونانى شكله الحالى	١١٩
١٤٥٣	احتفاظ الإمبراطورية الشرقية بالعملة الذهبية وزناً وعياراً	٣٦٢
١٤٥٣	نهاية قيام الإمبراطورية الرومانية فى الشرق	٤١٤
١٥٥٩	أسيو يترجم قصة دفنيس وكلوئى إلى الفرنسية السلسلة	٣٥٤
١٥٧٨	الكشف عن السراديب والدياميس التى كان المسيحيون يدفنون فيها موتاهم	٢٨٦
١٧٠٩	قائد نمساوى يحفر فى موضع هركيولانيم	١٧
١٧٤٠	مراتورى يكشف عن هتامة لاتينية سميت باسمه	٣١٥
١٧٤٩	الكشف عن پمپى	١٧
١٧٩١	نشر كتاب خرائب الإمبراطورية	٢٠٢
١٧٩٦	هردر يشير إلى ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق	٢٠٣
١٨٨٧ ، ١٩٠٣	الكشف عن عشرين قطعة من كتاب الكلمات	٢٠٨
١٨٠٨	إلتقاء نابليون بڤيلاند العالم الألمانى	٢٠٢
١٨٢٨	هنريخ پولس يلخص حياة المسيح	٢٠٣
١٨٣٥ ، ١٨٣٦	كتاب داڤداستروس عن حياة المسيح	٢٠٣
١٨٦٣	كتاب ايرنست رينان عن حياة المسيح	٢٠٤
١٨٩٣	الكشف عن شوارع مدينة پرجموم	١٣١
١٩٠٦	آرثر درور يعرض نتائجه المحددة الواضحة	٢٠٤
١٩٣٦	احتفال رومة بمضى ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها	٤١٨

٢ — فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ح)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ى)

فهرس الأماكن

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

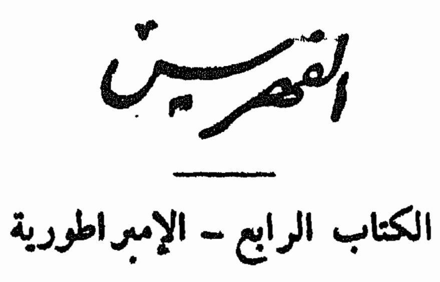
(ن)

(هـ)

(و)

(لا)

(ى)



الكتاب الرابع – الإمبراطورية

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس والعشرون : روح اليهودية

الكتاب الخامس – شباب المسيحية

الباب السادس والعشرون : عيسى أو يسوع (عليه السلام)

الباب السابع والعشرون : الرسل

فهرس الأشكال والصور